إيفان الكساندروفيتش غونتشاروف

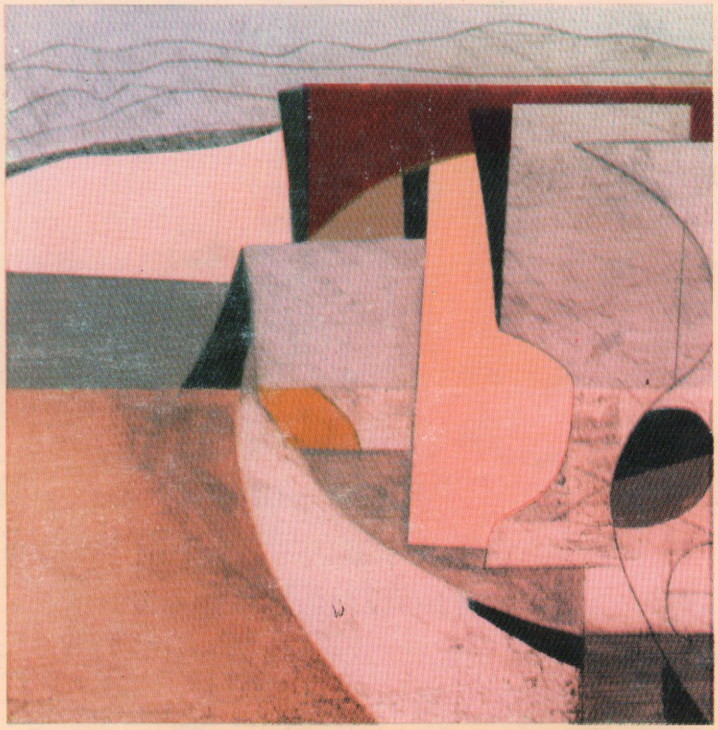

قِصَّة عادِيَّة

ترجمة

يوسف سلمان

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

روايات عالمية « ٦٩ »

الإشراف الفني زهير الحسو

twitter @baghdad_library

إيڤان الكساندروفيتش غونتشاروف

قِصَّةٌ عَادِيَّة

روايـة عَالـميَّـة

تـرجـمـة
يوسف سلمان

منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمـشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب :

И. А. Гончаров

Обыкновенная история

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

قصة عادية / إيفان ألكسندروفيتش غونتشاروف ؛
ترجمة : يوسف سلمان . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٩ . -
٤٤٨ص ؛ ٢٤سم . - (روايات عالمية ؛ ٦٩) .

١ - ٨٩١,٧٣ر غ و ن ق ٢- العنوان ٣- غونتشاروف
٤-سلمان ٥- السلسلة مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١٦٢/ ٢/ ١٩٩٩

روايات عالمية
« ٦٩ »

twitter @baghdad_library

عن الكاتب والرواية

إيڤان ألكساندرو ڤيتش غونتشاروف هو أحد ممثلي الواقعية النقدية العظام، فقد أثر انتاجه على تطوير الرواية الواقعية الروسية، ودخل عالم الأدب في أربعينات القرن الماضي كمتممٍ لتقاليد بوشكين وغوغول وغيرهما من مشاهير الكتاب الروس. ولعل القارىء الكريم قد كوّن فكرة عنه، من خلال روايته ««أبلوموف»، التي نقلناها الى العربية منذ سنوات خلت، وها نحن الآن نضع بين يديّ القارىء الكريم أيضاً، روايته الهامة الثانية «قصة عادية»، التي كتبها قبل «ابلوموف» من حيث التسلسل الزمني. . .

وُلِد غونتشاروف عام ١٨١٢ في مدينة سيمبيرسك من أسرة غنية، وقد أثر على تكوين شخصيته بصورة محلوظة مربّيه تريغوبوف، القريب من الديسمبريين، والذي كان يعتنق أفكاراً تقدمية. وفي الفترة الممتدة من عام ١٨٢٠ الى ١٨٣٠ تعلم غونتشاروف في المدرسة التجارية الموسكوفية، وفي عام ١٨٣١ انتسب الى كلية الآداب في جامعة موسكو وتخرج منها عام ١٨٣٤.

في عام ١٨٤٦ تعرف على الناقد الروسي العظيم بيلينسكي، الذي ساعده كثيراً في بلورة أفكاره وآرائه الاجتماعية والجمالية.

أوّل عمل هام صدر للكاتب، كان رائعته «قصة عادية»، التي نشرت عام ١٨٤٧ في مجلة «المعاصر»و وقد عكس الكاتب فيها بصدق الحياة الروسية في الثلاثينات والأربعينات، عندما بدأت العلاقات البورجوازية -الرأسمالية تفعل

فعلها في زعزعة أسس النظام الإقطاعي - العبودي. وقد أظهر المؤلف بوضوح تخلف العلاقات الإقطاعية وتأثيرها السلبي الشامل على مجمل الأوضاع في روسيا القيصرية.

الموضوع الرئيسي لرواية «قصة عادية» هو تصوير الحياة الروحية لألكسندر أدوييف وتطوره الداخلي على امتداد عقد ونصف من الزمن، أما المحرك الرئيسي للأحداث فيها، فهو الصراع الاجتماعي - النفسي الطابع، واصطدام شابٍ حالمٍ بالواقع الحياتي العملي. الشخصيتان الرئيستيان في الرواية هما ألكسندر أدوييف وعمه بطرس أدوييف، اللذان يمثلان نموذجين مختلفين تماماً في الظروف الاجتماعية -الاقتصادية الروسية في الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر.

تكونت فكرة رواية «قصة عادية» في وعي غونتشاروف تحت تأثير مقالات بيلينسكي الانتقادية، فقد دأب الناقد الروسي العظيم يكتب عن النفوس الرائعة، لكن المجردة من أي حسٍ واقعي. كان بيلينسكي يتحدث بسخرية عن هؤلاء الحالمين، الذين يعرفون السامي والرائع في الكتب فقط، وليس دائماً، أما في الحياة والواقع، فلايعرفون هذا ولاذاك، لذا فإنهم سرعان ماتخيب آمالهم ويصابون بالإحباط واليأس، وتفتر هممهم ويهرمون في ريعان الشباب، ويتوقفون في منتصف الطريق ويتصالحون مع الواقع الظالم الفاسد، أي أنهم يسقطون مباشرة من الغيوم الى الوحل. في إطار هذا التوصيف، رسم غونتشاروف ملامح شخصية ألكسندر أدوييف، التي يصور من خلالها سقوط الرومانسي - الحالم، الذي تتركز قواه الروحية كلها حول أفكار وتصورات مجردة بعيدة كل البعد عن الواقع العملي الحي. يرسم الكاتب الجوانب المختلفة لحياة بطله، التي تكوّنت في إطار العلاقات الإقطاعية - العبودية، ويكشف عن جوانب شخصية أدوييف الشاب من خلال تصرفاته وسلوكه وآراء الشخصيات الأخرى فيه ومن خلال التحليل المباشر لشخصيته من جانب الكاتب نفسه، الذي يحتل مكاناً بارزاً في بناء الرواية ذاتها.

twitter @baghdad_library

يلعب بطرس أدوييف ، عم ألكسندر، دوراً هاماً في تطوير شخصية ابن أخيه، إذ يجسّد الكاتب في بطرس السمات المميزة للشخصية، التي تكوّنت في ظل الظروف الجديدة، التي خلقتها العلاقات الرأسمالية، فهو إنسان عملي، واقعي، نشيط، لايعرف الخمول والكسل، وفي حواراته مع ابن أخيه، يكشف عن معرفة عميقة بالحياة، لكنه بالمقابل لايستطيع ان يعارض وجهات نظر ألكسندر بأهداف انسانية سامية. هدفه في الحياة هو السعي الأناني من أجل الحصول على الراحة والجاه والثروة، ومن خلال حواراته مع زوجته ليزابيتا ألكسندر وفنا يوضح غونتشاروف محدودية أهدافه وغاياته الحياتية، فمصلحته الشخصية، هي فوق كل اعتبار. أما السمات الإيجابية الإنسانية، فيجسّدها الكاتب في شخصية ليزابيتا ألكسندروفنا، التي تمثل نموذج المرأة المحبة الواعية ، التي تعيش بمشاعرها الغنية الصادقة، فهي تحب بعمق وتنسج علاقات صداقية وطيدة. لكنها تعيش مأساتها الداخلية الصعبة، فلم تر في زوجها الإنسان المحبّ، الذي يعتنق أفكاراً إنسانية سامية، فكل همه هو جمع المال والترقي في المناصب ، وهنا تكمن مأساتها.

لاقت رواية غونتشاروف «قصة عادية» شهرة واسعة جداً في الأوساط الأدبية والاجتماعية الروسية في أواخر أربعينات القرن الماضي، ففي ١٧ آذار من عام ١٨٤٧ كتب بيلينسكي الى بوتكين يقول، إن رواية «قصة عادية» قد «حظيت في بطرسبورغ بنجاح منقطع النظير، فهي مأثرة الرواية الواقعية الروسية». «أنا واثق، - كتب بيلينسكي، الى بوتكين، - بأنك ستُعجب بها كثيراً، أما تأثيرها على المجتمع فعظيم جداً! إنها تمثل ضربة قاصمة للرومانسية».

لقد أعيد طبع الرواية أثناء حياة غونتشاروف بضع مرات، وهذا خير دليل على مالاقته هذه الرواية من نجاح لامثيل له .

يوسف سلمان

twitter @baghdad_library

الجزء الأوّل

twitter @baghdad_library

ذات مرة صيفاً، في قرية غراتشاخ، في منزل سيّدة إقطاعية غير ثرية تُدعى آنا باڤلوڤنا أدوييڤا، استيقظ كلّ من في المنزل منذ الفجر، ابتداء بربة البيت وانتهاءً بكلب الحراسة باربوس.

لم يشذ عن هذا إلاّ ابن آنّا باڤلوڤنا الوحيد، ألكسندر فيدوريتش، الذي ظلّ نائماً بعمق، كما ينبغي أن ينام كل شاب في العشرين من عمره. كان الجميع مشغولين منهمكين، لكنهم كانوا يسيرون على رؤوس أصابعهم ويتحدثون فيما بينهم همساً، مخافة ان يوقظوا الشاب النبيل. وإذا ماعكّر أحدهم صفو هذا الصمت المطبق بكلمة مسموعة ولو قليلاً، أو بحركة مصحوبة بخشخشة مهما كانت بسيطة، فإن آنا باڤلوڤنا كانت تندفع فوراً كاللبوة المتهيجة، لتعاقب المذنب على مااقترف من إثم، فتوجه له كلمة نابية أو تضربه أحياناً، الأمر الذي كان يتوقف على شدة غضبها ومدى قدرتها على تمالك أعصابها.

كان العمل في المطبخ يجري على قدم وساق، كما لو أن وليمة تُعَدُّ لعشرة أشخاص، علماً أنّ الأسرة النبيلة كانت مؤلفة فقط من آنّا باڤلوڤنا وألكسندر فيدوريتش. وفي العنبر كانت العربة تُنَظفُ وتُزيَّت. كان الجميع يعملون بجدٍّ ونشاط، لدرجة أنّ العرق كان يتصبب على وجوههم. أما كلب الحراسة باربوس، فهو الوحيد الذي لم يكن يعمل شيئاً، لكنه كان يساهم أيضاً، على طريقته الخاصة، في هذه الحركة العامة. وعندما كان يمرّ به خادم أو حوذي، أو فتاة مسرعة، فإنه كان يهز ذيله ويشمشم المارّ باهتمام، وكأن عينيه تسألان: ألن تقولوا لي في نهاية المطاف، ماسبب هذه الجلبة اليوم عندنا؟

أمّا سبب الجلبة، فهو أنّ آنّا باڤلوڤنا قد سمحت لابنها بالسفر الى بطرسبورغ كي يجد لنفسه عملاً، وظيفياً مناسباً هناك، أو من أجل أن يتعرّف على أحوال الناس في العاصمة ويُظهر مواهبه أمامهم على حدّ قولها. كم كان هذا اليوم عصيباً بالنسبة لها! ذلكم هو السبب، الذي كان يجعلها حزينة ومنزعجة إلى هذا الحد. غالباً ماكانت تفتح فمها، وهي في ذروة انشغالها، لتصدر أمراً ما، فتتوقف عند منتصف الكلمة، لأن صوتها كان يخونها، فتدير وجهها جانباً لتمسح الدمعة إنْ تيسَّرَ لها ذلك، وإنْ لم تستطع إدراكها، فإنّ الدمعة كانت تسقط في الحقيبة، التي كانت ترتب فيها بياضات ساشينكا. كانت تحبس الدموع في مآقيها منذ بعض الوقت، لكن دموعها الحبيسة تلك كانت تصعد الى حلقها، فتضغط على صدرها لتصبح مُهيّأةً لأن تنبجس في جداول ثلاثة، لكنها كانت توفّرها، على مايبدو، للحظة الوداع المريرة، لذا فإنها كانت تُنفق منها، من حين لآخر، قطرة هنا وأخرى هناك.

لم تكن وحدها، التي تبكي لحظة الفراق هذه، فقد كان يفسيي خادم ساشينكا حزيناً هو الآخر أيضاً. كان عليه ان يلازم سيده في بطرسبورغ ويترك أعز ركن لديه في هذا المنزل، يقع مباشرة بعد مضجع أغرافينا، التي تحتل مكانة الوزير الأول في إدارة شؤون آنّا باڤلوڤنا المنزلية، والأهمّ من هذا بالنسبة ليفسيي، هو أنّ أغرافينا كانت تُعتبر في نظر سيّدته مساعدتها الأولى.

كان الحيّز، الذي يلي مضجع أغرافينا يتسع فقط لكرسيين وطاولة كان يُحضَّر عليها الشاي و القهوة وبعض المقبلات. أما يفسيي فقد كان يحتل مكانه بثبات خلف المدفأة، وفي قلب أغرافينا أيضاً. أما الكرسي الآخر فكانت تجلس عليه أغرافينا نفسها.

كانت قصة أغرافينا ويفسيي قد أصبحت قديمة في المنزل. تناولها الناس كما يتناولون عادة كل شيء في هذا العالم، فقد تحدّثوا عنها واغتابوا الاثنين، ثم صمتوا بعد ذلك كما يصمتون أيضاً بعد أنْ يتعبوا من الحديث عن أيّ شيء في هذا

twitter @baghdad_library

العالم. اعتادت سيدة البيت ان تراهما معاً، وهاهما ينعمان سويّة عشر سنوات بكاملها. كثُرٌ ياترُى هم الناس، الذين تنعّموا فترةً طويلة كهذه خلال سنيّ حياتهم؟ بيد أن لحظة الحرمان قد أزفت! وداعاً ياركني الدافىء الغالي، وداعاً ياأغرافينا إيڤانوڤنا، وداعاً أيتها اللحظات الرائعة، وداعاً أيتها القهوة والڤودكا ونبيذ الكرز - وداعاً!.

كان يفسيي يجلس صامتاً، وهو يتنهّد بقوّة، أما أغرافينا فكانت تقوم ببعض الأعمال المنزلية. كانت تعيش حزنها بطريقتها الخاصة. في هذا اليوم بالذات، كانت تتصرف بعصبية ملحوظة، إذ جرت العادة أن تقدّم لسيّدتها في البداية فنجاناً من الشاي الثقيل، لكنها امتنعت عن ذلك الآن، وقالت في سرها: «لن أفعل»، مما أغاظ آنّا باڤلوڤنا وأزعجها ودفعها لتأنيب أغرافينا، التي تحمّلت لوم سيدتها وتوبيخها بثبات ورباطة جأش. لم تحضّر القهوة كما ينبعي، إذ فارت على النار وشاطت القشدة وسقطت الفناجين من يديها. لم تضع الصينية على الطاولة بهدوء، بل أحدثت قرقعة مزعجة، ولم تفتح الخزانة وأبواب الغرف بتؤدة، بل كانت تصفقها. لكنها لم تبكِ، بل كانت غاضبة من الجميع، حانقة عليهم. كان تصرفها هذا، بالمناسبة، يعكس السمة الرئيسة المميزة لطبعها بوجه عام. لم تكن راضية في يوم من الأيام، فالرضى ليس من طبعها، بل كانت تشكو وتتذمر كثيراً. لكن طبعها في هذه اللحظة العصيبة قد تبدى على حقيقته، فكانت غاضبة ومتذمرة كثيراً. يبدو أنها كانت غاضبة من يفسيي.

- أغرافينا ايڤانوڤنا!... قال يفسيي بحزن وبلطف، الأمر الذي لم يكن يلائم تماماً قامته الطويلة الممتلئة.

- لماذا جلست هنا أيها الأحمق؟ - أجابت هي، وكأنه يجلس هنا للمرة الأولى.

- ابتعدْ يجب أن أُخرج المنشفة.

- لايعرف إلاّ الأنين! كم هو حشري لجوج! ياإلهي، يالها من أذية! كم يضايقني!

بعد ذلك رمت الملعقة بعصبية في الفنجان اللمّاع، فتعالى الرنين.

- أغرافينا! صَدَحَ فجأة صوت في الغرفة المجاورة، - جننت! ألا تعلمين، أنّ ساشينكا نائم؟ هل تشاجرت مع عشيقك في لحظة الوداع؟

- أنا لا أتحرك إكراماً لك، أيتها الجالسة كالأموات! - همست أغرافينا بصوت يشبه فحيح الأفعى، وهي تمسح الفنجان بيديها، وكأنها تريد أن تكسّره.

- وداعاً، وداعاً! - قال يفسيي وهو يطلق تنهيدة قويّة، - إنه اليوم الأخير ياأغرافينا ايفانوڤنا!.

- الحمد لله! لتأخذك الشياطين من هنا: سأكون مرتاحة أكثر. اذهب، فالمكان يضيق بك: غيابك يريحني.

ردّ على جوابها بلمسة من كتفها. تنهد من جديد، لكنه لم يتحرك من مكانه، وحسناً فعل. لم تكن أغرافينا تريده أن يذهب. كان يفسيي يعرف هذا جيداً، لذا، فإنه لم ينزعج.

- هل شيشغل مكاني أحدٌ ما؟ - قال يفسيي متنهداً.

- العفريت! - أجابت بتقطع.

- هذا ماأرجوه! أتمنى ألا يكون بروشكا، هو من سيحتل مكاني. هل ستمازحين أحداً ما؟

- وهل يُغيظك هذا الأمر، حتى ولو كان بروشكا؟ - علّقتْ بغضب.

نهض يفسيي- لن تلعبي مع بروشكا ولن تمازحيه، أقسم أنك لن تلعبي معه! - قال باضطراب، بل بلهجةٍ تنم عن تهديد.

- من سيمنعني؟ هل أنت الذي ستمنعني أيها الأحمق؟

twitter @baghdad_library

- أغرافينا إيفانوفنا! - بدأ يخاطبها بتوسّل وهو يضمّها- كان بودّي أن أقول، وهو يضمّها من خصرها، لو كان عندها إشاعة خصر، لكنها، للأسف، لم تكن تملك شيئاً يشي بذلك. ردّت على ضمته بلكمة في صدره من كوعها.

- أغرافينا إيفانوفنا، - ردّد من جديد، - هل سيحبّك بروشكا كما أحبّك؟ انظري كم هو شيطان شقي، إنه لايترك امرأة تسلم من شرّه. أمّا معي، فالأمر مختلف تماماً! آه! سأتحملك مهما فعلتِ! لو لم تصدر إرادة سيّدتي بسفري، لكنتُ. . . آه! . . .

أثناء ذلك، كان يصرخ ويلوّح بيده. لم تستطع أغرافينا تحمّل وطأة هذه اللحظة، فتَبَدّى حزنها بسيل من الدموع.

- ألن تكفَّ عنّي أيها اللعين؟ - قالت وهي تبكي - كفى أيها الأحمق! هل يُعقل أن أرتبط ببروشكا! ألا ترى أن العلاقة معه لاتجدي؟ كل مايستطيع أن يفعله هو العبث والتحامق. . .

- هل تَطَاوَلَ عليك؟ آه، ياله من نذل! ليتكِ أخبرتني! لو أخبرتني، لكنتُ قد. . .

وهل يجرؤ على ذلك؟ ألا يوجد هنا نسوة غيري؟ أدخلُ في علاقة مع بروشكا! ماذا تقول! الجلوس بقربه يثير قرفي - ياله من خنزير! إنه مشاكس، شرّير، لايحسن التعامل مع الآخرين.

- أغرافينا إيفانوفنا، تعلمين جيداً، أن الإنسان الماكر شخص قويّ يقدر على فعل كلّ شيء، لذا، فإذا كان لابدّ ان يحتّل مكاني شخص آخر، فمن الأفضل ان يكون غريشكا: إنه على الأقل، إنسان مسالم، محبّ للعمل، لايُضمر شراً لأحد. . .

- ماذا تقول! - صرختْ أغرافينا في وجهه - ماذا تختلق! تقترح عليّ هذا وذاك، هل تظنني. . . اغربْ عن وجهي! لست بحاجة لأحد، ولا أريد أن أقيم

علاقة مع أيٍّ كان! باستثناء علاقتي بك، لا أريد علاقة أخرى، وأصارحك القول بأني نادمة الآن على هذه العلاقة. . .

يالك من ذكي!

- كم أنتِ طيّبة رائعة! جازاكِ الله خيراً! كم أنا سعيد ومرتاح الآن! لقد أزيح عن كاهلي عبءٌ ثقيل! - هتف يفسيي.

- مسرور! - صرختْ من جديد بضراوة - عثَرْتَ على مايُسرُّك - افرحْ إذن!

ابيضتَّتْ شفتاها من شدة الغضب. صمتَ الإثنان.

- أغرافينا إيڤانوڤنا! - قال يفسيي بحياء وهو يتمهل قليلاً.

- ماذا تريد أيضاً؟

- نسيتُ أن أقول لك، أنني لم أبلّ ريقي بشيء بعد، ولم أذق الطعام منذ الصباح.

- ياله من أمر عظيم!

- من شدّة الحزن ياعزيزتي.

أخرجتْ من درج الخزانة السفلي كأساً من الڤودكا وقطعتين كبيرتين من الخبز وفخذ الخنزير المملّح. كانت قد أعدَّتْ هذا كله، منذ زمن بعيد، بعناية فائقة، خصيّصاً له. أعطتْه هذه الأشياء كما تُعطى لكلب. سقطت قطعة من الخبز وأخرى من اللحم على الأرض.

-كُلْ بهدوء! حذارِ أن تتمطّق بصوتٍ مرتفع، كي لاتزعج البيت كله.

أشاحتْ بوجهها، الذي كان يبدو عليه تعبير متكلّف من الغضب والكراهية، فيما بدأ يفسيي يتناول الطعام، وهو ينظر الى أغرافينا بعبوس ويحجب فمه بإحدى يديه.

twitter @baghdad_library

في هذه الأثناء، ظهر في البوّابة حوذيٌّ يقتاد ثلاثة أحصنة. على رقبة الحصان الأصيل، كان يتدلّى طاقمه. كان الجرس يتدلى مربوطاً بالسرج، وهو يُصدر صوتاً مبحوحاً متلعثماً كصوت سكرانٍ اقتيد الى مخفر شرطة. ربط الحوذيّ الأحصنة تحت السقيفة، ثم نزع قبّعته وأخرجَ منها منديلاً وجفّف به عرقه. ما إن رأتْه آنا باڤلوڤنا عبر النافذة، حتى اصفرّ لونها وامتقعتْ. انحطّتْ قواها فجأة وخارت عزيمتها، على الرغم من أنها كانت تنتظر مجيئه. بعد ذلك، تمالكتْ نفسها ونادت على أغرافينا.

– اذهبي بهدوء، على رؤوس أصابع قدميك وانظري إنْ كان شاشينكا نائماً أم لا؟ – قالت آنّا باڤلوڤنا – إنه نائم على الأرجح، ولن يتوفر لديّ الوقت الكافي كي أشبع نظري منه في يوم رحيله. كلا، لاتذهبي. إنك تسيرين بلا احتراس، كالبقرة! الأفضل أن أذهب بنفسي . . .

– أنت لستِ بقرة إذن! – غمغمت أغرافينا بصوتٍ خافت، وهي تعود الى غرفتها – أصبحتُ بَقرةً في ناظريك! هه! إنك لاتقدّرين قيمتي أبداً.

كان ألكسندر فيدوريتش يسير لملاقاة أمّه شخصياً. كان فتىً في ريعان الشباب، يتألقّ صحة وقوة. سلّم على والدته بمرح، لكنه ما إن شاهد الحقيبة والصرّات، حتى ارتبك وتوجّه بصمت صوب النافذة، وراح يرسم بإصبعه بعض الزخارف على الزجاج. بعد هنيهة، بدأ يتحدث الى أمه من جديد، وهو يراقب استعدادات السفر بشيء من الارتياح، لا بل بسرور.

– هل نمتَ جيّداً ياحبيبي؟ يتراءى لي أنك لم تأخذ حاجتك من النوم. هيّا أمسح لك عينيك ووجهك بماء الورد.

– كلا، لا أريد يا أمّاه.

– ماذا تريد أن تفطر؟ الشاي أم القهوة أولاً؟ أمرْتُ بأن تُحضّر لك لحمة طرية مشويّة، وقشدة – آمل أن أكون قد وُفّقْت في الاختيار.

- الأمر سيّان ياأماه.

- تابعت آنا باڤلوڤنا ترتيب الثياب والبياضات، ثم توقّفت بعد ذلك ونظرت الى ابنها بأسى

- ساشا!... - قالت بعد مضي قليل من الوقت.

- ماذا تريدين يا أماه؟

- تأخّرت عن الكلام قليلاً، وكأنها كانت تخشى أمراً ما.

- الى أين أنت مسافر ياحبيبي؟ ولماذا؟ - سألتْ أخيراً بصوتٍ خافت.

- ألا تعرفين ياأمّاه؟ الى بطرسبورغ، من أجل... من أجل... أن...

- اسمع ياساشا، - قالت باضطراب، وهي تضع يدها على كتفه، في محاولة أخيرة منها، كما يبدو، لثنيه عن السفر، مازال لديك متسع من الوقت، كي تفكر في الأمر مليّاً. لاتسافر ياحبيبي، ابق هنا عندي!

- أبقى! كيف يمكن هذا! بعد أن رتّبْتِ ثيابي وبياضاتي وقمصاني كلها، - قال شاسا وهو لايدري كيف يقنعها، إذ وجد نفسه عاجزاً عن ايجاد السبب، الذي يمكن أن يقدّمه لتبرير سفره.

- رتّبْتُ ثيابك وبياضاتك وقمصانك! انظرْ... انظرْ... لم أُرتّب شيئاً. أخرجت كل مافي الحقيبة بثلاث دفعات.

- ماذا فعلتِ ياأماه؟ تريدين أن أعدل عن السفر، بعد أن اتخذتُ قراري! ماذا سيقول... صار حزيناً.

- أنا لا أثنيك عن السفر من أجلي شخصياً، بل من أجلك أنت. لماذا أنت مسافر؟ من أجل البحث عن السعادة؟ هل أنت غير سعيد هنا؟ ألا ترى، أنّ والدتك لاتفكر بشيء منذ طلوع الشمس الى غروبها، إلا بتلبية رغباتك كلها؟ أنا أدرك جيداً، أنّ مداراة أمّك وحدها لاتمثل السعادة كلها لمن هم في مثل سنك، ولا

twitter @baghdad_library

أطالب بهذا . لكن ، انظر من حولك : كل العيون مشدودة إليك هنا . ألا تلاحظ ، أنّ سونيوشكا ، ابنة مارياڤا سيليڤنا متعلقة بك؟ لماذا احمرّ وجهك؟ كم تحبّك! إنها لم تعرف طعم النوم منذ ثلاثة أيام ، أي منذ أن علمت بموعد سفرك . ليمنحها الله الصحة والعافية .

- ماذا تقوقين يا أماه! إنها . . .

- تظنُّ أني لا أعرف شيئاً . . . آه! أعرفُ كل شيء . لقد وَشَّتْ مناديلك كلها بزخارف وعلامات جميلة ، كي تجعلك تتذكرها دائماً ، واحتفظتْ بواحد منها وقالت : «سأبقي منديل الجيب هذا معي طوال حياتي» . ماذا تريد أكثر من هذا؟ ابق هنا! كان يصغي صامتاً مطاطىء الرأس ، وهو يعبث بزر سترته .

- ما الشيء الذي ستجده في بطرسبورغ؟ - تابعت هي - أعتقد أن حياتك هناك ، ستكون كما هي هنا؟ كلا ياحبيبي! كم ستكابد وستعاني هناك! ستعاني من البرد والجوع والفاقة . الأشرار كُثُر في كل مكان ، ولن تعثر على الطيبين بسرعة . لن يكنَّ لك الناس في العاصمة الاحترام ، مثلما يكنّون لك في القرية هنا . ما إنْ تذق طعم الحياة في بطرسبورغ ، حتى تتأكد فوراً ، أن العيش في القرية أفضل بكثير ، وأنك سيد العالم هنا . أنت إنسان لبق ، جيد التربية ورائع . كل ما أرجوه في هذه الحياة ، بعد أنْ بلغتُ من العمر عتيّا ، هو أن استمتع بالنظر إليك وأنت بجانبي . ابق هنا وتزوّجْ ، وسيرزقك الله أولاداً أجد سعادتي في تربيتهم - ابقَ هنا وعشْ حياتك بهدوءٍ وسعادةٍ ووئام ، بعيداً عن المنغّصات ، دون أن تحسد أحداً على حياته . أما هناك ، فلن تكون حياتك نعيماً ، ولربما ستتذكر كلماتي هذه . . . شاشينكا ، طاوعني وابقَ هنا .

تنحنح وسعل ثمّ تنّهد ، ولم ينبس بكلمة .

- انظرْ! الى هناك - تابعتْ ، وهي تفتح الباب المفضي الى الشرفة ، - ألا تتأسف على ترك هذا المشهد الرائع؟

كان النسيم الطريّ المنعش العذب يتسلّل من الشرفة الى الداخل. ومن البيت الى الأفق البعيد، يمتّد أمام الناظر بستان من أشجار الزيزفون العتيقة وارفة الظلال، ومن الورد البري وبطم الشمال وأشجار الليلاك الكثيفة. وبين الأشجار، تزهو الأزهار الجميلة بألوانها المختلفة الزاهية، وتركض الطرقات في اتجاهات عديدة، وهنالك، في الأفق البعيد، تتموّج برفقٍ على الضفاف، مياه بحيرة رائعة ساحرة غَمرتَها أشعة الشمس الصباحية من إحدى الجهات بضيائها، فَبَدتْ برّاقة لماعة كمرآة، بينما بدت من الجهة الأخرى داكنةً كلون السماء، التي تنعكس فيها، وقد تغضنت قليلاً. وهناك على مدى النظر، تمتد حقول القمح المتموجة الجميلة، على شكل مدرجات، تُتاخم الغابة الداكنة.

كانت آنّا باڤلوڤنا تحمي عينيها من أشعة الشمس بإحدى يديها، بينما كانت تدلُّ ابنها بالتناوب، باليد الأخرى، على كل مشهد من تلك المشاهد.

- انظرْ، كم وهب الله حقولنا من الجمال! - قالت هي. سنجني من ذاك الحقل غلالاً وفيرة من الجودار، كما سنجني من الحقل الآخر غلالاً وفيرة أيضاً من القمح الطريّ الأبيض، لكن الحنطة السوداء لن تكون جيدة هذا العام، كما يبدو، مثلما كانت في العام الماضي. والغابة، الغابة، كم نَمَتْ وكبرتْ! تفكّرْ كم هي عظيمة حكمة الله! سنبيع من الأخشاب، من حصتك وحدها، بألف روبل على أقل تقدير. كلّ هذا ملكٌ لك يابني، فما أنا إلا مجرد ناظرة على أملاكك. انظرْ الى تلك البحيرة، وتأمل كم هي رائعة ساحرة! إنها منّة السماء الحقيقية! يعثر المرء فيها على مختلف أنواع السمك، حيث يباع منها الشبوط وفرخ ذئب البحر وأصناف السمك النهري المختلفة. القسم الأساسي من المبيعات يعود إليك وحدك، ها هي بقراتك وأحصنتك ترعى هناك. أنت سيّد كل شيء هنا، أما هناك في بطرسبورغ، فلربّما لن يعاملك الناس باحترام كما ينبغي، وها أنت تريد أن تهرب من هذه الخيرات كلها، دون أن تعرف أي مستقبل ينتظرك هناك، فلربما تسقط في حفرة لاقدّر الله!.

twitter @baghdad_library

ظلّ صامتاً.

- يبدو لي، أنك لاتصغي إليّ - قالت هي - على أي شيء تركز نظرك؟ أشار بيده بصمت وتأمل الى الأفق البعيد. نظرتْ آنا باڤلوڤنا، فتغيرت قسمات وجهها. هناك بين الحقول، كانت تتلوّى كالأفعى طريق هاربة تختفي خلف الغابة، طريق تؤدي الى الأرض الموعودة، الى بطرسبورغ. صمتت آنا باڤلوڤنا بضع لحظات كي تستجمع قواها.

- هكذا! إذن! قالت أخيراً بأسى - في حفظ الله يابنيّ! سافرْ الى حيث تشاء، مادمت راغباً الى هذا الحدّ في مغادرة هذا المكان، فلن أمنعك! لن تقول عندئذ، على الأقل، إنّ أمك تضيّق عليك وتنغّص حياتك وشبابك.

مسكينةٌ أيتها الأم! هذا هو جزاء حبك! هل كنت تنتظرين ذلك؟ حقيقة الأمر، هي أن الأمهات لاينتظرن جزاءً ولا شكوراً، الأم تحب، دون ان تبغي فائدة تجنيها، أو قصداً ترمي إليه. عظيمة، ماجدة، رائعة وجميلة أنت أيتها الأم، يامن يتردد اسمك على كل الشفاه. أعمالك الرائعة العظيمة تنتشر في أصقاع العالم كله" رأس الأم العجوز يسكر من الفرح برؤية ابنها، يامن تبكين وتصلّين بحرارة من أجل سعادة الأبناء. أما الابن، فنراه في أغلب الأحيان، لايفكر في تقاسم السعادة مع والدته. أنت فقير العقل والروح أيها الابن العاق، وَسَمَتْكَ الطبيعة بميسمها الصارم، فحكمت عليك بالبشاعة، لكنْ، عندما يعضّ المرض بنابه قلبك وجسدك، ولاتجد لنفسك مكاناً في نهاية المطاف، بين الناس الذين ينبذونك، فإنك تريد، رغم كلّ مافعلت، أن تجدلنفسك مكاناً في قلب الأم. ها هي أمك، على الرغم من عقوقك، تضمّك إلى صدرها بقوة أكثر، وتصلّي بحرارة من أجل سعادتك.

كيف يمكن اعتبار ألكسندر قاسياً، جاحداً، لمجرد أنه قرّر السفر؟ فقد بلغ العشرين من العمر. الحياة الواعدة تبتسم له. لقد دلّلته أمه، كما يُدلَّل الابن الوحيد عادة، أما مربيته، فكانت تغني له دائماً وهو في السرير أغنية تقول كلماتها،

إنه سيرفل بالنعيم، ولن يعرف المصائب أبداً. كان الأساتذة يؤكدون له، أن مستقبلاً باهراً ينتظره، وأثناء عودته الى البيت، كانت بنت الجيران تبتسم له، فيما كان القط الهرم قاسكا يلاطفه أكثر من أي شخص آخر في البيت.

المصائب والدموع لم يعرف عنها إلا سماعاً، فقد سمع عنها، مثلما يسمع الناس بحلول وباءٍ كامن في مكان بعيد، في أوساط عامة الشعب، وباءٍ لم ينكشف بعد. بسبب هذا كله، كان المستقبل يبدو في عينه مشرقاً واعداً. كان هنالك شيء ما يجذبه ويناديه، لكنه لم يكن يعرف ماهية هذا الشيء تحديدا. كانت تتراقص أمامه أطياف براقة مغرية، لكنه لم يستطع تبين طبيعتها. كان يسمع أصواتاً مبهمة مختلطة، فيسمع نداء المجد تارةً وهمس الحب تارة أخرى، مما كان يثير في أعماقه رعشة جميلة حلوة.

سرعان ماصار جو المنزل ثقيلاً ضيقاً عليه. لم تعد روعة الطبيعة ومداعبات الأم، ولا احترام المربية وتدليل الخدم، ولا الفراش الوثير الناعم والمأكولات اللذيذة الطيبة، ولا هرير قاسكا، تلقى لديه قبولاً، فقد صار يستبدل هذا كله بمباهج ومفاتن مبهمة مليئة بالنشوة والسرور. حتى حبه الأول، حبه الوردي الرقيق، حبّه لصوفيا، لم يستطع ان يستولي عليه ويثنيه عن السفر، وما حاجته لحبٍّ كهذا؟ صار يحلم بحبٍّ آسرٍ جارف، لايعرف الحدود والحواجز، بحبٍّ يدفعه لاجتراح المعجزات والمآثر البطولية الخارقة. كان يحبّ صوفيا حباً صغيراً مؤقّتاً، لكنه كان واثقاً من أنه سيحب حباً كبيراً جارفاً. كان يحلم أيضاً بخدماتٍ يؤدّيها لوطنه، وكان يدرس بجدٍ واجتهاد. فقد ورد في الشهادة، التي حصل عليها، انه يعرف دزينة من العلوم، و نصف دزينة من اللغات القديمة والحديثة. أكثر ماكان يحلم به، هو أن يصبح كاتباً شهيراً مرموقاً. كانت قصائده تدهش زملاءه. طرقات عديدة كانت تنبسط أمامه، وكل واحدة منها كانت تبدو في نظره أفضل من الأخرى. لم يكن يعرف أيّ طريق سيسلك، فالطريق المستقيمة كانت محجوبة عن عينيه، ولربما كان سيعدل عن السفر، لو أنه شاهدها.

twitter @baghdad_library

كيف كان يستطيع البقاء؟ أمه كانت تريد ذلك، وهذا أمر طبيعي جداً، إذ بقي في قلبها شعور واحد دون سواه، هو حبها لابنها، لذا فقد كانت تتشبّث به بعناد، باعتباره يمثل حبل النجاة الأخير بالنسبة لها. ماذا كانت ستفعل من دونه؟ لولاه، لَفَضَلَت الموت، فقلب الأنثى لايحيا دون حبّ، وهذا أمر مثبت منذ قديم الزمن، كان ألكسندر مدللا، لكن الحياة المنزلية لم تفسده. مَنَحَتْه الطبيعة سمات إيجابية جعلت حبه لأمه واحترامه العميق لها وللوسط المحيط به، يرسّخان في طبعه الجوانب الطيبة الخيرة فقط، فلقد طوّرت فيه، على سبيل المثال، في وقت مبكر، العواطف الصادقة وغرستْ في أعماقه الثقة المفرطة في كل شيء. لربما يكون هذا الأمر، هو الذي أثار فيه رقة الإحساس وعزّة النفس، بيد أن رقة الإحساس بحد ذاتها، ليست إلا مجرد إطار فقط، يتوقف على المضمون، الذي ندرجه فيه، الجوهو الحقيقي للشخصية الإنسانية.

أكبر مصيبة بالنسبة له، هي أنّ أمه لم تستطع، رغم حنانها ورقتها، أن تمنحه تصورّاً حقيقياً عن الحياة، كما لم تستطع ان تُعدّه أيضاً لمواجهة ماكان ينتظره من عقبات ومصاعب. كان تحقيق هذا يتطلب يداً ماهرة وذهناً ثاقباً وخبرة غنية متراكمة، لايحدّها أفق القرية الضيق. بيد أن انجاز هذا كله، كان يلزمه محبة أقل، أي كان من الأفضل له ألاّ تفكرّ أمه فيه، في كل لحظة، وتتابعه في كلّ صغيرة وكبيرة وتخشى عليه من كل مايعترضه من عقبات، مهما كانت بسيطة. كان من الأفضل بالنسبة له أن تكفّ أمه عن البكاء خوفاً عليه، وتمتنع عن التصرّف عوضاً عنه. كان ينبغي أن تدعه يحس بدنو العاصفة ليستعد لمواجهتها، وتدفعه على طريق الاعتماد على الذات لتقرير مستقبله بنفسه - باختصار، كان ينبغي عليها أن تدعه يحس بأنه رجل، لكنْ، أنّى كان لأنا باڤلوڤنا أن تدرك هذا كله وتعمل على تحقيقه؟ فقد لاحظ القارىء أية أمرأة هي. أليس من المفيد أن نتابع السرد إذن؟.

نسيتْ أنانية ابنها. أدركها ألكسندر فيدوريتش، وهي ترتب من جديد ثيابه وبياضاته. كانت تبدو وكأنها قد نسيت مصيبتها تماماً جراءّ انهماكها في التحضير للسفر.

- ساشينكا، انتبه جيداً وتذكّر أين أضع كلّ غرض من أغراضك، - قالت هي: - في الأسفل، توجد دزينة من الشراشف. انظر هل ترى العلامة جيداً؟

- أجل ياأمّاه.

- على كلّ غرض من أغراضك توجد علامة أ. أ. كلّ هذا من صنع الغالية سونيو شكا! لولا مساعدتها، لما استطاعت حمقاواتنا أن يتدبّرن شيئاً. والآن، ماذا يوجد فوق الشراشف؟ أغطية الوسائد. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة - يوجد منها دزّينة كاملة هنا. والآن جاء دور قمصانك. يوجد منها ثلاث دزينات هنا، انظرْ الى هذا القماش كم هو رائع الجمال! انه هولندي الصنع: ذهبتُ بنفسي الى المصنع، الى ڤاسيلي ڤاسيليتش. اختار لي أفضل ثلاث قطعات. تأكد ياحبيبي من العلامة الموجودة على قمصانك، عندما تذهب لاستلامها من عند الغسّالة، فهي جديدة رائعة. لن ترى مثلها إلا القليل القليل هناك. انتبه جيداً، كي لاتخدعك العاملات ويبدلّنها، كن حذراً، فقد تُصادفُ هناك بعض الدنيئات، اللواتي لايخشين الله. هاهي جواربك؛ وضعتُ لك منها اثنين وعشرين زوجاً... أتعرف ماذا ابتكرت؟ سأضع نقودك في أحد هذه الجوارب، فلن تحتاجها قبل وصولك الى بطرسبورغ، وهكذا تكون قد حميتها من الضياع لاقدّر الله! والرسائل المكتوبة لعمك، سأضعها في نفس المخبأ أيضاً: آه، كم سيُسرّ عند استلامها! منذ سبعة عشر عاماً لم نتبادل كلمة واحدة، سيكون وقعها عليه عظيماً! هاهي مناديلك، بقي منها أيضاً عند سونيوشكا نصف دزّينة: لاتضيّعها ياروحي، فقد خيطتْ من قماش رائع اشتريته من مخزن ميخييف، هكذا أكون قد انتهيت من ترتيب البياضات. والآن دور البدلات... أين يفسيي؟ لماذا لايراقب ترتيب الأغراض؟ يفسيي!.

دخل يفسيي الى الغرفة بتكاسل.

- ماذا تريدين ياسيّدتي؟ - سأل بتكاسل أكثر.

twitter @baghdad_library

- مـاذا أريد؟ بدأت أدوييـڤـا الحـديث بغـضب - لماذا لاتراقب كـيف أرتّب الأغراض؟ في الطريق، قد تحتاج لإخراج غرض ما، فتقلب الأشياء كلها رأساً على عقب! ألا تستطيع الابتعاد عن عشيقتك ولو للحظة - أراك ملتصقاً بها وكأنها كنز ثمين. اليوم طويل، وستشبع من رؤيتها. هل ستخدم هناك سيدك بهذه الطريقة؟ انظرْ الى هنا! انتبه جيداً: هذه بدلة سهرة - أرأيت أين أضعها؟ وأنت ياساشينكا، حافظ على بدلتك هذه جيداً، ولا تلبسها يومياً. إنها ثمينة جداً، كلّفني القماش فقط ستة عشر روبلاً. البسها فقط عندما تذهب لزيارة عليّة الناس، ولاتجلس كيفما اتفق، فعمتك على سبيل المثال، لاتجلس في مكان مريح مناسب، بل تهوى الجلوس عادة على كرسي عليه قبعة أو غرض ما آخر؛ منذ مدة غير بعيدة، جلستْ على صحن مليء بالمربى - ياله من عار! وعندما تذهب لزيارة أناس أكثر بساطة، البسْ هذه البدلة. هاهي صدرياتك - عددها أربع، والآن، أضع بنطالين هنا. ستكفيك بدلاتك مدّة ثلاث سنوات على الأقل، آه، لقد تعبت؟ منذ الفجر وأنا أعمل: هل هذه مسألة سهلة! اذهب يايفسيي. ساشينكا، أريد ان أتحدث إليك على انفراد، فلن يكون لديّ متسع من الوقت للتحدث إليك بعد مجيء المودّعين، جلست على الأريكة وأجلسته بالقرب منها.

- ساشا، - بدأت الحديث، ثم صمتتْ قليلاً - أنت ذاهب الآن الى جهة غريبة.

-سامحك الله ياأمّاه، وهل بطرسبورغ جهة «غريبة»!.

- مهلاً، مهلاً - اسمع ما أريد ان أقوله لك! الله وحده يعلم ما الذي سيواجهك هناك، فقد ترى هناك الصالح والطالح. كلني أمل، أنّ أبانا الذي في السموات سيمنحك الصحة والعافية، وأنت يابني، إيّاك ان تنساه وتذكّر دائماً أن لانجاة دون الإيمان به. ستحصل على مراتب عالية هناك، فلسنا أسوأ من الآخرين ولا أقل منزلة: فقد كان أبوك نبيلاً وضابطاً - لكن، حذار أن تصرفك المناصب الرفيعة عن ذكر الله. تعبد الله في السرّاء والضّراء ولا تتبع المثل القائل: «لايرسم

الفلاح علامة الصليب، إلا عندما يقصف الرعد». يوجد بعض الناس، الذين لايتذكرون الكنيسة في أوقات سعادتهم، لكنْ، ما إنْ تحل بهم المحن، حتى يهرعوا الى الكنيسة، فيشعلون الشموع تقرّباً من الله لمساعدتهم ويوزّعون الصدقات على المتسولين: لكن هذا إثم كبير. مادمنا في صدد الحديث عن المتسولين، فلابد من كلمة أقولها لك. لاتنفق نقودك عليهم دون حساب، ولاتعطهم من المال كثيراً، فلن تدهشهم بعطاءاتك. سينفقون على الخمر كل ماتعطيه لهم وسيسخرون منك. روحك ليّنة رقيقة كما أعلم، وستنفق عليهم قطعاً نقدية من فئة العشر كوبيكات. كلا، لاتفعل هذا، إنه غير ضروري. الله سيرزقهم! تردّدْ الى بيوت الله! اذهبْ الى صلوات أيام الآحاد!.

تنهّدتْ.

كان ألكسندر صامتاً. تذكر انه لم يكن يتردّد الى الكنيسة كثيراً، عندما كان يدرس في الجامعة في مركز المحافظة، حتى أن تردّده إليها أيام الآحاد في القرية، كان من باب مداراة أمه، لا أكثر. كان يصعب عليه الكذب، لذا فقد آثر الصمت. أدركت أمّه مغزى صمته، فتنهدت من جديد.

- لن أجبرك على هذا -تابعت هي، - فأنتَ ماتزال فتىً يافعا: أنى لك أن تتردد على الكبسة بمواظبة وانتظام مثلما نفعل نحن العجائز؟ ستعيقك الخدمة الوظيفية عن فعل هذا، كما أنّ زياراتك للناس المرموقين وسهراتك عندهم حتى ساعة متأخرة من الليل، ستمنعك أيضاً من الاستيقاظ باكراً ومن الذهاب الى بيت الله. سيرحم الله شبابك ويغفر لك. لاتحزنْ: فأمك ستصلّي من أجلك دائماً وأبداً! لن تستيقظ متأخرة. فمادام فيّ عرق ينبض وقطرة دم تسيل، ودموع لم تجفّ في المآقي، فلن أتأخر لحظة واحدة عن مواعيد الصلوات، وسأزحف زحفاً حتى عتبة الكنيسة، إنْ كنتُ لا أستطيع بلوغها سيراً على الأقدام، من أجل ان أصلي، كي يغفر الله ذنوبك وخطاياك، فالله غفور رحيم يستجيب لدعاء الأمهات. إني على استعداد لأن أبذل دائماً آخر قطرة من دمي، وأذرف آخر دمعة

twitter @baghdad_library

من أجلك أيها الحبيب الغالي . سأتضرع الى الله راجية أن يمنحك الصحة والمناصب الرفيعة والعناية السماوية والأرضية . هل يُعقل أن أبانا الرحيم الكريم لايستجيب لدعاء عجوز مسكينة؟ أنا لا أبغي لنفسي شيئاً . ليحرمني الله كل شيء : الصحة والحياة، وليبلني بالعمى، إذا كان هذا يمنحك المسرة والسعادة والهناء .

لم تستطع ان تكمل كلامها ، فقد كانت الدموع تسيل من عينيها بغزارة .

انتفض ألكسندر من مكانه .

- أماه . . . - قال هو .

- اجلسْ، اجلسْ! أجابت ، وهي تمسح دموعها بسرعة . -يوجد لدي كلام كثير ينبغي أن أقوله لك . . . ماذا كنت أريد ان أقول؟ لقد نسيت . . . كم صارتْ ذاكرتي ضعيفة الآن! آه، لقد تذكرت . حذار أن تترك الصوم يابني ، فالصوم أمر عظيم! الله يغفر الخطايا والذنوب للذين يصدمون أيام الأربعاء والجمعة ، ويحمي كل من يراعي الصوم الكبير . ميخائيسل ميخايليتش مثلا ، يعتبر إنساناً ذكياً ، لكن مانفعه؟ انه يأكل اللحم في كل الأوقات . شعر الرأس يقف من سوء فعلته! تراه يساعد الفقراء لكن صدقاته غير مقبولة عند الله . أعطى ذات مرة صدقة لمتسولٍ عجوز : أخذها المتسول ثم استدار وبصق . ينحني الجميع له عند لقائه ، لكنهم يرسمون علامة الصليب عندما يذكره أحدٌ في غيابه ، وكأن شيطاناً يُذكر .

كان ألكسندر يستمع الى أمه بنفاذ صبر ، ويتطلع بين الحين والآخر عبر النافذة ، فيلقي نظرة على الطريق البعيدة .

صمت هنيهة .

- حافظ على صحتك ، -تابعت هي - اكتب لي إذا مرضت - لاقدّر الله! اكتب فوراً . . . وسآتيك على جناح السرعة . وهل يوجد من يسهر على راحتك غيري . لاتمش ليلاً في الشوارع ، وابتعد عن مخالطة الأشرار . حافظ على نقودك؛ وفَرْ قرشك الأبيض لليوم الأسود! لاتنفق نقودك إلا عند الضرورة ، فالنقود تجلب

الخير وتسبب الأذى على حد سواء. لاتعشْ حياة صاخبة ولا تتبع نزواتك وأهواءك. ستتلقى مني ّبانتظام ألفين وخمسمائة روبل سنوياً. ليس مبلغاً بسيطاً! لا تبذخ، لكن لاتحرم نفسك ممّا هو ضروري: تلذّذ بما تشتهي من الطعام، فهذا أمر مشروع. إياك أن تعاقر الخمر - فالكحول عدو الإنسان! أوصيك أيضاً (هنا خفضت صوتها) بأن تتجنّب النساء! فأنا أعرفهنّ! يوجد بينهنّ وقحات يرتمين عليك بمجرد ان يصادفن أمثالك...

نظرت الى ابنها بحب وحنان.

- كفى ياأمّاه؛ ألم يحن وقت تناول الإفطار؟ - قال بنغمةٍ تنّم عن الأسى.

- حالاً، حالاً... بقي أمر واحد ينبغي ان أقوله لك...

- لاتتطلّع الى النساء المتزوجات، أسرعت تكمل وصاياها، - إنه إثم عظيم! «لاتشته زوجة قريبك أو جارك»، -هكذا يقول الكتاب المقدس. وإذا ماحاولتْ إحداهن ان تغُريك بخطوبتها وبالزواج منها، فعليك ألا تتسرّع في اتخاذ القرار؛ كن حذراً في ظرف كهذا وفكّر جيّداً! كثيرات هنّ اللواتي سيحاولن التعلق بك بمجرد ان يلتقينك ويتعرّفن عليك. قد يحاول أحد رؤسائك، أو أحد أصحاب المقامات الرفيعة أن يزوّجك ابنته - اكتب لي عندئذ فوراً، وسأجيبك حالاً وأدقق في الأمر وأتفحص وضع الفتاة جيّداً، فقد تكون عانساً أو رديئة يُراد التخلص منها. في حالاتٍ كهذه، يكون الإلحاح على الزواج من جانب أهل الفتاة مبالغاً فيه. أمّا إذا وقعت في حبّ فتاةٍ رائعة - فعندها (خفضت هنا صوتها أكثر) يمكن أن تتخلى عن سونيوشكا. (كانت العجوز مستعدة، انطلاقاً من حبها لابنها، لأن تتخلى عن مُثلها). كم كانت ماريا كاربوفْنا تحلم بأن تزوّجك ابنتها! لكن ابنتها ليست كفؤة لك. إنها فتاة ريفية ساذجة! أعرف، أنّ مثيلاتها من الفتيات لايستطعن إغراءك.

- كلا ياأمّاه، لن أنسى صوفيا مادمت حيّاً - قال ألكسندر.

twitter @baghdad_library

- اطمئن، اطمئن ياعزيزي! مجرد ملاحظة وددتُ أن أقولها. مايهمني الآن بشكل رئيسي، هو أن تنجح في عملك الوظيفي وتعود إليّ سالماً، عندئذ سنرى ما سيكتبه الله لك من قسمة ونصيب، فلن تنتهي العرائس! مادمت لن تنساها، فيمكننا أن. . .

كانت تودّ أنْ تقول شيئاً ما، لكنّها عَدَلَتْ، ثم انحنت بعد ذلك فوق أذنه وسألته بصوتٍ خافت:

- هل ستتذكر أمّك؟

- ماذا تقولين ياأمّاه! - قال مقاطعاً، - أصدري أوامرك بوضع ماجُهز من إفطار: ماذا يوجد هناك، بيض مقلي؟ أنساكِ! كيف يمكن أن تظني هكذا؟ سيعاقبني الله. . .

- لاتقل، لاتقلْ هذا ياساشا، - بدأتْ كلامها بسرعة - لا أريدك ان تتوقع الأذى لنفسك. كلا، كلا! إذا حدث ذنب كهذا، لاقدر الله، فأريد ان أتعذّب وحدي. أنت ماتزال فتىً يافعاً لم تبدأ حياتك بعد، سيصبح لديك أصدقاء وتتزوّج - وستعوضك زوجتك عن أمك وعن كل شيء. . . كلا، كلا، لاتقل هذا! ليباركك الله كما أباركك.

طبعتْ على جبينه قبلة مليئة بالحب والحنان، وهكذا تكون قد أنهت وصاياها ونصائحها.

-لماذا لم يأتِ أحدٌ بعد؟- قالت هي - لماذا لم تأتِ ماريا كاربوڤنا؟ لماذا لم يأتِ أنطون ايفانيتشَ والكاهن؟ لابد أن تكون الصلاة قد انتهتْ. أرى شخصاً قادماً إلينا. إنه انطون ايڤانيتش على ما أعتقد. . . إنه هو فعلا: ابن حلال. من لايعرف أنطون ايڤانيتش؟ إنه نموذج اليهودي الأزلي. مثل هذا النموذج كان موجوداً دائماً في كل مكان، ومنذ أقدم العصور، فهو لم ينقرض أبداً. كان موجوداً في الولائم اليونانية والرومانية وكان يأكل طبعاً العجل السمين، الذي كان ينحره الأب السعيد بمناسبة عودة ابنه الضال.

يبـد أن المرء في روسـيـا عندنا، يصـادف أشكالاً متنوعـة لهـذا النمـوذج. فالنموذج، الذي يجري عنه الحديث الآن، يمكن توصيفه كالتالي: إنه يملك عشرين نفساً حصل عليها عن طريق تراكم الديون، التي عجزتْ عن سدادها. يعيش في بيت غريب، شبيه بمخزن المحاصيل الزراعية، حيث المدخل من الخلف؛ إنه عبارة عن سياج من الأغصان المجدولة، لكنه مابرح يؤكد منذ عشرين عاماً، أنه سيشرع ببناء منزل جديد في الربيع المقبل. لايُحضّر الطعـام في بيتـه أبداً. مامن أحدٍ من معارفـه تناول عنده يومـاً طعـام غداء أو عشـاء، أو رشف فنجاناً من الشـاي، لكنْ بالمقابل، لايوجـد إنسـان قط في الجـوار، إلا وتناول عنده انطون ايڤانيـتش طعـام الغداء والعشاء خمسين مرة في العام.

في السابق، كان أنطون ايڤانيتش يرتدي سروالاً فضفاضاً يلبس فوقه قميصاً قصيراً مزموماً خصره، أما الآن، فيرتدي في الأيام العادية بنطلونا وصدرية، وفي أيام الأعياد بدلة لايعرف تفصيلتها إلا الله. إنه بدين، فهو لم يذق طعم المصائب يوماً ولم يعرف الهموم والانفعالات، رغم ادّعائه بأنه أمضى حياته مشغولاً بمصائب وهموم الآخرين، لكنْ أي ادعاء هذا، الذي يتظاهر به، فلم يعرف للهموم طعماً ولم يهزه انفعال يوماً.

حقيقة الأمر، هي أن ما من أحد يحسّ بالحاجة لأنطون ايڤانيتش، لكن، مامن مناسبة تمرّ إلاّ ويكون موجوداً فيها: تراه في حفلات الأعراس وفي المآتم، في حفلات الغداء والسهرات وفي الاجتماعات العائلية كلها، فهو يحشر نفسه في كل المناسبات. قد يتبادر الى الذهن، أن وجوده في مناسبات كهذه ضروري جداً، فلربما ينفّذ مهمة هنا وأخرى هناك، أو يسدي نصيحة أو يقدّم رأياً صائباً أو يؤدي عملاً مفيداً - لكن شيئاً من هذا كله لايحدث أبداً! فلا أحد يكلفه بشيء من هذا القبيل، لأنه لايعرف شيئاً ولايقدر على فعل شيء: فهو لايستطيع أن يكون حلاّلاً لمشكلة، ولا واسطة خير ولاناصحاً، - انه باختصار لايصلح لشيء.

twitter @baghdad_library

لكنه بالمقابل، يُكلَّف بايصال تحيّة من فلان الى آخر أثناء مروره مصادفة بأحد الأماكن، وينفّذ المهمة حتماً، لكنه بالمناسبة سيتناول طعام الإفطار بالتأكيد لدى من أوصل إليه التحية- فقد يبلغه أن ورقة ما قد تم استلامها، دون أن يعرف مضمونها طبعاً، - وقد يوصل مرطباناً من العسل، أو حفنة من البذور لأحد ما، مع توصية من المرسل بإيصال مايحمله سالماً، وقد يُذكّر شخصاً ما بموعد أحد أعياد القديسين. يُستخدم أنطون ايڤانيتش أيضاً لتنفيذ بعض الأعمال، التي لاتليق بشخص يحترم نفسه، كأنْ يقال على سبيل المثال: «لانستطيع إرسال الطفل بتروشكا، لأنه قد ينسى ماكُلف به، - الأفضل ان نرسل أنطون ايڤانيتش!»، أو كأنْ يقال أيضاً: «من غير اللائق ان نرسل فلاناً أو فلانة لتنفيذ هكذا مهمة، الأفضل ان نرسل انطون إيڤانيتش».

كم سيُفاجأ الجميع في حال غياب أنطون إيڤانيتش عن وليمة غداء أو عشاء!

- أين انطون ايڤانيتش؟ - لابد أن يسأل الجميع باندهاش. - ماذا حدث له؟ ماسبب غيابه؟

لن يكون الغداء عندئذ حقيقياً. سيبادر الجميع لارسال مندوب عنهم لاستقصاء حقيقة الأمر ولمعرفة ماحدث له: هل هو مريض أم مسافر؟ وإذا تبين أنه مريض، فإنهم يتعاطفون معه أكثر مما يتعاطفون مع قريب.

اقترب انطون ايفانيتش من يد آنا باڤلوڤنا.

- مرحباً ياأماه، لي الشرف ان أهنئك بجديدك.

-بأي جديد تهنئني يا انطون ايڤانيتش؟ - سألتْ آنّا باڤلوڤنا وهي تتفحص نفسها من قدميها وحتى رأسها.

- بالعبّارة المنصوبة عند البوابة! واضح انها جديدة، أليس كذلك؟ أصغيت، فلم أسمع تراقص الألواح الخشبية تحت العجلات. نظرت، فشاهدتُ عبّارة جديدة!

أثناء لقائه بمعارفه، تراه يهنئهم دائماً : إما بحلول الصوم أو بقدوم الربيع أو الخريف، وإذا حلّ الصقيع بعد ذوبان الثلج، فإنه يهنّىء بقدوم الصقيع، وإذا حلّ الدفء بعد الصقيع، فإنه يهنّىء بقدوم الدفء.

زيارته هذه، لم تترافق بشيء من هذا كله، لذا فقد وجد لزاماً عليه ان يختلق شيئاً ما جديداً.

- أحمل إليك تحيات ألكسندرا ڤاسيليينا، ماترينا ميخايلوڤنا وبطرس سيرغييتش، - قال هو.

- شكراً جزيلاً ياأنطون ايڤانيتش! هل أبناؤهم وبناتهم بخير؟

- الحمد لله. ، لقد حلّ قضاء الله: ألم تسمعي ياسيدتي بما حلّ بسيميون أرخيبتش؟

-ماذا جرى له؟ سألت آنا باڤلوڤنا بذعر.

- لقد مات!

- ماذا تقول !متى؟

-البارحة صباحاً. أُخبرت مساء البارحة بخطورة وضعه، فهرعت على الفور ولم أعرف طعم النوم طوال الليل. أمضيت الليل كله بالبكاء، كما وجدتُ لزاماً عليّ ان أواسي أهله وأخفف من مصابهم، فقد أمضوا الليل كله بالعويل والنحيب، وأنا وحيد بينهم، فوجدتُ نفسي مضطراً لبذل كل ما أستطيع للتخفيف من آلامهم.

-ياإلهي، ياإلهي، - قالت آنا باڤلوفنا وهي تهز رأسها، - تلك هي مشيئة الله! تلك هي الحياة! كيف حدث هذا؟ ألم يحمّلك تحياته لي الأسبوع الماضي!.

- أجل ياأماه! لكن صحته ساءت منذ زمن بعيد، وهو عجوز طاعن في السن كما تعلمين، فلولا عناية الله ورحمته لما عاش هذه السنين كلها.

twitter @baghdad_library

- ماذا تقول! إنه ليس عجوزاً إطلاقاً ! فهو أكبر من المرحوم زوجي بسنة واحدة فقط. الدائم هو الله! - قالت آنا باڤلوڤنا وهي ترسم علامة الصليب. - يحزنني وضع المسكينة فيدوسيا بيتروڤنا: فقد بقيت وحيدة مع أطفالها الصغار. ليس الأمر سهلاً: خمسة أطفال، وكلهم بنات تقريباً! متى سيتم الدفن؟

- غداً.

- لكل مصيبته الخاصة كما يبدو، ياانطون ايڤانيتش، ها أنا أودّع ابني.

- ما العمل ياآنا باڤلوفنا، كلّنا بشر! «تجمَّلي بالصبر»، - هكذا يقول الكتاب المقدس.

-أستميحك عذراً، إذا كنت قد أزعجتك بذكر مصيبي؛ ماكنتُ لأقول لك شيئاً، لولا معرفتي الراسخة بمحبتك لنا.

- آه ياأماه آنا باڤلوفنا! من سأحب، إذا لم أحبكم أنتم؟ أمثالكم قلة نادرة. أنتم لاتعرفون قيمة أنفسكم. الهموم والمشاغل تلاحقني: بناء المنزل الجديد يقلقني ويثير همومي. البارحة، أمضيتُ الصباح كله، وأنا أتجادل مع المتعهد بخصوص عملية البناء، لكننا لم نتوصل الى اتفاق... رغم ذلك، قلت لنفسي، كيف يمكن أن أتقاعس عن الذهاب لمواساتها في مصيبتها؟ قلتُ، هي وحيدة هناك، فماذا تستطيع أن تفعل بمفردها؟ إنها لم تعد شابة مقتدرة، ولن تستطيع ان تتدبر أمورها بمفردها.

- ليمنحك الله الصحة ياانطون ايڤانيتش، فَلَكَمْ تهتم بشؤوننا وتساعدنا! لقد أصبحتُ عاجزة حقاً عن فعل أي شيء: فرأسي فارغة تماماً ولا أستطيع أن أرى شيئاً! لقد جف حلْقي من كثرة الدموع. أرجوك أن تأكل: فقد أجهدت نفسك بما يكفي، ولابد أن تكون جائعاً.

- شكراً جزيلاً ياسيدتي. أعترف أنني أثناء مروري على بطرس سيرغيتش، قد تناولت لقمة بسيطة جداً، لذا فإن تناول شيء إضافي لن يزعجني مطلقاً. سيصل أبونا الكاهن بعد قليل، فليباركْ هذا الطعام! هاهو ذا قد أصبح عند العتبة؟

وصل الكاهن. وصلت أيضاً ماريا كاربوڤنا بصحبة ابنتها الممتلئة، متوردة اللون ذات العينين الدامعتين، والابتسامة المتكلفة تعلو وجهها. كانت عينا صوفيا وكذلك تعبير وجهها تقول بوضوح: سأحب ببساطة، دون عبث أو لهو، وسأهتم بزوجي كممرضة وسأطيعه في كل شيء، ولن أتظاهر أبداً، أنني أكثر ذكاء منه؛ وكيف يمكن أن أكون أكثر ذكاء من زوجي؟ هذا إثم! سأحضّر بجد ونشاط ألذ أنواع الأطعمة، وسأخيط الثياب: سأنجب له نصف دزينة من الأولاد، وسأطعمهم وأربيهم وألبسهم أحذيتهم بنفسي. كان امتلاؤها ونضارة وجنتيها وكذلك بهاء وبروز نهديها، يبشر بمستقبل واعد من جهة الأولاد، لكن عينيها المغرورقتين بالدموع وابتسامتها الحزينة لم تكن تضفي عليها في تلك اللحظة جاذبية خاصة.

أول ماتمّ القيام به، هو أداء الصلاة، بعد ذلك دعا انطون ايفانيش الخدم للحضور، ثم أشعل شمعة، وأخذ الكتاب من الكاهن، بعد أن توقف عن القراءة، وأعطاه للقندلفت، ثم صب ماء مقدساً في زجاجة أخفاها في جيبه وقال: «هذه لأغافيا نيكيتيشنا». جلسوا الى الطاولة. باستثناء أنطون ايڤانيتش والكاهن، لم يلمس أحد، كما هو مألوف عادة، أي شيء، لكن انطون ايڤانيتش عبّر عن شكره وامتنانه على هذا الإفطار الرائع. كانت آنا باڤلوڤنا تبكي طوال الوقت وتمسح دموعها خلسة.

-كفاك دموعاً ياأماه آنا باڤلوڤنا - قال انطون ايڤانيتش بأسى متصنع، وهو يملأ كأسه بنبيذ الكرز. - هل ترسلينه للذبح لاسامح الله؟ ثم رشف نصف كأسه وراح يمصّ شفتيه متلذّذاً.

-ياله من شراب رائع! ياللرائحة العطرية! مثل هذا الشراب الرائع، لايمكن العثور عليه ياأمّاه، حتى في مركز المقاطعة! قال انطون ايڤانيتش بنبرة تنمّ عن إعجاب كبير.

- هذا شرا... شـ... راب عمره ثلا... ثلاث... سـ... نوات! - قالت آنا باڤلوڤنا، وهي تنشج. - لقد فتحتُ الزجاجة... الآن... خصّيصاً لكم.

twitter @baghdad_library

- آنا باڤلوڤنا، آه منك، النظر إليك يبعث على الغثيان، - بدأ انطون ايڤانيتش من جديد، - لو كنتُ أستطيع ضربك، لضربتك!

- احكم بنفسك ياانطون ايڤانيتش، حيلتي في الدنيا ابني الوحيد فقط، ومع ذلك يهرب مني: سأموت - ولن أجد من يدفنني.

- ونحن ماذا نفعل هنا؟ هل أنا غريب بالنسبة لك؟ لماذا أنت مستعجلة للموت هكذا؟ مثيلاتك ينشدن الزواج، لا الموت! كفى بكاء!.

- لا أستطيع أن أمسك نفسي عن البكاء ياانطون ايڤانيتش، حقاً لا أستطيع؛ لا أعرف من أين تأتي هذه الدموع كلها.

- شاب مثله لايمكن أن يُحجر في غرفة! امنحيه حريته وسترين أية معجزات سيجترح: سيحقق نجاحات باهرة وسيتسنم مناصب رفيعة!

-كلامك رائع ومريح! لماذا لم تتناول إلاّ قليلاً من الفطائر؟ خذ أيضا!.

- سأتناول هذه فقط.

- نخب صحتك ياألكسندر فيدوريتش! سفراً سعيداً! عُد سريعاً وتزوّجْ! لماذا توردّت وجنتاك ياصوفيا ڤاسيلييڤنا؟

- لا، لا... هذا مجرد...

-شباب! ها - ها- ها!.

- المصائب تهون بوجودك ياأنطون ايڤانيتش، - قالت آنا باڤلوڤنا، - كم تجيد مواساة الآخرين والتخفيف من مصابهم، ليمنحك الله الصحة!

اشربْ مزيداً من نبيذ الكرز.

- سأشرب، سأشرب ياأمّاه، وكيف لاأشرب بمناسبة الوداع!

فرغ الجميع من تناول الإفطار. كان الحوذي قد جهز العربة منذ زمن طويل. كانت العربة تقف عند العتبة. ركض الجميع، الواحد إثر الآخر. هذا يحمل

حقيبة، والآخر صرة، والثالث كيساً والرابع يعود ليأتي بغرض آخر. تجمع الناس حول العربة كما يغفّ الذباب على قطرة سكر، وكل واحد منهم يمد يديه الى العربة.

- الأفضل أن توضع ا لحقيبة هكذا، - قال أحدهم، - هنا يمكن وضع صندوق المؤونة.

- أين سيضعون أرجلهم؟- أجاب آخر - من الأفضل وضع الحقيبة طولاً، وصندوق المؤونة بصورة جانبية.

- إذا وُضعتْ الحقيبة طولاً، فسيتدحرج فراش الريش عندئذ: الأفضل ان توضع الحقيبة عرضاً. ماذا بقي أيضاً؟ هل وُضعتْ الأحذية؟.

- لا أعرف من الذي كان يوضب الأغراض؟

- لست أنا. اذهب وانظر: هل الأحذية موجودة في الأعلى؟

- اذهب أنت.

- لماذا لاتذهب أنت؟ فليس لديّ وقت كما ترى.

- لاتنسوا وضع هذا الغرض! صاحت فتاة وهي ترفع بيدها صرة فوق رؤوس المتجمهرين حول العربة.

- هاتوا الصرة الى هنا!

- دسّوا هذين الغرضين في الحقيبة بطريقة ما؛ نسينا ان نضعهما فيها، قالت فتاة أخرى، وهي تقف على سلم العربة، ثم ناولت أحد الخدم فرشاة ومشطاً

-كيف يمكن أن ندسهما الآن؟ - صرخ في وجهها بغضب خادم بدين. - ابتعدي من هنا! ألا تعرفين أن الحقيبة موجودة تحت الأغراض كلها؟

- سيدتي أمرتْ بذلك، المهم! أبلغتك أني لم أعد مسؤولة؛ افعل ماشئت! يالكم من شياطين!

twitter @baghdad_library

- هات الفرشاة والمشط بسرعة، يمكن أن ندسهما هنا في الجيب، من هذا الجانب. كان الحصان الأصيل يرفع ويهز رأسه باستمرار. وفي كل مرة، كان الجرس يصدر صوتاً مجلجلاً حاداً يذكر بالفراق، بينما كان الحصانان الآخران المشدودان الى يمينه ويساره يقفان شاردين، منكسين رأسيهما، وكأنهما قد أدركا طبيعة الرحلة التي تنتظرهما؛ وبين الحين والآخر، كانا يهزان ذيليهما أو يمطّان شفتيهما السفلى باتجاه الحصان الأصيل. أخيراً أتت اللحظة الحاسمة. أُدِّيت الصلاة مرة أخرى.

- خذوا أماكنكم، خذوا أماكنكم! - أمَرَ أنطون ايڤانيتش - ألكسندر فيدوريتش، تفضل بالجلوس! وأنت يايفسيي، خذ مكانك! اجلس يايفسيي، اجلس! والآن، برعاية الله

في هذه اللحظة، بدأت آنا باڤلوفنا تشهق وتبكي وهي تتعلق برقبة ألكسندر.

- وداعاً، وداعاً ياحبيبي! - سمعت هذه الكلمات وسط النحيب - هل سأراك ثانية؟ كان من العسير فهم أي شيء بعد ذلك. في هذه اللحظة سمع رنين جرس آخر: دخلت فناء الدرار عربة تجرّها ثلاثة أحصنة. قفز من العربة شاب يكسوه الغبار، فركض الى العربة وارتمى على رقبة ألكسندر.

-باسبيلوف! . . . أدوييف! . . . صرخا في وقت واحد واحتضن كل منهما الآخر بقوة - من أين قادم أنت؟

- من البيت، قضيت يوماً بكامله في الطريق، كي أودعك.

- يالك من صديق وفي! يالك من صديق وفي! أنت صديق حقيقي! قال أدوييف والدموع تملأ عينيه. - قطعت مائة وستين فرسخاً من أجل ان تقول لي وداعاً! توجد صداقة حقيقية في هذا العالم فعلا! صداقة أبدية! - قال ألكسندر بحرارة، وهو يضغط على يد صديقه ويرتمي عليه.

- حتى الموت! - أجاب باسبيلوف، وهو يشد على يد صديقه بقوة أكثر ويرتمي عليه.

- اكتب لي ! - أجل، أجل، وأنت أيضاً!

لم تعرف آنا باڤلوڤنا كيف ترد جميل باسبيلوف. تأخر السفر نصف ساعة. أخيراً استعد الجميع لمواجهة لحظة الرحيل.

- سار الجميع على الأقدام حتى الدغل القريب. وعندما اجتاز ألكسندر وصوفيا الظلال المعتمة، ارتمى كل منهما على الآخر.

- ساشا ! حبيبي ساشا! . . . سونيتشكا! . . . - قالا بهمس، ثم غرقت الكلمات في قبلة .

- هل ستنساني هناك؟ - قالت بصوت باكٍ.

- يبدو أنك لاتعرفينني حق المعرفة! سأعود إليك؛ صدقيني لن تكون في حياتي إنسانة أخرى. . .

- خذ بسرعة: هذه خصلة من شعري، وهذا خاتمي.

خبأهما في جيبه بسرعة.

في المقدمة سارت آنا باڤلوڤنا وابنها وباسبيلوف، وبعدهم ماريا كاربوڤنا وابنتها، وفي الخلف كان يسير الكاهن وأنطون إيڤانيتش. كانت العربة تسير على مسافة منهم. كان الحوذي يكبح الأحصنة بصعوبة. أما الخدم فكانوا يحيطون بيفسيي.

- وداعاً يايفسيي ايڤانيتش، وداعاً ياعزيزي، اذكرْنا! -كانت هذه الكلمات تُسمع من كل الجهات.

- وداعاً ياإخوتي، لاتذكروني بسوء!

twitter @baghdad_library

- وداعاً يايفسيوشكا، وداعاً ياحبيبي! -قالت أمه وهي تعانقه - خذ هذه الإيقونة، إنها تجلب البركة. اذكر الله! إياك أن تصرفك الحياة هناك عن ذلك. لاتسكر ولاتسرق؛ اخدم سيّدك بصدق وأمانة. وداعاً، وداعاً... !

حجبتْ وجهها بمئزرها وانصرفت.

-وداعاً يا أماه! غمغم يفسيي بتكاسل.

- ارتمت عليه طفلة في الثانية عشرة من عمرها.

- ودِّعْ أختك! - قالت امرأة عجوز.

- أنت أيضاً أتيت لوداعي! -قالت يفسيي وهو يقبل أخته الصغيرة- وداعاً، وداعاً! اذهبي الآن الى البيت ياحافية القدمين. !

- كانت أغرافينا تقف في المؤخرة منعزلة عن الجميع. كان وجهها مخضراً.

- وداعاً يا أغرافينا إيڤانوفنا! - قال يفسيي بصوت ممدود مرفوع، ثم مد لها يديه. مكّنته من معانقتها، لكنها لم ترد على عناقه، بيد أن وجهها بدت عليه علامات التغير.

- خُذ! - قالت وهي تخرج من تحت مئزرها كيساً صغيراً يحتوي على شيء ما، ثم دسته في جيبه. قد تحتاج إليه هناك في بطرسبورغ، من أجل ملذاتك! - أضافت وهي تنظر إليه شزراً. كانت نظرتها هذه تعبر عن كل مافي نفسها من غمٍ وغيرة.

- من أجل ملذاتي؟ -بدأ يفسيي - ليقصف الله عمري في هذا المكان، وليفقأ عينيّ، إن كنت سأفعل شيئاً من هذا! لتنشق الأرض وتبتلعني، إنْ كنتُ أنوي فعل شيء من هذا القبيل.

- حسناً، حسناً -غمغمت أغرافينا بارتياب.

- آه، كدت أنسى! - قال يفسيي، ثم أخرج من جيبه ورق لعب وسخ - أغرافينا ايڤانوڤنا خذي هذا للذكرى؛ لن تستطيعي الحصول هنا على ورق لعب.

مدّت يدها.

- يفسيي إيڤانيتش، اهدني إياه! -صرخ بروشكا من بين الحشد.

- أهديك إيّاه! أفضل أن أحرقه على أن آهديه إليك! - ثم خبّأ ورق اللعب في جيبه.

- أعطني إيّاه أيّها المغفل! - قالت أغرافينا.

- كلا ياأغرافينا ايڤانوڤنا، افعلي ماشئت، فلن أعطيك إيّاه: ستلعبين معه، إنْ أعطيتك ورق لعب. وداعاً!

لوَّح بيده بتكاسل دون أن ينظر إليها، وسار وراء العربة.

- ملعون! قالت أغرافينا وهي تتابعه بنظرها وتمسح دموعها المدرارة بطرف منديلها. توقفوا عند الأحراج. فيما كانت آنا باڤلوڤنا تبكي وتودّع ابنها، كان انطون ايڤانيتش يربّت على رقبة أحد الأحصنة، ثم امسكه من منخره وهزه الى اليمين واليسار، لكن الحصان بدا غير راضٍ إطلاقاً، لأنه كشر عن أسنانه ونخر فوراً.

- ينبغي أن تشد سرج الحصان الأصيل، قال انطون ايڤانيتش مخاطباً الحوذي، - انظر، لقد صار السرج مائلاً الى الجنب!.

نظر الحوذي الى السرج، فلم يتحرك من مكانه عندما وجده في مكانه الصحيح، بل اكتفى بأنْ عَدَّلَ الثَّفَر قليلاً بالسوط.

- حان وقت الرحيل، في حفظ الله! - قال انطون ايڤانيتش- آنا باڤلوڤنا، آن الأوان كي تكفّي عن تعذيب نفسك! وأنت ياألكسندر فيدوريتش. تفضل بالجلوس في العربة، فالطريق طويلة وينبغي ان تصل الى شيشكوفا قبل حلول

twitter @baghdad_library

الظلام. وداعاً، وداعاً، ليمنحك الله السعادة والمناصب الرفيعة والبركات! أتمنى لك الخير والنجاح والثروة!! في حفظ الله! انطلقْ أيها الحوذي، احذر المنحدرات وكن يقظاً، - أضاف هو.

- جلس ألكسندر في العربة قبل أن يتخلص من تأثير البكاء، أما يفسيي، فقد اقترب من سيدته وانحنى أمامها، ثم قبل يدها. أعطته ورقة نقدية من فئة الخمس روبلات.

- اسمع يايفسيي: سأزوّجك أغرافينا إذا خدمت سيدك جيداً وسهرت على راحته كما ينبغي، وإلا . . .

لم تستطع أن تكمل كلامها. صعد يفسيي الى مقعده. انتعش الحوذي، الذي كان قد أضجره طول الانتظار؛ ضمّ غطاء رأسه وعدّل جلسته، ثم رفع الأعنّة. انطلقت الأحصنة في البداية خبباً، ثم ضربها بالسوط ضربة أتبعها بأخرى، فانطلقت تعدو مسرعة على الطريق المؤدّية الى الغابة. بقيت حشود المودّعين صامتة بلا حراك وسط سحابة الغبار، التي أحدثتها الأحصنة لدى انطلاقها، الى أن اختفت العربة عن الأعين تماماً. كان أنطون ايڤانيتش أول من ثاب الى رشده.

- لنذهب الى بيوتنا الآن! - قال هو.

- بقي ألكسندر ينظر الى الخلف من داخل العربة، طالما ظلّ حقل الرؤية يسمح له بذلك، ثم سقط على الوسادة ودفن وجهه فيها.

- انطون ايڤانيتش، لاتتركني تعيسة وحيدة، قالت آنا باڤلوڤنا، - تناول غداءك هنا!.

- حسناً ياأماه، أنا مستعد لأن أتناول العشاء أيضاً.

- حبذا لو تمضي الليل هنا أيضاً.

- كيف يمكن ذلك: غدا مراسم الدفن!

- صحيح، صحيح!

- لن أجبرك. بلّغ فيدوسيا بيتروڤنا تحياتي وقل لها، إنني حزينة جداً لمصابها، وكان بودي ان أزورها وأواسيها، لولا المصيبة التي حلت بي، أعني سفر ابني الوحيد.

- سأبلغها، سأبلغها ولن أنسى.

- حبيبي ساشينكا! - قالت هامسة وهي تتطلع حولها، - لم يعد موجودا، لقد غاب عن ناظري! جلست أدوبيڤا يوماً بكامله، وهي صامتة فلم تتناول طعام الغداء ولا العشاء، فيما تناول انطون ايفانيتش طعام الغداء وظل يتحدث بلا انقطاع.

- أين يكون الغالي ألكسندر الآن؟ هذا ماكانت تردده فقط، بين الحين والآخر.

- ينبغي ان يكون الآن في نيبليوييف. كلا، لم أقل الصدق. لم يصل الى نيبليوييف بعد، إنه على مشارفها الآن، وسيتناول الشاي هناك، - تابع انطون ايڤانيتش.

- كلا، إنه لايتناول الشاي مطلقاً في مثل هذا الوقت.

- هكذا كانت آنا باڤلوڤنا تسافر معه في الخيال. بعد ذلك، صارت تصلّي تارة، وتفتح البخت بورق اللعب تارة أخرى، وتُحدّث ماريا كابوڤنا عنه، عندما افترضتْ طبقاً لحساباتها الخاصة، انه قد وصل الى بطرسبوغ.

لكن، ماذا كان يفعل ألكسندر ياتُرى؟

سنلتقي به في بطرسبورغ.

twitter @baghdad_library

II

كـان بطرس ايڤـانيـتش أدوييف، عمّ بطلنا، قـد أُرسل هو الآخـر الى بطرسبورغ منذ عشرين سنة مضت، من قبل أخيه الأكبر، والد ألكسندر وعاش فيها، دون ان يغادرها سبعة عشر عاماً. لم يكتب الى أهله بعد وفاة أخيه، ولم تكن آنا باڤلوڤنا تعرف عنه شيئاً منذ أن باع أملاكه غير الكبيرة، التي لم تكن تبعد عن قريتها كثيراً.

ذاع صيته في بطرسبورغ كرجل يملك مالاً وفيراً، ولربما لم يكن هذا بلا سبب؛ فقد عمل موظفاً عند شخصية مرموقة، حيث كان يُكلف بتنفيذ مهمات خاصة وحصل على بضعة أوسمة. عاش في شقة رائعة تقع في شارع كبير مشهور؛ عنده ثلاثة خدم ونفس العدد من الأحصنة. لم يكن كبير السن، عمره يتراوح مابين الخامسة والثلاثين والأربعين، أي «في عز الشباب» كما يقال. بالمناسبة لم يكن يحبّ الاسترسال في الحديث عن عمره ليس بسبب حَرَج أو اعتداد بالنفس، بل نتيجة حساب دقيق موزون، وكأنه يود ان يؤمّن على حياته بأغلى ثمن. لم يكن يبغي، من خلال أسلوبه في التستر على عمره الحقيقي، إثارة إعجاب الجنس الرائع مطلقاً.

كان طويل القامة، متين البنية، متناسقاً في مقاسه، لونه أسمر أربد، ملامح وجهه صحيحة، لكنْ قاسية؛ مشيته جميلة، طبعه متحفظ، لكنه لطيف. يمكن أن نقول عنه باختصار، إنه رجل رزين.

التماسك باد على وجهه، أي معرفة السيطرة على النفس؛ لم يكن يسمح لوجهه ان يكون مرآةً لروحه، لأنه كان يعتقد أن هذا غير مريح لنفسه ولا للآخرين. هكذا كان في المجتمع أيضاً رغم ذلك، يجوز لنا ان نَسِمَ وجهه، بأنه عديم التعبير:

كلا، كل مافي الأمر، أنه كان هادئاً فقط. وإذا مابدتْ على وجهه أمارات التعب أحياناً - فلابد ان يكون هذا ناجماً عن قيامه بأعمال مجهده كثيرة. ذاع صيته كإنسانٍ عملي نشيط، كان أنيقاً، ينتقي ملابسه بعناية، لكن ليس بطريقة مبالغ فيها، بل بذوق؛ ملابسه الداخلية كانت من النوع الممتاز، أما يداه فكانتا مليئتين بيضاوين وأظافره طويلة شفّافه.

ذات مرة، صباحاً، عندما استيقظ ورَنّ الجرس، جاءه النادل حاملاً شاياً وثلاث رسائل، ثم أخبره ان شاباً نبيلاً قد جاء وقدّم نفسه، على أنه الكسندر فيدوريتش أدوييف، وأن بطرس ايفانيتش يكون عمه، ووعد بأن يعود في الثانية عشرة. تلقى بطرس ايڤانيتش كعادته، هذا النبأ بهدوء، لكنه أرهف السمع قليلاً ورفع حاجبيه بعض الشيء.

- حسناً، انصرفْ، قال هو مخاطباً الخادم.

بعد ذلك، أخذ إحدى الرسائل وأراد ان يفضها لكنه توقف وراح يفكر.

- ابن أخٍ قادم من الريف - يالها من مفاجأة! - غمغم هو. - كنتُ آمل ان أكون قد نسيت في تلك المنطقة! بالمناسبة لايوجد بيننا شيء مشترك يمكن أن نتحدث عنه! سأتخلّص...

رنَّ الجرس ثانية.

- قُلْ لهذا السيد عندما يأتي، إنني سافرت الى المصنع فور استيقاظي، ولن أعود قبل ثلاثة أشهر.

- سمعاً وطاعة ياسيّدي، - أجاب الخادم، - ماذا تأمرون بالنسبة للهدايا؟

- أي هدايا؟

- التي جلبها الشاب. قال إن سيدة نبيلة قد أرسلتْ إليكم هدايا ريفية.

- هدايا؟

twitter @baghdad_library

- أجل، مرطبان عسل، وكيس توت علّيقٍ مجفّف.

هز بطرس ايڤانيتش كتفيه،

- يوجد أيضاً قطعتا قماش من الكتان وبعض أنواع المربّى.

- لابد أن يكون الكتان جيداً كما أتصورّ...

- الكتّان جيد، والمربى سكري.

- انصرفْ، سأرى بنفسي الآن.

أخذ إحدى الرسائل، فضّها وألقى نظرة على الصفحة. كانت الكتابة سلافية بارزة: حرف b استعيض عنه بعصاتين مشطوبتين من الأعلى والأسفل، أما حرف k فقد استعيض عنه بعصاتين فقط دون تشطيب؛ كانت الرسالة مكتوبة، دون علامات الترقيم.

صار أدوييف يقرأ بصوت خافت:

«بطرس ايڤانيتش!

أنا صديق المرحوم والدكم، وتجمعني به ذكرى طيبة. ورغم ان فترة تعارفنا كانت قصيرة، فقد تقاسمنا الخبز والملح مراراً في منزلكم العامر، الذي كنت أتردد إليه غالباً، وحملتك مراراً على يديّ عند ماكنت طفلاً صغيراً، لذا فإنني آمل بأن لاتكون قد نسيت العجوز ڤاسيلبي تيخونيتش الذي يخاف الله كثيراً ويتمنى السعادة للجميع. أتوسم فيكم الخير، ولي كبير الأمل في عطفكم وفي مساعدتي...».

-ماهذا؟ ممّن هذه الرسالة؟ - قال بطرس إيڤانيتش وهو ينظر الى التوقيع. - ڤاسيلي زايز جالوف! زايز جالوف - لا أذكر هذا الشخص إطلاقاً. ماذا يريد منّي؟ تابعَ القراءة:

«رجائي الحار هو ان تساعدني ولاترفض طلبي . . . معارفكم ومداخلاتكم في بطرسبورغ، فوق قدرتنا نحن هنا السكان المحليين، لذا أرجوكم تقديم العون لي. أعاني من مشكلة عويصة لعينة حلت بي منذ سبع سنوات، ولم أستطع أن أجد لها حلاً، فهي تثقل كاهلي: لعلكم تتذكرون الغابة التي تبعد فرسخين عن القرية. ارتكب المجلس البلدي خطأ في تحرير سند الشراء، فتمسك خصمي مدڤيدوف بالخطأ وأنكر عليّ حقي. مدڤيدوف هذا، هو نفس الشخص، الذي كان يصطاد السمك في أملاككم، دون استئذان منكم. طرده المرحوم والدكم ووبّخه، وأراد ان يشتكي عليه الى المحافظ بسبب اعتدائه على أملاك الغير، المخالف للأصول، لكن طيبة والدكم، تَغَمّده الله برحمته، دفعته الى التسامح وصَرْف النظر عن معاقبته، علماً ان العطف على شرّيرٍ كهذا لم يكن ضرورياً. ساعدْني يا أبتاه، بطرس ايڤانيتش، فالقضية الآن أصبحت في مجلس الشيوخ، لكنني لا أعرف في أي إدارة، ولا المسؤول الذي أصبحت في عهدته؛ أنا واثق أنكم قادرون على معرفة الجهة المسؤولة. أرجوكم ان تقابلوا المسؤولين وتتحدثوا إليهم من أجل حلّ القضية لصالحي، كما أرجوكم إيضاح الخطأ الحاصل في القضية، فأنا على قناعة تامة أنّ طلبكم سيُلبّى، أرجوكم بالمناسبة، أن تلتمسوا لي هناك أيضاً ترقية في الوظيفة بثلاث درجات، وأن ترسلوها لي قريباً. توجد أيضاً قضية هامة أخرى ياأبتاه بطرس إيڤانيتش، أرجو ان تبذلوا جهودكم ومساعيكم لحلّها. في مركز المحافظة عندنا، يوجد مستشار يدعى دروجوف؛ إنه ذهب حقيقي، سيموت دون أن يعطى حقوقه. في المدينة، التي يسكن فيها، لا أتردّد إلاّ على بيته فقط، فهو يستضيفني ويكرمني بضعة أسابيع - لِيَرْحَمه الله وليطل عمره - وليس هناك أحد غيره في المدينة يطعمني ويسقيني. يواجه الآن ضغوطاً من رؤسائه لإجباره على الاستقالة. أرجوكم ان تزوروا كافة المسؤولين وتشرحوا لهم كم هو رائع أفاناسي ايڤانيتش، أوضحوا لهم أن الوشاية ضدّه باطلة تماماً، وأنها ليست إلا إحدى دسائس سكرتير المحافظ، أنا على اقتناع تام بأنهم سيصغون لصوتك، لذا أرجوكم غاية الرجاء أن ترسلوا لي النتيجة الإيجابية في أول بريد. بقي لي طلب أخير فقط، هو أن تقوموا

twitter @baghdad_library

بزيارة زميلي القديم في الوظيفة كوستياكوف. فقد سمعتُ من أحد القادمين العاملين في بطرسبوغ، المدعو ستوديانتسين، أن زميلي يعيش في بيسكي، وأعتقد أنك ستتعرّف على بيته هناك بسهولة. اكتبوا لي على جناح السرعة عن أحواله وأموره: عن صحته وظروفه؛ ماذا يعمل هناك وهل يتذكّرني؟ إنه إنسان رائع، يحبّ المزاح، أنهي رسالتي بالرجاء...».

توقف أدوييف عن القراءة، فمزّق الرسالة بهدوء الى أربعة أقسام ورماها في سلّة المهملات، الموجودة تحت الطاولة، ثم تمطى وتثاءب.

تناول رسالة أخرى، وصار يقرأ بصوت خافتٍ أيضاً.

«الأخ العزيز والسيد الكريم بطرس إيڤانيتش!».

- اي أخت هذه! - قال أدوييف وهو ينظر الى التوقيع: - «مارياغورباتوڤا...»- صار ينظر الى السقف، محاولاً ان يتذكر شيئاً ما...

-من عساها تكون؟ كأنني سمعتُ بهذا الإسم من قبل... آه، رائع - كان أخي متزوجاً من غورباتوڤا؛ هذه أختها إنها تلك... آ! تذكّرت...

قطّب حاجبيه وصار يقرأ.

«مع أنّ القدر قد فرق فيما بيننا، لربما الى الأبد، ومع أن هاوية تفصل الواحد منا عن الآخر، ورغم ان سنيناً طويلة قد انقضت...».

تجاوز بضعة أسطر، ثم تابع القراءة.

«سأذكر ماحييت، نزهاتنا المشتركة عند البحيرة، وكيف خضت في الماء حتى الركب، معرضاً حياتك وصحتك للخطر، لتجلب لي قصبة سكر تُتوجها زهرة صفراء كبيرة، وكيف لطّخ أيدينا النسغ، الذي كان يسيل من ساق إحدى القصبات، وكيف نزعت سدارتك لتملأهابالماء من أجل ان نغسل الأيدي المتسخة، كم ضحكنا حينئذ ونحن نفعل ذلك. كم كنتُ سعيدة وقتها! ما أزال احتفظ بتلك الزهرة حتى الآن، حيث وضعتها في أحد الكتب...».

توقف أدوييف عن القراءة. كان واضحاً بجلاء، أنّ هذه المسألة لم تعجبه مطلقاً حتى انه هزّ رأسه تعبيراً عن عدم الإرتياح. تابع القراءة:

«هل مازلت تحتفظ بذاك الوشاح، الذي انتزعته من خزانة ثيابي، رغم صراخي وتوسلاتي...».

- انتزعتُ وشاحاً! - قال هو بصوتٍ مسموع، وقد قطب حاجبيه بشدة. صَمَتَ، ثم تجاوز بضعة أسطر أخرى وتابع القراءة.

«حكمتُ على نفسي بعدم الزواج، وأشعر أنني سعيدة جداً، فما من أحدٍ يستطيع أن يمنعني من تذكّر أحلام الأوقات الهائئة السعيدة».

«عانس عجوز! - فكر بطرس ايڤانيتش. - ليس مستغرباً أن تتذكر الزهرة الصفراء إذن! ماذا تكتب أيضاً؟».

«هل تزوّجت أيها الأخ العزيز، ومن هي صاحبة الحظ السعيد؟ من عساها تكون تلك الصديقة اللطيفة، التي وَشّتْ بعذوبتها وجمالها طريق حياتك ووجودك، اكتب لي اسمها، سأحبها كما تحبّ الأخت أختها، وسأقرن في الأحلام صورتها بصورتك وأصلي من أجلكما. وإذا كنتَ لم تتزوج بعد، فاكتب لي صراحة سبب عزوفك عن الزواج حتى الآن: لن يقرأ سرك أحد غيري، لأني سأخبّىء الرسالة في صدري، ولن يأخذها مني أحد، إلا عندما ينتزع قلبي معها. لاتتأخر في الإجابة؛ أتحرّق شوقاً لقراءة سطورك غير الواضحة...».

«كلا، سطورك أنتِ غير واضحة!» - فكر بطرس ايڤانيتش. تابع القراءة:

«لم أكن أدري أن الغالي ساشينكا قد فكر بزيارة عاصمتنا الرائعة فجأة، ياله من محظوظ! سيرى البيوت والمخازن الرائعة، وسيمتّع نفسه برؤية كل ماهو جديد رائع، وسيضم عمه الحبيب الى صدره، - أما أنا، فسأذرف الدموع في تلك اللحظة، عندما أتذكر الأوقات الماضية السعيدة. لو كنت أعلم بموعد سفره مسبقاً،

twitter @baghdad_library

لجلستُ النهارات والليالي من أجل أن أخيط وسادة لك، ولوشّيتُ عليها عبداً أسود وكلبين؛ قد لاتصدّق كم ذرفتُ من الدموع، وأنا أنظر الى هذا الوشي: هل يمكن أن يكون هناك شيء اسمى وأقدس من الصداقة والوفاء؟... تستحوذ عليّ الآن فكرة واحدة فقط؛ سأكرّس لها بقية أيامي، لكنني لا أستطيع الحصول على صوفٍ رائع هنا، لذا فإني أرجوك بحرارة أيها الأخ العزيز ان ترسل لي طبق النموذج الذي وضعته في هذه الرسالة، أجود أنواع الصوف الانكليزي على جناح السرعة. لكن، ماذا أقول؟ أي فكرة مرعبة استوقفت قلمي! ربما تكون قد نسيتني، إذ كيف يمكنك ان تتذكر مسكينة معذبة اعتزلت الحياة وانزوتْ عن العالم وما انفكت تذرف الدموع؟ كلا! لا أستطيع ان أتصورّ، أنك يمكن أن تصير وحشاً كبقية الرجال: كلا! قلبي يقول لي، إنك ماتزال على ودّك لنا وللجميع، رغم ملذّات ومباهج عاصمتنا الرائعة. هذه الفكرة بالنسبة لي، بمثابة البلسم، الذي يداوي قلبي المعذّب. اعذرني، لا أستطيع ان اكتب أكثر، يدي ترتجف...

سأبقى الى الأبد ماريّتك

ماريا غورباتوڤا

ملاحظة: ألا توجد عندك كتب جيدة؟ ارسلْ لي بعضاً منها؛ انْ لم تكن بحاجة إليها: سأتذكرك عندئذ عند كل صفحة، وسأذرف الدموع مدرارا؛ أو اشتر لي من المخزن بعض الكتب الجديدة، شريطة ألا تكون غالية الثمن. يقال إن مؤلفات السيدين زاغوسكين ومارلينسكي رائعة جداً، - ارسل لي بعضاً منها؛ وإذا لم تستطع الحصول عليها؛ فيمكنك أن ترسل لي عوضاً عنها العنوان، الذي قرأته في الصحف- حول الخرافات للسيد بوزين، - فأنا لا أطيق الخرافات».

بعد أن انتهى من قراءة الرسالة، همّ أوديف بأن يمزّقها، لكنه امتنع فجأة عن فعل ذلك. «كلا، -فكر هو، - سأحتفظ بها: يوجد هواةٌ يرغبون بجمع هذا النوع من الرسائل، فلربما يصدف أن يطلبها أحدٌ ما».

رمى الرسالة في سلة مصنوعة من الخرز، كانت معلّقة على الجدار، ثم أخذ الرسالة الثالثة وبدأ يقرؤها.

«ابن عمي العزيز بطرس إيڤانيتش!

ألا تذكر توديعنا لك منذ سبعة عشر عاماً؟ شاء الله أن أودّع ابني الآن أيضاً، فأرجو ان تهتمّ به وترعاه، إنه يشبه تماماً المرحوم أخاك فيودور إيڤانيتش. الله وحده يعلم مدى حزني ولوعتي عليه كأمّ، وهو يغادر مسقط رأسه قاصداً جهة غريبة، ها أنا ذا أرسله إليك مباشرة، فلقد طلبتُ منه ألا يلازم أحداً سواك...».

هزّ أدوييف رأسه من جديد.

- يالها من عجوز حمقاء! - غمغم هو، ثم تابع القراءة.

«قد يفكر بسبب قلة خبرته، بأن يسكن في نزلٍ صغير، أدرك جيداً كم سيسبب هذا التصرف من الأسى والحزن لك، فأنت عمه الوحيد، وأنت منه بموقع الأب الحنون، لذا أمرته ان يتوجه مباشرة إليك. كم ستفرح بلقائه! لاتتركه ياابن عمي العزيز، وتَعهَّدْهُ بعنايتك ورعايتك. لقد انتقل من عهدتي الى عهدتك».

توقف بطرس ايڤانيتش من جديد، ثم تابع القراءة.

«أنت الوحيد، الذي يستطيع ساشا ان يعتمد عليه هناك. توله برعايتك، لكن لاتدلله كثيراً، ولاتكن معه قاسياً أيضاً، فسيصادف غرباء كثيرين يقسون عليه، فأنت الوحيد الذي ستشمله بعطفك وتغمره بحبك؛ انه لطيف جداً: لن تقوى على فراقه بعد أن تراه. أرجو ان توصي رؤساءه في الوظيفة بأن يعاملوه بلطف، فهو رقيق، جدير بحسن المعاملة، امنعه من تعاطي الخمر ولعب الورق، وفي الليل، أرجوك ألا تغفل عنه، ستنامان في غرفة واحدة بالطبع -، لكنني أود ان أُوضح لك، ان ساشا معتاد ان ينام على ظهره، لذا فإنه ياروحي، يئنّ بسبب هذا بشدة، - أوقظه برفق وارسمْ علامة الصليب فوقه، فينقضي كل شيء بسلام وينتهي الأنين، وفي الصيف - غطّ فمه بمنديل: فقد اعتاد ان يفتحه في الحلم، فيدخل

twitter @baghdad_library

الذباب اللعين فيه عند الفجر. اعطه نقوداً عند الحاجة... تجهّم أدوييف، لكنْ سرعان ما أشرق وجهه من جديد، عندما قرأ لاحقاً:

«سأرسل إليه كلّ مايحتاجه، فلقد أعطيته الآن ألف روبل، لكنْ أرجوك ان توصيه بألاّ يبدّدها على أشياء تافهة، وحَذّرهُ من خداع الآخرين، فالمحتالون كثر عندكم في العاصمة. وفي الختام، أرجو ان تعذرني على هذه الرسالة يا ابن عمي العزيز - اذ نسيتُ الكتابة، تماماً.

مع أطيب تمنياتي الصادقة

زوجة أخيك

أدوييڤا

ملاحظة: أرسل إليك بعض الهدايا الريفية: توت علّيق مجفف، وعسلاً أبيض وقماش كتان هولندي نظيف كالدمع، يكفي لدزينة من القمصان، ومربى منزلي الصنع. سأزودك دائماً بها بمجرد ان تنتهي. ماذا أوصيك بيفسيي: أرجو أن تناله رعايتك. إنه إنسان مسالم، غير سكير، لكن ربما تفسده العاصمة - اردْعه عندئذ».

وضع بطرس! ايڤانيتش الرسالة بهدوء على الطاولة، ثم أخرج سيجارة بهدوء أكثر، وأشعلها وصار يدخن. فكر طويلاً بهذا الملعوب، كما سماه ذهنيا، الذي دبرته له زوجة أخيه. حلّل كل ماقرأه بصرامة وقرر ماسيفعله.

إليكم ما انتهى إليه في تحليله، إنه لايعرف ابن أخيه، وبالتالي، فإنه لايحبه، لذا فإنّ قلبه لايرتّب عليه أيّ التزامات تجاهه: يجب حل المسألة وفق قوانين العقل والعدل. لقد تزوج أخوه وتنعم بالحياة الزوجية، من أجل أي شيء يلزم بطرس إيڤانيتش نفسه إذن برعاية ابن أخيه، مادام لم ينعم بسعادة الزواج بعد؟ ليس من أجل اي شيء طبعاً.

ناقش المسألة من زواية أخرى: أرسلت الأم ابنها مباشرة إليه، ليرعاه ويهتم به، دون أن تدري إن كان راغباً بتحمل هذا العبء أم لا، حتى دون أن تعلم إنْ كان حيّاً وقادراً على تقديم أية خدمة لابن أخيه. هذه حماقة بالطبع، لكن، مادام الأمر قد جرى، وابن أخيه قد صار في بطرسبورغ بلا مساعدة أو معارف، وحتى بدون كتاب توصية، فهل يجوز ان يترك ابن أخيه الشاب، عديم التجربة، يواجه مصيراً مجهولاً ويرتمي بين الناس بلا توجيهات او نصائح، وإذا ماحدث له شيء ما كارثي، ألن يكون عندئذ مسؤولاً أمام ضميره إزاء ماحدث؟

بهذه المناسبة، تذكر أدوييف هنا، كيف أرسله المرحوم أخوه وآنّا باڤلونا الى بطرسبورغ منذ سبعة عشر عاماً، لم يستطيعا أن يفعلا من أجله شيئاً في بطرسبورغ، فقد شق طريقه بنفسه.. لكنه تذكر دموعها ووداعها وبركاتها كأمّ، تذكّر مداعباتها وفطائرها وكلماتها الأخيرة: «عندما سيشب ساشينكا، - كان وقتها مايزال في الثالثة من عمره، - ستداعبه وترعاه أنت أيضاً ياأخي...» هنا نهض بطرس ايڤانيتش وسار بخطى سريعة الى غرفة الانتظار.

-ڤاسيلي، - قال هو، عندما يأتي ابن أخي، استقبلْه. اذهب واسأل إنْ كانت الغرفة، التي هنا في الأعلى، والتي تخلّينا عنها منذ فترة قريبة، مشغولة أم لا، فإنْ لم تكن مشغولة، فأبلغْهم بأنني أحتفظ بها. فهمت! والهدايا! ماذا سنفعل بها؟

- منذ فترة قصيرة، عندما كان ابن أخيكم والشخص الذي معه يحملان الهدايا إلينا، شاهدهما الحانوتي وطلب بأن نتناز ل عن العسل. «سأعطيكم سعراً جيّداً، - قال هو». وأعلن عن رغبته بشراء توت العلّيق أيضاً.

- رائع! اعطه كل مايريد. وقماش الكتّان ماذا سنفعل به؟ ألايصلح كأغطية؟ خبّىء الكتّان والمربى، - يبدو لي، أن المربى من النوع الفاخر، الذي يمكن أكله.

twitter @baghdad_library

بينما كان بطرس إيڤانيتش يستعد لحلاقة ذقنه، ظهر ألكسندر فيدوريتش. أراد أن يرتمي على رقبة عمه تعبيراً عن الفرح بلقائه؛ إلا أنّ الأخير ضغط بيده القوية على يد ابن أخيه الغضة الرقيقة، فأوقفه على مسافة منه، وكأنه يريد أن يستمتع بالنظر إليه، ويدقق فيه، لكنّ الأمر لم يكن كذلك، وهذا ما اتضّح لاحقاً، فقد أراد من خلال تصرفه هذا، أن يكبح الإنفعال ويكتفي بالمصافحة.

- ماكَتَبَتْهُ أمك كان حقيقة، - قال هو، - أنت صورة حيّة عن المرحوم أخي: كنت أستطيع أن أتعرف عليك في الشارع. لكنك أجمل منه. سأتابع الحلاقة، دون تكليف، فيما تجلس انت قبالتي هنا، كي أستطيع أن أراك ونتابع الحديث.

بعد ذلك، بدأ بطرس إيڤانيتش يقوم بعمله، كما لو أنّ أحداً لم يكن موجوداً، فصار يفرك خدّه بفرشاة ومعجون الحلاقة، وهو يمطّ لسانه لهذه الجهة تارة، ولتلك الجهة تارةً أخرى. أربك هذا الاستقبال ألكسندر، ولم يكن يعرف كيف يبدأ الحديث. فقد اعتبر عدم مجالسة عمه له بعد اللقاء مباشرةً، نوعاً من البرود وعدم الاكتراث.

- كيف حال أمك؟ صحتها جيدة؟ أعتقد أنها هرمَتْ، أليس كذلك؟ - سأل العم، وهو يصعّر خدّه أمام المرآة.

- أمي بخير والحمد لله، صحتها جيدة، وهي تسلّم عليك وكذلك خالتي ماريا باڤلوڤنا، - قال ألكسندر فيدرويتش بحياء. - كلفتني خالتي، بأن أعانقك - نهض واقترب من عمّه كي يطبع قبلة على وجنته أو رأسه أو كتفه، أو في أيّ مكان يتيسر له.

- آن الأوان بعد هذه السنوات كلها، ان تكون خالتك قد أصبحت أكثر ذكاء، لكني أرى أنها ماتزال حمقاء كما كانت منذ عشرين عاما...

- عاد ألكسندر الى مكانه مرتبكاً.

- عماه، هل استملت الرسالة؟ - قال هو.

- أجل، استلمتها.

- ڤاسيلي تيخونيتش زايز جالوف، - بدأ ألكسندر فيدوريتش، - يرجوك كثيراً ان تعمل بجدّية لحلّ مشكلته . . .

- أجل. انه يكتب ذلك لي، . . . يبدو أنّ الحمير أمثاله لم ينقرضوا عندكم بعد، أليس كذلك؟ لم يعرف ألكسندر مايقول، فقد صعقه هذا الوصف.

- عذراً ياعماه. . . - بدأ هو بهلع تقريباً.

- على ماذا؟

- لأني لم أجيء إليك مباشرة، فقد نزلت في عربة جياد المسافرين. . . لم أكن أعرف شقتك . . .

- وما موجب الاعتذار هنا؟ فعلت حسناً. الله يعلم ما الذي تبتكره أمك. كيف يمكنك أن تأتي إليّ مباشرة، دون أن تدري، إنْ كنت تستطيع المبيت عندي أم لا؟ شقتي كما ترى مخصّصة لسكن عازب، أي لشخصٍ واحد فقط، فهي مكوّنة من: صالة، غرفة استقبال، غرفة طعام، غرفة خاصة، مكتب، غرفة ملابس وغرفة سهرة - لاتوجد عندي غرفة زائدة. كنتُ سأضايقك، وكذلك كنت ستضايقني. . . عثرتُ لك على شقة في هذا المبنى. . .

- آه ياعمّاه، - قال ألكسندر، - كيف يسعني أن أشكرك هلى هذا الاهتمام؟

- وثَبَ من جديد من مكانه، ليعبّر له بالقول والفعل عن جزيل شكره وامتنانه.

- مهلاً، مهلاً، لاتلمسني، - بدأ العمّ كلامه، - الشفرة حادّة جداً، فقد تجرح نفسك وتجرحني. لاحظ الكسندر، أنه لن يتيسر له، رغم كل الجهود التي بذلها، أن يضمّ عمّه أو يعانقه، ولو مرة واحدة هذا اليوم، لذا فقد قرّر تأجيل رغبته هذه لمرةٍ أخرى.

twitter @baghdad_library

- الغرفة بهيجة جداً، - بدأ بطرس إيڤانيتش، - النوافذ داخلة في الجدار قليلاً، لكنك لن تظلّ طوال الوقت جالساً عند النافذة. إذ تستطيع ان تُشغل نفسك بأمر ما عندما تكون في البيت، فلن يبقى لديك وقت، حتى للتثاؤب قرب النافذة. إنها ليست غالية - ستدفع أربعين روبلاً شهرياً. يوجد غرفة انتظار، يستطيع الشخص الذي معك الاستقرار فيها.

يجب أن تتعوّد، منذ البداية، على العيش وحيداً، دون طاهية أو مدبّرة منزل؛ يجب أن تُحضّر طعامك بنفسك وترتّب ركنك كما ينبغي. تستطيع ان تستقبل هناك بحرّية تامّة أي شخص تريد... بالمناسبة، أودّ أن أقول لك، إني سأدعوك دائماً لتناول الغداء معي، عندما أتغدى في البيت، أما في الأيام الأخرى، فتستطيع ان تتناول غداءك في الحانة كما يفعل الشبّان الآخرون، لكني أنصحك بأن تتغدّى في البيت، لأنك ستنعم بالهدوء والراحة أكثر، وستوفّر على نفسك عناء مقابلة أناسٍ لاتعرف طباعهم وأخلاقهم. أليس كذلك؟.

-شكراً جزيلاً ياعمّاه...

- وهل هناك مدعاة للشكر؟ ألست ابن أخي؟... إنيّ أقوم بواجبي، سأرتدي ملابسي الآن وأذهب، فعندي الوظيفة والمصنع...

- لم أكن أدري ياعمّاه أنك تملك مصنعاً.

- مصنع زجاج وخزف صيني؛ بالمناسبة، لست مالك المصنع الوحيد، فنحن ثلاثة شركاء.

- هل أمور المصنع جيدة؟

- أجل، العمل يسير بانتظام؛ تسويق منتجاتنا يتم بصورة رئيسية من خلال المعارض، التي تقام في الأقاليم الداخلية. العمل يسير بنجاح في السنتين الأخيرتين! إذا استمر العمل خمس سنوات أخرى على هذا المنوال، فسنحقق... صحيحٌ أنّ أحد الشركاء غير موثوق به، فهو يلفّ ويدور طوال الوقت، لكني

أعرف كيف أضع له حداً. والآن؛ الى اللقاء. اذهبْ الآن وتفرّج على المدينة؛ تسكّع وتناولْ غداءك في مكانٍ ما، وفي المساء تعال لنتناول الشاي، لأنني سأكون في البيت، - سنتبادل أطراف الحديث، ڤاسيلي! أَرهما الغرفة وساعدهما في ترتيب أمورهما هناك.

- «هكذا هو الوضع في بطرسبورغ إذن... فكر ألكسندر، وهو يجلس في مسكنه الجديد. - إذا كان عمّي يعاملني هكذا، فكيف ستكون معاملة الآخرين؟...».

كان أدوييف الشاب يتمشى في الغرفة جيئة وذهاباً، وهو مستغرق في تفكير عميق، أما يفسيي فكان يُحدّث نفسه وهو يُرتب وينظّف الغرفة.

- «ماهذه الحياة هنا، غمغم هو، - الطعام يُحضرّ مرّة واحدة في الشهر في مطبخ بطرس إيفانيتش، والناس لايتناولون طعام الغداء عند أقاربهم... ياإلهي !كيف تجري الأمور هكذا! شعب! ماذا يستطيع المرء أن يعلّق على حياة كهذه! يتفاخرون بأنهم من سكان بطرسبورغ! عندنا، كل كلب يلحس من جرنه».

يبدو أنّ ألكسندر كان يشارك يفسيي رأيه، على الرغم من صمته. اقترب من النافذة، فلم يشاهد إلاّ المداخن والأسطحة؛ كانت الأسطحة سوداء وسخة، والجدران الجانبية مبنيّة من الآجر. قارن هذا المشهد بتلك اللوحة الرائعة الخلابة، التي رآها من نافذة بيته الريفي منذ أسبوعين. صار حزيناً.

خرج الى الشارع - جلبة وضوضاء، كل الناس يركضون الى مكانٍ ما، وهم مشغولون بأنفسهم فقط، وإذا نظر أحد المارّة إلى آخر، فمن أجل أن يتجنّب الإصطدام به، ليس إلا. تذكّر مركز المحافظة، حيث يتّسم اللقاء مع أيّ كان بمتعة خاصة مُميزة. فعندما يذهب إيفان إيڤانيتش مثلا، لزيارة بطرس بيتروڤيتش - يعرف سكان المدينة كلهم هناك، غرض الزيارة. وعندما تعود ماريا مارتينوڤا من صلاة الغروب، يعرف الجميع، أنّ أفاناسي ساڤيتش هو في صيد السمك. وعندما يجري الشرطي مندفعاً بسرعة من عند المحافظ الى الطبيب، يعرف كل شخص

twitter @baghdad_library

هناك، أنّ صاحبة السعادة ستلد، مع أنه يصعب مسبقاً التنبؤ بذلك، على حدّ زعم الكثير من النمّامات والعجائز. يسأل الجميع: وَلَدَت أنثى أم ذكراً؟ السيدات النبيلات يحضرن قلنسواتهن الخفيفة. هاهو ماتفيي ماتفيتش يخرج من بيته في السادسة مساء، ممسكاً بيده عصا غليظة، وكل شخص يعرف أنه ذاهب للقيام بنزهته الليلية، التي لولاها لما كانتْ معدته تهضم الطعام بشكل طبيعي اعتيادي، وأنه سيتوقّف حتماً عند نافذة المستشار العجوز، الذي يعرف الجميع عنه أيضاً انه يتناول الشاي في مثل هذا الوقت. كلّ لقاء بين شخصين لابّد ان يكون مصحوباً عادة بتحية وبضع كلمات، كما أنّ الشخص الذي تبادله التحية يكون معروفاً مَنْ هو، وخط سيره والجهة، التي يقصدها، وبالمقابل، فإنك تقرأ في عينيه: وأنا أعرفك أيضاً، وأعرف الى أين ذاهب أنت ولماذا. وإذا التقى شخصان لايعرفان بعضهما، ولم يشاهد أحدهما الآخر من قبل، فإن التساؤل سيرتسم على وجه كلٍّ منهما، وسيتوقّفان ويتلفّتان الى الوراء مرّتين، وبمجرد وصولهما البيت، سيصف كل منهما بدلة ومشية الوجه الجديد، فتبتدىء التخمينات عن ماهيّة الشخص ووجهة سيره والجهة التي يقصدها والغاية، التي يرمي إليها. أما هنا، فتراهم يتبادلون النظرات شزراً، ويبتعد كل منهم عن طريق الآخر، كما لو أنّ كل واحدٍ منهم عدوٌّ للآخر.

في البداية، كان ألكسندر، بفضول الريفي، يمعن النظر في كل شخص يصادفه، وفي كل إنسانٍ مهندم بعناية، معتبراً هذا الشخص وذاك، إمّا وزيراً أو سفيراً أو كاتباً. «أليس هو؟ - كان يفكر. - أليس هذا؟». لكن سرعان ما أضجره هذا الإفتراض- فقد كان الوزراء والكتاب والسفراء يُصادفون في كل مكان.

نظر الى البيوت، فأحسّ بالضجر أكثر: أَضْفت عليه مسحةً من الغمّ والكآبة، تلك الكتل الحجرية الضخمة المتشابهة، التي تشبه المدافن الكبيرة الجبّارة الممتدة على نسق واحد. هاهو الشارع ينتهي، سيرتاح النظر الآن من محدودية الرؤيا، كان يقول متفكّراً، وسيظهر الآن حقل أخضر أو هضبة أو سياج، لكنْ،

لاشيء من هذا كلّه، وتبتدىء من جديد كتل المباني الحجرية الضخمة المتشابهة، التي تحتوي أربعة صفوف من النوافذ. ها قد انتهى هذا الشارع أيضاً؛ لكنّ شارعاً آخر يعترضه بنفس المواصفات. تتطلّع الى اليمين واليسار، فلاترى إلا المباني الحجرية الضخمة المتشابهة المتجمعة حولك كالعمالقة، بيوت، بيوت وبيوت، حجارة وحجارة، وكلها تشبه بعضها. فلا وجود لأفق رحب، ولامجال لأن يأخذ النظر مداه: كل شيء محصور من كل الجهات. يبدو أن الأفكار والمشاعر الإنسانية محصورة هي الأخرى هنا أيضاً.

كانت انطباعات الريفي الأولى في بطرسبورغ صعبة مضنية. أحسّ بالوحشة والأسى، إذ ما من أحدٍ يلاحظ وجوده، فقد ضاع هنا تماماً. لم تستطع المفاجآت والتنوع، ولاحشود الناس أن تسلّيه أو ترفّه عن نفسه. أنانيته الريفية وضَعَته في صراع ضدّ كل مايراه هنا ومالم يكن قد رآه في الريف. استغرق في تفكيره، الذي حمله بعيداً الى مدينته النائية، التي درس فيها. يالها من مدينة آسرة! تذكر المنزل ذا السقف المدبب وحديقته الرائعة من شجر الأكاسيا. على سطح البيت، ملحق مخصّص للحمام، - حيث كان التاجر إيز يومين مولعاً بكش الحمام: لذا فإنه بنى خصيصاً لذلك برج حمام على السطح؛ كان يمضي الأصباح والأمسيات معتمراً قلنسوته ولابساً رداءه، وهو يقف على السطح ممسكاً بيده عصا غليظة رُبطَت في نهايتها قطعة من القماش، فيصفّر ويكشّ الحمام بعصاه. تذكر منزلاً آخر يشبه المنارة: النوافذ فيه تطلّ على كافة الجهات، سطحه مستوٍ، بناؤه قديم جداً، حيث يبدو للناظر وكأنه على وشك ان يتهدّم أو يحترق من تلقاء ذاته: فألواح الخشب كانت من اللون الرمادي الناري. العيش في بيتٍ كهذا يبعث الخوف في النفس، لكنْ، رغم ذلك كله، هناك أناس يعيشون فيه. ينظر صاحب البيت أحياناً الى السقف المائل ويهزّ رأسه قائلا: هل سيصمد حتى الربيع؟ عسى ولعلّ! -يقول بعد ذلك ويتابع العيش فيه خائفاً، ليس على نفسه، بل على جيبه. بالقرب منه يزهو ببهاء بيت الطبيب، الممتد على شكل نصف دائرة، مكوناً جناحين يشبه كلٌ منهما

twitter @baghdad_library

المظلة الواقية، وقد حجبتهما الأشجار والخضرة من كل الجهات؛ الجانب الخلفي لأحد الجناحين يستدير للشارع، الذي ينفصل عنه بسور يمتد مسافة فرسخين، ومن وراء السور تطل بسحرها من بين الأشجار تفاحات وردية اللون تغري الأولاد. . . أما المنازل فقد ابتعدت عن الكنائس مسافة كافية، تعبيراً عن الاحترام وإقراراً بالقدسية. حول الكنائس ينمو عشب كثيف وتتناثر بلاطات أضرحة الموتى. أما الدوائر الحكومية، فيسهل تمييزها بوضوح: لايقترب أحد منها إلا عند الضرورة. أما هنا في العاصمة، فلايستطيع المرء تمييزها عن بيوت السكن العادية البسيطة، ناهيك عن أن المخازن موجودة فيها أيضاً، الأمر الذي يعاف المرء ذكره. تتجول هناك في المدينة، وتجتاز شارعين أو ثلاثة، فتحس بعدها بالهواء النقي العذب، وتبتدىء الأسيجة المصنوعة من الأغصان المجدولة، التي تمتد وراءها الحواكير ومن بعدها الحقول الساحرة الأخاذة. أما الصمت والسكون، فيضفيان على الحياة هناك طابعاً يحسّ المرء من خلاله في الشارع وعلى وجوه الناس بنوع من الهدوء الهانىء العذب. الناس جميعاً يعيشون بحرية، لايضايقهم شيء ولا ينغّص عيشهم مكروه، حتى الدجاجات والديكة يسرحون بحرية في الشوارع، أما العنزات والبقرات فيقضمن العشب، بينما يطلق الأولاد الأفاعي.

أما هنا. . . فيا للملل! ياللكآبة! يشعر الريفي بالضيق من السور، الذي يحجب الرؤية قبالة نافذته، ومن الشارع المغبرّ الوسخ والجسر المهتز ومن يافطات مخازن الأغذية. يعاف المرء أن يقرّ ويعترف بأن كاتدرائية إسحاق، هي أجمل وأكثر ارتفاعاً من كاتدرائية مدينته، وأن صالة اجتماع النبلاء، هي أكبر من صالات مركز محافظته. فهو يصمت بغضب لدى إجراء هذه المقارنات، حتى أنه يجازف أحياناً ويقول، إنه يستطيع أن يحصل في مدينته بسعر أرخص وبمواصفات أفضل على هذه المادّة أو تلك، وعلى ذاك النوع من النبيذ. تراهم يفاخرون هنا بهذه السرطانات والمحارات البحرية والأسماك الحمراء، التي يعاف المرء ان ينظر إليها عندنا هناك، كما يتباهى الناس في بطرسبورغ بتوفر السلع والتحف الأجنبية الفاخرة النادرة، حيث يستطيع المرء - على حدّ زعمهم- ان يشتري من الأجانب

بحرية مختلف أنواع البضائع وأدوات الزينة، وهل هذا مدعاة للتفاخر! فالأجنبي ينهب الناس هنا، لكنهم للأسف يُسَرّون لأنهم أصبحوا بلهاء! لكنْ، كم يحس الريفي بالسرور عندما يقارن ويجد أنّ الكاڤيار والأجاص في مدينته أفضل ممّا هو موجود هنا. «هذا هو الأجاص الموجود عندكم؟ - يقول هو- يعاف الناس عندنا أن يأكلوا صنفاً كهذا!..» كم يحزن الريفي بشدة، عندما يدخل أحد هذه البيوت ليوصل رسالة حملها من مكانٍ بعيد. فهو يعتقد أن مضيفيه سيستقبلونه بالأحضان وسيبدون له من كرم الضيافة وحسن الوفادة مايعجز المرء عن وصفه؛ سيسألونه باهتمام عن وجبات الطعام، التي يحبها ليقدموها له، وسيجلسونه في المكان اللائق به ويرحبّون به كثيراً، وسيحسّ عندئذ بالخجل الزائد من كثرة الكرم واللطف، وسيتحرر في النهاية من الحرج، فينهض ويقبّل صاحب البيت وصاحبته ويخاطبهما بضمير أنت، كما لو أنه يعرفهما منذ عشرين سنة، وسيتناولون المشروبات الكحولية سويّة، ولربما سيغنّون بصورة جماعية.

أين هذا كله! تراهم ينظرون إليه شزراً، بوجوه عابسة، فيعتذرون عن استقباله متذرّعين بأعمالهم وأشغالهم؛ يحدّدون له موعداً خارج أوقات الغداء والعشاء لأنهم لايعرفون إكرام الضيف، فلايطعمون ضيفاً ولايسقون عطشاناً. يتفادى صاحب البيت العناق وينظر الى ضيفه باستغراب. يسمع الضيف رنين الملاعق وقرقعة الصحون في الغرفة المجاورة، لكنّ صاحب البيت يحاول بشتى التلميحات طرد الضيف، عوضاً عن توجيه الدعوة له الى الغداء أو العشاء... الأجراس هنا موجودة في كافة أنحاء البيت، وكلّ شيء تحت القفل: أليس شُحاً هذا؟ كم هي باردة ومجرّدة من السمات الإنسانية هذه الوجوه هنا. أما هناك عندنا، فيدخل الضيف البيت بجرأة، فإذا صادف أنْ تناول أصحاب البيت طعام الغداء، فإنهم يتغدّون ثانية إكراماً للضيف. السماور على الطاولة صباحاً ومساء، ولاوجود للأجراس حتى في المخازن.

الناس عندنا يتعانقون بحرارة ويتبادلون القبل. الجار هناك - جار حقيقي:

twitter @baghdad_library

فهو يتضامن مع جاره بقوّة أثناء الملمّات وعند الحاجة؛ والقريب- قريب حقيقي: تراه مستعداً دائماً لأن يموت من أجل قريبه... آه. كم يبعث الوضع هنا على الأسى! سار ألكسندر حتى بلغ ساحة إدارة الأسطول البحري، وبقي مذعوراً في مكانه. توقّف ساعة بكاملها أمام تمثال الفارس النحاسي، لكنْ دونما شعور بمرارة في نفسه، كما أحسّ يفغيني المسكين، بل باندهاشٍ وإعجاب عظيمين. نظر الى نهر النيڤا، الذي يجاور مبنى إدارة الأسطول فالتمعت عيناه، أحسّ بالخجل فجأة لشغفه بالجسور الهزّازة و الجنينات والأسوار المتهدمة. شعر بالفرح والارتياح. اكتسبت الجلبة والضوضاء وحشود الناس في عينيه معنى جديداً آخر. لاحتْ من جديد، الآمال الباسمة، التي كان يعكر صفوها لبعض الوقت، انطباع حزين؛ صارت الحياة الجديدة تفتح له ذراعيها وتجذبه، لكنه لم يستطع أن يتبين بوضوح ماهية هذا الشيء، الذي كان ينشدّ إليه. خفق قلبه بقوّة. كان يحلم بعمل شريف نبيل وبأهداف سامية، وصار يمشي في شارع نيفسكي مزهواً بنفسه ومعتبراً، أنه قد أصبح مواطناً في هذا العالم الجديد... عاد الى البيت وهو في غمرة هذه الأحلام.

في الحادية عشرة ليلاً استدعاه عمّه لتناول الشاي.

- عُدْتُ لتوي من المسرح، قال عمه وهو مضطجع على الأريكه.

- يؤسفني ياعماه أنك لم تقل لي قبل الآن: لو كنتُ أعلم أنك ذاهب الى المسرح، لكنتُ ذهبتُ معك.

- لم يكن بحوزتي إلا بطاقة واحدة، هل كنتَ ستجلس على ركبتي؟ قال بطرس ايڤانيتش.

- اذهب غداً بمفردك.

- يشعر المرء بالأسى عندما يكون وحيداً وسط الناس ياعمّاه، لأنه لايوجد من تتبادل الانطباعات معه...

- لاحاجة لأحد! يجب على المرء ان يتعلّم كيف يحسّ ويفكر ويعيش

بمفرده، فهذا ما سيحتاجه مع الزمن. زد على ذلك، أنه ينبغي أن ترتدي بدلة أنيقة قبل أن تفكر بالذهاب الى المسرح.

نظر ألكسندر الى ملبسه وأبدى استغرابه لملاحظة عمه. «أليس ملبسي لائقاً؟ فكّرهو. - السترة زرقاء والبنطال أزرق أيضاً...».

- لديّ كثير من البدلات ياعمّاه، - قال هو، - كلها من خياطة كينيغشتاين، انه أفضل خيّاط عندنا في المقاطعة كلها، فهو الذي يخيط بدلات المحافظ.

- لاضرورة لذكر ذلك، ملبسك ليس لائقاً، سآخذك خلال فترة قريبة الى خيّاطي الخاص؛ هذه ترّهات لن نتحدث عنها طويلاً. هناك أمور أكثر أهمية يمكننا التحدث عنها. قل لي، لماذا أتيت الى هنا؟

- أتيتُ... لأعيش.

- لتعيش؟ إذا كنتَ تقصد المأكل والمشرب والنوم، فلم يكن ضرورياً ان تقطع هذه المسافة الطويلة كلها من أجل ذلك، لأنه لن يتيسر لك أن تأكل وتنام هنا بنفس الشروط المتوفّرة لك هناك في بيتك؛ أما إذا كنت تقصد شيئاً آخر، فأوضحه لي.

- أريد أن استفيد من فرص الحياة هنا، هذا ماوددتُ أن أقوله، - أضاف ألكسندر وقد احمرّ خجلاً، - سئمت الحياة في القرية - كل شيء رتيب وممل هناك...

- آ! هكذا إذن! حسناً! أتيت لتستأجر شقة في شارع نيفسكي وتقتني عربة، وتكوّن شلّة واسعة من المعارف والأصدقاء وتقيم حفلات استقبال هنا؟

- هذا يكلّف كثيراً جداً. - علق الكسندر بسذاجة.

- أمك تكتب لي، أنها أعطتْك ألف روبل: وهذا مبلغ بسيط جداً، قال بطرس إيڤانيتش. - منذ مدّة قريبة قدم أحد معارفي الى بطرسبورغ. وكان هو

twitter @baghdad_library

الآخر أيضاً قد سئم الحياة في الريف، فقد جاء ليستمتع بالحياة، هنا، لذا، فإنه جلب معه خصّيصاً لذلك خمسين ألف روبل، وسيحصل على نفس هذا المبلغ أيضاً كل عام. ستتوفر له فرصة الاستمتاع بالحياة هنا حتماً، أما أنت - فلا! ليس من أجل هذا أتيت.

- يُستنتج من كلماتك ياعمّاه، وكأني لا أعرف لماذا أتيت الى هنا.

- هكذا تقريباً؛ لقد عبّرت الآن بشكل صحيح: استنتاجك هذا صائب؛ لكنك لم تتصرّف بشكل صحيح. أيُعقل أنك لم تطرح على نفسك السؤال التالي، عندما عزمتَ على السفر الى هنا: لماذا أنا مسافر؟ لو فعلت، لما كان سؤالك في غير محلّه مطلقاً.

- قبل أن أطرح هذا السؤال، كان الجواب عليه جاهزاً عندي! - أجاب ألكسندر بزهوّ.

- لماذا تمسك عن الكلام إذن؟ لماذا أتيت؟

- طموح قويّ شدّني للسفر الى هنا، وتعطّش كبير لممارسة نشاط نبيل شريف، دفعني أيضاً للمجيء الى بطرسبورغ؛ كانت الرغبة تجيش في أعماقي كي أستجلي وأحقق... نهض بطرس إيفانيتش قليلاً عن الأريكة، فنزع السيجارة من فمه وأصاخ السمع.

- وأحقق تلك الأحلام والآمال، التي كانت تتدافع في مخيلتي...

- ألا تكتب الشعر؟ - سأل بطرس إيفانيتش فجأة.

- والنثر ياعمّاه؛ أترغبُ بأن أجلب لك الآن شيئاً؟

- كلا، كلا!... في وقتٍ آخر، إنه مجرّد سؤال لا أكثر.

- لماذا تسأل إذن؟

- لأنك تتكلم بطريقة تكشف عن...

- وهل هذا غير حسن؟

-كلا . - ربّما يكون الأمر حسناً جداً .

- (باضطراب) هذا ماقاله أستاذنا في علم الجمال، الذي يعتبر أفصح أستاذ عندنا، - قال ألكسندر .

- عن أي موضوع كان أستاذك يتحدث هكذا؟

- عن مادّته .

- ها!

- كيف ينبغي أن أتحدث ياعمّاه؟

- بأسلوبٍ مبسط، مثلما يتحدث الجميع، لا كما يتحدّث أستاذ علم الجمال. بالمناسبة، يستحيل توضيح هذا الأمر فوراً؛ ستدرك الأمر بنفسك لاحقاً. ماتريد ان تقوله كما يبدو لي، - إذا أسعفتني الذاكرة في استرجاع محاضرات الجامعة وترجمة كلماتك، - هو أنك أتيت الى هنا لتبني مستقبلك وتجرّب حظّك، أليس كذلك؟

- أجل ياعمّاه، أتيتُ لأبني مستقبلي .

- وتجرّب حظّك، - أضاف بطرس إيفانيتش، - أي مستقبل ستبني دون حظّ؟ الفكرة جيّدة- لكن . . . عبثاً أتيت .

-لماذا؟ آمل، أنك لاتقول هذا، انطلاقاً من تجربتك الخاصة، - قال ألكسندر وهو يتطلّع حوله .

- ملاحظة ذكيّة. بالفعل، لقد دبّرت أموري جيّدا، وأعمالي ليست سيئة. لكنّ الفارق بيني وبينك - كبير جداً، كما أرى .

- لا أجرؤ على مقارنة نفسي بك .

twitter @baghdad_library

- المسألة ليست هكذا، ربما تكون أفضل وأكثر ذكاء مني بعشر مرآت. . . - يبدو لي، أنّ طبعك ليس من النوع الذي يستسلم للنظام الجديد، أسلوب الحياة هنا صعب وشاق! أنت مُدلّل ورقيق، اعتدت على أن تلبي أمّك طلباتك كلها؛ أنى لك أن تصمد مثلي على مواجهة واحتمال مالقيتُ من مصاعب؟ لابّد أنك من النوع الحالم، ولا وقت للأحلام هنا؟ أمثالي يأتون إلى هنا ليقوموا بعمل.

- ربما أستطيع القيام بعمل ما، إذا لم تبخل عليّ بنصائحك وتجربتك.

- أخشى تقديم النصيحة إليك. أنا لا أضمن طبعك الريفي: قد لاتستطيع تحقيق شيء - ستضع اللوم عليّ عندئذ، أما وجهة نظري فلن أمتنع عن البوح بها، وسأقولها علانية، سواء أخذت بها أم لم تأخذ. لكنني لا أتوقع لك النجاح. وجهة نظرك عن الحياة، صيغتْ في إطارٍ محدّد: فهل يمكن إعادة صياغتها؟ لقد تَولّعتَ بالحبّ والصداقة ومباهج الحياة والسعادة؛ يعتقد الكثيرون أنّ الحياة تكمن في هذه الجوانب فقط: آهٍ ثم آه! تراهم يذرفون الدموع ويئنّون ويجاملون ويلاطفون، دون ان يفعلوا شيئاً آخر. . . كيف أستطيع أن أحملك على ترك هذا كله؟ صعب!.

- سأحاول ياعمّاه أن أتطبّع بالمفاهيم المعاصرة. فكّرتُ اليوم، وأنا أنظر الى هذه المباني الضخمة والسفن، التي تحمل إلينا الهدايا من بلدان بعيدة، بنجاحات الإنسانية المعاصرة، وأدركتُ قلق هذه الحشود العاقلة النشطة، وأبديتُ استعدادي لأن أتّحَد بها. . .

لدى سماعه هذه المناجاة، رفع بطرس إيفانيتش حاجبيه بصورة ملحوظة، وراح ينظر الى ابن أخيه. توقف ألكسندر.

- المسألة تبدو بسيطة، - قال العم، - لكن، الله وحده يعلم بمَ تفكر هذه الحشود. . . «تعتقد ان هذه الحشود البشرية عاقلة نشطة!!». أعتقد أنه كان من الأفضل لكن أن تبقى في القرية. كنت تستطيع ان تعيش حياتك هناك بنعيم: لأنك ستكون هناك أذكى من الجميع، ولربما ذاع صيتك ككاتب وإنسانٍ فصيح يثق

بالصداقة الأبدية الدائمة وبالحبّ الأزلي الجارف وبالقرابة والسعادة؛ كنت ستتزوج وتمضي حياتك حتى الشيخوخة، دون أن تشعر بالمصاعب والأعباء، فتعيش هانئاً سعيداً على طريقتك الخاصة؛ أما هنا، فلن تكون سعيداً: لأنّ الأمر يتطلبّ منك أن تقلب هذه المفاهيم كلها رأساً على عقب.

- كيف ياعمّاه، وهل الصداقة والحبّ والوفاء - هذه المشاعر السامية المقدّسة، التي سقطت من السماء الى القذارة الأرضية بطريقة أقرب ماتكون الى المصادفة.

-ماذا؟

صمت ألكسندر.

- «سقط الحب والصداقة والوفاء من السماء الى القذارة!» كيف تسمح لنفسك أن تقول كلاماً كهذا؟

- أردت ان أقول: ألا تحمل هذه المفاهيم الإنسانية هنا أيضاً، نفس المعاني التي تحملها عندنا هناك؟

- يوجد هنا أيضاً حب وصداقة، - وهل ينتفي هذا الخير من أي مكان؟ بيد أن الأمر هنا، مختلف عما هو عندكم هناك في الريف؛ ستتأكد من هذا بنفسك مع الزمن... عليك أن تنسى أوّلاً هذه المشاعر السماوية المقدّسة، وانظر الى الأمور بصورة أبسط، كما هي في الواقع، وأرى انه من الأفضل بالنسبة لك، ان تتكلّم أيضاً بأسلوب أكثر بساطة. بالمناسبة، هذا ليس شأني. أتيتَ الى هنا وأراك لاتفكّر بالعودة: إذا لم تعثرْ على ماتريد، فلاتلمْ إلا نفسك. أحذّرك الآن من عواقب الأمور، فأنا صريح معك حتى النهاية، وسأقول لك: هذا جيدّ وذاك رديء - من وجهة نظري بالطبع - بعدها، افعل ماشئت، لربما تستطيع أن تفعل شيئاً! أجل! طلبتْ منّي تزويدك بالنقود... أتعرف ماسأقوله لك: لاتطلب مني نقوداً، إنها تُفسد العلاقة دائماً بين الناس الشرفاء المخلصين، إيّاكَ أن تعتقد، بالمناسبة، أنني

twitter @baghdad_library

أرفض تقديم العون لك : كلا ، عندما تعدم الوسائل كلها ، توجّهْ إليّ عندئذ . من الأفضل لك ، على الأقل ، أن تستدين من عمّك ، على ان تأخذ من شخص غريب ، فسأقرضك دون فائدة مئوية ، لكنْ ، من أجل ان أجنّبك هذه الحاجة القصوى ، سأعثر لك قريباً على عمل يدرّ عليك دخلاً . إلى اللقاء تعال إليّ في الصباح ، لنتحدث كيف نبدأ .

- تأهّب ألكسندر فيدوريتش للذهاب الى البيت . استوقفه عمّه قائلاً :

- اسمعْ ، ألاتريد أن تتعشى؟ - سأله بطرس إيڤانيتش .

- أجل ياعمّاه . . . كنتُ أريد أن أقول لك . . .

- لايوجد شيء لديّ .

صمتَ ألكسندر . «علامَ هذا الإقتراح المنّان إذن؟» - فكّر هو .

- أنا لا أتناول الطعام في البيت ، وبالتالي ، لا أقتني المأكولات ، أما المطاعم فمغلقة الآن ، - تابع العم - هذا هو الدرس الأول لك - عليك ان تتعوّد . الناس في الريف عندكم يستيقظون وينامون مع الشمس ، ويأكلون ويشربون حسب مقتضيات الطبيعة ؛ عندما يحلّ الصقيع ، يعتمر الواحد منهم غطاء الرأس ويفكّ واقي الأذنين ، كي يحمي نفسه من غائلة البرد الشديد ، ولا يريد أن يعرف شيئاً أكثر من هذا ؛ يحلّ الضياء ، هذا يعني أنّ الوقت نهار ؛ يخيّم الظلال - هذا يعني أن الوقت ليل . أنظر إليك الآن ، فأرى عينيك تتغامضان ، في الوقت الذي أستعد فيه للعمل ، إذ ينبغي عليّ أن أنهي الحسابات قبل نهاية الشهر . تستنشقون هناك في الريف عندكم ، على مدار السنة كلها ، هواء نقياً عذباً ، بينما تكلّف متعة كهذه كثيراً من النقود هنا - كل الأمور الأخرى على هذا المنوال ! الناس مختلفون تماماً هنا ! سكان العاصمة هنا لايتناولون طعام العشاء ، خاصّة إذا كان على حسابهم الخاص ، وهذا ماينطبق عليّ أيضاً . حتى أن هذا الأمر مفيد لك : فلن تئن وتتقلّب في النوم ، وليس لديّ وقت كي أرسم فوقك علامة الصليب .

- التعوّد على هذا سهل ياعمّاه . . .

- حسناً، مادام الأمر هكذا . لكنني أرى، أنّ تصرّفاتك كلها ماتزال وفق الطريقة القديمة : أيُعقل ان تأتي لزيارة أحدٍ ما ليلاً وتتوقع من المضيف تحضير العشاء في مثل هذا الوقت؟

- مادا تقول ياعمّاه؟ آمل، أننا سنتفق على عدم انتقاد هذه المزيّة الرائعة . الكرم فضيلة مميزة للإنسان الروسي .

- كفى! أيّ فضيلة هنا! الناس عندكم في الريف، يُسرون من شدّة الضجر، بقدوم أي سافل : «مرحباً بك، كُلْ قدر ماتريد، شريطة أنْ تملأ فراغنا وتُسلينا بطريقةٍ ما، ساعِدنا في قتل الوقت ودَعنا ننظر إليك : يوجد شيء جديد، ومادام الأمر هكذا، فإننا لانأسف على مانقدم من أطعمة : الطعام عندنا هنا لايساوي شيئاً ولاقيمة له . . . هكذا يقال عندكم» . كم هي شنيعة هذه الفضيلة!

تمدّد ألكسندر لينام، وهو يحاول جاهداً أن يعرف الى أي نموذج من الناس ينتمي عمه . تذكر حديثهما كله؛ لم يفهم الكثير منه، ولم يقتنع بالقسم المتبقّي أيضاً .

«يستهجن حديثي! - فكر هو . - أليس الحب والصداقة أبديين؟» . «ألا يقول عمي كلامه على محمل السخرية؟ هل يعقل أن يكون مثل هذا النظام سائداً هنا؟ ما الشيء الذي أعجب صوفيا فيّ بوجه خاص، غير موهبة الكلام؟ هل حبها غير أبدي؟ . . . هل يعقل ان الناس هنا لايتناولون طعام العشاء حقاً؟» .

ظلّ يتقلّب في الفراش طويلاً : فرأسه المليئة بالأفكار المقلقة ومعدته الخاوية لم تجعلاه ينام .

انقضى أسبوعان .

صار بطرس ايڤانيتش يرضى أكثر فأكر عن ابن أخيه .

twitter @baghdad_library

- عنده لباقة وذوق، - قال العم لأحد شركائه في المصنع، - وهذا مالم أكن أتوقعه من فتى ريفي. لايزعجني ولايفرض نفسه عليّ، ولايزورني إلاّ بدعوة، يغادر على الفور بمجرد أن يلاحظ، أن وجوده غير مرغوب فيه؛ لم يطلب مني نقوداً: إنه فتى وديع هادىء. تبدر عنه بعض التصرّفات الغريبة... كأنْ يحاول أن يقبّلني، كما يفعل تلميذ المدرسة... لكنه سيعدل عن هذا: أروع مافيه، كونه ليس عالة عليّ.

- هل توجد لديه ثروة؟ -سأل ذاك.

- كلا؛ حوالي مائة نفس فقط.

- غير مهمّ مادام يملك الإمكانية والموهبة، فسيشق طريقه هنا... لم تبتدىء أنت إلاّ من القليل، وها قد أصبحت تملك والحمد لله...

- كلا! لن يفعل شيئاً. هذا الحماس الأحمق، لايصلح لشيء، آهٍ، ثم آه! لن يألف النظام السائد هنا؛ أنى له أن يبني مستقبله! مجيئه الى بطرسبورغ عبث بعبث... لكنّ المسألة تخصّه وحده.

كان ألكسندر يعتبر أن حبّ عمه واجب عليه، لكنه لم يستطع بحالٍ من الأحوال، أن يتعود على طبعه ولا على نمط تفكيره.

«عمي إنسان طيب كما يبدو، - كتب ذات صباح الى باسبيلوف، - حادّ الذكاء، لكنه عادي جداً، تراه غارقاً دائماً في أعماله وحساباته... روحه مُسَمَّرَةٌ الى الأرض، ولن تسمو عالياً أبداً كي تتأمل ظواهر الإنسان الروحية الخالصة، المنزهة عن المشاحنات الأرضية. السماء من وجهة نظره، متصلة بالأرض بصورة لاتنفصم، ولن تتحد روحانا كما يبدو لي، أبداً. كنتُ أعتقد، وأنا في طريقي الى بطرسبورغ، أنه سيجد لي كعمّ مكاناً في قلبه وسيجعلني أشعر بالدفء في أحضانه وسط هذه الحشود الباردة من الناس هنا، وسيمنحني صداقته الحميمة، فالصداقة كما تعلم، هي العناية الإلهية الثانية! اتّضح لي فيما بعد، أنه ليس إلاّ تعبيراً

حقيقياً عن حشود الناس هذه، لا أكثر. كنتُ أعتقد، أننا سنمضي الوقت معاً، وأنه لن يتركني بعيداً عنه دقيقة واحدة، لكنْ، ماذا صادفت؟ لم ألق منه إلاّ نصائح باردة يعتبرها ذكية حاذقة. ليس متكبّراً، لكنه عدوّ الإنفعالات الصادقة كلها؛ لانتناول الغداء ولا العشاء معاً، ولانذهب سويّة الى أي مكان. عندما يعود الى البيت، لايذكر مطلقاً أين كان، ولايتحدث عما فعل، كما أنه لايذكر بتاتاً المكان الذي سيذهب إليه ولا الغرض من ذهابه. لايتحدث عن معارفه، ولايلمّح أبداً إن كان قد أمضى وقته بمتعة ام لا. لايراه المرء غاضباً ولا لطيفاً، لا حزيناً ولا مسروراً. لايعرف قلبه انفعالات الحب والصداقة، ولا الرغبة في نشدان كل ماهو رائع وجميل. غالباً ما أتكلم وأتكلم كنبيٍ ملهم، مثلما كان يتكلّم تقريباً إيڤان سيمينتيش العظيم الخالد، عندما كان يدوّي بصوته من على المنصة، ونحن نهتزّ ونرتعش تحت تأثير نظراته وكلماته النارية، لكن أين عمي من هذا كله؟ تراه يصغي رافعاً حاجبيه، ثم ينظر باستغراب، أو يضحك، على طريقته الخاصة، ضحكاً يتجمد من هوله الدم في عروقي - وعندها، وداعاً أيها الإلهام! أرى فيه أحياناً شيطاناً من النمط البوشكيني... لايؤمن بالحب، ولا بأية قيم روحية أخرى؛ يقول أنْ لاوجود للسعادة، وأنّ أحداً لم يَعد بها، فلا توجد -حسب زعمه- إلا حياة عادية تنقسم بالتساوي الى خير وشر، الى لذة ونجاحٍ وصحّة وهدوء، ومن ثم الى كدر وفشل وقلق ومرض... الخ، ويضيف قائلاً إن على المرء ان ينظر الى هذا كله ببساطة، دون أن يُتعب رأسه بتساؤلات من نوع: لماذا خُلقْنا، ماهو الغرض من وجودنا، ما الأهداف، التي نسعى لتحقيقها، - فهذا ليس من شأننا، كما يقال، لأنّ هذه التساؤلات لاتفيدنا شيئاً، فهي تصرفنا عن إنجاز أعمالنا تماماً... لايتحدث إلاّ عن العمل! لايستطيع المرء ان يُميز إنْ كان واقعاً تحت تأثير لذةٍ ما، أو قضية عاديّة: إنه لاينفعل بشيء، فهو في المسرح مثلما يكون أثناء تدقيق حسابات المصنع، يبدو لي، أنه لايحبّ كل ماهو سامٍ ورفيع، فروحه لاتعرف شيئاً من هذا؛ أعتقد، أنه لم يقرأ حتى بوشكين...».

دخل بطرس ايڤانيتش غرفة ابن أخيه فجأة، فأدركه وهو يكتب الرسالة.

twitter @baghdad_library

- أتيتُ لأرى كيف رتبت أمورك هنا، -قال العم، - ولأتحدث إليك عن العمل. قفز ألكسندر وأخفى بيده بسرعة، شيئاً ما.

- اخف، اخف سرك! قال بطرس إيڤانيتش، - سأدير وجهي جانباً. هل خبأت ماتريد؟ ماهذا الشيء الذي سقط؟ ماهذا؟

- لاشيء ياعمّاه. . . - بدأ ألكسندر، ثم ارتبك وصمت.

- خصلة شعر! صحيح، لاشيء! مادمتُ قد شاهدت أحد أسرارك، فينبغي أن تريني الشيء الذي أخفيته في يدك.

فتح ألكسندر يده، بصورة لا إرادية، كالتلميذ المذنب، فكشف عن خاتم.

- ماهذا؟ من أين؟ سأل بطرس ايڤانيتش.

- هذا ياعماه، رمز مادي. . . لعلاقة غير ماديّة. . .

- ماذا؟ ماذا؟ أعطني هذا الأمر. . .

- إنه أمانة. . .

- هل حملته من القرية حقاً؟

- أعطتني إيّاه صوفيا للذكرى، ياعمّاه. . . أثناء الوداع. . .

- هكذا إذن! وحَمَلْتهُ مسافة ألف وخمسمائة فرسخ؟

هزّ العمّ رأسه.

- كان من الأفضل ان تحمل كيساً من توت العلّيق المجفّف: كان بوسعنا على الأقل أن نبيعه، أما هذه الأمانة.

صار يتفحص خصلة الشعر تارةً والخاتم تارة أخرى؛ شمّ خصلة الشعر، بينما صار يزن الخاتم في يده. بعد ذلك، أخذ ورقة عن الطاولة وصرّ بها الغرضين وضغط على الورقة، فحولّها الى كتلة متراصة رماها عبر النافذة.

- عمّاه! - صرخ ألكسندر بغيظ، وهو يمسك عمّه بيده، لكنْ، كان الوقت قد أصبح متأخراً: كانت الكتلة المتراصّة تطير متجاوزة زاوية السطح المجاور، لتسقط بعدها على طرف زورق محمّلٍ بالآجر، كان متوقفاً في القناة، فترتد وتسقط في الماء.

نظر ألكسندر الى عمّه بصمت، وقد علا وجهه تعبير من الغضب واللوم المرير.

- عمّاه! - كرّر- هو.

- ماذا؟

- ماذا أسمي تصرفك هذا؟

- رمي رموز غير مادية وتفاهات لالزوم لها في غرفتك...

- تفاهات، هذه تفاهات!

- ماذا كنت تعتقد إذن؟ نصف قلبك؟... أتيتُ إليه لنتناقش في شؤون العمل، فإذا به يُضيع وقته في التفكير بالتفاهات!

- وهل يعيق هذا شؤون العمل ياعماه؟

- جداً. الوقت يمضي، وأنت لم تكشف لي بعد عن نواياك: لا أعرف إنْ كُنتَ تريد أن تمارس عملاً وظيفياً، أو أي عمل آخر - فلم تنبس ببنت شفه! كلّ هذا، لأنك مشغول بصوفيا، وبما أعطتك إيّاه. يبدو أنك تكتب رسالة إليها، أليس كذلك؟

- أجل... كنت قد بدأتُ...

- هل كتبت لأمك؟

- كلا بعد، كنت أريد أن أكتب غداً.

twitter @baghdad_library

- لماذا غداً؟ تريد أن تكتب لأمك غداً، فيما كتب اليوم الى صوفيا، التي يجب أن تنساها تماماً في غضون شهر . . .

- أنسى صوفيا؟ وهل يمكن نسيانها؟

- يجب أن تنساها. لو لم أرمِ العلامات، التي كانت في حوزتك، لكنتَ تذكرتها بعد شهر. لقد أدّيت لك خدمة مُضاعفة. بعد بضع سنوات، كان لابد ان تذكّرك هذه العلامات بحماقتك، التي كنت ستحمر منها خجلاً.

- أخجل من ذكرى مقدّسة غالية؟ هذا يعني عدم الإعتراف بالشعرِ . . .

- وهل يمكن ان يعثر المرء على الشعر في الحماقة؟ لنأخذ رسالة خالتك على سبيل المثال، اي شعر فيها؟ وردة صفراء؛ بحيرة، وأسرار . . . عندما بدأتُ بقراءتها، شعرتُ بغثيانٍ لايمكن وصفه! كدت أن أخجل، لو لم أكن قد أقلعتُ عن الخجل!

- هذا مخيف، مخيف ياعمّاه! هذا يعني، أنك لم تحبّ أبداً، أليس كذلك؟

- لم أكن أطيق علامات الذكرى هذه.

- هذه حياة خالية من التعبير! قال ألكسندر باضطراب شديد - هذا جماد، لا حياة! كيف يمكن أن يعيش المرء بلا إلهام ودموع ولوعة وحبّ . . .

- وبلا خصلة شعر! - أضاف العم.

- كيف تستطيع ياعمّاه ان تسخر ممّا هو أقدس وأسمى شيء على الأرض؟ هذا - جريمة . . . الحب . . . شعور مقدّس.

- أعرف هذا الحبّ المقدّس: مَنْ هم في مثل سنّك لايرون إلاّ خصلة الشعر والحذاء وحمّالة الجوارب، وعندما يصل الأمر الى لمس الأيدي - تسري رعشة تجتاح الجسد كله . . . حبّك، للأسف، مايزال في أحشاء المستقبل، لن تهرب منه، أما قضيتك فستضيع منك، إذا لم تعمل من أجلها بجدّ ونشاط.

- وهل الحب لايعتبر قضية؟

- كلا، إنه تسلية ممتعة، شريطة إلاّ يستلم المرء لها كلياً، وإلا فإنها ستتحول الى سخافة وحماقة. أخاف عليك من هذا.

هز العم رأسه.

- عثرتُ لك على عمل؛ ألا تريد ان تمارس عملاً وظيفياً؟ - قال العم.

- آه ياعمّاه، كم أنا مسرور!.

- ارتمى ألكسندر على عمّه وطبع قبلة على وجنته.

- عَثَرتَ على مناسبة - قال العمّ وهو يمسح وجنته - كيف لم احترس من هذا! اسمعني الآن. قل لي ماذا تعرف، - وأيّ نوع من الأعمال تجد في نفسك الكفاءة والمقدرة على القيام به؟

- أعرف علم اللاهوت، والقانون المدني والجنائي والطبيعي، كما أعرف أيضاً الدبلوماسية والاقتصاد السياسي والفلسفة وعلم الجمال، وعلم الآثار...

- كفى، كفى، هل تعرف كتابة الروسية بشكل صحيح؟ هذا مانحتاجه الآن أكثر من أي شيء آخر.

- ماذا تقول ياعمّاه، تسألني إنْ كنتُ أُجيد الكتابة بالروسية! - قال ألكسندر، ثم ركض الى درج الخزانة وبدأ ينبش منه أوراقاً مختلفة، في هذه الأثناء، التقط عمّه عن الطاولة رسالة كانت موجودة عليها وبدأ بقراءتها.

- ماذا تقرأ ياعمّاه؟ - قال ألكسندر بهلع.

- أقرأ رسالة كانت موجودة هنا على الطاولة، لابّد ان تكون موجهة الى صديقك اعذرني، أردت أن أرى كيف تكتب.

- وهل قرأتها؟

twitter @baghdad_library

- تقريبا، بقي خطّان فقط، - سأكملهما الآن، لقد انتهيت من قراءتها، لماذا تسأل؟ لا أسرار فيها، وإلاّ لما كنتَ قد تركتها هنا مرميةً هكذا. . .

- ماذا تقول عني الآن؟

- أقول، أنك تكتب بشكل صحيح وبأسلوب رشيق جميل . . .

- لم تقرأ إذن ماهو مكتوب فيها؟ - سأل ألكسندر بحماسٍ ونشاط .

- كلا، أعتقد أنني قرأتُ الرسالة كلها، - قال بطرس إيڤانيتش وهو ينظر الى الصفحتين، - تصف في البداية بطرسبورغ وانطباعاتك عنها، ثم تتحدث بعد ذلك عنّي .

- ياإلهي! - هتف ألكسندر وحجب وجهه بيديه .

-مابك ؟ ماذا جرى لك؟

- تسألني وتخاطبني بهدوء؟ ألست غاضباً مني؟ ألا تكرهني؟

- كلا! لماذا أغضب؟ وهل هناك مايدعو الى الغضب؟

- كرِّر ماقلته لي، طَمْئنّي .

-كلا، كلا، لست غاضباً منك إطلاقاً .

- أنا لا أصدق، أثبتْ لي ياعمّاه . . .

- أي برهان تريد؟

- ضمّني إليك .

- اعذرني، لا أستطيع .

- لماذا؟

- لأنّ تصرّفاً كهذا يعتبر خالياً من أيّ معنى، فالوعي لايدفعني لمسلك كهذا كما يقول أستاذك؛ لو كنت امرأة لكان الأمر مختلفاً: مثل هذا التصرف يمكن ان يتم معها، دون معنى، لكن، بدافعٍ آخر .

- بدافع الشعور ياعمّاه، الذي يجيش ويتطلّب انفعالاً وكشفاً عن العواطف.

- إنه لايجيش ولايتطلب انفعالاً عندي، وإذا ماجاش، فسأمتنع عن التعبير عنه، - وهذا ماأنصحك به أيضاً.

- لماذا؟

- كي لاتخجل لاحقاً من عناقك، بعد ان تكون قد تعرفت جيدا عن كثب على الشخص الذي عانقته.

- ألا يحدث ياعمّاه أن تصدّ شخصاً، ثم تندم على مافعلته لاحقاً؟

- يحدث؛ لهذا السبب بالذات، لا أصدُّ أحداً أبداً.

- لن تصدّني على مافعلت، ولن تعتبرني وحشاً؟

- من يكتبُ كلاماً فارغاً لايمكن اعتباره وحشاً. لو أخذنا بوجهة نظرك هذه، لأصبحت الوحوش لاتُعدُّ ولاتُحصى.

- لكنْ، أنْ يقرأ المرء عن نفسه مثل هذه الحقائق المرّة الصادرة عن قريب، فهذا شيء فظيع، أليس كذلك؟ خاصّة. إذا كانت صادرة عن ابن أخ.

- تتصوّر أنك كتبتَ الحقيقة؟

- آه ياعماه!... لقد أخطأت طبعاً... سأصحّح ماكتبت... أرجو المعذرة...

-أتريد أن أملي عليك الحقيقة؟

- تفضَّلْ ياعمّاه.

- اجلسْ واكتبْ.

أخرج ألكسندر صحيفة من الورق وتناول ريشة، فيما بدأ بطرس إيڤانيتش يملي عليه وهو ينظر الى الرسالة، التي قرأها:

twitter @baghdad_library

- «صديقي العزيز».

- كتب.

- «لن أصف لك بطرسبورغ وانطباعاتي عنها».

- «لن أصف . . . » - قال ألكسندر وهو يكتب.

« وُصِفَتْ بطرسبورغ منذ زمن بعيد، ومالم يوصف، فينبغي ان يراه المرء بنفسه؛ انطباعاتي لن تفيدك في شيء. فلا ضرورة لإضاعة الوقت عبثاً. الأفضل أن أصف لك عمّي، لأنّ الأمر يتعلق بي شخصياً».

- «أصف لك عمّي»، -قال ألكسندر وهو يكتب.

- ها أنت تكتب هنا، بأنني طيّب وذكي جداً- ربما يكون صحيحاً، وربما لا، من الأفضل أن نأخذ الوسط، اكتبْ:

« عميّ ليس غبياً ولا شريراً، إنه يريد الخير لي . . . ».

- عماه، أعرف كيف أقيّم الناس وأحسّ بهم . . . - قال ألكسندر، ثم مال نحو عمه ليقبله.

«ومع أنه لايضمني الى صدره»، - تابع بطرس إيڤانيتش، بعد ان جلس ألكسندر مكانه بسرعة، حيث لم يستطع ان يطال عمه.

«فإنه يريد لي الخير، لأنّ مامن سببٍ أو دافع يحمله على تمنّي الشرّ لي، ولأن أمي، التي فعلت له الخير في يوم من الأيام، قد طلبت منه الاهتمام بي أيضاً. يقول إنه لايحبّني - وهذا أمر مُعلّل: إذ كيف يستطيع المرء أن يحبّ في غضون أسبوعين، وأنا لم أحبه بعد، مع أني مقتنع بالعكس».

- كيف يمكن هذا؟ - قال ألكسندر.

- اكتبْ، اكتبْ:

«لكنّ كلاً منّا بدأ يتعود على الآخر. حتى انه يقول، ان نسيج علاقاتنا يمكن أن يتم دون حبّ. إنه لايجالسني ولايعانقني من الصباح الى المساء، لأن هذا غير ضروري إطلاقاً، زد على ذلك أنه لايملك الوقت لهذا الغرض».

- «إنه عدوّ الانفعالات الصادقة كلها»، يمكن ان نُبقي هذه العبارة: إنها جيدة. - هل كتبت؟

- كتبت.

- ماذا يوجد عندك هنا؟«روح عادية، شيطان . . . » اكتبْ.

بينما كان ألكسندر يكتب، تناول بطرس ايڤانيتش عن الطاولة ورقة طواها وأشعلها من الموقد، ثم أشعل منها سيجارة ورمى الورقة بعد ذلك وأطفأها.

«عمي ليس شيطاناً ولا ملاكاً، إنه انسان كباقي البشر، - أملى هو، - لكنه ليس مثلي ومثلك تماماً. إنه يفكر ويحسّ بطريقة دنيوية، مفترضاً أنه مادمنا نعيش على الأرض، فلا ينبغي أن نبتعد عنها ونطير الى السماء، التي لانُسأل عنها الآن، بل يجب علينا أن نزاول الأعمال الدنيوية المدعوّين لتحقيقها. ذلك هو السبب، الذي يجعله يغوص ويتعمق في الشؤون الدنيوية، أي في الحياة، لكنْ، في الحياة كما هي، لا كما نريدها أن تكون. إنه يؤمن بالخير والشر معاً، بالرائع والرديء. يؤمن بالحب والصداقة أيضاً، لكنه لايعتقد أنهما سقطا من السماء الى القذارة، بل يفترض أنهما قد وجدا مع الناس، ومن أجلهم، هكذا ينبغي أن يُفهما؛ يجب أيضاً، بوجهٍ عام، أن يتمّ تناول الأشياء كلها بإمعانٍ وتدقيق في إطارها الواقعي، لا في الإطار الوهمي المتَخيَّل. إنه يُسلّم بإمكانية التعاطف بين الناس الشرفاء، الذي يتحوّل مع الأيام، ومن خلال الإلفة، الى صداقة. لكنه يفترض أيضاً، أنّ الإلفة تفقد قوتها مع البعد، فينسى الناس بعضهم بعضاً وهذا الأمر لايعتبر جريمة إطلاقاً، لذا، فإنه مقتنع بأني سأنساك وتنساني. ربما بدا هذا الأمر بالنسبة لي ولك، غريباً، لكنه ينصح بأن نألف هذه الفكرة، كي لانصبح مُغفّلين. رأيه في الحب قريب من هذا، مع بعض التعديلات الطفيفة: إنه لايثق بوجود حبّ أبدي دائم - وهذا

twitter @baghdad_library

ماينصحنا بالوثوق فيه أيضاً. إنه ينصحني بالمناسبة، ألا يشغل هذا الأمر إلاّ حيزاً ضئيلاً من تفكيري، وأنا أنصحك بهذا أيضاً. هذا الأمر سينتهي من تلقاء ذاته، كما يقول، دون نداء، فالحياة، حسب قوله، لاتكمن في هذا الجانب وحده، فلكل شيء أوانه، لذا فإنه لمن السخف أن يمضي الإنسان حياته كلها وهو يحلم بأمر واحدٍ فقط. فأولئك الباحثون عن الحبّ، الذين لايستطيعون العيش لحظة واحدة بمعزل عنه، إنما يعيشون بقلوبهم فقط، وهذا أسوأ، لأن هذا كله يتم على حساب العقل. عميّ يحب ان يزاول عمله، الأمر الذي ينصحني به دائماً، وهو ماأنصحك به أيضاً: فنحن ننتمي الى مجتمع، - يقول عميّ، - هو بأشد الحاجة إلينا؛ لكنه لاينسى نفسه عندما يزاول عمله: فالعمل يجلب المال، والمال يؤمّنّ الراحة، التي يحبها كثيراً. زد على ذلك، أنّ لدى عميّ من العزيمة والرغبات، مالا يخولني على الأرجح، لأن أصبح خليفة له. عمّي لايفكر دائماً بوظيفته وعمله في المصنع، انه يحفظ بوشكين عن ظهر قلب...».

- أنت ياعمّاه؟ - قال ألكسندر بدهشة.

- أجل، ستتأكد من هذا في يوم من الأيام. اكتبْ.

«يقرأ بلغتين كل الروائع الصادرة في فروع العلوم الإنسانية كلها، ويحبّ الفنّ ويملك مجموعة رائعة من لوحات المدرسة الفلامندية - هذا هو ذوقه، - غالباً، مايتردّد الى المسرح، لكنه لايرتبك ولايئنّ ولايتذمر، معتبراً، أنّ هذا كله ضرب من التصرفات الصبيانية، التي يجب على الإنسان الناضج ان يمسك نفسه عنها، وأنْ لايفرض انطباعاته وأمزجته على أي كان، لأن الآخرين في غنى عنها. لايتفوه مطلقاً بكلمات نابية وينصحني بذلك، وأنا بدوري أنصحك أيضاً. وداعاً، اكتب لي نادراً ولاتضيِّع وقتك عبثاً. صديقك فلان». ضع الشهر وتاريخ اليوم.

- كيف يمكنني ان أبعث رسالة كهذه؟ - قال ألكسندر، - «اكتبْ لي نادراً» - كيف يمكن أن أكتب عبارة كهذه لإنسان قطع مسافة مائة وستين فرسخاً ليقول لي

وداعاً؟ كيف يمكنني ان أنصحه مراراً بأن يتصرف كذا وكذا، فهو ليس أقّل ذكاء منّي: لقد أحرز المرتبة الثانية أثناء تخرجه.

- لاتوجد حاجة ماسة طبعاً، لكن أُرسلها رغم ذلك: ربما يصبح أكثر ذكاء: قد تنوّه له بأفكار جديدة مختلفة؛ صحيح أنكما تخرجتما من الجامعة، لكن مدرسة الحياة ماتزال في البداية بالنسبة لكما.

- لا أستطيع أن أحسم الأمر ياعماه...

- أنا لا أتدخل في شؤون الغير أبداً، لكنك أنت الذي رجوتني بأن أفعل من أجلك شيئاً ما، وها أنا أسعى لتوجيهك على الطريق الحقّة الصحيحة، وأحاول ان أسهل عليك الخطوة الأولى، لكنك تعاند؛ افعلْ ماتريد، فأنا أُبدي رأيي فقط، لكنّني لن أجبرك، فأنا لستُ مربياً بالنسبة لك.

- أرجو المعذرة ياعماه؟ أنا مستعدٌ لأنْ أمتثل لرأيك، - قال ألكسندر، ثم أغلق الرسالة فوراً. أغلق الرسالة وصار يبحث عن الرسالة الأخرى الموجهة لصوفيا. نظر إلى الطاولة، فلم يعثر عليها، نظر تحت الطاولة، فلم يجدها أيضاً، بحث في الدرج، فلم يعثر على شيء.

-عمَّ تبحث؟ سأل العم.

- أبحث عن الرسالة الأخرى... الموجهة لصوفيا.

- صار عمه يشاركه في البحث أيضاً.

- أين اختفت؟ - قال بطرس ايڤانيتش - فأنا لم أرمها عبر النافذة...

- عمّاه! ماذا فعلت؟ أشعلت سيجارتك بها- قال ألكسندر بأسى، ثم التقط بقايا الرسالة المحروقة.

- صحيح؟ - هتف عمّه، -كيف فعلتُ هذا؟ لم ألاحظ أنني أحرقت شيئاً ثمينا كهذا... أتعرف، بالمناسبة، ماسأقوله لك؟ ماحدث، يعتبر من ناحية، أمراً حسناً.

twitter @baghdad_library

- آه ياعمّاه؛ أقسم، أنّ مافعلته لم يكن حسناً ولا من أية ناحية. . . - علقّ ألكسندر بيأس.

-مافعلته كان حسناً حقاً: لن تلحق ان تكتب إليها رسالة وترسلها في البريد التالي، إلا وتكون قد غيرت رأيك في حلول موعد البريد الذي يليه، لأنك ستكون مشغولاً عندئذ بالعمل الوظيفي، وهكذا تكون قد تفاديت إحدى حماقاتك.

- ماذا ستقول عنّي؟

- لتقل ماتشاء. أعتقد، أنّ مافعلته مفيد بالنسبة لها أيضاً. أظنّ أنك لن تتزوجها، أليس كذلك؟ ستقول في سرّها، إنك نسيتها، وستنساك هي الأخرى أيضاً، وستكون عندئذ أقل خجلاً أمام خطيبها المقبل، عندما تؤكد له، أنها لم تحب أحداً غيره.

- كم أنت إنسان غريب ياعمّاه! الثبات على العهد غير موجود في قاموسك، وقدسية الإلتزام بما يقطعه المرء على نفسه، أمر مرفوض بالنسبة لك. . . روعة الحياة ياعماه، أنْ تكون زاخرة بالمفاتن والنعيم، إنها أشبه ماتكون عندئذ بالبحيرة الساكنة الرائعة.

- (مقاطعاً) التي تنبت فيها ورود صفراء، أليس كذلك؟ -قال عمه.

- كالبحيرة الزاخرة بالأسرار المغرية، التي تخفي كثيراً من. . .

- من الوحل ياعزيزي.

- لماذا تريد أن تغرف الوحل ياعماه، لماذا تريد أن تحطم المسرات والآمال والسعادات كلها. . . لماذا تنظر الى الأمور من زاوية مظلمة قاتمة؟

- أنظر الى الأمور بمنظار واقعي - وأنصحك أيضاً أن تفعل هكذا: لن تكون مغفلاً عندئذ. الحياة، حسب مفاهيمك، تكون رائعة في الريف فقط، حيث لايعرف الناس معناها، حيث لايعيش اناس، بل ملائكة: زايزجالوف، على سبيل

المثال، قديس، وخالتك تملك روحاً سامية حساسة، وأظن ان صوفيا مغفلة كخالتك، ولربما تكون أيضاً . . .

- (بغضب) كفى ياعماه! - قال ألكسندر.

- أما الحالمون من أمثالك ايضاً، فإنهم يشمون كل نسمة هواء تسري، علهم يجدون فيها رائحة صداقة ثابتة دائمة وحب أزلي . . . أقولها للمرة المائة: عبثاً أتيت الى هنا!.

- ستؤكد لخطيبها أنها لم تحبّ أحداً غيره! - كان ألكسندر يحدِّث نفسه تقريباً.

- أراك تعود وتتمسك بأفكارك!

- أنا على يقين، أنها ستسلمه مباشرة، بدافع من صراحتها الأصيلة المعهودة، رسائلي كلها و . . .

- وعلامات الذكرى. - قال بطرس ايڤانيتش.

- أجل، وأسرار علاقاتنا . . . ستقول: « إنه أول من أيقظ أوتار قلبي ونبهها؛ إنه الإنسان، الذي كان مجرد ذكر اسمه أمامي، كافياً لأن تعزف أوتار قلبي لحناً سحرياً رائعاً . . . ».

بدأ حاجبا عمّه يرتفعان وصارت عيناه تتسعان. صمت ألكسندر.

- لماذا توقفت عن العزف على أوتارك؟ كم ستكون حبيبتك صوفيا مغفلة ياعزيزي، إذا تصرفت مثلما تقول؛ آمل ان تستطيع أمها أو أي شخص آخر، ثنيها عن فعل ذلك.

- كيف يمكنك ياعماه ان تعتبر هذا الإحساس الوجداني السامي، وهذه الصراحة الصادقة النبيلة، حماقة؟ ماذا تريدني ان أقول عنك؟

- قل ماتريد. قناعتك هذه ستجبر خطيبها على الشك في كل شيء. ومن المرجح ان تدفع الأمور إلى حد فسخ الخطوبة، لماذا؟ لأنكما كنتما تقطفان معاً

twitter @baghdad_library

الورود الصفراء . . . كلا، الأمور لاتتمّ هكذا. دعنا من هذا الآن. مادمت تستطيع ان تكتب باللغة الروسية بمثل هذا الأسلوب الرشيق الشيق - هيّا نذهب غداً الى الوزارة: لقد حدثّت زميلي السابق في العمل، رئيس القسم عنك؛ أخبرني، أنه توجد وظيفة شاغرة، لاداعي لإضاعة الوقت. . . ماهذا الكتاب الذي جلبته؟

- محاضراتي الجامعية. اسمحْ لي أنْ أقرأ لك بضع صفحات من محاضرةٍ ألقاها علينا ايڤان سيمينيتش عن الفنّ في اليونان. . .

كان قد بدأ يقلب الصفحات بسرعة.

-آه، أرجو أن تمنَّ عليَّ وتعفيني! - قال بطرس ايڤانيتش وقد قطب حاجبيه- ماهذا؟

- هذه أطروحتي. لديّ رغبة بأن أطلع رئيسي عليها؛ يوجد هنا مشروع صمّمته بنفسي. . .

- ها! مشروع صُمم منذ ألف عام، مشروع لايحتاجه أحد.

- ماذا تقول ياعمّاه! عُرض على شخصية هامة، محبة للعلم، فأُعجب به كثيراً ووجه الدعوة لي ولمدير الجامعة لتناول الغداء معه. وهذه هي بداية مشروع آخر.

-سأدعوك الى الغداء مرتين، شريطة ان تُعفيني من وصف المشروع الآخر.

- لماذا؟

-لأنك لن تكتب الآن شيئاً جيداً، فيما يضيع الوقت سدى.

- كيف! سمعتُ محاضرات عديدة قيّمة حول هذا الموضوع.

- ستحتاجها مع الزمن، أما الآن فينبغي عليك أن تهتم بقراءة وتعلم وتنفيذ مايُطلب منك فقط.

- كيف سيتعرف رئيسي على مواهبي؟

-سيتعرّف برمشة عين: انه ضليع في معرفة الناس. أيّ منصب تريد؟

- لا أعرف ياعمّاه...

- توجد المناصب التالية: - قال بطرس إيڤانيتش، - وزير، معاون وزير، مدير، معاون مدير، رئيس دائرة، معاون رئيس دائرة، رئيس شعبة، كما توجد مناصب لموظفين يقومون بمهمات خاصة، هل هذا قليل؟

استغرق ألكسندر في التفكير. احتار أيّ منصب يختار.

- أظن أنّ منصب رئيس شعبة، هو الأفضل كبداية، - قال هو.

- أجل، إنه الأفضل! - كرر بطرس ايفانيتش.

- هكذا أتعود في البداية، على العمل ياعمّاه، وبعد شهرين أستطيع أنْ أصبح رئيس دائرة... نَصّب عمّه أذنيه.

- طبعاً، طبعاً! - قال هو، - وبعد ثلاثة أشهر تصبح مديرا، وبعد سنة وزيراً، أليس كذلك؟

احمرّ ألكسندر خجلاً، ثم صمت.

-لابدّ أنْ يكون رئيس الدائرة قد أخبرك بالشاغر المتوفّر، أليس كذلك؟ - سأل ألكسندر بعد ذلك.

- كلا، - أجاب العمّ، - لم يقل لي، الأفضل ان نترك تحديد الأمر له، مادمنا قد ضعنا في متاهة الإختيار، فهو يعرف المكان الملائم، لاتُحدّثْهُ عن مصاعب الإختيار، ولاتذكر له منصب المدير أيضاً، فقد يغضبه هذا الأمر، لأنه سيعتبره عدم ثقة فيه، فيعقّد القضية، أنصحك أيضاً بألاّ تُحدّث الحسناوات هنا في بطرسبورغ عن علامات الذكرى المادية: لن يفهمن حديثاً كهذا؛ أنى لهن ان يفهمن! إنها مسألة صعبة الإدراك بالنسبة لهنّ: فأنا لم أدركها إلا بصعوبة، أما هنّ فَسيُصعّرن خدودهنّ.

twitter @baghdad_library

في هذه الأثناء، كان ألكسندر يقلّب بيده رزمة من الورق، وهو يصغي الى حديث عمّه.

- ماهذا الذي تقلّبه بيدك؟

- كان ألكسندر ينتظر هذا السؤال بفارغ الصبر.

- هذا... ماكنتُ أريد أن أطلعك عليه منذ مدّة... قصائد شعرية: لقد أبديت اهتمامك بها ذات مرّة.

- لاأذكر ذلك؛ لا أعتقد أنيّ أبديت اهتمامي...

- أعتقد ياعمّاه، أنّ العمل الوظيفي ذو طابع جاف، لاتستمتع النفس به، والنفس تتعطش دائماً لأن تعبّر عن مكنوناتها وتشارك المقربين في الكشف عن فيض المشاعر والأفكار التي تتفاعل فيها...

- ماذا تريد أن تقول؟ - سأل عمّه بتبرّم.

- أحسّ بموهبة الإبداع...

- هذا يعني، أنك تريد أن تمارس عملاً آخر الى جانب الوظيفة- أليس هذا ماتودّ أن تقوله؟ هذا أمر يستحق الثناء: أي لون من الإبداع تريد أن تجرب؟ الأدب؟

- أجل ياعمّاه، كنتُ أريد أن أسألك، إنْ كان يوجد لديك اقتراح ما لنشر بعض انتاجي في إحدى المجلات.

- أمُتأكد أنت من وجود موهبة لديك؟ بدون موهبة، لن تنتج شيئاً جيداً، ولن تكون ناجحاً في مجال الفن، ألا توافقني على ذلك؟ الموهبة - أمر آخر: بفضلها يستطيع الكاتب او الفنّان إنتاج أشياء رائعة قيّمة، إنها رأس مال يعادل المائة نفس، التي تملكها.

- وهذا الجانب تقيسه بالمال أيضاً؟

- ماذا تريدني أن أقول إذن؟ كلما قرأك الناس أكثر، كلما تقاضيت مالاً أكثر.

- والمجدُ، المجد؟ إنه مكافأة الشاعر الحقيقية...

- ملَّ المجد من الإعتناء بالشعراء، بعد أنْ أصبح عدد الأدعياء كثيراً جداً. كان المجد في السابق يشبه المرأة التي تغازل كل الرجال، أما الآن فهل تلاحظ شيئاً من هذا؟ يبدو لي، أن المجد قد غاب كلياً عن مسرح الحياة، أو أنه توارى عن الأنظار، - أجل، هذا ماحدث! مانراه الآن، هو ضربٌ من الشهرة، أما المجد فلا نسمع عنه، أو أنه ابتكر أسلوباً آخر يتجلّى من خلاله: مَنْ يكتب أفضل، يحصل على مالٍ أوفر، ومن يكتب أسوأ - لن أكمل، كي لا أغضبك مقابل هذا، يعيش الكاتب الجيد نوعاً ما، حياةً لابأس بها، فهو لايعاني من البرد ولا يموت جوعاً في عِلِّيته رغم أن الناس لايركضون وراءه في الشوارع ولايشيرون إليه بالبنان كمهرّج؛ فقد أدركوا انه ليس من سكان السماء، بل هو إنسان: ينظر ويسير ويفكّر ويرتكب حماقات كالآخرين.

- كالآخرين - ماذا تقول ياعمّاه! كيف يمكنك ان تقول كلاماً كهذا! الشاعر موسوم بميسمٍ خاص: تكمن فيه قوة خارقة.

- مثلما تكمن في الآخرين أحياناً - مثل عالم الرياضيات والساعاتي وصاحب المصنع، فنيوتن وغوتنبيرغ وواط كانوا يملكون من الموهبة والقوة الخارقة مثلما كان يملك شكسبير ودانتي وغيرهما. ماذا تقول مثلاً، عن عملية كيماوية يتحول فيها صلصال منطقة بارغوفا الى خزف رائع، هو أفضل من الخزف الساكسوني وبلاد الشمال؛ ألا ترى في عملية كهذه وجود قوة خارقة؟

- أنت تخلط الفنّ بالحرفة ياعمّاه.

- ماشاء الله! لنأخذ الفنّ في حدّ ذاته، والحرفة في حدّ ذاتها؛ سنرى أنّ الإبداع موجود هنا وهناك، كما أنه يمكن أن يكون غير موجود أيضاً. إذا لم يكن

twitter @baghdad_library

الإبداع موجوداً، فإننا نقول عن الحرّفي بأنه صانع، لامبدع، كما أن الشاعر بدون إبداع يُسمى مؤلفاً، لا شاعراً. . . ألم تقرأ عن هذا في الجامعة؟ ماذا تعلمّت هناك إذن؟

شعر العم بالأسى، لأنه سمح لنفسه بالإسترسال في هذه التوضيحات، التي كان يعتبرها حقائق معروفة لدى الجميع.

« هذا يشبه إبداء العواطف بصراحة» - فكّر هو. - هل ستطلعني عمّا هو موجود في يديك؟ -سأل هو، - قصائد!

- أخذ العمّ الرزمة وبدأ يقرأ الصفحة الأولى.

ينتابني الأسى والكدر أحياناً

كسحابةٍ مفاجئة

فينقبض قلبي وأحسّ بالمرارة

- أعطني ناراً يا ألكسندر.

- أشعل سيجارة وتابع القراءة:

لماذا يتبدل سيل الرغبات فيه؟

لماذا يُلقي الطقس المكفهرّ

بظلّه القاتم على الناس

فتفتر الهمة وتتعكّر الروح فجأة

خَطْبٌ خفي مجهول. . .

فكرة واحدة تتكرّر في هذه الأبيات، فلم يخرج إلا الزبد فقط، - علّق بطرس إيڤانيتش، ثم تابع القراة:

من ذا الذي يستطيع ان يعرف السبب

الذي يجعل الدموع الباردة

تسيل فجأة على الجبين الشاحب

- كيف يمكن هذا؟ ما أعرفه، هو أنّ الجبين يتصبب عرقاً، لكنْ، أنْ تسيل الدموع عليه، فهذا مالم أره قط .

ما الذي يحدث عندئذ لنا؟

يبدو صمت السماء البعيدة

مخيفاً ومفزعاً في تلك اللحظة

كلمتا مخيف ومفزع - مترادفتان، - علّق بطرس ايڤانيتش.

أتطلع الى السماء، فأرى القمر هناك.

- وجود القمر حتميّ: بدونه، تغدو الصورة مستحيلة! وإذا اقترن هذا بوجود الحلم والفتاة - يهلك الرجل

أتطلع الى السماء، فأرى القمر هناك

يسبح صامتاً مضيئاً

فأتخيل فيه دفيناً

سرّ الحياة المقدّر منذ الأزل

- ليس رديئاً! أعطني ناراً أيضاً. . . فقد انطفأت السيجارة. نسيتُ أين توقفت، - ها، لقد تذكّرت!

ترتجف النجوم في الأثير ببهاء متغيرّ

محاولة ان تختفي عن أعين الناظرين

وكأنها قد اتّفقت فيما بينها

للحفاظ على الصمت الماكر الجميل

twitter @baghdad_library

هكذا يُنذر كل شيء بالمصيبة في هذا العالم
الشرّ يتربص بنا الدوائر
وكأن الهدوء المخادُع
تثاءب العمّ بقوة، ثمّ تابع القراءة:
لكنّ أثره سينتهي ويزول
مثلما تزيل ريح الصحارى
أثر الوحوش عن الرمال
بدأ يقرأ في نفسه بسرعة:
يحدث بالمقابل أحياناً
أن يستوطن فينا شيطان آخر
فيتدافع عندئذ في نفوسنا قسراً
فرح عارم قويّ
وترتعش أفئدتنا بعذوبة... الخ

-ليست رديئة ولا جيدة! - قال بطرس ايفانيتش لدى انتهائه من القراءة. - أحبّ أن أنوّه بالمناسبة، أنّ آخرين غيرك، ابتدؤوا ممّا هو أسوأ؛ حاول، اكتبْ واعملْ، مادامت الرغبة متوفرة لديك؛ ربما تتكشّف محاولاتك عن موهبة؛ عندئذ يكون الأمر مختلفاً.

تكدّر ألكسندر. كان يتوقّع رأياً مغايراً تماماً. لكنه وجد لنفسه بعض العزاء، لأنه كان يعتبر عمّه إنساناً بارداً، معدوم المشاعر تقريباً.

- هذه ترجمة من شيلر، - قال هو.

- كفى، أرى ذلك؛ وهل تعرف لغات أيضاً؟

- أعرف الفرنسية والألمانية، كما أعرف الإنكليزية قليلاً.

- أهنئك، كان عليك أن تكشف عن هذا منذ بعض الوقت: أرى، أنك تستطيع ان تفعل الكثير. سبق أنْ قلتَ لي، أنك تعرف الاقتصاد السياسي والفلسفة وعلم الآثار، الله وحده يعلم ماذا قلت أيضاً، لكنك لم تقل كلمة واحدة عمّا هو أساسي - إنه تواضع في غير محلّه. سأجد لك فوراً عملاً في حقل الأدب.

- صحيح ياعمّاه؟ كم تغمرني بأفضالك! - اسمح أنْ أعانقك.

- انتظر ريثما أعثر لك على ماوعدتك به.

- ألَنْ تطلع رئيسي المقبل على بعض مؤلفاتي، كي يأخذ فكرة عنّي؟

-كلا، ليس ضرورياً، إذا لزم الأمر، ستطلعه أنت بنفسك، وربما لن يلزم. هل ستهديني تصاميمك ومؤلفاتك؟

- أهديك؟ - حسناً ياعمّاه، - قال ألكسندر وقد أطراه هذا الطلب - ألا تريد أن أعنْون لك المقالات حسب ترتيبها الزمني؟

- كلا، ليس ضرورياً... شكراً على الهديّة. يفسيي! خُذ هذه الأوراق الى فاسيلي.

- لماذا إلى ڤاسيلي؟ ليأخذها الى مكتبك.

- طلب مني أوراقاً كي يلصقها على شيءٍ ما...

- ماذا ياعمّاه؟... سأل ألكسندر بذعر، وخطف الحزمة منه.

- أهديتني إيّاها، فماذا يهمك كيف أستخدمها...؟

- أنت لاترأف بأحد... لاترأف بأحد!... - صار يئنّ بيأس، وهو يضمّ الأوراق بكلتا يديه الى صدره.

- أطعني ياألكسندر، - قال العم وهو ينتزع الأوراق منه، - ستخجل من نفسك فيما بعد وستشكرني.

twitter @baghdad_library

- أفلت ألكسندر الأوراق من يديه .

- هيا، خذ الأوراق يايفسيي، - قال بطرس إيڤانيتش . - غرفتك الآن نظيفة جيدة ياألكسندر : لم يعد للترّهات وجود فيها ؛ صار الأمر متوقّفاً عليك وحدك، إن كنت ستملؤها بالنفايات، أم بشيء ما عملي . هيّا الى المصنع لنتنزه ونتسلّى ونستشنق الهواء العليل، ونرى كيف يجري العمل .

في الصباح، اصطحب بطرس إيڤانيتش ابن أخيه معه الى الوزارة، وبينما كان العمّ يتحدث الى صديقه، رئيس الدائرة، كان ألكسندر يتعرف على هذا العالم الجديد بالنسبة له . كان لايزال يفكر بتصماميمه ومشاريعه ويتعب رأسه في التفكير بالمنصب، الذي سيعرض عليه، وهو واقف ينظر ويتلفّت حوله .

«الوضع هنا شبيه تماماً بالوضع في مصنع عمي! - قرّر هو أخيراً . - هناك، يأخذ أحد الصنّاع كتلة من مادة الخام ويرميها في الآلة، فتدور مرة، مرتين وثلاث - وتخرج على شكل مخروط أو نصف دائرة . . . الخ، فيعطيها لآخر، كي يقوم بتجفيفها على النار، بينما يتولى ثالث طلبها بلون الذهب، ورابع تنقيشها وزخرفتها، فينتج فنجان، أو زهرية أو صحن . وهنا : يأتي رابع، فيمد يده ليعطي وثيقة أو مذكرة، وهو ينحني نصف انحناءه ويبتسم بطريقة تبعث على الرثاء والشفقة - يأخذها الموظف، فما يكاد يلامسها بطرف ريشته حتى يعطيها فوراً لموظف آخر يقوم برميها في كومة الأوراق، التي يربو عددها على الألف، - لكنها لاتضيع : فبعد وضع الرقم والتاريخ عليها، تمرّ سالمة عبر عشرين يد، لكنها تتوالد وتتكاثر، فتنضاف إليها أوراق أخرى . يأخذها ثالث، ويذهب الى خزانة يفتحها ويتطلع إما إلى دفتر أو ورقة أخرى، ثم يقول بضع كلمات سحرية لموظف رابع - فيأخذها ويشرع يصرّ بريشته عليها . لدى انتهائه من الصرير والتحزيق، يناول الوالدة وطفلها الوليد (أي الورقة الأصلية والأوراق المضافة الأخرى - المترجم) لموظف خامس، فيأخذها ويشرع هو الآخر يحزّق بريشته، فيولد أيضاً طفل آخر، فيقوم الموظف الخامس هذا بإصلاح هيئته، ويناول رزمة الأوراق لسادس، ثم تنتقل

وتنتقل - لكنها لاتضيع أبداً: إذ يموت صانعوها وتبقى هي سليمة أبد الدهر. وعندما تكسوها في نهاية المطاف طبقة سميكة من الغبار الدائم، بعد وصولها الى مقرها الأبدي، يقوم الموظفون بإزعاجها أيضاً، جراء تبادل المشورة معها. هكذا، في كل يوم وساعة، اليوم وغداً، وعلى مرّ العصور يعمل الجهاز البيروقراطي بانتظام، وبلا انقطاع، دون راحة، وكأن الذي يعمل عجلات ونوابض، لابشر...».

«أين العقل، الذي ينشّط ويحرك مصنع الورق هذا؟ - فكّر ألكسندر - هل نعثر عليه في الكتب، أم في هذه الأوراق ذاتها. أم في رؤوس هؤلاء الناس؟».

ياللوجوه التي شاهدها هنا! يخال المرء، أن هؤلاء الناس لايخرجون الى الشارع أبداً ولايتواجدون فيه: يبدو أنهم ولدوا وترعرعوا وهرموا هنا على كراسيّهم، وسيموتون في هذا المكان أيضاً. نظر ألكسندر الى رئيس الدائرة بإمعان: كان يبدو تماماً مثل جو بيتر قاصف الرعود: يفتح فمه - فتخرج منه ميركوري راكضة وشارتها النحاسية على صدرها؛ يمسك الورقة بيده ويمدها - فتمتدّ عشر أيادٍ لتأخذها.

- إيڤان ايڤانيتش! قال هو.

- قفز إيڤان ايڤانيتش من خلف طاولته وهرع الى جوبيتر وصار أمامه كالورقة أمام العشب. تهيّب ألكسندر، دون أن يعرف السبب.

- أعطني تبغاً!

حمل هذا علبة النشوق المفتوحة، بيديه، بطريقة ذليلة متملّقة، تنمّ عن استرضاءٍ لايوصف.

- اِختبرْه! - قال رئيس الدائرة، وهو يشير الى أدوييف.

«من الذي سيختبرني!» - فكر أدوييف، وهو ينظر الى هيئة إيڤان ايفانيتش الصفراء ذي الكوعين المهترئين. «هل يُعقل أن هذا الرجل يقرر مسائل حكومية!».

twitter @baghdad_library

-يدك جيدة؟ سأل إيڤان إيڤانيتش.

- يدي؟

- أجل، أقصد خطّك. حاول ان تنسخ هذه المذكرة.

استغرب ألكسندر لهذا الطلب ونفّذه. قطّب إيڤان إيفانيتش حاجبيه، وهو ينظر الى العمل المنجز.

- خطه رديء ياسيّدي، - قال إيڤان ايڤانيتش مخاطباً رئيس الدائرة، الذي ألقى بدوره نظرة على الخط.

- أجل، ليس جيداً: لن يستطيع ان يكتب المبيضة. ليبدأ بكتابة الإجازات الآن، كي يتمرن قليلاً؛ بعدها يمكن ان نكلّفه بنسخ المذكرات، ربما سيستطيع القيام بذلك مستقبلاً: فقد أنهى الجامعة.

سرعان ما أصبح أدوييف أحد نوابض الآلة البيروقراطية. كان يكتب، يكتب ويكتب بلا نهاية، حتى أنه صار بيدي استغرابه ممّن يستطيعون ان يمارسوا في الصباح عملا ما آخر؛ وعندما تذكر تصاميمه ومشاريعه، بدت حمرة الخجل واضحة على وجهه.

«عمّاه! - فكر هو. - أنت محق في هذا الجانب، محق كثيراً، لكنْ، أيُعقل أن تكون مُحقاً هكذا في كل شيء؟ هل كنتُ مخطئاً في أفكاري الملهمة المقدّسة، وبإيماني الراسخ بالحب والصداقة... والناس... وبنفسي؟... هاهي الحياة؟».

انكبّ على الورقة وبدأ يحزّق بريشته أكثر فأكثر، فيما كانت الدموع تلتمع تحت جفنيه.

- الحظّ يبتسم لك بوضوح، قال بطرس إيڤانيتش مخاطباً ابن أخيه. - خدمتُ سنةً كاملة دون أجر، أما أنت، فقد تمّ تصنيفك فوراً في مرتبة الرواتب العالية. ستتقاضى سبعمائة وخمسين روبلاً، وألف روبل مكافأة. إنه مرتب رائع كبداية! رئيس الدائرة يثني عليك، لكنه يقول، إنك شارد الذهن: تنسى أن تضع

علامات الترقيم تارةً، وتغفل عن كتابة مضمون المذكرات تارة أخرى. أرجو أن تتلافى هذا الأمر: المهم أن تركز اهتمامك وانتباهك على ماهو موجود أمام ناظريك، لا أن تشرد بعيداً في الخيال.

أشار العم بيده الى الأعلى. صار منذ ذلك الوقت، أكثر لطفاً مع ابن أخيه.

– كم هو رائع، رئيسي في القسم ياعمّاه! – قال ألكسندر ذات مرّة.

– كيف عرفت ذلك؟

– توثّقت معرفتنا واقتربنا من بعضنا كثيراً. كم أنا معجبٌ بروحه السامية وأفكاره النبيلة الرائعة! علاقتي بمعاونه، وثيقة أيضاً؛ يبدو أنه إنسان ذو إرادة قوية وشكيمة فولاذية...

لحقت ان تتقرّب منهما؟

– أجل، ولمَ لا؟

–ألمَ يوجه إليك رئيس القسم الدعوة لزيارته في أيام الخميس؟

– آه، بإلحاح: يبدو أنه يشعر بميل قويّ نحوي...

– ألَمْ يطلبْ معاونه منك أن تُدينّه بعض النقود؟

– أجل ياعماّه، فقد طلب مبلغاً زهيداً... أعطيته خمسة وعشرين روبلاً، أي كل ماكان موجوداً في جيبي، طلب مني خمسين روبلاً أيضاً.

– أعطيته! آ!– قال العم بأسى– أتحمّل الذنب جزئياً عمّا حدث، لأنني لم أحذّرك؛ ظننتُ أنك لست ساذجاً الى الحدّ، الذي تُقرض فيه الآخرين نقوداً بعد أسبوعين من التعارف. لم يعد في اليد حيلة، سنتحمل الذنب مناصَفَةً؛ لك في ذمتي اثنا عشر روبلاً وخمسون كوبيكاً.

– لماذا ياعماّه؟ سيردُّ لي ماأخذه.

twitter @baghdad_library

- تراهن! أعرفه جيداً: لي في ذمته مائة روبل، منذ كنتُ أعمل هناك. يأخذ من الجميع.

ذكّرهُ بالمبلغ، الذي لي في ذمّته، إذا عاد وطلب منك من جديد - سيكفّ عندئذ عنك! أمّا رئيس القسم، فلا تذهب إليه.

- لماذا ياعماه؟

-إنه مقامر. سيجمعك بشابين في مثل سنك، فيتآمر عليك معهما ويشلّحونك نقودك كلها.

- مقامر! - قال ألكسندر بدهشة- هل هذا ممكن؟ يبدو عليه انه من ذوي المشاعر.

- قل له، في سياق الحديث، إنّي أخذتُ نقودك كلها لأحفظها عندي، وسترى عندئذ إن كان من ذوي المشاعر الصادقة، أم لا؛ أنا متأكد من أنه لن يدعوك بعدئذ لزيارته في أيام الخميس.

استغرق الكسندر في التفكير، بينما كان العمّ يهزّ رأسه.

- كنت تحسب أن ملائكة يجلسون بجانبك! مشاعر صادقة وميل خاص! لماذا لم يخطر على بالك، أنّ الذين يجلسون بجانبك، أنذال؟ عبثاً كان مجيئك الى بطرسبورغ! - قال هو - مجيئك كان عبثاً حقاً!.

ذات مرّة، ما إن استيقظ ألكسندر، حتى أعطاه يفسيي طرداً كبيراً ورسالة من عمّه.

« ها قد وجدتُ لك أخيراً عملاً في المجال الأدبي، - كتب في الرسالة. - فقد قابلتُ البارحة أحد معارفي الصحفيين؛ وهاهو قد أرسل إليك عملاً من باب التجربة».

ارتعشت يدا ألكسندر من شدّة الفرح، وهو يفتح الطرد. وَجَدَ مخطوطة مكتوبة بالألمانية.

«ماهذا؟ نثر؟ - قال هو، - عن أي موضوع؟».

قرأ ماكان مكتوباً بقلم الرصاص في الأعلى.

«المقالة تتحدث عن التربة؛ إنها تخصّ فرع الإقتصاد الزراعي، يرجى ترجمتها بأقصى السرعة».

استغرق طويلاً في التفكير، وهو جالس يمعن النظر في المقالة، ثم تناول ريشته بهدوء وتنهد بعمق، وبدأ الترجمة. بعد يومين، فرغ من ترجمة المقالة وأرسلها الى العنوان المحدّد.

- رائع، رائع! - قال له بطرس ايڤانيتش بعد بضعة أيام. - رئيس التحرير راضٍ عنك كثيراً، لكنه يجد أنّ الأسلوب ليس رصيناً بما يكفي؛ لكن، هذا لايهمّ إذ يستحيل ان يحقق المرء كل شيء دفعة واحدة. يودّ أن يتعرف عليك. اذهب إليه غداً في الساعة السابعة مساءً: سيعطيك أيضاً مقالة أخرى.

- عن نفس الموضوع ياعمّاه؟

- كلا. عن موضوع آخر، ذكره لي، لكني نسيته... آه، تذكرت! عن البطاطا الحلوة. لابد أن تكون مولوداً يا ألكسندر في حلّة السعادة. بدأتُ آمل أخيراً، أنك ستحقّق شيئاً ما: ربّما لن أقول لك بعد فترة قصيرة، لماذا أتيت الى هنا. لم يمضِ إلاّ شهر واحد، حتى أصبحت الخيرات تتدفق عليك من كل الجهات. هناك ألف روبل، ورئيس التحرير وعد بأن يعطيك مائة روبل شهرياً لقاء ترجمة أربع ورقات مطبوعة: المجموع ألفان ومائتا روبل! رائع! لم تكن بدايتي ناجحة هكذا! قال العمّ وقد قطّب حاجبيه قليلاً - اكتبْ لأمّك وأخبرها عن نجاحاتك. سأردّ على رسائلها أيضاً، وسأخبرها بأنّي قد فعلتُ من أجلك كل ما أستطيع، عرفاناً بجميلها لي.

- ستكون أمي... شاكره جداً ياعمّاه، وكذلك أنا... - قال ألكسندر وهو يتنهد، لكن، دون أن يرتمي ليعانق عمه.

twitter @baghdad_library

(١)

مضى أكثر من عامين لكنْ، من ذا الذي يستطيع أن يكشف الآن، أنّ هذا الشاب الأنيق، ذا الطريقة المميزة والرفيعة في التصرّف والسلوك، هو نفس ذاك الريفي، الذي عرفناه من قبل؟ لقد تغيرّ ونضج كثيراً. فتقاسيم الوجه الفتيّ الناعم، والبشرة الطريّة الشفافة والزّغب النابت على الذقن- كلها اختفت من الوجود. لم يعد موجوداً أيضاً، الخجل الهيّاب، ولا المشية المرتكبة المتعثرة. قسمات الوجه نضجتْ وكونّت وجهاً لوّحته ُالشمس قليلاً. الزّغب تحوّل الى لحية غير طويلة، ومشيته المتردّدة الخفيفة تحولت الى أخرى ثابتة منتظمة وواثقة، أما صوته فقد أصبح أكثر عمقاً. لقد تبلورتْ صورته بشكل كامل وناضج، وتحوّل الفتى الى رجل. كانت الثقة والجرأة تلتمعان في عينه - بيد أن جرأته هذه لم تكن من النوع، الذي نسمع عنه على بعد فرسخ أو أكثر، أي أنها لم تكن من النوع المبتذل، الذي ينظر الى الأشياء كلها بوقاحة وصفاقة، والذي تقول نظرات صاحبها للرائح والغادي: «انظرْ، احترسْ، إيّاك ان تلمسني أو تدوس على قدمي، وإلاّ - هل فهمت؟ سيكون حسابك عسيراً!». كلاّ لم تكن من هذا النوع، فالجرأة التي نتحدّث عنها لاتثير صدآ ولا نفورا، بل تخلق، على العكس من ذلك، التجاذب والتعاطف. الجرأة بمعناها الإيجابي هذا تُنشد الخير والنجاح وتعمل على إزالة كل العوائق والمصاعب، التي تعترض تحقيقهما. . . الحماس السابق، الذي كان يرتسم على وجه ألكسندر خفّتْ حدّته، واستُعيض عنه بظلال رقيقة من التأمّل، الذي يعتبر العلامة الأولى عن الشكّ الكامن في نفسه، ولربما النتيجة الوحيدة لدروس عمه وتحليله الصارم، الذي لايرحم، لكلّ شيء يلتمع في عيني ألكسندر ويجيش في قلبه. أتقن ألكسندر أخيراً أدب السلوك والتصرّف، أي معرفة التعامل مع الآخرين. لم يعد يرتمي على أعناق الناس، خاصة منذ خسارته في القمار مرتين،

رغم تحذير عمه له، أمام نفس الشخص الذي كان يقدّم نفسه على أنه من أنصار المشاعر الصادقة، ومنذ أن نصَبَ عليه ذاك الرجل، ذو الإرادة القوية والطبع الصارم، أي منذ أن استدان منه مبلغاً غير قليل من المال ولم يردّه له. ساعده كثيراً في بلوغ هذا أيضاً، أناس آخرون وأحداث متنوعة، كان يلاحظ كيف كان الناس يسخرون منه هنا وهناك، بسبب حماسه الصبياني وينعتونه بالحالم.

وفي بعض الأماكن، كان يحس بأنّ الناس لايعيرونه اهتماماً، لأنهم لم يكونوا يشعرون نحوه، لا بالتعاطف ولا بالنفور. لم يقُم الولائم، . ولم يقتن عربة، كما لم يشارك في ألعاب كثيرة. في السابق، كان ألكسندر يشعر بالمرارة والألم نتيجة اصطدام أحلامه الورديّة بالواقع، لم يخطر على باله ان يسأل نفسه: ما الشيء الرائع، الذي فعلته، كي أتميز عن عامّة الناس؟ أين مآثري وما الذي يجعل الناس يتنبّهون لي؟ لكنه، كان يتألم في غضون ذلك، لأنه كان يحس ان كرامته تُجرح.

بعد ذلك، صار يُسلّم تدريجياً بفكرة مفادها، ان الحياة لاتُنبت الورود وحدها فقط، بل الأشواك أيضاً، التي تَخزُ أحياناً، لكنْ وخزاً بسيطاً فقط، لا كما يتحدّث عمه. هاهو قد بدأ يتعلم السيطرة على نفسه، فلم يعد يكشف غالباً عن انفعالاته وهبّاته العاطفية، وصار يتجنب استخدام الكلمات العاميّة، بوجود الغرباء على الأقل. لكن، لسوء حظّ بطرس إيڤانيتش فإنه مازال بعيداً عن التحليل البارد والهادىء للأمور، التي تقلق وتهز روح الإنسان، وإرجاعها الى بداياتها البسيطة. كما أنه لايريد ان يصغي أيضاً لضرورة توضيح وحلّ ألغاز القلب وخفاياه وفهمهما بصورة صائبة.

في الصباح، سيلقي بطرس إيڤانيتش على مسامعه درساً مفيداً. سيصغي ألكسندر ويرتبك أو يسرح في التفكير، ثم يذهب في المساء الى مكانٍ ما، يعود منه مضطرباً قلقاً، يمضي بعد ذلك ثلاثة أيام، وهو يروح ويغدو كالمخبول - ثم تذهب نظرية عمه كلها الى الشيطان. فسحر وجاذبية الحفل الراقص، وأنغام الموسيقى

twitter @baghdad_library

والأكتاف العارية ونار النظرات وبسمة الشفاه الوردية لن تمنحه النوم طوال الليل. سيلوح له تارة، الخصر الذي لامسه بيديه والنظرة الساجية الطويلة، التي كانت تتركز عليه أثناء مغادرته، والنَفَس الحار، الذي ذَوّبه أثناء رقصة الفالس والحديث الهامس عند النافذة على أنغام المازوركا[1]، كما سيتذكر تارة أخرى، كيف انطلق لسانه عندما التمعت النظرات، ليقول كلاماً لايعرفه إلا الله، صار القلب يخفق، فاحتضن الوسادة بارتعاشٍ تشنّجي، وراح يتقلّب من جنبٍ لآخر.

«أين الحب؟ أتوق، أتُوق للحب! - قال هو- هل سيحين قريباً؟ عندما تحلّ هذه اللحظات الرائعة الساحرة، والعذابات الحلوة ورعشة النعيم والدموع... الخ» في اليوم التالي، جاء إلى عمه.

كم كانت رائعة ياعماه حفلة آل زارايسكي البارحة! - قال، وهو مستغرق في تذكر الحفل الراقص.

- كانت جيّدة؟

- آه، ساحرة!

-والعشاء، كان جيّداً؟

- لم أتناول طعام العشاء.

- كيف! لماذا! كيف يمكن ألاّ يتناول العشاء من هم في مثل سنّك! أراك قد تعوّدت فعلاً على العادات هنا، حتى أنك ذهبت بعيداً في هذا. هل كان كل شيء رائعاً هناك؟ الملابس، الإضاءة...

- أجل.

- والناس، كانوا جيدين؟

- أجل! كانوا رائعين! العيون، الأكتاف!

-الأكتاف؟ أكتاف منْ؟

---

(١) - المازوركا- رقصة شعبية بولونية (المترجم).

- تسأل عنهنّ؟

- عن منْ؟

- عن الفتيات.

- كلا، أنا لاأسأل عنهنّ، لكنْ الأمر سيّان - هل كانت الحسناوات كثيرات؟

- آه، جداً... لكنْ، كُنّ رتيبات جداً للأسف. ماتقوله وتفعله إحداهنّ في ظرف ما محدّد، تكرره الأخرى أيضاً بالضبط، كما لو أنّ درساً قد حفظنه عن ظهر قلب. كانت هناك فتاة واحدة لاتشبه الأخريات تماماً... لكن، لم يكن يُلحظ فيها، لا الشخصية المستقلة ولا الطبع المتميّز، الحركات والنظرات كلها متشابهة: فلا يسمع المرء فكرة فطرية ولا يلمح للمشاعر بريقاً... فقد حَجَبَ هذا كله وطَمَسه تأنقٌ متشابه. يبدو أنّ ما من شيءٍ يستطيع استدعاء تلك المشاعر الى الخارج. هل يعقل ان تبقى المشاعر حبيسة مدى الحياة، دون ان تتجلّى لأحد؟ هل سيكبح المشدّ النسوي الى الأبد، تنهيدة الحبّ وعويل القلب الممزّق؟ ألن يُطلَقَ العنان للمشاعر...؟

- سينكشف كل شيء أمام الزوج، لكنْ، إذا حاكمنا الأمور من وجهة نظرك، بصوتٍ مسموع، فستبقى على الأرجح، الى الأبد، فتيات كثيرات عوانس. توجد حمقاوات يكشفن قبل الأوان، عما ينبغي ان يخفينه ويكتمنه، لكنهنّ يذرفن بعد ذلك الدموع والدموع: - ذلك هو الحساب!

- وهل يوجد حساب هنا ياعمّاه؟

- كما يوجد في كلّ مكان ياعزيزي؛ منْ لايحسب الأمور يسمونه بالروسية أحمق أرعن. تلك هي حقيقة الأمر بإيجاز ووضوح.

-يحبس المرء في صدره نفخة الشعور الرائع النبيل!

- آه، أعرف جيّداً، أنك لن تخفي مشاعرك؛ أنت على استعداد دائماً لأن ترتمي في الشارع والمسرح على عنق صديقك وتبكي.

twitter @baghdad_library

- وهل هذا مستغرب ياعمّاه؟ سيقول الناس فقط، إنّ هذا إنسان ذو مشاعر قويّة، وانّ من يملك أحساسيس كهذه، لابد أن يكن مؤهلاً لإبداء فعل كل ماهو رائع ونبيل، وغير مؤهل لـ . . .

- وغير مؤهل لأن يحسب الأمور، أي لأن يفكر. متى كانت المشاعر الجياشة والعواطف القوية تصنع شخصية متماسكة! ألا تكفيك الأعداد الوفيرة من الناس المزاجيين؟

ما أكثر الحماس والإنفعال! الإنسان المستسلم لانفعالاته، أقل الناس شبهاً بالإنسان الحقيقي، ولايوجد لديه شيء يعتدّ به. ماينبغي أن نعرفه على وجه الدقة، هو مدى قدرة الإنسان على التحكم بمشاعره، فإنْ كان يستطيع ذلك، فهذا يعني أنه إنسان . . .

- من وجهة نظرك، ينبغي على المرء أن يتحكم بمشاعره كما يتحكم بالبخار، علّق ألكسندر، - أن ينفث قليلاً منه تارة، ويوقفه تارة أخرى؛ أن يفتح الصمّام أحياناً ويغلقه أحياناً أخرى . .

- أجل، لأنّ الطبيعة لم تمنح الإنسان عبثاً هذا الصمّام - إنه العقل، الذي لاتستخدمه أنتَ دائماً وياللأسف! أما الإنسان القويم فيستخدمه دائماً بالطبع.

-الاستماع إليك يسبب الحزن والأسى ياعمّاه! الأفضل ان تعرّفني على هذه السيدة القادمة . . .

- على أيّ سيّدة؟ على لوبيتسكايا؟ هل كانت البارحة هنا؟

- أجل لقد حدّثتني طويلا عنك، وسألت عن قضيّتها.

-آه، هكذا إذن! بالمناسبة . . .

أخرج العمّ ورقة من الدّرج.

- خذ هذه الورقة إليها وأخبرها أنني حصلتُ عليها البارحة فقط، بعد جهد جهيد، اشرح الأمر جيّداً لها: ألم تسمع حديثي مع الموظّف؟

- أجل، سأشرح لها الأمر ياعمّاه.

- خطف ألكسندر الورقة بكلتا يديه وأخفاها في جيبه. نظر إليه بطرس ايڤانيتش.

- لماذا خطر على بالك ان تتعرف عليها؟ إنها ليست جذآبة: يوجد ثؤلول عند أنفها.

- ثؤلول! لا أذكر. كيف لاحظت هذا ياعماّه؟

- إنها طيبة ومحترمة جداً...

-كيف عرفت أنها طيبة ومحترمة، ولم تلاحظ وجود ثؤلول عند أنفها؟ هذا غريب. آه، صحيح... يوجد عندها بنت فتية سمراء. آ! لم أعد أستغرب الآن. ذلك هو السبب، الذي جعلك لاتلحظ وجود ثؤلول عند أنفها!.

ضحك الإثنان.

- أستغرب ياعماه، - قال ألكسندر، -كيف لا حظت وجود الثؤلول قبل أن تلاحظ وجود ابنتها.

- أعد الورقة. على الأرجح، ستطلق العنان لمشاعرك هناك، وستنسى إغلاق الصمّام نهائياً، وستقول كلاماً فارغاً، لايعرفه إلاّ الشيطان...

- كلا ياعمّاه، لن أفعل شيئاً من هذا. أما بخصوص الورقة، فالأمر عائد إليك، إن شئت أخذتُها، وإن لم تشأ، فلن أفعل؛ لحظة ياعمّاه...

واختفى من الغرفة.

كانت الأمور تسير وفق مجراها الطبيعي. في الوظيفة، لاحظ الرؤساء مواهب ألكسندر ومنحوه مكاناً لائقاً. فإيڤان إيڤانيتش بدأ يجلب إليه باحترام علبة نشوقه، بعد أن أدرك أن ألكسندر سيتسنم خلال فترة وجيزة منصباً رفيعاً، شأنه شأن الكثيرين ممّن سبقوه، فيصبح رئيس دائرة وبعدها معاون مدير أو مدير، لذا

twitter @baghdad_library

فمن واجبه ان يستبق الزمن ويتملق له منذ الآن، «ينبغي استرضاؤه!» أضاف إيڤان. وفي هيئة تحرير المجلة، أصبح ألكسندر وجهاً مرموقاً أيضاً. صار يكلف باختيار النصوص والترجمة وتصحيح المقالات الأخرى، كما كان يكتب بنفسه مقالات نظرية مختلفة، يضمنها وجهات نظره المتعلقة بالإقتصاد الزراعي. صار يتقاضى من المال أكثر مما يحتاج، لكن عمه كان يعتبر دخله غير كاف بعد، لكنه، لم يكن يعمل دائماً من أجل النقود. كان يعمل أيضاً من أجل تحقيق فكرة سامية محببّه، وخدمةً لهدف نبيل. إمكاناته وقواه الفتية كان يكرسها لخدمة مطامح نبيلة آمن بها. كان يسرق من وقته المخصص للنوم والعمل الوظيفي، مايسمح له بتأمين الفرصة الكافية لكتابة الشعر والقصص والدراسات التاريخية وسير الحياة. لم يعد عمه يضع في طريقه العراقيل والحواجز، التي تثنيه عن الكتابة، بل كان يأخذ مؤلفاته ويقرأها بصمت، ثم يُصفّر بعد ذلك أو يقول: «أجل! هذا أفضل من السابق!» نُشرت له مقالات عديدة تحت اسمٍ مستعار. كان ألكسندر يصغي وقلبه يختلج فرحاً لدى سماعه الآراء الإيجابية لأصدقائه حول مايكتب، كان أصدقاؤه قد أصبحوا كثراً في الوظيفة وأماكن بيع الحلوى وفي بيوت السكن الخاصة، بسماعه تلك الآراء الإيجابية حول مايكتب. كانت تتحقق لديه أغلى أمنية بعد الحب. كان المستقبل يعده بنجاح باهر ونصر عظيم؛ وفيما كان ينتظره مستقبل واعد متألقّ لامصير عادي، فإنّ أمراً مباغتاً قد حدث.

بضعة أشهر مرّت بسرعة. لم يعد يُعثر على ألكسندر في أي مكانٍ تقريباً، وكأنه قد اختفى تماماً. صارت زياراته لعمه نادرة جداً. كان بطرس إيڤانيتش يعزو هذا الأمر لكثرة مشاغل وأعمال ابن أخيه. لكن، ذات مرّة، أثناء لقائه ببطرس إيڤانيتش، شكا رئيس تحرير المجلة كثيراً من تأخر ألكسندر الملحوظ في إرسال المقالات. وَعدَ العم بأن يستوضح الأمر من ابن أخيه في أقرب فرصة ممكنة. أتت الفرصة بعد ثلاثة أيام، عندما جاء ألكسندر، ذات صباح، مندفعاً نحو عمه كالمجنون. كان واضحاً بجلاء، من خلال مشيته وحركاته، أنه في غاية السرور.

– مرحباً ياعمّاه؛ آه، كم أنا مسرور لرؤيتك! – قال هو، وأراد ان يعانق عمّه، الذي استطاع ان يبتعد وراء الطاولة.

– مرحباً، ألكسندر! لماذا لم أرك منذ فترة طويلة؟

– كنتُ مشغولاً ياعماه... كتبتُ مخلصاً عن الإقتصاديين الألمان...

– هكذا! لماذا يفتري عليك رئيس التحرير إذن؟ ظلّ يؤكد لي وعلى مدى ثلاثة أيام، بأنك لاتفعل شيئاً – ياللغرابة! سأسوي الأمر معه لدى لقائي به...

– كلا، لاتقل له شيئاً، – قال ألكسندر مقاطعاً، – لم أرسل له عملي هذا إلاّ منذ فترة وجيزة فقط، الأمر الذي دفعه لأن يقول لك هكذا.

– مابك؟ وجهك يشعّ بهجة وفرحاً؛ ماسبب هذا كله؟ هل أصبحت قاضياً محلّفاً؟ هزّ ألكسندر رأسه بالنفي.

– هل حصلت على مالٍ وفير؟

– كلا.

– لماذا تبدو هكذا إذن كقائد منتصر؟ مادمت تقول كلا، فلا تزعجني؛ أفضل ماتفعله، هو أن تجلس وتكتب الى التاجر دوباسوف في موسكو بأنْ يرسل لي على جناح السرعة، الأموال المتبقية. إقرأ رسالته: أين هي؟ ها قد وَجَدتُها. خذ واقرأها. صمت الإثنان وشرعا يكتبان.

– انتهيت! – قال ألكسندر بعد بضع دقائق.

– بهذه السرعة: ياللمهارة! أرني. ماهذا؟ تكتبُ لي أنا. اسمه تيموفي نيكونيتش وليس «بطرس إيڤانيتش!». كتبتَ ٢٥٠ روبلاً! المبلغ الباقي ٥٢٠٠ روبلاً! مابك يا ألكسندر؟

وضع بطرس إيڤانيتش ريشته جانباً ونظر الى ابن أخيه. احمرّ ألكسندر خجلاً.

twitter @baghdad_library

- ألا تلاحظ شيئاً على وجهي؟ - سأل هو .

- بعض تلاوين الحماقة . قف . . . عاشق؟ قال بطرس ايڤانيتش .

صَمَتَ ألكسندر .

- أليس صحيحاً؟ ألمْ أحزر؟

رمقه ألكسندر بنظرة متألقة وابتسامة النصر تعلو محياه ، ثم هز رأسه مؤكداً .

- هكذا إذن! كيف لم أحزر فوراً؟ ذلك هو سبب تكاسلك واختفائك عن الأنظار . آل زارايسكي وسكاتشين يسألونني بإلحاح : أين ألكسندر فيدورتيش؟ وإذا بألكسندر في السماء السابعة!

شرع بطرس إيڤانيتش يكتب من جديد .

- وَقَعْتُ في حبِّ نادينكا لوبيتسكايا! - قال ألكسندر .

- لم أسألك عمن أحببت ، فالأمر كله ؛ بالنسبة لي ، حماقة ، - أجاب العمّ - ذات الثؤلول؟

-ماذا تقول ياعمّاه! - قاطع ألكسندر بأسى . - أي ثؤلول؟

- عند الأنف . لم تره بعد .

- التَبس عليك الأمر . الثؤلول موجود عند أنف أمّها .

- الأمر سيّان .

- سيّان ! نادينكا! هذا الملاك! هل يُعقل أنها لم تُلفت انتباهك؟ كيف يمكن أن يراها المرء مرّة واحدة ، دون أنْ تلفت انتباهه!

- ماالشيء الخاص المميز فيها؟ ما الشيء الذي يلفت الانتباه إليها؟ ألمَ تنف وجود ثؤلول عند أنفها؟

- ماذا جرى ياعماه! لاتتحدث إلا عن الثؤلول! لاتقترف إثماً ياعماه: وهل يمكن مقارنتها بتلك الدمّى المزوّقة! من يتأمل وجهها، لابد ان يلاحظ التفكير العميق الهادىء، الكامن فيه! إنها ليست فتاة رقيقة حساسة فقط، بل مفكرة أيضاً . . . إنها ذات طبع عميق . . .

- شرع عمه يُحزّق بريشته على الورقة، فيما تابع ألكسندر:

- لن تسمع في حديثها ذكراً للكلمات البذيئة النابية. كم تكشف محاكماتها العقلية عن ذهن نيرٍ وقّاد! عواطفها، نارية مشبوبة بالصدق! كم تدرك الحياة بعمق! أنت تنغّص الحياة بوجهة نظرك، فيما تعمل نادينكا على إزالة المنغصات منها.

صمت ألكسندر برهة، واستغرق كليّاً في حلمه بناديا. بعد ذلك بدأ من جديد:

- عندما ترفع عينيها، يكتشف المرء فوراً، كم هو رقيق ومتوقد ذاك القلب، الذي تفصح عنه! وصوتها، صوتها! ياللنغمة الساحرة وياللنعيم فيه! لكن عندما يصدح هذا الصوت الساحر بالإعتراف. . فلا أسعد ولا أسمى منه على وجه الأرض! عماه كم هي رائعه الحياة! كم أنا سعيد!

ترقرقت الدموع في عينيه؛ ارتمى بكلّ قوته ليعانق عمّه.

- ألكسندر! صرخ بطرس إيفانيتش وهو يقفز من مكانه- اغلقِ الصمّام بسرعة، - لقد نفثتَ البخار كلّه! أنت مجنون! ماذا فعلت! ارتكبت حماقتين في لحظة واحدة: أَفسدَت تسريحة شعري وبقَّعْتَ الرسالة. كنت أظنّ، أنك أقلعت نهائياً عن عاداتك القديمة. لم تتصرف هكذا منذ زمن طويل. ناشدتك الله أن تنظر الى نفسك في المرآة هل يمكن أن تعثر عما هو أكثر حماقة من وجهك؟ وتقول، إنك لست أحمق! ه!.

- ها، ها، ها! أنا سعيد ياعمّاه!

twitter @baghdad_library

- هذا ملحوظ!

- صحيح؟ أعرف، أن الإعتزاز يلتمع في نظرتي. أنظر الى الناس، كما يستطيع ان ينظر فقط، البطل والشاعر والعاشق والسعيد بالحب المتبادل.

- وكما ينظر المجانين، لا بل أسوأ أيضاً. . . ماذا أستطيع أن أفعل الآن بالرسالة؟

- اسمحْ لي، -بدأ ألكسندر كلامه، - سأزيل البقعة عن طريق الحكّ - ولن يلاحظها أحد بعد ذلك. اندفع نحو الطاولة وبدأ بنفس الإرتعاش التشنجي يقشر وينظف ويحكّ فأحدث في الرسالة ثقباً. بدأت الطاولة تتمايل من الخلف فصدمت المكتبة، التي كان يوجد عليها تمثال نصفي من الرخام الإيطالي الشفّاف لسوفوكليس أو اسخيلوس. في البداية، وبسبب قوّة الحكّ، تمايل مؤلف التراجيديا المحترم ثلاث مرآت على قاعدته المتقلقلة الى الوراء والأمام، ثم سقط على الأرض وتحطم.

- هذه حماقة ثالثة ياألكسندر! - قال بطرس ايڤانيتش وهو يلتقط قطع التمثال المتناثرة. - ثمنه خمسون روبلاً.

- أوه، سأدفع ثمنه ياعمّاه! سأدفع ثمنه؛ لكن؛ لاتلعن أحاسيسي: إنها طاهرة ونبيلة: أنا سعيد، سعيد! ياالهي! ماأروع الحياة!.

قطّب العمّ حاجبيه وهزّ رأسه.

- ألكسندر، متى ستصبح أكثر تعقلاً؟ الله وحده يعلم ماذا تقول!.

- في هذه الأثناء، كان يتطلّع بأسى. الى التمثال النصفي المحطّم.

- سأدفع ثمنه! - قال بطرس ايڤانيتش، - سأدفع! ستكون هذه حماقتك الرابعة! أرى أنك تريد أن تتحدث عن سعادتك، هيا، لامفر من ذلك على مايبدو: إذا كان محكوماً على الأعمام ان يشاركوا في ترهات أبناء إخوتهم كلها، وهذه هي الحقيقة، فإني أمنحك ربع ساعة لا أكثر: اجلس بهدوء ولاترتكبْ حماقة خامسة،

وتحدث عما تريد، وانصرف بعد حماقتك الجديدة هذه: فليس لديّ وقت. هيّا، باشر الكلام... أنت سعيد إذن... ماذا تريد ان تقول أيضاً؟ هيا بسرعة.

- مادمت تتحدثّ بهذه الطريقة ياعماه، فأودّ أن أصارحك القول، إنّ الحديث على أمور كهذه، لايتمّ هكذا، - لاحظ ألكسندر وهو يبتسم ابتسامة متواضعة.

- كنتُ أعتقد، أني قد هيأتك للدخول مباشرة في لب الموضوع، لكني أرى أنك تريد رغم ذلك، أن تبدأ من المقدمات المعتادة. هذا يعني، أنّ الحديث سيستمر ساعة كاملة، وأنا لاأملك الوقت الكافي لذلك، فالبريد لن ينتظر هذا الوقت كله. الأفضل ان أتحدث أنا.

- أنت؟ هذا مضحك!

- اسمع، هذا مضحك جداً! التقيتَ البارحة مع حسنائك على انفراد...

- كيف عرفت؟... بدأ ألكسندر بحرارة. - هل أرسلت من يراقبني؟

- أتظن أني أوظف جواسيس لمراقبتك، وأدفع لهم مرتبات! كيف يمكن أن يخطر ببالك أني، مهتم بك هكذا؟ ماشأني وهذا الأمر؟

كانت هذه الكلمات مصحوبة بنظرة باردة جداً.

-كيف عرفت الآن إذن؟ -سأل ألكسندر، وهو يقترب من عمّه.

-اجلس، اجلس بالله عليك، ولاتقترب من الطاولة، فقد تكسر شيئاً ما. أستطيع ان أقرأ بسهولة كل شيء على وجهك، من هنا، كنت تريد أن توضح شيئاً، - قال العم.

- احمرّ ألكسندر خجلاً وصمت. واضحٌ، أن عمه قد أصاب الهدف.

- كنت أحمق كالعادة، وكانت هي الأخرى حمقاء أيضاً، -قال بطرس إيڤانيتش. بدرت عن ابن الأخ حركة تنمّ عن نفاذ صبر.

twitter @baghdad_library

- ابتدأت القصة بالسخافات طبعاً، عندما بقيتما وحيدين. كانت توشّي قطعة قماش ما، تابع العم، - فسألتها: لمن توشّين؟ أجابت: «لأمي أو لخالتي»، أظن أنّ شيئاً من هذا القبيل حدث، أما أنت فكنت ترتجف كمن أصابته الحمى.

- كلا لم تحزر ياعمّاه: القصة لم تبدأ بالسؤال عن الوشي؛ كنّا في الحديقة... - قال ألكسندر، ثم صمت.

- حسناً، بدأت من الزهرة إذن، - قال بطرس إيڤانيتش، - وربما بالحديث عن الزهرة الصفراء أيضاً... المهم في الأمر هنا، هو أنّ شيئا تقع عليه العين، يصلح مادّة لبدء الحديث؛ فالكمات لاتأتي على اللسان، إلا بوجود مناسبة. سألتها إنْ كانت الزهرة تعجبها، فأجابت بنعم - كرّرْت السوال: لماذا؟ «هكذا»، - قالت هي، ثم توقفتما عن الكلام، لأنكما كنتما تودان ان تقولا شيئاً آخر، لكن الحديث لم يبدأ. بعد ذلك، تبادلتما النظرات وابتسمتما، ثم بدا عليكما الخجل.

- آه ياعمّاه، ماذا تقول!... - قال ألكسندر بارتباك شديد.

-بعد ذلك، - تابع العمّ الذي لايرحم، - بدأتَ الحديث وأنت تنظر جانباً. قلتَ أن عالماً جديداً يتكشّف أمامك. تطلّعت إليك فجأة، كما لو أنها تسمع خبراً غير متوقع، فارتبكت، كما أظنّ وتحيرتْ، ثم قلتَ بعد ذلك بطريقة أقرب إلى الوضوح، إنك، الآن فقط، تقدر قيمة الحياة، بعد أن رأيتها... ما اسمها؟ ماريا؟

-نادينكا.

- وانك قد رأيتها في الحلم، وكنت تهجس بلقائها، أما الآن، فأصبحت متيّماً بها، لذا، فإنك ستكرس لها وحدها، كل قصائدك ونثرك.. أستطيع ان أتصور كم كانت يداك تتحركان بانفعال! لابد ان تكون قد قلبت وحطّمت شيئاً ما.

- عمّاه! كنت تصغي إلينا! - صرخ ألكسندر، وقد خرج عن طوره.

- أجل كنتُ أجلس هناك، وراء شجيرة. لم يعد لديّ عمل، إلا الركض وراءك والإصغاء الى ترهاتك.

- كيف عرفت هذا كله إذن؟ - سأل ألكسندر بحيرة.

- هل هذا صعب! القصة واحدة عند الجميع منذ آدم وحواء، مع بعض التعديلات فقط. فإذا عرفت طباع الشخوص، فستتعرف ببساطة على هذه التعديلات الطفيفة. أستغرب دهشتك! ألست كاتبا! ستقفز وترتمي على أعناق الآخرين ثلاثة أيام بكاملها من شدّة الفرح - لكنني أرجوك ألاّ ترتمي على عنقي. أنصحك أن تحبس نفسك في غرفتك طوال هذا الوقت، وأن تنفث فيها كل هذا البخار وتفرّغ هناك انفعالاتك وترتمي على عنق يفسيي، كي لايراك أحد غريب، وبعد أن تهدأ قليلاً، ستحاول الحصول على قبلة أخرى.

- قبلة من نادينكا! يالها من منحةٍ سماوية مقدّسة! - بدأ ألكسندر يبكي تقريباً.

- سماوية!

- وهل هي أرضية مادية، من وجهة نظرك؟

- بلا شك، إنها ناتجة من تأثير الكهرباء؛ فالعاشقان يشبهان مكثفين كهربائيين: كلّ واحد منهما مشحون بقوّة؛ الشحنات تتفرغ عن طريق القبل، وعندما تتفرغ تماماً- يعقب الحب، للأسف، برودٌ ملحوظ...

- عمّاه...

- أجل! ماذا تظنّ إذن؟

- ما أغربَ نظرتك ومفاهيمك!

- أجل، لقد نسيت: ستلوح لك «العلامات المادية»، ستستولي عليك الترّهات من جديد، وستستغرق في التفكير والتأمل، أما العمل، فستدعه جانبا.

twitter @baghdad_library

تلمّس ألكسندر جيبه فجأة.

- ماذا ستفعل إذن؟ ستفعل مايفعله الناس منذ بدء الخليقة.

- ينتج عن هذا، أنك فعلت الشيء ذاته ياعماه، أليس كذلك؟

- أجل لكنك ستتصرّف بحماقةٍ أكثر.

- بحماقة أكثر! كيف تقول كلاماً كهذا! إذا كنتُ أحبّ أكثر وأعمق منك، ولا أسخر من المشاعر الصادقة الجيّاشة، ولا أستخف بها، أو أنظر إليها ببرود، كما تفعل أنت، ولا أكشف الستر عن الأسرار المقدّسة... فهذا لايعتبر فرط حماقة أبداً.

-ستحبّ كما يحبّ الآخرون، لا أكثر ولا أعمق؛ وستكشف الستر عن الأسرار... لكنك ستثق فقط بحبّ أبديّ دائم، وسيستولي على قلبك هذا الحبّ الوحيد؛ تلك هي الحماقة الزائدة: ستجلب لنفسك عندئذٍ من المصائب والآلام أكثر مما ينبغي...

-آه، ما أفظع ماتقول ياعمّاه! كم مرّة قطعتُ على نفسي عهداً، ألا أبوح لك بما يعتمل في نفسي من مشاعر.

- لماذا لم تلتزم بالعهد، الذي قطعته على نفسك؟ ها قد أتيت وعرقلت عملي...

- أنت الوحيد، القريب منّي ياعمّاه: أمام من غيرك أستطيع الكشف عن فيض مشاعري؟ لكنك تغرز سكين مشرحتك في ثنايا قلبي الخفية العميقة.

- أنا لا أفعل هذا إرضاء لنفسي: أنت الذي طلبت نصائحي. كم جنّبتُك من حماقات!.

- كلا ياعماه، لِأَكُنْ أحمق في عينيك أبد الدهر، فهذا أفضل لي بكثير من أنْ أتعايش مع مفاهيمك عن الحياة والناس. كم هذا محزن ومؤلم! لن أشعر

بضرورة الحياة عندئذ، لذا فأنا لا أريد أن أعيش في ظلّ تلك الظروف التي تدعو إليها - هل تسمعني؟ لا أريد.

- أسمعك؛ ماذا أستطيع أن أفعل؟ أنا لا أريد أن أحرمك من الحياة أيضاً.

-أجل! قال ألكسندر، - سأكون رغم تنبؤاتك كلها سعيداً، وسأحبّ مرّة واحدة الى الأبد.

-آه منك! أتمنى ان تكون سعيداً، فهذا يثلج صدري. لا أحد يمنعك من أن تحبّ، كل ما أريده منك، هو ألا يصرفك الحب كليّاً عن أعمالك؛ للحبّ وقت، وللعمل وقت...

- ها أنا ذا ألخص مؤلفات الكتّاب الألمان...

- كفى، أنت لاتلخص شيئاً، فقد استسلمت نهائياً لنزواتك. قد يتخلى رئيس التحرير عنك...

- ليفعل مايشاء! لست بحاجة إليه. كيف يمكنني ان أفكر الآن بمصلحةٍ مادية تافهة، في الوقت الذي...

- مصلحة مادية تافهة! تافهة! الأفضل ان تبني لنفسك كوخاً في الجبال، وتأكل الخبز مع الماء وتغني:

الكوخ البسيط معكِ

جنّة بالنسبة لي

لكنْ، عندما تخلو جيوبك من «المعدن التافه»، فأرجو ألاّ تطلبه منّي- لأني، لن أعطيك...

-أعتقد، أنني لم أُكثرْ من إزعاجك.

- الحمد لله، أنت لم تفعل هذا حتى الآن، لكنْ قد يحدث هذا، إذا تركت العمل؛ الحبّ يتطلبّ نقوداً أيضاً: فهو يستلزم نفقات عديدة للغندرة... آه، أعرف حبّ العشرين هذا! إنه تافه، تافه، لايصلح لشيء!

twitter @baghdad_library

- ماهو الحبّ الصالح في نظرك ياعماه؟ حبّ الأربعين؟

- لاأعرف حبّ الأربعين بعد، بل حبّ التاسعة والثلاثين.

- تقصد حبّ من هم في مثل سنّك؟

-أجل.

- هذا يعني، أنك لم تعرف الحب.

- لماذا تعتقد هكذا؟

- وكأنك تستطيع ان تحبّ؟

- لِمَ لا؟ ألستُ إنساناً؟ هل بلغتُ الثمانين؟ لكنني عندما أحبّ، أحبّ بتعقل، دون أن أنسى نفسي أو أتقاعس عن واجبي أو أترك أعمالي.

- حبّ عقلاني! أيّ حبّ هذا، الذي يُذكّر المرء بنفسه دائماً! - علّق ألكسندر بسخرية. - أي حبّ هذا، الذي يجعل المرء لاينسى نفسه لحظة واحد...

- (مقاطعاً) الحبّ الحيواني الغريزي، هو الذي لايدع المرء يفكر بنفسه، - قال بطرس إيڤانيتش، - أما الحبّ العقلاني، فيذكّر المرء بنفسه؛ في الحالة المعاكسة. لايكون الحبّ حباً...

- ماذا يكون إذن؟

- شناعة.

- أنت... تُحبّ - قال ألكسندر، وهو ينظر الى عمّه بارتياب. - ها، ها، ها!

صار بطرس ايفانيتش يكتب بصمت.

-مَنْ تُحب ياعمّاه؟

-تريد ان تعرف؟

-أتمنّى .

- خطيبتي .

- خـ . . . خطيبتك! قال ألكسندر بصعوبة، وهو يقفز من مكانه ويدنو من عمه .

-لاتقترب، لاتقترب أكثر، اغلقِ الصمّام ياألكسندر! - بدأ بطرس إيڤانيتش يتكلّم، وهو يرى كيف اتسعت عينا ابن أخيه، فأبعد عنه بسرعة أشياء صغيرة مختلفة . . . تماثيل نصفية، ساعة، تماثيل صغيرة ومحبرة .

- أنت عازم على الزواج إذن؟ - سأل ألكسندر بنفس الدهشة السابقة .

- أجل .

- وتبقى هادئاً هكذا! وتظل تكتب الرسائل الى موسكو، وتتحدث عن مواضيع أخرى جانبية، وتذهب الى المصنع، ثم تتحدث فوق هذا كله، بهذا الأسلوب الجهنمي البارد عن الحبّ!

-أسلوب جهنمي بارد - هذا جديد عليّ! الكلام في جهنّم يكون حاراً . لماذا تنظر إليّ باستغراب هكذا؟

- أنت . . . ستتزوّج!

- ما الأمر الغريب في هذا؟ - سأل بطرس إيڤانيتش، وهو يضع ريشته جانباً .

- ما الأمر الغريب؟ تتزوج دون ان تقول لي أيّ كلمة!

-اعذرني، نسيت أن أستأذن منك .

- لا أقصد أن تستأذن ياعماه، لكن أرى من حقي أن أعرف . يتزوّج عمّي، دون أن أعلم! يتزوّج عمي . دون أن يخبرني . . .

twitter @baghdad_library

- ها قد أخبرتك .

-أخبرتني ، لأنّ المناسبة قد حان وقتها .

- أحاول قدر المستطاع ، أن أفعل كلّ شيء في حينه .

- كلا ، كان ينبغي أن أكون أوّل من تخبره بنبأ فرحك هذا : أنت تعرف كم أحبّك وأشاركك الرأي . .

- أحبّ بوجه عام ، أن أتفادى الحديث في أيّ موضوع قبل الأوان .

- أتعرف ياعماه؟ - قال ألكسندر بحيويّة ، - ربما . . . كلا ، لا أستطيع ان أخفي أسراري عنك . . . لستُ مثلك ، سأبوح لك بكل شيء .

-ألكسندر ، آه منك ، لا وقت لديّ الآن ؛ إذا كان لديك قصة جديدة ، أفلا تستطيع تأجيلها الى الغد؟

- أريد ان أقول فقط ، إنني ربما . . . أكون قريباً من مثل هذه السعادة أيضاً . . .

- ماذا؟ - سأل بطرس إيڤانيتش ، وقد أصاخ السمع قليلاً . - هذا مثير للفضول . . .

- ها! مثير للفضول؟ سأجعلك تتحرّق شوقاً : لن أقول .

- تناول بطرس إيڤانيتش الطرد بعدم اكتراث ، ثم وضع الرسالة فيه وبدأ يغلّفه .

- ربما أتزوج أنا أيضاً! - همس ألكسندر في أذن عمّه

لم يكمل بطرس إيڤانيتش تغليف الرسالة ، ونظر إليه بكثيرٍ من الجدّيّة .

- ألكسندر ، اغلق الصمّام! - قال هو .

- أراك تمزح ياعمّاه ، فيما أتحدّث أنا بجدّيّة . سأطلب موافقة والدتي .

- تتزوّج!

- وما الغرابة في هذا؟

- في مثل هذه السنّ!

- بلغتُ الثالثة والعشرين.

-في مثل سنّك، يتزوّج الفلاحون فقط، بسبب الحاجة الى عاملة في البيت.

- وإذا كنتُ واقعاً في حبّ إحدى الفتيات، وتتوفر لديّ إمكانيات الزواج، ألن يكون ضرورياً عندئذ، حسب رأيك، أنْ. . .

- لن أنصحك أبداً بالزواج من المرأة، التي تحبّ.

-كيف ياعماه؟ هذا قول جديد، لم أسمعه أبداً في حياتي.

- كم من الأقوال المأثورة لم تسمعها!

- ما أعرفه حقّ المعرفة هو أنّ الزواج دون حبّ، لاينبغي أن يتمّ أبداً.

-الزواج والحبّ أمران مختلفان، - قال بطرس إيڤانيتش.

-كيف؟ هل ينبغي أن يتمّ الزواج. . . بعملية حسابية؟

- ليس بعملية حسابية، بل بأخذ الأمور بالحسبان. بيد أن حسبان الأمور هذا، لاينبغي ان يقتصر على الجوانب المادية فقط، فقد خلق الإنسان ليعيش في صحبة المرأة، لذا، ينبغي عليه ان يُدقّق في عملية الزواج ويبحث ويعرف أيّ امرأة يختار من بين النساء. . .

- يبحث ويختار! - قال ألكسندر بدهشة.

-أجل، ينبغي على المرء ان يختار، لذا، فإني أنصحك بعدم اختيار من تحبّ، الحب ينتهي - وهذه حقيقة مُرّةٌ دنيئة.

- هذا كذب فاحش وافتراء فظيع.

twitter @baghdad_library

- لن أستطيع اقناعك الآن، ستلمس هذا الأمر وتتأكد منه مع الزمن. لكن ما أريده منك في اللحظة الراهنة، هو أنْ تتذكر كلماتي. الحبّ ينتهي، هذا ماأكرره أيضاً، وربما ستبدو عندئذ المرأة التي كنت تعتبرها نموذج الكمال، غير كاملة إطلاقاً، وعندها لن تستطيع أن تفعل شيئاً. الحبّ يحجب عن المرء نقص المزايا الواجب توفّرها في الزوجة. لذا فإنّ التدقيق في الاختيار، يصبح أمراً لامناص منه، حيث يفرض على المرء ان يناقش ببرود ان كانت المزايا المرغوب توفرها في الزوجة موجودة في هذه المرأة أو تلك: ذلك مايعنيه أخذ متطلبات الزواج بالحسبان. وإذا استطعت العثور على مثل تلك المرأة، فانها ستعجبك دائماً. لأنها تلبي رغباتك. ينتج عن هذا، أنّ علاقاتٍ وثيقة ستتوطّد بينك وبينها وأنّ هذه العلاقات ستخلق بعد ذلك...

- الحبّ - سأل ألكسندر.

- اجل... التعوّد.

- كيف يمكن ان يتمّ الزواج دون حبّ أو ولع أو شغف. وهل يستطيع المرء أن يناقش الزواج بالطريقة التي تتحدث عنها!

- هل ينبغي أن تتزوج إذن، دون ان تحاكم الأمور جيداً وتسأل نفسك: لماذا أتزوج؟ هذا يشبه تماماً مجيئك الى بطرسبورغ دون ان تسأل نفسك أيضاً: لماذا أتيت؟

- أنت تتزوّج إذن بعملية حسابية؟ - سأل ألكسندر.

- بأخذ الأمور بالحسبان - لاحظ بطرس ايڤانيتش.

- الأمر واحد.

كلا، الأمر مختلف. الزواج بعملية حسابية معناه، أن يتزوج المرء من أجل النقود - وهذا دناءة وسفالة؛ لكنْ ان يتزوج المرء، دون أخذ أمور الزواج بالحسبان- فهذا - حماقة!... أما بالنسبة لك، فلا ينبغي ان تتزوج الآن. مطلقاً.

- متى أتزوج إذن؟ عندما أهرم؟ لماذا ينبغي عليّ ان أقتفي النماذج السخيفة غير المعقولة.

- بما في ذلك نموذجي؟ شكراً.

- أنا لاأتحدث عنك ياعماه، بل أتحدث بوجه عام، عن جميع الناس. تسمع بعرسٍ، فتذهب لترى - ما الأمر؟ ترى كائناً رائعاً لطيفاً، أشبه بالطفل، الذي ينتظر لمسة الحبّ السحرية فقط، ليتحول الى وردةٍ نضرة. يُفصَل فجأة عن الدمى والمربية وألعاب الأطفال والرقص، ونحمد الله إذاً اكتُفي بفصله عن هذا فقط. إذ غالباً مايتم الاستخفاف بالقلب، الذي ربما لم يعد ملكاً لهذه الفتاة أو تلك. يلبسونها الشَف ويزينونها بالأزهار ويجرّونها كالضحية، دون أن يأبهوا بالدموع والشحوب ويصمدونها لكن بجانب من؟ بجانب رجلٍ مُسنٍّ، غالباً مايكون قبيحاً فاقداً نضارة الشباب. تراه إما يرمقها بنظراتٍ تنم عن نزوات مهينة، أو يتفحصها ببرود، من رأسها وحتى أخمص قدميها، وكأنّ لسان حاله يقول! «جميلة أنت، لكن رأسك مليئة بالرعونة: بالحبّ والأحلام الوردية، - عليك أن تكوني محتشمة عندي»، أو ربما يكون يفكر، بما هو أسوأ أيضاَ، - بأملاكها، أصغر هؤلاء الأزواج سناً يناهز الخامسة والثلاثين على أقل تقدير. غالباً مايكون أصلع، لكنه يعلق على صدره وساماً، وأحياناً نجمة. يقال لها: حكم عليك القدر أن يتمتع شخص كهذا بكنوز شبابك كلها؛ بسحرك العذري وبارتعاشة قلبك الأولى، وان ينتزع منك اعترافك ونظراتك وكلماتك وحياتك كلها». بينما يتواجد بكثرة وسط زحام الناس، شبان يضاهونها قوة وجمالاً، شبّان أكفاء لأن يكونوا عرساناً لها. تراهم يفترسون الضحية المسكينة بنظراتهم، وكأن لسان حالهم يقول: «عندما تستنزَف نضارتنا وقوانا ونصبح صلعاناً، عندها فقط، نقبل على الزواج ونمتلك زهرة نضرة مثلك... » كم هذا فظيع!

- ماأسوأ كلامك ياألكسندر! ها أنتَ تكتب منذ سنتين، - قال بطرس إيفانيتش، - عن التربة والبطاطا وغيرها من الموضوعات الأخرى الجدية، بأسلوب

twitter @baghdad_library

صارم مقتضب وتأتي بعد هذا كله لتتحدث بهذه الطريقة الفظيعة. أتمنى عليك ألاّ تستسلم للانفعالات الوجدانية والنشوة الروحية، أو أن تصمت على الأقل، عندما يستبد بك الطيش، حتى يزول وينتهي، لأنك لن تقول أو تفعل صواباً: تمالك نفسك حتى تهدأ، وستختفي سخافاتك وتزول عندئذ حتماً.

- كيف ياعمّاه، ألا تولد أفكار الشاعر في غمرة النشوة الروحية ذاتها؟

- لا أعرف كيف تولد، لكنني أعرف، أنها تخرج مكتملة من الرأس، أي أنها تكون جميلة رائعة فقط، عندما يصوغها ويصقلها التأمل والتفكير. - حسب رأيك، - بدأ بطرس إيڤانيتش، ثم صمت قليلاً، - من ينبغي ان تتزوج هذه الكائنات الرائعة؟ سأل هو، وصَمت.

- ينبغي ان يتزوجن من يحببن ومن لم يفقدوا نضارة الشباب بعد، ومن تمتلىء أفئدتهم وعقولهم بحب الحياة؛ ينبغي أن يتزوجن من لم يخفت الألق والضياء في عيونهم، ومن لم تختف الحمرة من وجناتهم ولم يفقدوا النضارة والحيوية - أي من لم يفقدوا علامات الصحة والعافية؛ يتزوجن كلّ من يمنحهنّ قلبه وأحاسيسه الصادقة من الشبّان، الذين يستطيعون تفهم مشاعرهن ومشاركتهن أفراحهن وأتراحهن عندما تقضي قوانين الطبيعة بذلك، وليس من يقودهن بأيد واهية على درب الحياة.

-كفى! تقصد أمثالك من الشبّان. لو كنا نعيش وسط الحقول والغابات الكثيفة العذراء. - لكان لزاماً عليهن عندئذ أن يتزوجن أمثالك من الشبان، ولوجدن في هذا منفعة كبيرة. لكن الأمر مختلف تماماً هنا بعد سنة من الزواج، سيفقد أمثالك عقولهم، وسيعيشون حياة خاصة خفية، وسيتطلعون إلى وصفات زوجاتهم، لأنّ قوانين الطبيعة، التي تتحدث عنها، تتطلب التغيير والتجديد - ذلك هو نظام الطبيعة الرائع المجيد! بعد ذلك، ما إن تلاحظ الزوجة ملاعيب زوجها وحيله حتى تحب فجأة الملابس الأنيقة الفاخرة والحفلات التنكرية والقبعات

الجميلة، وتردّ على تصرفاته بأخرى مشابهة . . . لكنّ النتيجة هنا تكون أسوأ، لأن الزوج سيبدد ثروته ويفلس! ولن يجد عندئذ مايسد به رمقه، أو يتحدث عنه!

ظهرتْ على وجه بطرس ايفانيتش أمارات عدم الرضى والإرتياح.

- «يقول عندئذ أنا متزوج، - تابع بطرس ايفانيتش، - وعندي ثلاثة أطفال، وأرجو مساعدتي، لأنني لا أملك ما أسد به الرمق، فأنا فقير . . . » فقير! ياللسفالة! كلا، آمل أنك لن تكون من عداد هذا الصنف من الناس، أو ذاك.

- سأكون في عداد الأزواج السعداء ياعماه، وستكون نادينكا في عداد الزوجات السعيدات. لا أريد ان أتزوج كما تتزوج الأغلبية الساحقة من الناس، على مبدأ الأغنية القائلة: « انقضى الشباب، وسئمت الوحدة، لذا ينبغي أن أتزوّج!» لستُ هكذا!.

- أراك تهذي ياعزيزي.

- لماذا تعتقد هكذا؟

- لأنك مثل الآخرين، وأنا أعرف الآخرين حق المعرفة منذ زمن بعيد. قل لي، لماذا تتزوج؟

- لماذا! كي تصير نادينكا زوجتي! - هتف ألكسندر، وهو يحجب وجهه بيديه.

- وهل هذا جواب؟ أرأيت! أنت نفسك، لاتعرف لماذا.

- أواه! الروح تتلاشى من تأثير فكرة واحدة. أنت لاتعرف كم أحبها ياعماه! أحببتها كما لم يحبّ أحد من قبل أبداً. أحبها بكل قواي الروحية وجوارحي - فقد سلبت كل . . .

- ألكسندر، أُفضِّل ان تسبّ وتشتم، وحتى أن تضمّني الى صدرك، على أن تكرر هذه العبارة الغبيّة الحمقاء! كيف طاوعك لسانك على قول هذا؟ «مما لم يحبّ أحدُ من قبل أبداً».

twitter @baghdad_library

هزّ بطرس إيڤانيتش كتفيه.

- أليس هذا ممكنا؟

-بالمناسبة. أفكر في نفسي، وأنا انظر إلى حبك، وأقول إنّ هذا ممكن: لكن، لايوجد ما هو أغبى من حبّك!

- لكنها تقول لي، إننا يجب ان ننتظر سنة أخرى، كي يعرف كلّ منا الآخر جيداً ويختبر نفسه... وعندئذ... بعد مضي سنة بكاملها...

- (مقاطعاً) سنة! ها! ليتك قلت هذا منذ مدة! - قال بطرس إيڤانيتش! - هل هي، التي اقترحت ذلك؟ يالها من ذكية! كم عمرها؟

- ثمانية عشر عاماً.

- وعمرك ثلاثة وعشرون عاماً: إنها أذكى منك ياعزيزي بثلاث وعشرين مرّة. إنها تفهم المسألة كما أرى: فهي تريد أن تعبث وتتسلّى وتمضي بعض الوقت بمرح معك... وسط هؤلاء الفتيات، يوجد ذكيّات حاذقات! صرتُ متأكداً الآن، أنك لن تتزوّج. كنت أظنّ أنك تريد أن تنجز الأمر سراً بأسرع مايمكن. في مثل سنّك، يتم إنجاز هذه الحماقات عادة، بأقصى السرعة، حيث لايلحقُ أحد أن يعرقل الأمر، أو يفعل شيئاً، لكنْ بعد سنة! ستخدعك قبل انقضاء هذا الوقت...

- هي - تخدعني وتعبث بي! هي، نادينكا! آه، منك ياعماه! مع منْ أمضيت حياتك كلّها ومن تستطيع أن تحبّ، إذا كنت تحمل هذه الشكوك السوداء كلها؟

- عشتُ مع الناس، وأحبُ امرأة.

- هي - تخدعني! هذا الملاك الطّاهر، هذا الإخلاص المتجسد، هذه الفتاة، التي يبدو من سيمائها، أن الله قد خلقها أول البشر بكامل النقاء والألق والضياء.

- لكنها تظلّ امرأة، رغم ذلك كله، وستخدعك.

- ألن تقول أيضاً إني سأخدعها؟

- أجل، ستخدعها مع الزمن.

- أنا! تستطيع ان تقول ماتشاء بخصوص من لاتعرفهم، لكنْ ألا تشعر بعقدة الذنب عندما تتهمني بعمل بشع كهذا؟ من أكون في عينيك؟

- إنسان.

- ليس كل الناس سواسية. أريدك أن تعرف، أني وعدتها صادقاً مخلصاً بأن أحبها، مدى الحياة؛ أستطيع ان أوكد بأغلظ الإيمان...

- أعرف، أعرف! الانسان المستقيم لايشك في البداية بصدق العهد، الذي يقطعه على نفسه لامرأة، لكنّ الأمر يتغير بعد ذلك، فيخبو شعوره نحوها ويتضاءل، دون ان يعرف هو نفسه، كيف حدث هذا كله، هذا الأمر لايحدث قصداً، ولا برغبة، لذا فإنّ الذنب لايقع على أحد هنا، ولايعتبر الأمر نذالة أو دناءة: فالطبيعة لم تسمح بأن يستمر وهج الحبّ دائماً وأبداً. المؤمنون بأبدية واستمرارية الحبّ يفعلون أيضاً ذات الشيء، الذي يفعله غير المؤمنين لكنهم لايلحظون هذا فقط، ولايريدون أن يعترفوا بذلك، فهم يزعمون أنهم أسمى من هذا، ويحسبون انهم ملائكة لابشر - يالها من حماقة!.

-كيف تفسر إذن وجود أزواج ظلوا يحبون بعضهم بعضاً مدى الحياة...؟

- مدى الحياة! من يُحب لأسبوعين فقط، ينعت بأنه طائش، ومن يحب لسنتين أو ثلاث، يوصف بأنه مُحبٌ مدى الحياة! تمعن جيداً في جوهر الحبّ وتكوينه. وستدرك أنه ليس دائماً! فحيويةّ وحرارة وحمى المشاعر، غير مسموح لها بأن تبقى مستمرةّ. الأزواج المتفاهمون المتحابون يعيشون سوية الحياة كلها- هذا صحيح! لكن هل يستمر حبهم مدى الحياة؟ هل يظلّ ذاك الحبّ الأول رابطاً فيما بينهم؟ هل يظلّ كلٌ منهم ينظر الى الآخر، كل لحظة، بمتعةٍ لاتنتهي؟ أين يختفي ذاك الاهتمام الزائد والتعطش للبقاء معا؟ أين تختفي المداعبات الصغيرة الناعمة

twitter @baghdad_library

والدموع والبهجة - وهذه السخافات كلها؟ برود الأزواج صار مضرباً للمثل. «حبهم يتحول الى صداقة!» -هكذا يقال برصانة: فالحب لم يعد حبّاً! لقد تحول الى صداقة! لكن، ماجوهر هذه الصداقة؟ الزوج والزوجة تجمعهما مصالح وظروف عامة مشتركة ومصير واحد، - بسبب هذا كله يعيشان معاً، وعندما ينتفي هذا، يختلفان ويبحث كلٌ منهم عن حبّ آخر، قد يظفر به أحدهما أولاً، والآخر لاحقاً: وهذا مايُسمى خيانة! ظروف الحياة المشتركة الدائمة تجعل الزوج والزوجة بعد ذلك يعيشان معاً بقوة العادة، التي تعتبر أقوى من أي حبّ: إذ ليس عبثاً أن توصف بأنها الطبيعة الثانية للإنسان؛ لولاها، لبقي الناس يتألمون ويتعذّبون مدى الحياة على فراق وموت هذا الحبيب الغالي أو ذاك، لكن الناس يسلون. فالعادة هي ناظم الحياة الدائم! كم كان الناس سيعانون ويصرخون لولا العادة!

- كيف لاتنتبه الى نفسك ياعماه؟ هل هذا يعني، أنّ حبيبتك. . . ستخونك لاحقاً؟

- لا أعتقد.

- ياله من اعتداد بالنفس!

- هذا ليس اعتداداً بالنفس؛ بل حسباناً للأمور.

- أراك تعود الى المعزوفة ذاتها!

- سمِّها تأملاً أو تفكيراً إن شئت.

- وإذا أحبّتَ أحداً ما؟

- لاينبغي أن ندع الأمر يصل الى هذا الحدّ، لكن، إذا حدث أمر كهذا، فمن الممكن عندئذ أن نعالج الأمر بمهارة.

-وكأن الأمر ممكن؟ هل تستطيع. . .

- جداً

- هكذا تجعل كلّ الأزواج مخدوعين، - قال ألكسندر-

- ليس كل الأزواج سواسية ياعزيزي: البعض منهم غير مبالين بزوجاتهم، فلا يكترثون بما يجري من حولهم ولايريدون أن يلاحظوا شيئا؛ أما البعض الآخر فمختلف، إذ يوجد أزواج يرغبون بذلك، من باب الاعتداد بالنفس، لكنهم أردياء لايعرفون معالجة الأمور.

- كيف ستعالج الأمور؟

- هذا سري، ولن تستطيع إدراكه مادمت في حمّى الانفعال.

- أنا سعيدٌ الآن وأشكر الله على هذا، ولا أريد ان أعرف مايخبئه المستقبل من أحداث.

- النصف الأول من عبارتك ذكي جداً، وإن كان صادراً عن عاشق مُتيّم: إنه يكشف عن معرفة في استخدام الحاضر والإستفادة منه؛ أما النصف الثاني، فأستميحك عذراً إن قلت بأنه لايصلح لشيء. «لا أريد ان أعرف مايخبئه المستقبل من أحداث»، هذا معناه أنك لاتريد أن تفكر بما حدث البارحة، وبما يحدث اليوم، وأنك لاتريد أن تتصور أو تمعن النظر والتفكير في الاحتمالات المقبلة، أو تستعد لمواجهتها، وكأن لسان حالك يقول: لا أهتم بما سيحدث، ليكن مايكون! اعذرني، ماذا يشبه هذا؟

- مارأيك أنت ياعماه؟ عندما تحل لحظة الغبطة والسعادة، ينبغي على المرء ان يأخذ منظاراً مكبراً وينظر من خلاله إلى الأمور...

- كلا، ينبغي على المرء ان يأخذ منظار مصغراً، كي لايصبح أحمق يرتمي على أعناق الآخرين.

- وعندما تحل لحظة الحزن والأسى، - تابع ألكسندر، - هل ينبغي ان ننظر إليها عبر منظار مصغر؟

- كلا، فالحزن ينبغي أن ينظر إليه عبر منظار مكبر: إذ سيكون أسهل على المرء أن يواجه المأساة ويتحملها، عندما يتصور، أن حجمها هو أكبر بمرتين مما هو في الواقع.

twitter @baghdad_library

- لماذا ينبغي عليّ، - تابع ألكسندر بأسى، - أن أقتل، منذ البداية كل مسرة في نفسي، من خلال اعتماد أسلوب بارد صارم في التحليل، يمنعني من الإرتواء الوجداني ويفرض عليّ الفكرة القائلة: ستنقضي لحظة الفرح وتتغير؟ لماذا يتوجب عليّ أن أتألم وأتعذب مسبقاً قبل أن تحل المصيبة؟

- (مقاطعاً) من أجل ان تمرّ وتنتهي عندما تحلّ، - قال العم، - كما انتهت عند غيري. لي كبير الأمل في أن يكون هذا المنطق مفيداً وجديراً بالاهتمام؛ لن تتألم عندئذ أو تتعذب عندما تتأكد ان فرص الحياة تتغير وتتبدل كثيراً. ستكون وقتها إنساناً حقيقياً رابط الجأش.

- هذا هو سر هدوئك إذن! - قال ألكسندر متأملاً.

صمتَ بطرس إيڤانيتش وصار يكتب.

- أيّ حياة هذه! - بدأ ألكسندر - أيّ حياة تلك، التي لايستطيع فيها الإنسان أن يسترخي مطلقاً، بل يظلّ يفكّر ويفكّر... كلا، أشعر أن الحياة ليست هكذا! أريد أن أعيش بمنأى فالأمر سيان عندي!... لماذا ينبغي عليّ أن أعذب نفسي سلفاً وأسمّم...

- مافتئت أشرح لك السبب، لكنك ماتزال مصراً على رأيك! لا ترغمني على إجراء مقارنة مهينة تكون في غير مصلحتك. أعود وأقول، إنّ الإنسان الذي يتوقع مسبقاً الخطر، الذي قد يتهدّده أو المصيبة، التي قد تحل به، يكون أقدر على المواجهة وتحمل الصعاب: فلا يفقد عقله ولايموت؛ وعندما تحلّ المسرّة والسعادة، فإنه لايطير فرحاً ولا يقفز ويقلب التماثيل النصفية- فهمت؟ يقال له: تلك هي البداية، فكر جيّداً واستنتج النهاية منها، لكنه يغمض عينه ويهز رأسه، كما لو أنه ينظر الى بعبع ويعيش حياته بعقل طفولي. الحياة من وجهة نظرك، هي أن يعيش المرء كلّ يوم بيومه دون عناء أو تفكير، وأن يجلس عند باب كوخه ويقيس الحياة بالمآدب والحفلات الراقصة والحبّ والصداقة الثابتة الدائمة.

كل الناس ينشدون الحياة السعيدة! سَبَقَ ان قلت لك، إنّ أفكارك هذه تكون صالحة في حال عيشك في الريف مع امرأة تضع لك نصف دزينة من الأطفال، أما هنا، فالعمل يفرض منطقه. من أجل ان تنجز عملك هنا، ينبغي عليك ان تفكر وتتذكر دائماً مافعلته البارحة، وما تفعله اليوم، كي تعرف ماهو ضروري لأن تفعله غداً، أي ان تعيش باستمرار وأنت تتفحص وتراقب نفسك وأعمالك دائماً. باعتماد منطقٍ كهذا يمكننا ان نتوصل الى شيء ما عملي، أما وجهة نظرك... أرى أن النقاش معك مستحيل فأنت تهذي الأن أف! بعد قليل، ستصبح الساعة الواحدة! ألكسندر، لن أتحدث معك الآن أكثر؛ انصرف... لن أصغي إليك؛ تعال وتناول الغداء معي غداً، سيكون عندي بعض الضيوف.

- أصدقاؤك؟

- أجل... كونيف، سميرنوف وفيودوروف، - تعرفهم؛ سيكون أيضاً آخرون...

-كونيف، سميرنوف وفيودوروف! آه، تعني شركاءك في العمل.

- أجل، كلهم أناس مهمّون.

- يوجد لديك أصدقاء إذن؟ في الواقع، لم يسبق لي أن رأيت قط، أنك استقبلت أحداً بحرارة خاصة.

- قلت لك سابقاً، إنّ أصدقائي هم أولئك الناس، الذين ألتقيهم غالباً والذين يمنحونني المنفعة أو الرضى. وهل ينبغي عليّ أن أستضيف الناس، دون مقابل؟

- اعتقدتُ أنك تريد أن تودّع قبل زفافك أصدقاء حقيقيين تكنّ لهم خالص المودة والمحبة، وأنك تريد أن تودّع معهم أيام الشباب المرحة، فتتبادلون الأنخاب، ولربما تضمهم الى صدرك بقوة قبيل الفراق.

twitter @baghdad_library

- كلماتك هذه تحتوي على كل مالا يُصادف في الحياة، وعلى مالا ينبغي ان يكون. تريدني ان أرتمي على أعناق الآخرين بنفس البهجة، التي ترتمي بها خالتك على عنقك! في الواقع: الأصدقاء حقيقيون هنا لكن عندما يلتقون ويتبادلون الأنخاب، فليس ضرورياً أن يتعانقوا كي يثبتوا أنهم أصدقاء. أه منك ياألكسندر!

- ألا تأسف على فراقهم؟ ألا تأسف، لأنك لاتستطيع على الأقل، الإلتقاء بهم بشكلٍ متكرّر كما كنتَ تفعل سابقاً! - قال ألكسندر.

- كلا! أنا لا أتقرّب من أحدٍ الى الحدّ، الذي يجعلني أبدي أسفي، وأنصحك بأن تفعل الشيء ذاته.

- لكنْ، ربما ليسوا هم هكذا: ألا تعتقد أنهم قد يبدون أسفهم، لأنهم سيفتقدون فيك الصديق المخلص والمُحدِّث الجيد؟

- هذا ليس شأني، بل شأنهم هم. سبق أن فقدت مرّات عديدة أمثال هؤلاء الأصدقاء، ولم أمت بسبب هذا كما ترى: ألن تأتي غداً؟

- غداً، سأذهب ياعماه. . .

- ماذا؟

- أنا مدعو غداً.

- لزيارة آل لوبيتسكي؟

- أجل.

- حسناً. كما تريد. تذكَّر عملك ياألكسندر: سأخبر رئيس تحرير المجلة بمشاغلك الجديدة. . .

- وهنا يمكن أن أتخلى عن عملي ياعماه! سأنهي حتماً ملخصاتي عن الإقتصاديين الألمان. . .

- كان من الأجدر بك ان تبدأ العمل أولاً. تذكَّر: حذار ان تطلب المعدن الحقير منّي، عندما تستسلم نهائياً خلال فترة قريبة جداً، للهناء العذب اللذيذ.

twitter @baghdad_library

IV

كانت حياة ألكسندر تنقسم الى قسمين: فترة الصباح كانت تستهلكها الوظيفة. كان ينبش في المذكرات والأوراق الرسمية المكسوّة بالغبار، ويتعامل مع قضايا وشؤون لاتمتُ اليه بتاتاً بأية صلة، حيث كان يحسب على الورق الملايين، التي لاتخصه بشيء. لكنّ عقله كان يرفض أحياناً التفكير والعمل لحساب الأخرين، إذ كان القلم يسقط من يده، عندما كان يستسلم تماماً لسيطرة ذات التنعم العذب الجميل، الذي كان يُغضب بطرس إيڤانيتش. عندئذ، كان ألكسندر يسند ظهره الى الكرسي ويسترخي، ثم يذهب بأفكاره بعيداً الى مكانٍ هادىء مريح، لا وجود فيه لأوراق أو حبر، ولا لوجوه غريبة أو بزّات رسمية، الى مكانٍ يسوده السكون والطمأنينة والبرودة المعتدلة، الى صالةٍ مرتبة نظيفة جميلة، حيث الورود تنفث أريجها الساحر العذب، والببغاوات تثب في قفصها وأشجار البتولا تهزّ أعصانها، وشجيرات الليلاك تتمايل بغنج ودلال في حديقة رائعة وارفة الظلال. ملكة هذا كلّه- فاتنته.

في الصباح، كان ألكسندر الجالس في مكان عمله، يتواجد ذهنياً في إحدى الجزر، في عزبة آل لوبيتسكي، أما في المساء، فكان يتواجد هناك، على مرأى من الجميع، بشخصه. لنلق نظرة غير متواضعة على سعادته وسروره.

كان يوماً حاراً، من الأيام النادرة في بطرسبورغ: كانت الشمس تبعث الحياة في الحقول، لكنها كانت تضني شوارع بطرسبورغ، وهي تخز بأشعتها أحجار الغرانيت، فترتد عن الحجارة لتكوي الناس. كان الناس يسيرون ببطء، منكسين رؤوسهم، أما الكلاب، فكانت تمدّ ألسنتها وتلهث. كانت المدينة تشبه إحدى المدن الأسطورية، التي تجمّد كلّ شيء فيها فجأة بإيماءة من ساحر. لم تكن العربات تقرقع في الشوارع. كانت النوافذ تغلق، والرصيف يلمع كالخشب المصقول، أما

السير على الأرصفة، فكان مضنياً من شدّة الحرارة المنبعثة منها. كان الوضع كله يبعث على الضجر والنعاس.

كان الراجل يمسح العرق عن وجهه، و يبحث عن الظلّ. أما العربة الكبيرة، فكانت تتجرجر ببطء قاصدة الضواحي، والغبار لايكاد ينتشر خلفها. في الساعة الرابعة، غادر الموظفون مكان عملهم وتوجهوا ببطء الى بيوتهم.

ركض ألكسندر ، كما لو أنّ سقف منزله قد تهدّم، ونظر الى الساعة، فوجد نفسه قد تأخر: لن يصل في الوقت المخصص للغداء خفّ مسرعاً الى المطعم.

- ماذا يوجد لديك؟ هيّا بسرعة!

- شوربة خضار ملوكية، صلصة بروڤانسية، ديك رومي مشوي، لحم صيد وفطائر

- أريد شوربة بروڤانسية، صلصة ملوكية ومشوي، لكن بسرعة!

نظر النادل إليه.

- مابك! - قال ألكسندر بنفاذ صبر.

- انصرف النادل وجلب له على هواه. ظلّ أدوييف راضياً جداً. لم ينتظر الصحن الرابع، بل خرج مسرعاً وراح يركض على كورنيش النيڤا. كان ينتظره هناك قاربٌ ومُجَدِّفان. بعد ساعة، شاهد ركن الميعاد، فوقف في القارب وسدّد نظره الى الأفق البعيد. في البداية زاغت عيناه من شدة الخوف والقلق، اللذين تحولا الى شك. بعد ذلك أشرق وجهه فجأة، بهالة من السرور تشبه لمعان الشمس. استطاع ان يميز عند قضبان الحديقة، الفستان المعروف لديه جيّداً؛ عرفَتْه وصارتْ تلوّح له بالمنديل. ربما تكون قد انتظرته طويلا، أحس بالإضطرام في قدميه بسبب لهفته.

« آه، ليتني أستطيع السير على الماء! - فكر ألكسندر. - يخترعون مختلف أنواع الترهات لكنهم لم يخترعوا وسيلة كهذه!».

twitter @baghdad_library

كان الجدّافان يحركان المجاذيف ببطء وانتظام كالآلة. كان العرق يتصبب بغزارة على وجهيهما الأسعفين؛ لم يوليا أيّ اهتمام لحال ألكسندر، الذي كان قلبه يخفق بقوة، والذي كان يركّز نظره على نقطة واحدة محدّدة، فقد نقل ساقه اليمنى مرتين وكذلك اليسرى الى ماوراء حافة القارب، وهو في غفلة من أمره، دون أن يلاحظ شيئاً: كانا يجدّفان بنفس فتورهما المعهود، حتى أنهما كانا يمسحان أحياناً وجهيهما بكميهما.

- جَدِّفا بحيويةٍ أكثر! - قال هو، - سأعطيكما خمسين كوبيكاً زيادة، لشراء الڤودكا.

- كم صارا يجدّفان بحيوية ونشاط، وكم استولت عليهما الحميّة! أين اختفى التعب؟ من أين جاءت هذه القوّة كلها؟ كانت المجاذيف تخفق بقوة في الماء. كان القارب ينساب بسرعة وينهب المسافات نهبا، لم يمضِ إلاّ وقت قصير جداً، حتى كانت مؤخرة القارب تقترب من الضفّة. تبادل ألكسندر ونادينكا الابتسامة من بعيد، دون أن يُحول كلٌ منهما نظره عن الآخر. وضع أدوييف قدمه في الماء عوضاً عن اليابسة، فضحكت نادينكا.

- مهلاً ياسيّدي، سأمدّ لك يدي - نطق أحد ا لجدّافين، عندما كان ألكسندر قد أصبح على الضفة .

- انتظراني هنا، - قال أدوييف وركض مسرعاً الى نادينكا.

- كانت تبتسم بلطف لألكسندر من بعيد. ومع كلّ حركة يقوم بها القارب نحو الضفّة، كان صدرها يرتفع وينخفض بقوّة أكثر فأكثر.

-ناديجدا ألكساندر وڤنا!... -قال أدوييف، وهو بالكاد يلتقط أنفاسه من شدّة الفرح.

-ألكسندر فيدوريتش!... أجابت هي.

ارتمى كلٌ منهما على الآخر بصورة عفوية، ثم توقّفا ونظر كلٌ منهما الى الآخر بعينين نديّتين، والبسمة تعلو محيّاه، ولم يستطيعا أن يقولا شيئاً. ظلاّ هكذا بضع دقائق.

لانستطيع ان نلقي باللائمة على بطرس إيفانيتش، لأنه لم يلحظ نادينكا من المرّة الأولى. لم تكن فاتنة، ولا من النوع، الذي يلفت الانتباه فوراً.

لكن، إذا ما أمعن المرء النظر في ملامحها وتقاسيم وجهها، فلابد ان يطيل النظر إليها. نادراً مايظلّ وجهها هادئاً لمدّة دقيقتين. فالأفكار والأحاسيس المتنوّعة النابعة من روحٍ رقيقة سريعة التأثر والتهيّج، تتبدل باستمرار، فتتبدّى أحاسيسها هذه في تلاوين تشترك معاً في لعبة غريبة مثيرة، تكسب وجهها في كل لحظة تعبيراً جديداً غير متوقَّع. عيناها مثلا، تشعان بريقاً يشبه اللمع الحارق، ثم تختفيان فجأة تحت الرموش الطويلة، ويصبح وجهها جامداً عديم الحيويّة - فيرى المرء أمامه فتاة تشبه تماماً تمثالاً مصنوعاً من المرمر. يتوقع المرء إثر ذلك إصدار شعاع نفّاذ- لكن، لاشيء من هذا مطلقاً! يرتفع الحاجبان بهدوء وببطء - فتنبعث نظرات مشرقة مضيئة تشبه ضياء القمر، الذي يسبح ببطء خلف السحاب. ولابدّ ان يردّ القلب على مثل هذه النظرة بخفقة بسيطة. في حركاتها يجد المرء الشيء ذاته، ففيها كثير من الكياسة والرشاقة، لكنها ليست رشاقة سيلفيدا[1]. فهذه الرشاقة تعتورها بعض الحركات المندفعة الغريبة، التي تمنحها الطبيعة للجميع، والتي تخفّف المهارة والحذاقة لاحقاً من آثارها، لتبقى المشية منسابة متسقة. لكنّ هذه الآثار غالباً ماتتبدّى في حركات نادينكا. يراها المرء أحياناً جالسة في وضعيّة جميلة، لكنّ هذه اللوحة الرائعة تتعكر فجأة بفعل حركة داخلية خفية لايعرف سببها إلا الله، ثم تعود من جديد لتسترجع الكياسة والرشاقة في حركاتها. يلحظ المرء في أحاديثها، التغيرات المفاجئة ذاتها: تراها تحاكم الأمور بشكل صائب تارة، ثم تصبح حالمة، فتصدر أحكاماً قاطعة حادّة، ويتبدّى بعد ذلك الفهم الصبياني، أو التكلف

---

(١) - سيلفيدا- كائن رشيق سريع الحركة على صورة امرأة، تجسد الريح في الأسطورة الألمانية (المترجم).

twitter @baghdad_library

اللطيف. يبد أنّ هذا كله يكشف فيها عن ذهن وقاد وقلب جامح، متقلبٍ غير ثابت. ليس ألكسندر وحده، الذي يمكن ان يفقد عقله ولعاً بها، ربما يكون بطرس إيڤانيتش هو الشخص الوحيد، الذي يسلم من ذلك، لكنهُ لابد أن يتساءل: هل توجد كثيرات مثلها؟

- كنت تنتظرينني! ياإلهي كم أنا سعيد! - قال ألكسندر.

- كنتُ أنتظرك؟ لم أفكّر بهذا! - أجابت نادينكا، وهي تهزّ رأسها. - تعلم أنني أتواجد في الحديقة دائماً.

- هل أغضبتك؟ -سأل هو بخجل.

- بسبب ماذا؟ يالها من فكرة!

-أعطني يدك إذن.

أعطتْه يدها، لكن ما إن لامسها، حتى انتزعتها فوراً - ثم تغيرت فجأة. اختفت البسمة، وظهرت مسحة من الكآبة على وجهها.

- تشربين حليباً؟ - سأل هو.

- كانت نادينكا تمسك بيدها فنجاناً وقطعة من الخبز المجفّف.

- أتناول طعام الغداء، - أجابت هي.

- تتغدين حليباً في السادسة مساء؟

- لابدّ أن تنظر طبعاً بكثير من الاستغراب الى الحليب، بعد الغداء الفاخر الذي تناولته عند عمك، أليس كذلك؟ أما نحن، هنا في القرية، فنعيش عيشة متواضعة.

قضمتْ بأسنانها الأمامية كسرة من الخبز المجفّف وأخذت رشفةً من الحليب بعدها، ثم صعّرت خدها.

- لم أتناول طعام الغداء عند عمي، فقد رفضتُ دعوته البارحة، - أجاب أدوييف.

- كم أنتَ عديم الضمير! هل يمكن ان تكذب؟ أين كنت حتى هذا الوقت؟

- بقيت في العمل اليوم حتى الساعة الرابعة...

- والآن تشير ساعتي الى السادسة. لاتكذبْ، اعترفْ، أنك قد أغريت بتناول طعام الغداء بصحبة أناس لطفاء؟ لابدّ انك كنتَ مسروراً جداً هناك.

- أقسم بشرفي، أني لم أذهب الى عمّي... بدأ ألكسندر يبرىء ساحته بحميّة. - هل كنتُ قادراً أن أصل إليك عندئذ في مثل هذا الوقت؟

- ها! تظنّ أنك أتيت في وقت مبكّر؟ كان عليك ان تأتي بعد ساعتين! - قالت نادينكا، ثم تحولّت عنه بالتفاتة سريعة مفاجئة، وسارت على الطريق المؤدية الى البيت. سار ألكسندر في أثرها.

- لاتقترب، لاتقترب منّي، - قالت وهي تُلوح بيدها، - لا أستطيع أن أراك.

- كفى عبثاً ياناديجدا ألكساندر وفنا!

- أنا لا أعبث الآن مطلقاً. قل لي، أين كنتَ حتى هذا الوقت؟

- خرجتُ من العمل في الرابعة، - بدأ أدوييف، - واستغرق الطريق الى هنا ساعة كاملة...

-حسب كلامك، ينبغي أن تكون الساعة الآن الخامسة، عوضاً عن السادسة. أين أمضيت تلك الساعة؟ أرأيت أنك تكذب!

- تناولتُ الغداء بسرعة في أحد المطاعم...

- ساعة بكاملها! - قالت هي. -مسكين! لابد أنك جائع. ألا تريد حليباً؟

- آه، اعطني، اعطني هذا الفنجان... - قال ألكسندر، ثمّ مدّ يده.

twitter @baghdad_library

- لكنها توقّفت فجأة وقلبت الفنجان رأساً عل عقب، دون أن تعير ألكسندر اهتماماً، وراحتْ تنظر بفضول الى القطرات الأخيرة، التي كانت تسقط من الفنجان على الرمل.

- أنت عديمة الشفقة! - قال هو. - هل يجوز أن تعذّبيني هكذا؟

- (مقاطعة) انظر، انظر ياألكسندر فيدوريتش، - قالت نادينكا فجأة وقد استولت عليها فكرة، - هل أستطيع أن أجعل هذه النقطة تسقط على هذه الحشرة الصغيرة، التي تدبّ على الطريق؟ . . . آه، لقد سقطت عليها! ياللمسكينة! ستموت! - قالت هي. بعد ذلك، التقطت الحشرة الصغيرة بعناية، ووضعتها على راحة كفها، ثم بدأت تنفخ عليها.

- كم أنت مهتمّة بهذه الحشرة الصغيرة! - قال هو بأسى.

- مسكينة! انظر: ستموت، - قالت نادينكا بحزن، - ماذا فعلت؟

حملت الحشرة الصغيرة على راحة كفها لبعض الوقت، وعندما بدأت الحشرة تتحرك وتدبّ على راحة كفّها الى الأمام والخلف، ارتعشت نادينكا ورمتها بسرعة على الأرض، ثم داستها بقدمها، وهي تقول! «ياللحشرة الكريهة!».

- أين كنت؟ سألت بعد ذلك.

-قُلتْ. . .

- آه، أجل! عند عمّك، هل كان عنده ضيوف كُثر؟ ألم تحتسوا الشمبانيا؟ أستطيع أن أشمّ من هنا، كيف تنبعث منك رائحة الشمبانيا.

- (مقاطعاً) كلا، لم أكن عند عمّي! - قال ألكسندر بقنوط. - من قال لك؟

- أنتَ الذي قلت.

- أعتقد أنهم يجلسون الآن حول الطاولة: ألا تعرفين ولائم الغداء هذه: هل يُعقل أن ينتهي غداء كهذا في غضون ساعة؟

- تعذّبتُ ساعتين - الخامسة والسادسة .

- متى انطلقتِ الى هنا إذن؟

- لم تُجب ، بل قفزت وقطفت غصناً من الأكاسيا ، ثم ركضت بعد ذلك على الطريق .

ركض أدوييف في أثرها .

- الى أين ذاهبة أنتِ؟ -سألها .

- إلى أين؟ كيف الى أين؟ سؤال رائع ! إلى أمي .

- لماذا؟ ربما قد نزعجها بذهابنا إليها .

- كلا ، لاعليك .

- كانت ماريا ميخايلڤنا ، أمّ ناديجدا ألكساندروڤنا ، إحدى الأمهات الطيّبات البسيطات ، اللواتي يعتبرن كل مايبدر عن الأولاد عملاً رائعاً . هاهي ماريا ميخايلوڤنا ، على سبيل المثال ، تأمر بتجهيز العربة .

- إلى أين ياأمّاه؟ -تسأل نادينكا .

-إلى النزهة : الطقس رائع كما ترين ، - تقول الأم .

- كيف : ألكسندر فيدوريتش يريد شيئاً آخر .

- يُصرف النظر عن الرحلة وتُفَك العربة .

في مرّة أخرى ، تجلس ماريا ميخايلوڤنا لتتابع حياكة شالها ، الذي لاينتهي ، فتبدأ تتنهد وتنشق التبغ ، وهي تحيك بصنّارتها ، أو تستغرق في قراءة إحدى الروايات الفرنسية .

- لماذا لاتلبسين ثياب الخروج ياأمّاه؟ تسأل نادينكا بصرامة .

- إلى أين؟

twitter @baghdad_library

- إلى النزهة.

- إلى النزهة؟

- أجل. سيأتي ألكسندر فيدورتيش خصيصاً من أجل هذا، أراكِ قد نسيتِ!

- أجل، لم أكن أعلم.

- كيف لم تكوني تعلمين! - تقول نادينكا بعدم ارتياح.

تترك الأمّ الشال والكتاب وتمضي لترتدي ثياب النزهة. هكذا كانت نادينكا تتمتع بحريتها الكاملة وتفرض رأيها على أمّها، وتمضي وقتها على هواها. كانت بالمناسبة، ابنة طيبة لطيفة، لكننا لانستطيع القول، بأنها مطيعة، لأن أمها فقط هي التي كانت تطيعها؛ لكننا بالمقابل، نستطيع القول، أن لديها أمّاً مطيعة.

- اذهبْ إلى أمّي، - قالت نادينكا، عندما اقترب من باب الصالة.

- وأنتِ؟

- سأجيء فيما بعد.

- وأنا أيضاً.

- كلا، سر إلى الأمام.

- دخل ألكسندر، ثم عاد فوراً على رؤوس أصابعه.

- إنها نائمة على الأريكة، - قال بهمس.

- هيّا، لاعليك. ماما، ماما!

- ها!

- وصل ألكسندر فيدوريتش.

- ها!

- مسيو أدوييف يرغب بمشاهدتك.

- ها!

- أرأيتِ كم هي نائمة بعمق! لاتوقظيها! - مانَعَ ألكسندر.

- كلا، سأوقظها. ماما!

- استيقظي: ألكسندر فيدوريتش هنا.

- أين ألكسندر فيدوريتش؟ - قالت ماريا ميخايلوفنا، وهي تنظر مباشرة إليه، ثم عَدَلّتْ قلنسوتها المائلة إلى الجانب. - آه! ألكسندر فيدوريتش، هذا أنت! مرحباً بك! جلستُ هنا وغفَوت، دون أن أدري سبب نعاسي؛ يبدو أنّ الطقس هو السبب. أحسستُ أنّ مسمار قدمي بدأ يؤلمني - قلتُ لنفسي سيزول الألم. جلستُ هنا ونمت، فرأيت في حلمي، أنّ إيغناتي يخبرني بقدوم ضيف، لكنني لم أفهم من هو. أسمعه يقول، إنّ ضيفاً قد أتى، لكنني لم أفهم من هو الضيف. سمعتُ نادينكا تناديني، فاستيقظت فوراً، نومي خفيف: ما إن تبدر حركة من أحدٍ ما، حتى أستيقظ فوراً، ألكسندر فيدرويتش، تفضّل واجلسْ، هل أنت مُعافى؟.

-شكراً جزيلاً

- هل بطرس ايڤانيتش بصحة جيدة؟

- إنه بخير والحمد لله، شكراً لك.

- لماذا لم يقم بزيارتنا؟ كنتُ أفكر البارحة وأقول: لماذا لم يزرنا حتى الآن - يبدو أنه مشغول، أليس كذلك؟

- إنه مشغول جداً، -قال ألكسندر.

- وأنتَ أيضاً، مضى يوم لم أرك فيه! - تابعت ماريا ميخايلوڤنا. - فيما مضى، كنتُ أستيقظ وأسأل: أين نادينكا؟ لاتزال نائمة - هكذا كان يقال لي. دعوها نائمة، - كنت أقول أنا، - فقد أمضت اليوم كلّه وهي تستنشق الهواء العليل في الحديقة، فالطقس رائع هنا، ولابد أن تكون قد تعبت من كثرة الحركة.

twitter @baghdad_library

في مثل سنّها، ينام الإنسان بعمق، أما في مثل سنّي فالأمر مختلف تماماً: كم أعاني من الأرق في أحيان كثيرة! حتى أنني أشعر بالملل والكآبة؛ لا أعرف إنْ كان هذا الأمر ناتجاً عن الأعصاب أم لا. تجلب لي القهوة، التي أتناولها في الفراش دائماً- أرشفها وأنا أفكر: «ماذا يعني غياب ألكسندر فيدوريتش؟ هل هو معافى؟» أنهض بعد ذلك، فأجد أنّ الساعة قد بلغت الحادية عشرة - أذهبُ الى نادينكا، فأجدها لم تستيقظ بعد. أوقظها. «آن الأوان أنْ تستيقظي ياأماه، - أقول أنا، - الساعة تقارب الثانية عشرة، مابك؟». أمضي اليوم كله، وأنا أتابعها وأهتم بها، مثلما تفعل الحاضنة تماماً. أعفيتُ المربية قصداً، كي لا يتواجد غرباء عندنا. فالله وحده يعلم ما الذي يمكن أن يفعله الغرباء بابنتي. كلا، الأفضل أن أتعهدها أنا برعايتي وعنايتي، فأتابعها في كلّ لحظة وخطوة، وأعرف ماترغبه نادينكا وما تحس به، فهي لاتخفي عنّي أية فكرة تخطر لها سراً على بال. أعرفها حق المعرفة... جاء الطاهي الى هنا وتحدثت معه ساعة من الزمن. ثم قرأت مذكرات الشيطان[1]... آه، كم هو رائع هذا الكاتب سوليبه! كم يصف الأشياء بجمال ولطف! بعد ذلك، زارتني جارتي ماريا ايفانوفنا وزوجها. أمضينا وقتاً ممتعاً، لدرجة أنني لم أحس بالزمن. نظرت بعدها إلى الساعة، فإذا بها الرابعة؛ إنه موعد الغداء. آه، لقد تذكرت: لماذا لم تتناول الغداء معنا؟ انتظرناك حتى الخامسة.

- حتى الخامسة؟ - قال ألكسندر- لم أستطع الحضور ياماريا ميخايلوفنا: منعني عملي من الحضور. أرجو عدم انتظاري أبداً بعد الرابعة.

- هذا ماقلته، لكن نادينكا ظلتّ تقول: «سننتظر أيضاً، سننتظر».

- أنا! آه منك ياأماه، ماذا تقولين! ألستُ أنا، التي كنت أقول: «حان وقت الغداء»، فيما كنت أنت تصرّين قائلة: «كلا، يجب ان ننتظر، فألكسندر فيدوريتش لم يتناول عندنا طعام الغداء منذ زمن طويل: سيأتي حتماً».

(١) - «مذكرات الشيطان» - رواية مغامرات للكاتب الفرنسي سوليبه (المترجم).

- انظرْ انظر! -بدأت ماريا ميخايلوڤنا، وهي تهزّ برأسها: - آه، كم أنت عديمة الضمير! تنتحلين كلماتي!.

استدرات نادينكا وسارت بين الزهور وبدأت تغيظ الببغاء.

- كنتُ أقول: «أين يمكن أن يكون ألكسندر فيدوريتش الآن؟ - تابعت ماريا ميخايلوڤنا، - فالساعة الآن هي الرابعة والنصف». «كلاّ ياأمّاه، يجب أن ننتظر، إنه آتٍ لامحالة، كانت تقول هي». ننتظر بعدها فترة من الزمن، ثم أنظر الى الساعة فأراها تشير الى الخامسة إلا ربعاً، فأقول «نادينكا، لابد ان يكون ألكسندر فيدوريتش مدعو اعلى الغداء عند أحد ما، فلن يأتي؛ إني أتضور جوعاً». «كلا، -كانت تقول هي، - يجب أن ننتظر أيضاً حتى الخامسة»، هكذا جوّعتني. أليس هذا صحيحاً ياآنسة؟

«ببّغاي، ببغاي! - سمع من خلف الأزهار، - أين تغديتَ اليوم، عند عمك؟».

- ماذا؟ لقد اختبأت! - تابعت الأم- يبدو أنها شعرت بوخز الضمير!

- لا أبداً، - أجابت نادينكا، وهي تخرج من ممرٍّ جانبي، ثم جلست قرب النافذة.

- رغم ذلك كله، لم تجلس حول الطاولة! - قالت ماريا ميخايلوڤنا، - طلبت فنجاناً من الحليب وذهبت الى الحديقة وهكذا لم نتناول طعام الغداء، أليس هذا صحيحاً؟ انظري إليَّ بملء عينيك ياآنسة.

صُعق ألكسندر لدى سماعه هذه القصة. نظر الى نادينكا، لكنها أدارت إليه ظهرها وصارت تنتف ورقة لبلاب.

- ناديجدا ألكسندروڤنا- قال هو. - هل أنا محظوظ حقاً لدرجة أن أكون موضع تفكيرك؟

- لاتقترب مني! - صرخت بأسى، الأمر الذي كشف حيلها تماماً. - أمي تمزح، فيما أراك مستعداً للتصديق!

twitter @baghdad_library

-أين توت الأرض، الذي جمعته خصيّصاً لألكسندر فيدوريتش؟ - سألت الأم.

- توت الأرض؟

- أجل، توت الأرض.

- ألم تأكليه بعد الغداء. . . - أجابت نادينكا.

- أنا! ثوبي الى رشدك: لقد أخفيته عنّي ولم تعطني منه شيئاً. «سأعطيك شيئاً منه، عندما يأتي ألكسندر فيدوريتش، - هكذا قلت لي». آه منك!

- نظر ألكسندر بدعابة ولطف الى نادينكا، التي احمرّت خجلاً.

- لقد نظفت الثمار بنفسها ياألكسندر فيدوريتش، - أضافت الأم.

- ماذا تختلقين ياأماه؟ نَظّفتُ حبّتين أو ثلاث كي آكلها، بينما قالت ڤاسيليسا بـ. . .

-لاتُصدّقْها، لاتُصدقها ياألكسندر فيدوريتش: أرسلت ڤاسيليسا الى المدينة منذ الصباح.

- لماذا تخفين الأمور؟ سيكون ألكسندر فيدوريتش أكثر سعادة عندما يعرف أنك أنت التي نظّفتِ الثمار من أجله، وليس ڤاسيليسا.

ابتسمت نادينكا، ثم اختفت بعد ذلك، من جديد، بين الأزهار وظهرت، وهي تحمل صحناً مليئاً بالثمار المنظفة. مدّت يدها التي تحمل الصحن الى أدوييف. قبّل يدها وتسلّم الثمار، مثلما يتسلم المرء عصا الماريشاليّة.

- هل يجوز ان تتصرف هكذا! لقد أجبرتني على الانتظار طويلاً! - قالت نادينكا. وقفتُ ساعتين عند العريشة، تصور كم كنتُ قلقة! ما إن أرى أحداً ما قادماً من بعيد، حتى أظن، أنه أنت، فألوّح له بالمنديل، ويلوّح لي؛ يقترب، فأتبين أنه شخص غريب، ومع ذلك يظلّ يلوّح لي، ياله من وقح. . .!

قبيل الغروب، كان الضيوف يأتون ويذهبون. بدأ ضوء النهار يشحب. لم يبق إلا أدوييف ولوبتيسكايا وأمها. تعكّر صفو هذا الثلاثي، عندما ذهبتْ نادينكا الى الحديقة. أراد أدوييف أن يتبعها، لكنه كان مُحرجاً من أمها. صارت الأم تردّد على مسامعه مافَعَلَتْهُ البارحة واليوم، وماستفعله غداً. أحس بالملل والقلق والانزعاج بسبب وضعه الحرج هذا. سيخيم الليل قريباً. في الوقت الذي لم يتيسر له بعد، أن يقول لنادينكا كلمه واحدة على انفراد. أنقذه الطاهي؛ فقد جاء المحسن المنقذ يستفسر عمّا سيعدّه للعشاء، فيما كان أدوييف يتحرق شوقاً لاستغلال الفرصة المناسبة للّحاق بنادينكا. كان تحرقه الآن يفوق ذاك، الذي أحسّ به وهو في القارب. ما إن بدأ الحديث عن الشرحات واللبن الرائب حتى بدأ ألكسندر ينسحب بمهارة. كم استخدم من الحيل كي يتبعد فقط عن كنبة ماريا ميخايلوڤنا! اقترب من النافذة أولاً وصار ينظر الى فناء البيت، فيما كانت ساقاه تجذبانه بقوة الى الباب المفتوح.

بعد ذلك، انتقل بخطى وئيدة الى البيانو، وهو يقسر نفسه بصعوبة كي لايندفع بطيش، فنقر على المفاتيح في أماكن مختلفة وأخذ النوتات عن الحامل بعصبية ونظر إليها وأعادها الى مكانها. كان متماسكاً جداً. لدرجة انه شمّ زهرتين وأيقظ الببغاء؛ هنا بلغت قلة صبره الذروة: كان الباب قريباً منه، لكنه كان يحس بنوع من الحرج من الخروج فجأة، فوجد من الضروري أن يقف دقيقتين، ثم يخرج بعد ذلك بصورة تبدو وكأنها عفوية. في هذه الأثناء كان الطاهي قد تراجع الى الخلف خطوتين، ولم يبق إلا كلمة واحدة يقولها لينصرف، - وعندها ستوجه لوبيستكايا من جديد، حديثها الى أدوييف بالتأكيد. لم يستطع ألكسندر ان يصبر على ذلك، فانسل كالحيّة من الباب واندفع مسرعاً من العتبة الى السلّم، دون ان يعدّ الدرجات، فوجد نفسه، وقد أصبح، بعد بضع خطوات، في نهاية الممر - عند الضفة بالقرب من نادينكا.

- تذكرتني أخيراً! قالت هي بلهجة تنمُّ عن عتابٍ لطيف.

twitter @baghdad_library

- آه، كم تحملتُ من عذاب، - أجاب ألكسندر، -وأنتِ لم تسعفيني!

أرته نادينكا كتاباً.

- كنتُ سأستخدمه ذريعة لمناداتك، لو تأخرت عن المجيء لحظة واحدة، - قالت هي- اجلسْ، فلن تأتي أمي الآن: إنها تخشى الرطوبة. يوجد عندي كلام كثير كثير أودّ ان أقوله لك... ! آه!

- وعندي أيضاً... آه!

لم يقولا شيئاً، بل لم يقولا شيئاً تقريباً، إذا استثنينا بعض العبارات، التي سبق أن ردّداها سابقاً عشر مرات. العبارات المألوفة ذاتها تتكرر: الأحلام، السماء، النجوم، المشاعر والسعادة. صار الحديث يدور أكثر بلغة النظرات والابتسامات والتأوهات. سقط الكتاب على العشب.

أقبل الليل... كلا، أي ليل! وهل تحلّ الليالي في بطرسبورغ صيفاً؟ كلا، هذا ليس ليلاً، ينبغي أن نبتكر هنا تسمية أخرى- لنقل الغسق مثلا... الصمت يلفّ كل شيء. كان نهر النيفا نائماً، لكن بين الحين والآخر، كانت تفلت منه الى الضفة بارتباك موجة ناعمة خفيفة، ثم يصمت، وهناك من مكانٍ ما، كانت تسري نسمة متأخرة فوق المياه النائمة لكنها كانت عاجزة عن إيقاظها؛ كانت تكتفي بمداعبة السطح فقط، فتصل الى نادينكا وألكسندر ندية ناعمة، أو تحمل إليهما صدى أغنية بعيدة - ثم يصمت كل شيء، تعود الكرّة من جديد! كان نهر النيڤا ساكناً كإنسانٍ نائمٍ يفتح عينيه للحظة، لدى سماعه ضجة خفيفة، ثم يغمضهما على الفور من جديد، وغالباً ماكان النوم يغمض جفنيه المتعبين. بعد ذلك يسمع من جهة الجسر هدير بعيد، يعقبه نباح كلب حراسة، ثم يسود الصمت ثانية. كانت الأشجار تشكل قبّة مظلمة، وكانت أغصانها تتحرك بهدوء، دون أن تصدر ضجّة تذكر، أما الأضواء، فكانت تلوح أحياناً من البيوت الصيفية المتناثرة على الضفتين.

ما الشيء الخاص الفوّاح، الذي كان يحمله هذا النسيم الدافىء؟ ما السر الذي كان يسري عبر الأزهار والأشجار وفوق العشب، ويبعث النعيم في النفس؟ ما السبب الذي كان يجعل الأفكار والمشاعر تكتب معاني أخرى بين الناس مختلفة عمّا هي عليه عادة وسط الجلبة والضوضاء؟ كم كان الجوّ المحيط برمّته يهيىء النفس للأحلام، والقلب للمشاعر الشفافة النادرة، التي تبدو في الحياة الدائمة الصحيّة الصارمة استطرادات مضحكة باطلة، عديمة الجدوى والمعنى. . . أجل! رغم أنها تبدو باطلة عديمة الجدوى، إلا أن النفس تدرك في تلك اللحظات فقط؛ بشكلٍ مبهمٍ غامض، معنى السعادة، التي يبحث الناس عنها بجدٍ ونشاط في زمنٍ آخر ولايجدونها.

اقترب ألكسندر ونادينكا من النهر واستندا الى قضبان سور الحديقة. نظرت نادينكا طويلاً الى النيڤا والأفق البعيد واسترسلت في غمرة تفكير عذب، فيما راح ينظر الى نادينكا. كانت روحاهما تفيضان سعادة وهناء وقلباهما ينعمان بالحلاوة والهناء، لكنهما كانا يتألمان معاً بطريقة ما، لكنّ لسانيهما كانا صامتين.

هاهو ألكسندر يلمس خصرها. صدت يده بمرفقها بهدوء. لامسها من جديد فصدّت يده برخاوة، دون أن ترفع عينيها عن نهر النيڤا. في المرّة الثالثة، لم تمانع.

أخذ يدها- ولم تسحبها، شدّ على يدها- فردّت بالمثل. ظلاّ واقفين هكذا بصمت، لكن بم كانا يشعران!

- نادينكا! - قال بصوت خافت.

ظلّت صامتة.

انحنى ألكسندر نحوها بقلب منقطع عن الخفقان. أحسّت بنَفَسِهَ الحار على وجنتها، فارتعشت وأدارت وجهها، لكنها لم تتحوّل عنه بغضب وسخط، ولم تصرخ! -لم تكن قادرة على الصدّ والممانعة أو التظاهر بذلك: فسحر الحبّ

twitter @baghdad_library

وجاذبيته أجبر العقل على الصمت، وعندما ألصق ألكسندر شفتيه بشفتيها، ردّت على قبلته بأخرى، وإن كانت ضعيفة غير واضحة.

«ياله من سلوك غير لائق! هذا ماستقوله الأمهات الصارمات - فتاة تذهب الى الحديقة مع شاب، دون مرافقة أمها، وتتبادل القبل معه!» ما العمل! سلوك غير لائق، لكنها لاتفعل شيئاً، سوى أنها تردّ على القبلة بأخرى.

«آه، كم يستطيع الإنسان ان يكون سعيداً! - أسرَّ ألكسندر لنفسه، ثم انحنى من جديد على شفتيها وظلّ هكذا بضع ثوانٍ.

كانت تقف شاحبة بلا حراك، والدموع تتلألأ على جفنيها، أما صدرها فكان يتنفس بشدّة وتقطعّ.

-كالحلم! -همس ألكسندر.

- انتفضت نادينكا فجأة، وانقضت لحظة النسيان.

- ماهذا؟ فقدت صوابك! - قالت فجأة، ثم ابتعدت عنه بضع خطوات. - سأخبر أمي! سقط ألكسندر من أعالي السحاب.

- ناديجدا ألكسندروفنا! لاتهدمي سعادتي باللوم، - بدأ هو، لاتكوني مثل...

نظرت إليه وبدأت تضحك فجأة بصوتٍ عال وبمرح، ودنتْ منه من جديد، ووقفتْ ثانية عند قضبان السور، ثم أسندت يدها ورأسها بثقةٍ على كتفه.

- أنت تحبني كثيراً إذن؟ - سألت وهي تمسح الدموع، التي كانت تسيل على وجنتيها.

هزّ ألكسندر كتفيه بصورة غير معبرة. ارتسم على وجهه «تعبيرٌ ينمّ عن بلاهة» - هذا ماكان يمكن أن يقوله بطرس إيفانيتش، وهو توصيف محقّ لحال ألكسندر الراهنة، لكنْ كم كان هذا التعبير الأبله يختزن من السعاد!

صارا ينظران كالسابق الى الماء والسماء والأفق البعيد، كأن شيئاً لم يحدث بينهما.

بيد أنّ كلاً منهما كان يخشى النظر الى الآخر؛ أخيراً، التقت نظراتهما وابتسما، ثم حوّل كلٌ منهما من جديد نظره عن الآخر فوراً.

- هل للمصائب من وجود في هذا العالم؟ - قالت نادينكا، ثم صمتتْ

- يقال أنها موجودة... أجاب أدوييف بتأمل، - لكنني لا أصدق هذا...

- مانوع المصائب، التي يمكن ان تحدث؟

- عمي يقول - الفقر.

- الفقر! ألا يحسّ الفقراء بما نحسّ به الآن؟ لن يكونوا فقراء عندئذ.

- يقول عمي أن لاوقت لديهم لذلك -فهم بحاجة الى الطعام والشراب...

- تباً له! الطعام! عمك لايقول الحقيقة: يمكن أن يكون المرء سعيداً، دون طعام: أنا لم أتغدّ اليوم، لكن، كم أنا سعيدة!

ضحك ألكسندر.

-إني على استعداد لأن أمنح الفقراء كل ماأملك، في سبيل لحظة هانئة كهذه، - تابعت نادينكا، - ليأت الفقراء إليّ. آه! لماذا لا أستطيع أن أواسي الجميع وأدخل الفرح الى قلوبهم؟

- مَلاك! مَلاك! - هتف ألكسندر بإعجاب، وهو يشدّ على يدها.

- (مقاطعة)! آه، كم تضغط على يدي بقوّة! - قالت نادينكا فجأة، وهي تقطّب حاجبيها وتسحب يدها من شدّة الألم.

لكنه خطف يدها من جديد وبدأ يقبلها بحرارة.

- كم سأصلي، - تابعت هي، - اليوم، غداً ودائماً من أجل هذه الأمسية! كم أنا سعيدة! وأنت؟

twitter @baghdad_library

استغرقت في التفكير فجأة ولاح في عينها القلق.

- يقال، - تابعت هي، - أنّ مايحدث مرّةً، لايتكرّر أبداً! هل معنى هذا، أنّ هذه اللحظة لن تتكرّر.

-كلا! - أجاب ألكسندر. - هذا ليس صحيحاً. ستتكرّر! ستحل لحظات أجمل؛ أجل، إني أحسّ بهذا. . . !

نظرتْ إليه بارتياب، وهي تهزّ رأسها، أما هو، فقد تذكّر دروس عمّه وتوقّف فجأة.

«كلاّ - كان يحدّث نفسه، - لايمكن إن يحدث هذا! لم يعرف عمّي سعادةً كهذه، الأمر الذي يفسرّ صرامته وشكه في التعامل مع الناس. مسكين! يحزنني قلبه البارد الجاف، الذي لم يعرف حبور الحبّ أبداً: ذلك هو السبب، الذي يجعله يقبل على الحياة بشراهة وطمع. سامحه الله! لو أنه رأى مبلغ سعادتي وعاش لحظة هانئة كهذه، لكان قد تخلى بالتأكيد عن شكه وارتيابه. كم يحزنني وضعه. . . ».

-كلا، كلا ياناديكا، سنكون سعيدين! - تابع هو بصوتٍ مسموع- انظري حولك: ألا ترين ان كل شيء موجود هنا، طَرِبٌ مستمتع بالنظر الى حبنا؟ الله بالذات يباركه. كم سيكون سرورنا عظيماً ونحن نعيش الحياة يداً بيد! كم سنكون فخورين، وعظمين بحبنا المتبادل!

- (مقاطعة) كفى، كفى استباقاً للأمور! - قالت هي. - لاتتنبأ: أحسُّ بخوف عندما تتحدثّ هكذا. أحس الآن بالحزن. . .

- ماذا تخشين؟ هل ممنوع علينا أن يثق كلٌّ منا بنفسه وبالآخر؟

- ممنوع، ممنوع! قالت، وهي تهز رأسها . نظر إليها واستغرق في التفكير.

-لماذا؟ - بدأ هو، - ما الشيء الذي يستطيع هدم سعادتنا هذه؟ من ذا الذي سيجد نفسه مضطراً لفعل ذلك؟ سنظلّ دائماً وحيدَيْن منعزلين عن الآخرين؛ وماذا يهمّنا شأن الآخرين؟ وماذا يهمهم شأننا؟ لن يتذكرنا الآخرون، سينسوننا، وعندئذ

لن تزعجنا الإشاعات والأقاويل عن الكوارث والمصائب، وسنكون كما نحن عليه الآن هنا، في هذه الحديقة، الهادئة، حيث لايعكر صفو هذا الصمت المطبق أي صوت. . .

- نادينكا! ألكسندر فيدوريتش! - صدح فجأة صوت من عتبة المنزل. أين أنتما؟

- سَمِعْت! - قالت نادينكا بنبرةٍ متنبّئة، - تلك هي إيماءة القدر: لن تتكرر هذه اللحظة - هذا هو شعوري.

- أمسكت يده وشدّت عليها، ثم نظرت إليه باستغراب وأسى، واندفعت فجأة في الممر المظلم. بقي وحيداً مستغرقاً في التفكير.

- ألكسندر فيدوريتش، - صدح ثانية صوت من عتبة المنزل، - اللبن الرائب على الطاولة منذ زمن، هزّ كتفيه وذهب الى المنزل.

- مرّت سعادتنا كلمح البصر - كلّ هذا بسبب اللبن الرائب! - قال مخاطباً نادينكا. - هل كلّ شيء يحدث في الحياة هكذا؟

- المهمّ ألا تسير الأمور على نحو أسوأ، - أجابت بمرح، - أما اللبن الرائب فهو رائع جداً، خاصّة بالنسبة لمن لم يتناول طعام الغداء بعد.

ألهمتها السعادة وزادتها حيويّة. كانت وجنتاها متوردتين وعيناها تشعّان بريقاً غير عادي. كم كانت تتصرّف بعنايةٍ واهتمام وتثرثر بمرح! لم يكن فيها أي أثر لحزن يلوح، ولو بشكل لحظي عابر: كان السرور يغمرها ويستولي عليها.

كان الفجر قد أدرك منتصف السماء، عندما صعد أدوييف الى القارب. أما الجدّافان اللذان كانا ينتظران المكافأة الموعودة، فصارا يعملان بكلّ ماأوتيا من قوة وراحا ينهبان المسافات نهبا.

- جدّفا ببطء! - قال ألكسندر. - سأعطيكما أيضاً نصف روبل لشراء الڤودكا!

twitter @baghdad_library

نظرا إليه، ثم نظر كلٌ منهما الى الآخر، بدأ أحدهما يحكّ صدره والآخر ظهره، وصارا يحرّكان المجاذيف بتمهّل وببطء، لدرجة أنهما بالكاد يلامسان سطح الماء. كان القارب يعوم كالبجع.

- «وعمي يريد أن يؤكد لي، أن السعادة أمل باطل، وأنّه لايجوز الثقة بشيء، وأنّ الحياة . . . ياله من شخص عديم الضمير! لماذا كان يريد أن يخدعني بمثل هذه القساوة؟ كلا، هذه هي الحياة! هكذا أصورها لنفسي، هكذا ينبغي أن تكون، هكذا هي وهكذا ستكون! وإلا، فلن تكون هناك حياة!». كان نسيم الصباح العليل يسري ناعماً من الشمال. كان ألكسندر يرتعش قليلاً من النسيم والذكرى، ثم تثاءب بعد ذلك وتدثر في ردائه واستغرق في أحلامه.

twitter @baghdad_library

V

بلغ أدوييف أوج سعادته. لم يبق هناك شيء آخر يسعى للحصول عليه. . . فالعمل الوظيفي و النشاط الصحفي - أصبحت كلّها أموراً منسيّة أقلع عن مزاولتها. ماكان ليتذكر هذا كله، لولا تنبيه عمّه له. كان بطرس ايڤانيتش ينصحه بأن يترك هذه الترهات، لكنّ ألكسندر كان يهز كتفيه بأسى، لدى سماعه كلمة «ترّهات» ثم يبتسم وبصمت، وعندما رأى عمّه ان لاجدوى من ملاحظاته ونصائحه كلها، صار أيضاً يهزّ كتفيه ويبتسم بأسى، ثم يصمت بعد أن يقول فقط: «كما تريد، الشأن شأنك لكن حذار أن تطلب المعدن الحقير منّي».

-لاتخشى ياعمّاه، - كأن ألكسندر يردّ على هذا، - فالمرء يشعر بالسوء حقاً، عندما لايملك من المال مايسدّ حاجته، لكني لا أحتاج الى الكثير منه، لديّ مايكفيني.

- أهنئك، - كان بطرس إيڤانيتش يضيف.

كان ألكسندر يتفاداه كما يبدو. لقد فَقَدَ كل ثقة بتنبؤات عمه المحزنة، وكان يخشى نظراته الباردة الى الحب، بوجه عام، وتلميحاته المهينة الى علاقاته بنادينكا بوجه خاص.

كان يشعر بالسأم وهو يستمع كيف كان عمه يحلل حبّه لنادينكا ويخضعه ببساطة الى قواعد عامة واحدة، يعتبرها صالحة للجميع، ويمتهن هذه القضية السامية المقدّسة من وجهة نظر ألكسندر. كان يخفي مسراته وأفراحه، وآفاق السعادة الوردية المقبلة كلها، لأنه كان يحسّ أن الورود ستصير هباء بمجرّد ان يلامس عمّه بالتحليل هذه المسائل. أما عمّه، فقد كان يتحاشاه في البداية، مخافة أن يأتي إليه ألكسندر طالباً المال منه، ويصبح عالةً عليه.

كانت مشية ألكسندر ونظرته وتصرفاته كلها تتضمّن شيئاً ما احتفالياً وخفياً. كان يتعامل مع الآخرين بتواضعٍ واعتداد، مثلما يتعامل رأسماليٌّ ثري مع تجار صغار في سوق البورصة وهو يفكر في سرّه ويقول: «مساكين! من منكم يمتلك من الكنوز ما أملك؟ من منكم يحسّ كما أحسّ؟ من منكم يملك روحاً سامية جبّارة...» الخ.

كان واثقاً أنه الوحيد في هذا العالم، الذي يُحبّ ويُحَب هكذا. بالمناسبة، لم يكن يتحاشى عمّه فقط، بل كان يتحاشى الآخرين أيضاً على حدّ قوله. كان يُمضي وقته، إمّا في محراب معبودته خاشعاً، أو في البيت وحيداً، وهو يجلس ويرشف حتى الثمالة من رحيق سعادته، التي كان يحلللّها ويفتّتها الى جزيئات صغيرة لامتناهية. كان يسمي هذا خلق عالم خاص، فبقاؤه في وحدته وعزلته كان يجد فيه خلق عالمٍ خاص من العدم، يمكث فيه سعيداً مسترخياً، أما العمل الوظيفي، فلم يكن يتردّد إليه برغبة، مسّمياً إياه الضرورة المرة، والشرّ الذي لابد منه، أو النثر الحزين. بوجه عام. كان يملك أوجهاً وأشكالاً عدة لهذا الموضوع. لم يكن يترددّ مطلقاً على رئيس التحرير ولم يكن يزور الناس.

الحديث مع الذات، كان يمثّل بالنسبة له، الفرح الأكبر. «في الوحدة فقط، -كتب ذات مرة في إحدى قصصه، - يرى الإنسان نفسه كما في المرآة؛ عندها فقط يتعلم المرء ان يثق بعظمة الإنسان وكرامته، كم يتبدى الإنسان عظيماً رائعاً في هذا الحديث مع قواه الروحية! إنه يُخضعها كالقائد الفذّ للتحليل الصارم، ويطورّها وفق مخططّ حكيم مدروس بعناية ثم يسعى ويَنشطُ بالاعتماد عليها! كم هو مسكين، بالمقابل كلّ من يخشى الإنفراد بنفسه، وكل من يهرب من ذاته، باحثاً في كل مكان، عن الناس وعن عقل غريب وروح غريبة...» يسمع المرء بمفكّر استطاع ان يكتشف قوانين جديدة تتعلق بتكوين العالم وبالحياة الإنسانية فإذا به بكلّ بساطة عاشق!.

twitter @baghdad_library

هاهو جالس على كرسي فولتير[1]. أمامه صحيفة من الورق، كتب عليها أبيات شعرية. تراه ينكبّ تارةً على الورقة، فيجري تصحيحاً ما، أو يضيف بيتين أو ثلاثة، بينما يرتمي تارة أخرى على مسند الكرسي ويستغرق في التفكير. على شفتيه تتيه ابتسامة. يبدو، أنه قد رشف منذ هنيهة فقط، مالذّ من كأس السعادة المليء. أما عيناه فتعلوهما أحياناً، كالقطّ النائم، غشاوة رقيقة، أو تشعّان فجأة نار الإضطراب الداخلي. الصمت يلفّ كلّ شيء. من بعيد فقط، من الشارع الكبير، يسمع هدير العربات، كما ان يفسيي، الذي تعب من تنظيف الأحذية وتلميعها، يقول أحياناً بصوتٍ مسموع: «كيف أنسى: أخذتُ منذ مدّة من المخزن، خلاً بقرش وملفوفاً بعشرة قروش، يجب عليّ ان أسددها غداً، وإلا فلن يصدقني الحانوتي في المرة المقبلة - إنه كلب لعين! الخبز يوزن بالفونت[2]، كما لو أن العام عام مجاعة، - ياللعار! آه ياإلهي، لقد تعبت. ما إن أنهي تنظيف وتلميع الحذاء هذا، حتى أنام فوراً. في قرية غراتشاخ، الناس نيام منذ بعض الوقت: هناك الحياة! متى سيَمنُّ الله علينا برؤية تلك الديار...».

هنا تنهد بصوتٍ عالٍ، ثم نفخ على الحذاء وبدأ من جديد، يحرّك الفرشاة ذهاباً وإياباً. كان يعتبر عمله هذا رئيسياً، حتى أنه يكاد يكون مسؤوليته الوحيدة، وكان يقيس كرامة الخادم وحتى الإنسان بمهارته في تنظيف الأحذية وتلميعها، لذا، فقد كان يمارس هذا العمل بكثيرٍ من الشغف.

-كفى يايفسيي! أنت تعيقني عن عملي بترهاتك هذه! -صرخ أدوييف.

«ترّهات - غمغم يفسيي بصوتٍ غير مسموع، - ماتفعله أنت، هي الترّهات بعينها. أمّا أنا فأقوم بعملٍ ذي شأن، لقد وسّخت أحذيتك، لدرجة أنني لم أستطع تنظيفها إلاّ بشقّ النفس». وضع الحذاء على الطاولة وصار ينظر بتحبّب وشغف الى

(١) - كرسي ڤولتير - كرسي عميق ذو مسند عالٍ (المترجم).

(٢) - الفونت - مقياس وزن روسي يعادل ٤٠٩,٥ غرام (المترجم).

لمعان الجلد وبريقه. «من يستطيع تنظيف وتلميع الأحذية مثلي، - غمغم هو بصوتٍ مسمع، - ترّهات!».

كان ألكسندر يستغرق في أحلامه أكثر فأكثر عن نادنيكا، ثمّ يغرق بعدها في أحلامه الإبداعية أيضاً. لم يكن على الطاولة شيء، كلّ ما كان يذكّره بأعماله السابقة، وبالوظيفة والعمل الصحفي، كان موضوعاً تحت الطاولة، أو على الخزانة، أو تحت السرير. «منظر هذه القذارة وحده، - كان يقول هو، - يهدّد تفكيره الإبداعي ويطرده بعيداً، فيطير كما يطير بلبلٌ من دغل فاجأه صرير عجلات غير مزيّتة على طريق وعرة».

غالباً ماكان الفجر يداهم ألكسندر، وهو ينظم إحدى القصائد. فالساعات التي لم يكن يمضيها عند آل لوبيتسكي، كان يخصصها كلها للإنتاج الشعري. كان يكتب القصيدة ويقرأها أمام نادينكا، التي كانت تنسخها على ورقة جميلة وتحفظها عن ظهر قلب، وهكذا «كان يبلغ ذروة السعادة، التي يمكن ان يصلها شاعر، عندما يسمع نتاجه من شفاه عذبة لطيفة».

«أنت إلهتي في الشعر، - كان يقول لها، - أنتِ ملهمة هذه النار المقدّسة، التي تضطرم في صدري، ما إن تتركيها حتى تنطفىء الى الأبد».

بعد ذلك، صار يرسل القصائد الى المجلة تحت اسم مستعار. كانت تُنشر لأنها لم تكن رديئة، كما كانت مقاطع منها زاخرة بالحيوية، مشبعة بالمشاعر المتوقّدة ومكتوبة بسلاسة.

كانت نادينكا تفخر بحبّه وكانت تسميه «شاعري».

أجل، سأكون ملُكاً لكِ الى الأبد»، - كان ألكسندر يضيف. كان يعتقد، أنّ المجد يبتسم له في المستقبل وأنّ نادينكا ستضفر له أكاليل الغار، وعندئذ... «أيتها الحياة، كم أنتِ رائعة! - كان يهتف هو. - وعمّي؟ لماذا يعكّر صفو عالمي الروحي؟ أليس شيطاناً أرسله لي القدر؟ لماذا يُسمّم سعادتي بنكده ومرارته؟ ربما تكون الغيرة

twitter @baghdad_library

هي التي جعلت قلبه غريباً عن هذه المسرات الصافية الصادقة، وقد يكون مزاجه السوداوي ورغبته في إلحاق الأذى بالآخرين، هما سبب هذا كله أيضاً . . . لأبتعد، لأبتعد عنه! . . . لأنه سيقتل روحي المُحبَّة العاشقة ويشوه صفاءها ويصيبني بداء الحقد والكرهية، إنْ لم أهرب منه . . . » .

كان يهرب من عمّه، إذ كانت أسابيع وأشهر تمضي، دون أن يلتقي به . وإذا مادار الحديث بينهما أثناء لقائهما عن المشاعر، فإنه كان يلتزم الصمت بسخرية وتهكم، أو يصغي كإنسان يستحيل أن تهتزّ قناعاته أمام أية براهين أو حجج . كان يعتبر قناعاته صائبة، وآراءه ومشاعره ثابتة قطعية، وقد عزم بشكل حاسم ونهائي على الإسترشاد بها فقط مستقبلاً، موضحاً أنه لم يعد فتى يافعاً، بل رجلاً ناضجاً مُجرباً . لماذا تعتبر إذن آراء الآخرين مقدّسة؟ الخ .

أما عمّه فقد ظلّ على حاله : فلم يكن يستوضح من ابن أخيه شيئاً، ولم يكن يلاحظ، أو بالأحرى لم يكن يريد أن يلاحظ حيله وشيطناته . فبعد أن رأى، أن وضع ألكسندر لم يتغير وأنه ظلّ يتبع نمط الحياة السابق ذاته، ولا يطلب منه مالاً، - بعد أن رأى هذا كله، صار معه لطيفاً كالمعتاد، رغم أنه كان يعاتبه عتاباً بسيطاً، وإن كان هذا الأمر يحدث نادراً جداً .

-زوجتي زعلانه منك، - قال هو، - فهي تعتبرك قريباً، كما اعتادت ان تراك عندنا؛ نحن نتناول الغداء يومياً في البيت؛ قم بزيارتنا .

لم يكن يحدث أكثر من ذلك، لكنّ ألكسندر لم يكن يزور عمه إلاّ نادراً، لأنه لم يكن لديه متّسع من الوقت : فهو في الخدمة الوظيفية صباحاً، وبعد الغداء وحتى الليل يتواجد عند آل لوبيتسكي؛ بقي الليل فقط . كان يمضي الليل وحيداً منعزلاً في عالمه الخاص، الذي خلقه لنفسه والذي كان يتابع تخيله . إضافة لذلك، لم يكن يزعجه ان ينام قليلاً .

كان أقلّ سعادة في النثر الرفيع . كتب ملهاة، قصتين مطولّتين، مقالة، ووصفاً لرحلةٍ قام بها الى أحد الأماكن . كان نشاطه باهراً، وكان الورق يذوب

تحت ريشته. أطلع عمه في البداية على المهارة، وعلى إحدى القصص المطولة وطلب منه إبداء الرأي إنْ كانتا صالحتين أم لا. قرأ عمّه مقتطفات منهما وأرسلهما إليه، بعد أن كتب عليهما من الأعلى: «تصلحان للصقهما على حاجز!».

احتدم ألكسندر غيظاً وأرسلهما الى إحدى المجلات، فأعيدتا إليه. في موضعين من الملهاة، سجلت بقلم الرصاص الملاحظة التالية: «ليس رديئاً». وفي القصة المطولة غالباً ماكانت تصادف الملاحظات التالية: «ضعيف، غير صحيح، غير ناضج، فاتر، غير متطوّر» - الخ؟ وفي نهاية القصة كُتب مايلي: «يلاحظ بوجه عام، عدم معرفته للقلب، وإفراط زائد في الانفعال، وتكلّف؛ كلّ مافيها تخيل ومبالغة، ولا وجود للإنسان فيها... البطل مشوه... لاوجود لأمثال هؤلاء الناس... غير ملائمة للنشر! بالمناسبة، لايخلو المؤلف من موهبة كما يبدو، لكن ينبغي عليه ان يجد ويدأب!...».

«لاوجود لأمثال هؤلاء الناس! - فكر ألكسندر الحزين والمندهش. - كيف لايوجد؟ لكنّ البطل هو أنا. هل يُعقل أن أصورّ هؤلاء الأوغاد، الذين يصادفهم المرء في كلّ خطوة يخطوها والذين يفكّرون كعامة الناس ويتصرّفون كما يتصرّف الجميع، - فهذه الوجوه البائسة التهافهة تصلح أن تكون شخوصاً فقط في كوميديا أو تراجيديا يومية مبتذلة، لأنها لاتتميّز بأية سمة بارزة... هل يعقل ان ينحدر الفن إلى هذا الحدّ...؟».

وتوكيداً لنقاوة النظرية، التي يدعو لتبنّيها، استعان بظلّ بايرون واستشهد بغوته وشيلر. البطل الممكن في الدراما والرواية لابدّ أن يكون حسب تصوره إما قرصاناً أو شاعراً عظيماً أو فناناً شهيراً يجبره على أن يتصرّف ويحس كما يريد هو.

اختار أمريكا مكاناً لأحداث إحدى القصتين: الجو رائع ساحر؛ الطبيعة الأمريكية الجميلة، الجبال، ووسط هذا كله، طريد شريد يخطف محبوبته. نساهما العالم كله؛ كانا يمضيان الوقت وحيدين، يستمتعان معاً وينعمان بروعة الطبيعة وجمالها أيضاً، وعندما بلغهما نبأ العفو والغفران وإمكانية رجوعهما الى الوطن،

twitter @baghdad_library

- رفضا العودة، بعد ذلك، وإثر انقضاء عشرين عاماً، قدم الى المكان نفسه أحد الأوروبيين، الذي جاء الى الصيد بصحبة بعض الهنود، فوجد على أحد الجبال كوخاً فيه هيكل عظمي. كان الأوروبي غريماً للبطل. كم بدت له هذه القصة جميلة رائعة، وكم كان يقرأها بإعجاب في أمسيات الشتاء بوجود نادينكا! كم كانت تصغي إليه باهتمام وشغف! - ورغم ذلك، تُرفَضُ هذه القصة!.

لم يتفوه بكلمةٍ واحدة عن فشله هذا أمام نادينكا؛ لقد تجرع الإهانة بصمت- وأخفى كل أثر.

- هل نُشرت القصة؟ - سألت هي.

- كلا! قال هو، - غير ممكن، يقبل هناك فقط مايبدو في أعيننا غريباً وغير مألوف... لو يدري أيّ حقيقة تفوّه بها، علماً أنه كان ينشد معنى آخر مختلفاً تماماً.

الجِدّ كان يبدو له غريباً أيضاً. «علامَ الموهبة؟ - كان يقول- الكادح غير الموهوب هو الذي يجدّ أما الموهبة فتُبدع بسهولة وحرّية...». لكنه تذكر، أنّ مقالاته عن الإقتصاد الزراعي وقصائده أيضاً، لم تكن في البداية جيّدة ولا ملفتة للنظر، ثم أخذت بعد ذلك تتطور وتتحسنّ تدريجياً الى ان بلغت مستوىً أثار اهتمام الجمهور، فتفكر وأدرك سخف استنتاجه، ثم تنهد وأرجأ كتابة النثر الرفيع الى موعد آخر: فقد قطع على نفسه عهداً أنه سَيجدّ ويعمل، عندما يخفق قلبه بانتظام أكثر، وتتوارد الأفكار باتساقٍ وانسجام.

كانت الأيام تتتالى، وكلها مليئة بالسعادة الدائمة بالنسبة لألكسندر. كان يحسّ بالسعادة وهو يقبّل نهاية إصبع نادينكا؛ كان يحسّ بالنشوة عندما يجلس قبالتها بوضعيّة شاعريّة ساعة أو ساعتين دون ان يتحول نظره عنها، متصبباً ومتأوهاً، أو قارئاً قصائد تلائم حالة النشوة هذه.

يقتضي الإنصاف أن نقول، إنّ نادينكا كانت تردّ أحيانا على قصائده وآهاته بالتثاؤب.

ولا غرابة في ذلك: فالقلب كان مشغولاً، لكنّ العقل ظلّ خاملاً، ولم يهتم ألكسندر بتزويده بالغذاء. انتهى العام، الذي حدّدته نادينكا فترة للتجربة. كانت لاتزال تعيش مع أمها في المنزل الصيفي ذاته.

تطرقّ ألكسندر في الحديث الى وعدها وطلب منها إذناً بمفاتحة أمّها. أرجأت نادينكا الموضوع الى حين انتقالها للسكن في المدينة، لكنّ ألكسندر أصرّ على طلبه.

أخيراً، ذات مساء، وأثناء وداعها لألكسندر، سمحت له نادينكا ان يفاتح أمّها في اليوم التالي. لم ينم ألكسندر طوال الليل، ولم يذهب الى الدائرة. كان اليوم التالي يشغل كلّ تفكيره واهتمامه: ظلّ يبتكر ويفترض ويُحَضِّر ماسيقوله لماريا ميخايلوڤنا، فقد أعد كلمةً وتدرّب عليها، لكن، ما إنْ تذكر ان الموضوع يتعلق بطلب يد نادينكا، حتى ضاع في أحلامه ونسي، من جديد، كلّ شيء. قدم الى المنزل الصيفي مساء، وهو على هذه الحال، قبل أن يحُضِّر شيئاً، ولم تكن هناك ضرورة لذلك أصلاً: استقبلته نادينكا كالمعتاد في الحديقة، لكن دون ابتسامة، وعلامة التفكير تلتمع في عينيها، كما كانت تبدو ساهمة، شاردة الذهن.

- يستحيل التحدّث الى أمي الآن، - قالت هي، - فهذا الكونت الكريه يجلس عندنا!

-كونت! أي كونت؟

- لاتعرف أي كونت! الكونت نوڤينسكي، جارنا، هاهو ذا منزله، كم مرّةً أبديْت إعجابك بحديقته!

- الكونت نوڤينسكي؟ عندكم! - قال ألكسندر بدهشة. - ماغرض زيارته؟

- لم أتبيّن الأمر جيداً بعد، - أجابت نادينكا، - كنتُ هنا أقرأ كتابك، ولم تكن أمي موجودة في البيت، فقد ذهبت لزيارة ماريا إيڤانوڤنا. ما إن بدأ المطر يهطل، حتى ذهبتُ الى غرفتي، اقتربت من مدخل بيتنا فجأةً، عربة زرقاء ذات

twitter @baghdad_library

غطاء أبيض. ذات العربة، التي كانت تمرّ بالقرب منا، والتي كنت تُبدي إعجابك بها. ألقيتُ نظرةً فرأيت أمي تخرج منها بصحبة رجل. دخلا البيت. «هذه ابنتي ياكونت؛ أرجو ان تحبها وتعطف عليها» ، - قالت أمي. انحنى ، وكذلك فعلت أنا، شعرتُ بالخجل، فاحمرّ وجهي وركضت الى غرفتي. أما أمي - التي لاتُحتمل - فسمعتُها تقول: «معذرة ياكونت، إنها صعبة المراس. . . » عندئذٍ أدركت، أنه جارنا الكونت نوڤينسكي، يبدو أنه قد أوصل أمي الى هنا من عند ماريا إيڤانوڤنا، في عربته درءاً للمطر.

- هل هو . . . عجوز؟ - سأل ألكسندر.

- عجوز! ماذا تقول، إنه شابٌ وسيم! . . .

- أراكِ قد تفحّصته فوراً ولاحظتِ أنه وسيم! - قال ألكسندر بأسى.

- رائع! وهل يحتاج الأمر وقتاً طويلا؟ لقد تحدثْتُ إليه. آه! كم هو لطيف! استفسر عمّا أفعل، تحدّثت عن الموسيقى، طلب منّي أن أغني أغنية ما، فلم أفعل، لأنني لا أعرف الغناء تقريباً. سأطلب من أمي أن تعين لي خلال فصل الشتاء المقبل هذا، أستاذاً في الغناء. الكونت يقول، إن الغناء دارجٌ جداً الآن.

قالتْ هذا كلّه بحيويّة غير عاديّة.

-ناديجدا ألكسندروڤنا! كنت أظنُ أن عملاً ينتظرك هذا الشتاء غير الغناء، - لاحظ أدوييف.

- ماهو؟

- ماهو! - قال ألكسندر مُعاتباً.

- آه، فهمت، جئت الى هنا بالقارب؟

نظر إليها بصمت. استدارت وذهبت الى البيت.

لم يكن أدوييف هادئاً تماماً، عندما دخل الصالة. أي كونت هذا! كيف ينبغي ان أتصرف معه! ماهو أسلوبه في التخاطب؟ متشامخ؟ غير مكترث؟ دخل. كان الكونت أول من نهض، ثم انحنى باحترام. وردّ ألكسندر بانحناءة متصنعة غير رشيقة. قدمت ربّة البيت كلا منهما الى الآخر. لسبب ما، لم يعجبه الكونت، رغم أنه كان بهيّ الطلعة، رائعاً: كان طويل القامة، ممشوقاً، أشقر، ذا عينين كبيرتين مُميزتين، وابتسامة عذبة جذابة. تصرّفاته تنمّ عن بساطة وأناقة ورقةّ. يبدو أن كلّ من يراه، يشعر بالميل نحوه، لكنّ أدوييف لم يحسّ بذلك. ورغم دعوة ماريا ميخايلوفنا له للجلوس على مقربة منها، فقد جلس ألكسندر في أقصى الزاوية وصار يتصفح كتاباً، الأمر الذي بدا مربكاً، لايبعث على الارتياح. كانت نادينكا، التي تجلس بجوار كنبة أمها تنظر الى الكونت وتصغي الى حديثه: كان يمثل بالنسبة لها شيئاً جديداً.

لم يستطع ألكسندر إخفاء عدم إعجابه بالكونت. بدا الأمر، وكأن الكونت لم يلحظ فظاظته: فقد ظلّ لطيفاً يخاطب أدوييف باحترام، كما حاول ان يشركه في الحديث العام الدائر. لكنّ محاولاته كلها كانت عبثاً: كان ألكسندر يلتزم الصمت أو يجيب بنعم أو لا.

وعندما أعادت لوبيتسكايا ذكر كنيته صدفةً، استوضح الكونت عن درجة قرابته ببطرس إيفانيتش.

- عمّي! - أجاب ألكسندر بتقطعّ.

- ألتقي به غالباً في الحفلات، - قال الكونت.

-ربما. ما الأمر العجيب هنا؟ - أجاب أدوييف وهو يهز كتفيه.

أخفى الكونت ابتسامته، وهو يعضّ قليلا شفته السفلى. تبادلت نادينكا النظرات مع أمها، ثم احمرّت وأخفضت وغضت من بصرها.

twitter @baghdad_library

- عمّكم إنسان ذكي ولطيف! - لاحظ الكونت بلهجة تنمُّ عن شيء من التهكم.

ظلّ أدوييف صامتاً.

لم تستطع نادينكا ان تصبر أكثر، فدنت من ألكسندر عندما كان الكونت يتحدّث مع أمّها، وهمست في أذنه:

- لا تخجل؟ الكونت لطيف معك كثيراً، أما أنت...

- لطيف! - أجاب ألكسندر بأسى وبصوتٍ يكاد يكون مسموعاً. - لستُ بحاجة للطفه، ولاتكرّري هذه الكلمة ثانية.

ابتعدت نادينكا عنه وظلت تنظر إليه طويلاً، وهي جامدة، ساكنة، مفتوحة العينين، ثم أخذت بعد ذلك مكانها، بالقرب من أمها، ولم تعد تعير ألكسندر أيّ اهتمام.

أما أدوييف، فقد ظلّ يتمنى طوال الوقت خروج الكونت، كي يتسنى له أخيراً مفاتحه أمّها. لكن، هاهي الساعة تجاوز العاشرة والحادية عشرة، والكونت مايزال جالساً يتحدث. ها قد انتهت كل المواضيع، التي يدور حولها الحديث عادةً في بداية التعارف. بدأ الكونت يمزح. كان مزاحه ذكياً فقد كانت نكاته خالية من أي تكلف أو ادّعاء، لكنها كانت شيّقة ممتعة، فالموهبة الخاصة للتحدث بإقناع، كانت جليّة واضحة، ليس على صعيد رواية النكتة فقط، بل وعلى صعيد رواية وسرد أيّ خبر أو حادثة أيضاً، إذ يستطيع بكلمة مفاجئة غير متوقعة، أن يحول الموضوع الجدّي الى مضحك.

كان تأثير الدعابة بادياً تماماً على الأم وابنتها، حتى أن ألكسندر نفسه، أخفى غير مرّة بالكتاب الذي كان يمسكه بيده، ابتسامة لم يستطع كبتها، لكنه كان يحتدم في أعماقه غيظاً.

كان الكونت يتحدث عن الأشياء كلها بنفس الدرجة من الجمال والشفافية: عن الموسيقى والناس، وعند البلدان والأقاليم الغريبة. دار الحديث عن الرجال والنساء؛ لامَ الرجال بمن فيهم نفسه، وامتدح النساء؛ بوجه عام، بلباقة وكياسة، وخصّ الأمَّ وابنتها ببعض عبارات المديح.

فكر أدوييف بأعماله الأدبية وبقصائده. «ذلك هو المجال، الذي أستطيع أن أهزمه فيه»، - فكّر هو. دار الحديث عن الأدب أيضاً، وقدمت الأمّ وابنتها ألكسندر ككاتب.

«سيرتبك!» - فكّر أدوييف.

لم يحدث شيء من هذا، تحدث الكونت عن الأدب، كما لو أنه قد كرّس حياته كلها للعمل في هذا المجال؛ أبدى بضع ملاحظات سريعة صائبة عن مشاهير الكتّاب المعاصرين الروس والفرنسيين. إضافةً لهذا كله، اتّضح أنه كان على علاقةٍ وثيقة مع الكلاسيكيين الأوائل من الأدباء الروس، كما تعرف في باريس أيضاً على بعض الكتّاب الفرنسيين. أشاد كثيراً بقلة منهم ورسم صورة هزلية للآخرين. عن قصائد ألكسندر قال، أنه لايعرف عنهاشيئاً ولم يسمع بها.

نظرتْ نادينكا بشيء من الإستغراب الى أدوييف، وكأن لسان حالها يقول: «من أنت؟ لم تذهب بعيداً في هذا المجال...».

خجل ألكسندر. تحولّت سحنته الفظة السليطة الى أخرى حزينة. كان يشبه ديكاً مبلّل الذيل، اختبأ تحت سقيفة، ليتقي نفسه من طقس ممطر.

هاهي المائدة تُمَدّ، ورنين الكؤوس والملاعق يُسمَع في البوفية، والكونت جالس لم يغادر. ضاع كلّ أمل. حتى أنّ الكونت قبل دعوة السيدة لوبيتسكايا، ووافق على أن يبقى ويتعشى لبناً رائباً.

«كونت يتعشى لبناً رائباً!» - همس أدوييف بحقد، وهو ينظر الى الكونت.

تناول الكونت العشاء بشهيّة، وتابع المزاح، كما لو أنه في بيته.

twitter @baghdad_library

-ياله من وقح! يزور هذا البيت للمرّة الأولى ويأكل أكثر من ثلاثة! - همس ألكسندر لنادينكا.

- ماالغرابة؟ يريد أن يأكل! - أجابت ببساطة.

انصرف الكونت أخيراً، لكنّ التحدّث بالموضوع، كان قد أصبح متأخراً. خطف أدوييف قبعته وانصرف مسرعاً. لحقته نادينكا وتمكنت من تهدئته.

- غداً؟ سأل الكسندر.

- لن نكون غداً في البيت.

- بعد غد.

افترقا.

بعد غد، وصل ألكسندر مبكّراً. سمع من الحديقة أصواتاً غير مألوفة تنبعث من الغرفة... إنها آلة الكمان... صار قريباً أكثر... سمع صوتاً ذكورياً يغنّي، وأي صوت! صوتٌ رنّان عذب يستأذن، كما يبدو في الدخول الى قلب امرأة. وصل الصوت الى قلب أدوييف، لكن بطريقة أخرى فقد توقّف واكتأب من الغمّ والحسد والحقد، كما استولى عليه احساس داخليٌ مبهمٌ ثقيل. دخل ألكسندر غرفة المدخل، المطلة على فناء البيت.

- مَنْ عندكم؟ سأل ألكسندر أحد الأشخاص الموجودين.

- الكونت نوڤينسكي.

- منذ وقت طويل؟

- منذ السادسة.

- قل للآنسة، أنني كنتُ هنا. وأني سأعود ثانية.

- سمعاً وطاعة.

- خرج ألكسندر وصار يتسكع بين الفيلات الصيفية، من غير ان يدري الى أين يتجه. عاد بعد ساعتين.

-مايزال الكونت موجوداً عندكم؟ -سأل هو.

- أجل، يبدو أنه سيتناول طعام العشاء عندنا، فقد أمرت الآنسة بشيّ بعض الطيور وتحضيرها للعشاء.

- هل أخبرّتَ الآنسة عنّي؟

- أجل.

- ماذا قالت؟

- لم تأمر بشيء.

عاد ألكسندر الى البيوت، ومضى يومان، دون أن يزور آل لوبيتسكي، الله وحده يعلم كم فكر وعانى خلال هذين اليومين، أخيراً عزم على الذهاب.

ها قد رأى الڤيلا. وقف في القارب، وصار ينظر الى الأمام، وهو يقي عينيه بيده من أشعة الشمس. بين الأشجار يلوح فستان أزرق، يلائم وجه نادينكا كثيراً. كانت ترتدي هذا الفستان دائماً، عندما كانت تبغي إثارة إعجاب ألكسندر بها بصورة خاصّة. أدخل هذا كله الطمأنينة الى قلبه.

«آه! إنها تريد أن تعوضني عن عدم اكتراثها العابر، غير المقصود، - فكر هو، -ليست هي المذنبة، بل أنا: هل يجوز التصرف كما فعلت؟ إنه سلوك لايُغتفر. مثل هذا السلوك يُسيء الى صاحبه فقط، ويعبّىء الجوّ ضدّه؛ إنسان غريب وتعارف جديد... إنه لأمر طبيعي جداً أن تتصرف كربة بيت... آه! هاهي تخرج من خلف شجيرة، وتسلك الممرّ الضيّق قاصدة سور الحديقة، حيث ستتوقّف وتنتظر...».

هاهي تخرج الى الممرّ الفسيح... لكن، من ذا الذي يسير الى جوارها على الطريق؟

twitter @baghdad_library

- الكونت! - هتف ألكسندر بمرارة وبصوتٍ مسموع، وهو لايُصدق عينيه.

- ماذا! - أجاب أحد الجدّافين.

- هاهي تسير معه بمفردها في الحديقة... - همس ألكسندر، - مثلما كانت معي... اقترب الكونت ونادينكا من سور الحديقة، ثم عادا أدراجهما، دون ان ينظرا الى النهر، وهاهما يسلكان الممرّ ذاته. انحنى نحوها وقال لها شيئاً ما بصوتٍ خافت. كانت تسير مطرقة الرأس.

ظلّ أدوييف طوال هذا الوقت واقفاً في القارب، وهو فاغر الفم، ساكن لايتحرك، مدّ يديه نحو الشاطىء، ثمّ أنزلهما وجلس. تابع الملاحان التجذيف.

- الى أين؟ ثم صرخ ألكسندر في وجهيهما بصوتٍ مسعور، بعد أن ثاب الى رشده، - الى الوراء!.

- الى الوراء؟ كرّر أحدهما، وهو ينظر إليه فاغر الفم.

- الى الوراء! هل أنت أصمّ؟

- لن تذهب الى هناك؟

أمسك الجدّاف الآخر بصمت، بالمجذاف الأيسر، وأمسك زميله بالمجذاف الأيمن أيضاً، فغيرا وجهة القارب، الذي راح ينساب مسرعاً على طريق العودة. أمال ألكسندر قبعته على جبينه، حتى كادت تصل الى كتفه واستغرق في تفكيرٍ مُضنٍ.

بعد ذلك، انقطع عن زيارة آل لوبيتسكي مدّة أسبوعين.

- ما أطول هذا الزمن على عاشق! لكنه ظلّ ينتظر: سيرسل آل لوبيتسكي أحداً ما للإستفسار عما حدث له وللتأكّد إن كان مريضاً أم لا. هكذا كان يحدث دائماً عندما يكون متوعّك الصحّة، وعندما يتشافى. في البداية، كانت نادينكا تكتب إليه باسم أمها، ثم تكتب بعد ذلك باسمها الشخصي. كم كان قلقها ساحراً لطيفاً ولومها عذباً! كم كانت قلّة صبرها بادية بوضوح!.

«كلا، لن أستسلم الآن بسرعة، - فكر ألكسندر، - سأعذّبها. سأعلّمها كيف ينبغي أن تتصرف مع رجل غريب، لن تكون المصالحة سهلة!».

رسم مخططاً صارماً للثأر وحلم بالندم، الذي ستبديه نادينكا، وكيف سيسامحها بسخاء ويُسدي إليها النصائح، لكنّ أحداً لم يُرسل إليه، ولم تعترف بذنبها، كأنه لم يكن موجوداً بالنسبة لها.

نحف كثيراً وصار شاحباً: فالغيرة أكثر إيلاماً من أي مرض، وبخاصّة عندما تكون ناجمة عن شكوك غير مثبته، لكن عندما يظهر الإثبات والدليل، تنتهي الغيرة عندئذ في القسم الأعظم منها، وينتهي الحبّ ذاته، وتصبح الخطوة التالية واضحة على أقل تقدير، لكنّ المرء يكتوي بنار الألم والعذاب قبل أن يصل الى تلك المرحلة. لقد اجتاز ألكسندر هذه المعاناة كلها بصورة تامّة.

عزم أخيراً على الذهاب صباحاً الى بيت لوبيتسكايا اعتقاداً منه، أنه سيجد نادينكا بمفردها، فيتحدث إليها بصراحة ويتفاهم معها.

وصل، لم يكن هناك أحد في الحديقة، وكذلك في الصالة وغرفة الاستقبال أيضاً. خرج الى غرفة المدخل وفتح الباب المفضي الى الفناء.

يالهولِ المشهد، الذي تكشّف أمامه! اثنان من خدم الكونت يمسكان بزوجٍ من أحصنة السباق. على أحد الحصانين، كان الكونت بمساعدة رجل آخر، يجلس نادينكا؛ أمّا الحصان الآخر، فكان مُعداً للكونت نفسه. على العتبة، كانت تقف ماريا ميخايلوفنا. كانت تنظر الى هذا المشهد بقلق، وهي مقطّبة الحاجبين...

- نادينكا، اجلسي بثبات، - قالت هي، - بجاه المسيح ياكونت، راقبها واعتنِ بها! آه، أخاف عليها، أخاف، امسكي بأذن الحصان جيّداً يانادينكا: إنّه شيطان عجول.

- لاتخافي ياأمّاه، - قالت نادينكا بمرح، - أصبحتُ أتقن ركوب الخيل، هيّا انظري.

twitter @baghdad_library

- ساطت الحصان، فاندفع الى الأمام وبدأ يثب ويهمهم مكانه.

- آه، آه! احترسي! - صرخت ماريا ميخايلوفنا، وهي تلوح بيدها. - كفى- سيرميك!

لكنّ نادينكا شدّت الأعنّة، ثبت الحصان وتوقّف عن الحركة.

- أرأيت كيف يطيعني! - قالت نادينكا، وصارت تُمسد رقبة الحصان.

لم يلاحظ أحدٌ أدوييف. كان ينظر الى نادينكا، وهو شاحب صامت، أما هي فلم تبدُ يوماً رائعة، مثلما كانت الآن، وكأنّ القدر يسخر من ألكسندر. كم كان يلائمها زي الفارسة وهذه القبعّة ذات الخمار الأخضر! كم كان رائعاً خصرها! كان إحساسها الجديد هذا يُضفي على وجهها شعاعاً من اعتدادٍ خجول بالنفس، وبهاء ساحراً. كانت الحمرة تختفي تارة، وتبرز تارة أخرى على وجنتيها بفعل الغبطة والارتياح. كان الحصان يثب وثباً خفيفاً، فيجبر الفارسة الهيفاء على التمايل برشاقة وكياسة الى الخلف. كانت قامتها تتهاوى على السرج كساق زهرةٍ يداعبها الهواء. بعد ذلك، قاد الخادم الحصان الى الكونت.

- كونت! ألن نسلك طريق الأحراج من جديد؟ سألت نادينكا.

«من جديد!» -فكّر أدوييف.

- حسناً جداً، -أجاب الكونت.

- تحرك الحصانان من مكانهما.

-ناديجدا ألكسندروفنا! - صرخ أدوييف فجأة بصوتٍ مسعور.

تسمّر الجميع، وكأنهم جمدوا تماماً، وصاروا ينظرون الى أدوييف بحيرة وارتباك. استمروا على هذه الحال دقيقة واحدة.

- آه، هذا ألكسندر فيدروتيش! - قالت الأم، التي كانت أولّ من صحا. انحنى الكونت ببشاشة. أما نادينكا، فقد أماطت الخمار عن وجهها بسرعة واستدارت نحوه، ثم نظرت إليه بهلع وهي تفغر فمها قليلاً، بعد ذلك، حولت

نظرها عنه وساطت الحصان، فانطلق مسرعاً الى الأمام وتوارت خلف البوابة بقفزتين ثم تبعها الكونت.

- على مهل، على مهل، ناشدتك الله أن تتمهلي! - صرخت الأم في إثرها - تمسكي بأذن الحصان جيداً. احمها من السقوط ياربّ! ماهذا الولع!.

اختفيا عن الأنظار. كان يُسمع فقط وقع حوافر الخيل، وكانت سحابات الغبار تتصاعد من الطريق. بقي ألكسندر ولوبتسكايا. كان ينظر إليها بصمت، وكأن عينيه تسألان: «مامعنى هذا كله؟» لم تجبره لوبيتسكايا طويلاً على انتظار الجواب.

- ذهبا، - قالت هي، - وأصبحا أثراً بعد عين! من حقّ الشبّان أن يمرحوا، أما أنا وأنت فنتسامر ياألكسندر فيدوريتش. لماذا اختفيت عنا اسبوعين بلا حسّ أو خبر: هل كففت عن حبّنا؟

- كنتُ مريضاً ياماريا ميخايلوفنا، - أجاب هو بتجهّم.

-أجل، هذا واضح: لقد نحفت كثيراً وأصبحت شاحباً جداً! اجلس بسرعة واسترحْ، سآمر لك ببيض برشت، ألا تريد؟ مايزال أمامنا وقت طويل حتى موعد الغداء.

- شكراً، لا أريد.

- لماذا؟ البيض رائع طازج، وأعتقد أنه سيفيدك.

- كلاّ، كلاّ.

- قل لي: ماذا جرى لك؟ بقيت طوال الوقت انتظر وأنتظر، ثم فكّرتُ وقلت: ماذا يعني هذا كلّه؟ لماذا لم يأتِ ويجلب كتباً فرنسية؟ ألا تذكر أنك وَعَدْتني بأن تجلب لي Peau duchagrin[1] بقيتُ انتظر وأنتظر- لكنّك لم تأتِ، فكّرتُ وقلت: لقد كفَّ ألكسندر فيدوريتش عن حبّنا.

(١) - إحدى الروايات المبكرة للكاتب الفرنسي بلزاك. (بَشَرَة الحزن).

twitter @baghdad_library

- أخشى أن يكون قد حدث العكس ياماريا ميخايلوڤنا.

- ألكسندر فيدوريتش، ماذا تقول! سامحك الله! أحبك كما لو كنت من لحمي ودمي، لكنّي لا أعرف شعور نادينكا تحديداً، فهي ماتزال طفلة: وأنت تعرف كم هو صعب معرفة تفكير الأطفال. أنى لها أن تُقيِّم الناس وتعرفهم جيّداً! كنت ُأكرّر على مسامعها يومياً: لماذا لم نعد نرى ألكسندر فيدوريتش؟ لماذا كفَّ عن المجيء إلينا؟ كنت ُأنتظر قدومك طوال الوقت. صدقني: كنت ُأرجىء تناول طعام الغداء يومياً حتى الخامسة وأنا أفكر وأقول: سيأتي، حتى أنّ نادينكا كانت تقول أحياناً: «من تنتظرين ياأماه؟ أحسّ بالجوع، وأعتقد أن الكونت يشاركني الإحساس ذاته أيضاً. . . ».

- هل يتواجد الكونت. . . عندكم غالباً؟ . . . - سأل ألكسندر.

- كل يوم تقريباً، وأحياناً مرّتين في اليوم؛ إنه طيّب جداً أحبنا كثيراً. . . تقول نادينكا:

«أريد آن آكل فوراً! لقد حان موعد الطعام». - كيف يمكن ذلك؟ سيأتي ألكسندر فيدوريتش، أقول أنا-» - «لن يأتي، - تقول هي، - أراهن أنه لن يأتي. أنت تنتظرين عبثاً. . . ».

كانت لوبيتسكايا تُقطّع قلب ألكسندر بكلماتها هذه، كما لو أنها تفعل ذلك بسكّين.

- هكذا كانت تقول؟ - سأل وهو يحاول ان يبتسم.

-أجل، هكذا كانت تقول وتستعجلني. لكنني صارمة عند الضرورة، رغم مظهري الطيّب الوديع. فقد عنّفتها قائلة: «فيما مضى، كنت تنتظرينه حتى الخامسة، دون ان تتناولي طعام الغداء، أما الآن، فأراك قد أقلعت عن الانتظار كلياً - كم أنت مشوشة الذهن! ليس جيداً تصرّفك هذا! ألكسندر فيدوريتش صديق قديم، يحبنا كثيراً، كما أنّ عمه بطرس ايڤانيتش يغمرنا دائماً بأفضاله. . عدم اكتراثك هذا غير مناسب! سيغضب ويكفّ عن زيارتنا إذا علم بالأمر. . . ».

- وماذا قالت؟ - سأل ألكسندر.

- لم تقل شيئاً. أنت تعرف كم هي حيويّة - صارت تنطّ وتغنّي وتركض حتى أنها قالت: «سيأتي عندما يرغب!» كم هي كثيرة الحركة! أما أنا فكنتُ أفكر وأقول -سيأتي! ينتهي اليوم ولاتأتي. أتساءل وأقول من جديد: «نادينكا، هل ألكسندر فيدوريتش بخير؟ هل هو سليم معافى؟ - «لاأعرف ياأمّاه، - كانت تقول هي، - وما أدراني؟» - ألا ينبغي أن نرسل أحداً ما للإستفسار عما حدث له؟» سنرسل، سنرسل، كنتُ أقول، - لكنّ هذا لم يحدث وياللأسف. نسيتُ الأمر، لأني أعتمد في هذا على نادينكا، وتلك هي خطيئتي. فهي كالريح تروح وتغدو، دون أن أعرف متى وكيف. هاهي الآن شغوفة بركوب الخيل! ذات مرّة، رأت عبر النافذة الكونت ممتطياً جواداً، فألحّت عليّ وقالتْ: «أريد أن أتعلم ركوب الخيل!» - حاولتُ ان أثنيها، لكنها ألحت وقالت: «أريد! أريد!» مجنونة! لم يكن دارجاً أيام شبابي تعلم ركوب الخيل! تربيتي كانت مختلفة تماماً. أما الآن، فقد صارت المرأة تدخّن والعفو من الله: توجد أرملة شابة تسكن قبالتنا تجلس على الشرفة وتدخن طوال اليوم على مرأى من الناس جميعاً - ولايهتز لها جفن! في أيامنا، لم يكن يحدث شيء من هذا أبداً. . .

-هل ابتدأ هذا منذ زمن بعيد؟ - سأل ألكسندر.

- لا أعرف تماماً، لكنه يقال، ان الأمر أصبح شائعاً منذ خمس سنوات. انتقل إلينا هذا كله عن طريق الفرنسيين.

- كلا، أنا لا أسأل عن هذا الأمر، سؤالي هو: هل تمتطي ناديجدا ألكسندروفنا صهوة الخيل منذ زمن بعيد؟ - منذ أسبوع ونصف. الكونت طيبٌ ولطيف كثيراً، إنه يفعل كلّ شيء من أجلنا ولايردّ لنا طلباً؛ آه، كم يدلّلها! انظر كم جلب لها من الأزهار والورود! كل هذا من حديقته! حتى أني صرتُ أشعر بالحرج. «لماذا تدلّلها هكذا ياكونت! - أقول أنا - إذا بقيتَ تُعاملُها هكذا، فلن

twitter @baghdad_library

تعود نادينكا تشبه أحداً. . . ». رحتُ أؤنّبها، لكنْ دون جدوى. ذهبنا، أنا وماريا إيفانوڤنا ونادينكا الى مكان تعليم ركوب الخيل عنده: أنت تعرف، أنني أشرف عليها بنفسي: وهل توجد أمٌ تهتمّ بابنتها أكثر مني؟ أشرفت بنفسي على تربيتها وتنشئتها، وأستطيع أن أقول ولافخر: ليمنح الله الجميع بنات مثلها! كانت نادينكا تتعلّم هناك ركوب الخيل أمامنا. تناولنا بعد ذلك طعام الإفطار في حديقته، وهاهما الآن يركبان الخيل يومياً. ما أجمل وأفخم بيته! تفرّجنا عليه: كلّ مافيه ينمّ عن بذخ وأناقة وذوق!

-يومياً! - قال ألكسندر لنفسه تقريباً.

- فليروّحا عن نفسيهما! كنتُ شابة أيضاً. . . وكنتُ. . .

- هل يدوم مشوارهما طويلاً؟

- ثلاث ساعات. والآن قل لي: ماهو مرضك.

- لا أعرف. . . أشعر بألم في صدري. . . - قال وهو يضع يده على قلبه.

- ألا تتناول شيئاً؟

- كلاّ.

- آهٍ منكم! كلّ الشبّان هكذا! تؤجّلون الأمور، فيمضي الوقت ويظهر المرض!

- هل تحسّ بوهن، أم بألم، أم بوخز؟

- أحسّ بوهنٍ وبألمٍ وبوخر! - قال ألكسندر بشرود.

- هذه نزلة صدرية، ليحمك الله! لايجوز أن تهمل نفسك. . . قد يحدث التهاب؛ تحسّ بهذا كلّه، ولاتأخذ أدوية! خذ مرهماً وادهن به صدرك ليلاً وافركه لدرجة الإحمرار، وبدلاً عن الشاي، تناول منقوع بعض الأعشاب؛ - سأعطيك الوصفة.

عادت نادينكا شاحبة من شدة التعب . ارتمت على الأريكة، وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة .

- أرأيت! - قالت ماريا ميخايلوفنا، وهي تضع يدها على رأس نادينكا . عدت منهكةً لاتقوين على التنفّس . اشربي ماءٍ وغيِّري ملابسك وفكي رباط الحذاء . أرى أنّ ركوب الخيل هذا لن ينتهي على خير! أمضى ألكسندر والكونت اليوم كله . كان الكونت لطيفاً دائماً مع ألكسندر، فقد دعاه ليلقي نظرة على حديقته، كما عرض عليه أن يقوما معاً بنزهة على ظهور الخيل واقترح له حصاناً .

- لا أجيد ركوب الخيل، - قال أدوييف ببرود .

- لاتجيدون ركوب الخيل؟ سألت نادينكا . - ماأمتع ركوب الخيل! ألن نعاود الكرّة من جديد ياكونت غداً؟

- انحنى الكونت مبدياً علامة الإيجاب .

- كفى يانادينكا، - لاحظت الأم، - أنت تزعجين الكونت بإلحاحك هذا .

رغم هذا كله، لم يظهر شيء يدلّ على وجود علاقة خاصة بين الكونت ونادينكا . كان لطيفاً بنفس الدرجة مع الأمّ والبنت على حدٍّ سواء، ولم يكن يتحين الفرص للتحدث الى نادينكا على انفراد، ولم يكن يتبعها الى الحديقة، كان ينظر إليها كما ينظر إلى أمّها تماماً . رفع الكلفة بينها وبينه، والنزهات المشتركة على ظهور الخيل، وحريتها في التعامل معه، - كل هذا يمكن أن يُعزى الى بعض السمات الشخصية البادية في طبعها، كحدّة المزاج والبساطة والتقلّب، وربما إلى نقص التربية وعدم معرفة ظروف الحياة، فيما تعتبر أمها أنّ هذا كله راجعٌ لضعف نادينكا وعدم تبصرها ومقدرتها على استشراف المستقبل . أما لطف الكونت واهتمامه وزياراته اليومية المتكرّرة، فيمكن أن يعزى هذا كله لقرب البيتين أحدهما من الآخر ولحُسن الاستقبال الذي كان يلقاه دائماً من قبل نادينكا وأمها .

twitter @baghdad_library

تبدو المسألة طبيعيه عادية، إذا تمّ النظر إليها بعينٍ بسيطة مجردة ، لكن ألكسندر كان ينظر إليها عبر عدسة مكبّرة فيرى . . . الكثير . . . الكثير . . . ممّا لاتستطيع العين المجردّة ان تراه .

«ما السبب الذي جعل نادينكا تتغير نحوه؟ ، - كان يسأل نفسه ، - فلم تعد تنتظره في الحديقة ، ولاتستقبله بالبسمة ، بل بخوف وصارت منذ بعض الوقت تهتمّ بهندامها بعناية أكثر . لم تعد عديمة الإكتراث ، مستخفّة في حديثها . صارت أكثر حذراً في سلوكها ، وكأنها قد أصبحت أكثر تبصراً وحصافة . تخفي عيناها وكلماتها أحيانا ، شيئاً يشبه السرّ . . . أين تقلّباتها اللطيفة ، ونزقها وعبثها وسرعة حركتها ورشاقتها؟ لقد اختفى هذا كله . صارت جديّة ، ساهمة وصامتة . كأنّ شيئاً ما يعذبها . إنها تشبه الآن كل الفتيات : فهي متكلّفة ، تكذب وتستفسر بعناية واهتمام عن الوضع الصحي ، شأنها في ذلك شأن الأخريات كافة . . . تراها باستمرار لطيفة حسنة المعشر ظاهرياً . . . إزاءه . . . إزاء ألكسندر! إزاء من . . . آه ياإلهي! وتوقف قلبه عن الخفقان .

«ليس هذا عبثاً ، ليس هذا عبثاً ، - أكد لنفسه ، - هنا يكمن شيء ما! لكني سأعرفه بأي ثمن ، وعندئذ تُحل المصيبة وتزول . . .

لن أدعَ الداعر
يغوي القلب الفتيّ اليافع
بنار الإطراء والآهات . . .
لن أدع الدودة الحقيرة السامّة
تنخر ساق الزنبقة
ولازهرتَي الصباح
تذبلان قبل أن تتفتحا . . . »

في هذا اليوم ، وبعد أن انصرف الكونت ، حاول ألكسندر تحين الفرصة كي يُحدِّث نادينكا على انفراد . لماذا لم يفعل؟ أخذ الكتاب ، الذي كانت تحمله عادة فيما مضى ، وتناديه ليتبعها الى الحديقة خفيةً عن أمها ، فأراها إيّاه وذهب الى ضفة النهر ، وهو يعتقد أنها ستتبعه الآن فوراً . انتظر وطال انتظاره ، لكنها لم تأتِ . عاد الى الغرفة . كانت نادينكا نفسها تقرأ كتاباً ولم تنظر إليه . جلس بالقرب منها . لم ترفع عينيها ، وسألت بعد ذلك بسرعة وبشكل عابر عن نشاطه الأدبي واستفسرت عما صدر له من جديد لكنها لم تلامس الماضي بأي كلمة .

تحدث إلى أمّها . في هذه الأثناء ، ذهبتْ نادينكا الى الحديقة . خرجت الأم من الغرفة فاندفع أدوييف الى الحديقة أيضاً ، ما إن رأته نادينكا ، حتى نهضت عن المقعد ، لكنها لم تذهب لملاقاته ، بل توجهت ببطء الى الممر الدائري المؤدّي الى البيت ، وكأنها تهرب منه . أسرع في السير وكذلك فعلت هي .

- ناديجدا ألكسندروڤنا! - صرخ من بعيد . - كنتُ أود أن أقول لك كلمتين .

- لنذهب الى الغرفة : الرطوبة عالية هنا ، - أجابت هي -

ما إنْ عادت الى البيت ، حتى جلست بالقرب من أمها ، كاد ألكسندر ان يفقد توازنه .

- هل تخشين الرطوبة هنا؟ قال هو بتقطع .

- أجل ، فهذه الليالي المظلمة باردة الآن ، - أجابت وهي تتثاءب .

- سننتقل قريباً من هنا ، - لاحظت الأم - ألكسندر فيدوريتش ، أرجو ان تمرّ على مالك الشقة وتذكره بأن يرسل إلينا قفلين للباب ودرفة شباك لغرفة نوم نادينكا ، لقد وعدنا بأن يفعل ذلك ، لكنه قد ينسى ، لذا أرجوك ان تذكره . إنه لايفكّر إلا بالحصول على النقود فقط .

نهض أدوييف مودْعاً .

twitter @baghdad_library

- لاتغبْ عنّا طويلا ! - قالت ماريا ميخايلوڤنا .

ظلّت نادينكا صامتة .

اقترب ألكسندر من الباب ، ثم استدار نحوها . خَطَتْ ثلاث خطوات نحوه ، خفق قلبه .

- هل ستأتي إلينا غداً؟ - سألت ببرود ، لكنّ عينيها كانتا ترمقانه بنظرةٍ ملؤها الفضول .

- لا أعرف ، لماذا؟

- أسألك : هل ستأتي؟

- تودّين ذلك؟

- هل ستأتي إلينا غداً؟ - كرّرت باللهجة الباردة ذاتها ، لكن بكثير من اللهفة

- كلا ! - أجاب بأسى .

- وبعد غد؟

- كلا ؛ لن أجيء طوال هذا الأسبوع ، ولربما لن أجيء قبل أسبوعين . . . أو أكثر ! . . . ثمّ ألقى عليها نظرة متفحصة ، محاولاً ان يقرأ في عينيها الأثر ، الذي سيحدثه جوابه هذا .

- ظلّت صامتة ، لكنّ عينيها انخفضتا الى الأسفل فور سماعها ، جوابه ، فماذا كانتا تخفيان؟ هل غشاهما الأسى ، أم أن بريق الغبطة والفرح كان يلتمع فيهما - كان يستحيل على المرء ان يقرأ شيئاً على هذا الوجه المرمري الرائع .

ضغط ألكسندر بقوّة على القبعة ، التي كان يمسكها بيده ، وانصرف .

-لاتنسَ أن تدهن صدرك بالمرهم ! - صرخت في إثره ماريا ميخايلوڤنا . انتصبت أمام ألكسندر ، من جديد ، معضلة - إذ كان لزاماً عليه أن يدرك مغزى سؤال نادينكا والهدف منه . ماذا كان يتضمن : الرغبة في مجيئه ، أم الخوف من رؤيته؟

– آه، ياللعذاب! ياللعذاب! – قال بيأس. لم يصبر المسكين ألكسندر طويلاً: فقد جاء في اليوم الثالث. كانت نادينكا موجودة عند سور الحديقة، عندما كان يقترب من الضفة. سُر لرؤيتها هناك، لكن ما إن صار يقترب من الضفة، حتى استدارت على الفور، وتظاهرت بأنها لم تره، فخطت بضع خطوات جانبية على الطريق وكأنها تسير بلا هدف ثم ذهبت الى البيت.

أدركها جالسة مع أمها. كان هناك أيضاً شخصان من المدينة، والجارة ماريا إيڤانوڤنا والكونت المعهود. كانت عذابات ألكسندر لاتحتمل. انقضى اليوم كله من جديد، في أحاديث فارغة لامعنى لها. كم سئم هؤلاء الضيوف! كانوا يتحدثون بهدوء عن كل ترهة ويثرثرون ويمزحون ويضحكون.

«يضحكون! – أسرّ ألكسندر لنفسه. – وكيف يستطيعون أن يضحكوا في الوقت الذي... تغيرت فيه... نادينكا نحوي! هذا الأمر لايهمّهم مطلقاً! كم هم تعساء سذّج: يفرحون لكلّ شيء!».

ذهبت نادينكا الى الحديقة، ولم يتبعها الكونت. كان بادياً منذ بعض الوقت، أن كلاً منهما كان يتجنّب الآخر بحضور ألكسندر. كان أدوييف يراهما أحياناً وحيدَيْن في الحديقة أو الغرفة، لكنهما بعد ذلك، كانا يفترقان، دون أن يعودا يجتمعان بوجوده. كان هذا الإكتشاف الخطير يمثل بالنسبة لألكسندر علامة على تآمرهما.

انصرف الضيوف، وانصرف الكونت أيضاً. لم تكن نادينكا تعرف هذا، لذا فإنها لم تسرع الى البيت. ترك أدوييف ماريا ميخايلوڤنا بلا تكلف وذهب الى الحديقة. كانت نادينكا واقفة وظهرها نحو ألكسندر، وهي تمسك بسور الحديقة وتسند رأسها الى يدها، مثلما كانت في تلك الأمسية الخالدة، التي لاتنسى... لم تشاهد ولم تلاحظ قدومه.

كم كان قلبه يخفق بقوة، وهو يقترب منها خلسة على رؤوس أصابعه! كان تنفسه قد انقطع.

twitter @baghdad_library

- ناديجد ألكسندروڤنا! - قال بصوتٍ مضطربٍ لايكاد يسمع .

ارتعشت، كما لو أنّ طلقة نارية قد مرّت بالقرب منها، ثم استدارت وابتعدت عنه خطوة الى الخلف .

- قل لي من فضلك، ماهذا الدخان المتصاعد هناك - قالت بارتباك وهي تشير بحيوية الى الجهة الأخرى المقابلة للنهر - هل هذا حريق، أم مدخنة مصنع؟

- ظلّ صامتاً ينظر إليها .

- كنت أعتقد أنه حريق حقاً. . . لماذا تنظر إليّ هكذا، ألا تصدقني؟

صمتَتْ .

- وأنت، - بدأ وهو يهز رأسه، - أنت كالأخريات، كالجميع! . . . من كان يتوقع هذا. . . منذ شهرين؟

-ماذا تقول ! لستُ أفهمك، - قالت هي، وأرادت ان تنصرف .

-ناديجدا ألكسندروڤنا، أرجوك أن تقفي، لم أعد أطيق هذا العذاب .

- ايّ عذاب؟ أنا لاأعرف حقاً عمّا . . .

-لاتتظاهري، هل أنت نادينكا التي عرفتها في أحد الأيام؟ هل بقيت كما كنت؟

- لم أتغيّر! - قالت بحزم .

- كيف! لم تتغيري نحوي!

- كلا : أعتقد أني لاأزال لطيفة معك، ولاأزال أستقبلك بنفس السرور الذي . . .

-بنفس السرور! لماذا هربت منيّ عند السور؟

- هربت؟ فكر جيداً فيما تختلق : ها أنا ذا أقف عند السور، وأنت تقول إنني أهرب .

صارت تضحك بتكلّف.

- ناديجدا ألكسندروڤنا، دعي الدهاء جانباً! - تابع أدوييف.

- عن أي دهاء تتحدث؟ لماذا تضايقني؟

- لستِ أنت التي عرفتها! ياإلهي! منذ شهر ونصف، كنّا هنا...

- ماهذا الدخان المتصاعد من تلك الناحية؟

- ياللهول! ياللهول! - قال ألكسندر.

- ماذا فعلت لك من سوء؟ أنت الذي توقّفت عن زيارتنا - هذا شأنك... فأنا لاأستطيع أن أجبرك... - بدأت نادينكا.

-لاتتظاهري، لاتتصنّعي! وكأنك لاتعرفين، لماذا انقطعتُ عن زيارتكم؟

هزّت رأسها، وهي تنظر جانباً.

- والكونت؟ - قال هو بصوتٍ يكاد يكون متوعداً.

- أي كونت؟

اتخذت هيئة، كما لو أنها تسمع للمرّة الأولى بالكونت.

- أي كونت! تقولين لي أيضاً، - قال وهو ينظر في عينيها مباشرة، إنك غير مكترثة به؟ ألن...

- هل فقدت صوابك! - أجابت، وهي تبتعد عنه.

-أجل، أنت لم تخطئي! - تابع هو- عقلي يضعف يوماً بعد يوم... هل يجوز التصرف هكذا بمكرٍ وجحود مع إنسانٍ أحَبّكِ أكثر من أيّ شيء في هذا العالم، مع إنسانٍ ينسى كلّ مافي الوجود من أجلكِ، وهو يعتقد... أنه سيكون سعيداً الى الأبد؛ أما أنتِ، فقد فعلتِ.

- ماذا فعلت؟ - قال وهي تتراجع الى الخلف أيضاً.

twitter @baghdad_library

- ماذا فعلت؟ - أجاب هو، وقد أثاره هذا البرود، - نسيت كلّ ماكان بيننا! أذكّرك بأنّك قد أقسمت مائة مرّة، هنا في هذا المكان، وأكدت بأنك ستكونين لي. «الله شاهد على ماأقول!» كنتِ تردّدين. أجل إنه شاهد يسمع كلّ شيء! ينبغي أن تذوبي خجلاً أمام الله وأمام هذه الأشجار، وأمام كلّ عشبة... كلّ شيء هنا شاهدُ على سعادتنا تلك، وكلّ حبّة رمل هنا تتحدث عن حبنا: انظري وتطلعي من حولك!... أنت حانثة بإيمانك!!.

نظرت إليه برعب. كانت عيناها تلمعان، أما شفتاها فقد ابيضّتا.

- آه! كم أنت غاضب! - قالت بحياء. -لماذا أنت غاضب هكذا؟ لم أرفضك، فأنت لم تفاتح أمي بعد... لماذا تتحدّث عني بهذه الطريقة.

- أفاتح أمّك بعد تصرّفاتك هذه؟...

- أي تصرّفات؟ لا أعرف...

-أي تصرّفات؟ سأقول لك على الفور: ماذا تعني لقاءاتك بالكونت وركوب الخيل معه؟

- هل ينبغي أن أهرب منه عندما تغادر أمي الغرفة! أما ركوب الخيل فمعناه... أني أحبّ هذه الرياضة... وأستمتع بها... آه، ما أروع هذه الفرس لوسي! ألم ترها!... صارت تعرفني الآن.

- وهذا التغير في الحديث معي، - تابع هو، - وماسرّ تواجد الكونت عندكم يومياً من الصباح وحتى المساء؟

- آه، ياإلهي! وما أدراني! كم أنت مضحك! هكذا تريد أميّ.

- ليس صحيحاً! أمك تريد ما تريدينه أنتِ. لمن هذه الهدايا والنوتات الموسيقية والألبومات والأزهار كلها؟ هل كلها لأمّك؟

-أجل. فأمّي تحبّ الزهور كثيراً. لقد اشترت البارحة من البستاني...

- عن أي شيء تتحدثان بصوت خافت؟ - تابع ألكسندر، دون ان يعير كلماتها أيّ انتباه. - انظري كيف أصبحت شاحبة ممتقعة اللون، هذا يعني، أنك تحسين بذنبك. هدم سعادة إنسان ونسيانه وتحطيمه بمثل هذه البساطة والسرعة يعتبر نفاقاً وجحودا وكذباً وخيانة! . . . أجل، خيانة. . . ! كيف أمكنك الوصول الى هذا كله! كونت ثري، ليث، تكرّم عليك بنظرة لطيفة متعاطفة. - فذبت تحت تأثيرها، وركعت أمام هذه الشمس اللماعة المبهرجة؛ أين الحياء!! ينبغي ألا يتواجد الكونت هنا! - قال بصوت مختنق. - هل تسمعين؟ اتركيه، واقطعي كل علاقة به، كي ينسى الطريق إلى بيتكم! . . . لا أريد. . .

أمسك يدها بحنق.

- ماما، ماما! الى هنا! - صرخت نادينكا بصوت حادّ وهي تفلت من ألكسندر، ثم اندفعت بعد أن أفلتت منه، تجري هاربة الى البيت.

جلس على المعقد ومسك رأسه يأساً.

وصلت الى غرفتها شاحبة خائفة، وتهاوت على الكنبة.

- مابك! ماذا جرى لك؟ لماذا تصرخين؟ - سألت الأم الهلعة، وهي تخفّ لملاقاتها.

-ألكسندر فيدوريتش. . . مريض! - لم تستطع أن تقول هذا، إلاّ بشق النفس.

- لماذا أنت خائفة هكذا؟

- إنه مخيف جداً. . . أماه، بالله عليك، لاتدعيه يقترب مني.

-كم أخفتني أيتها المجنونة! لماذا تهولّين الأمر بشأن مرضه؟ أعرف، أن صدره يؤلمه. ما الأمر المخيف هنا؟ ليس مصاباً بداء السلّ! ما إن يدهن صدره بالمرهم، حتى يشفى تماماً: واضحٌ، أنه لم يطعني ولم يدهن صدره بعد.

twitter @baghdad_library

ثاب ألكسندر إلى رشده. انتهت الحمّى، لكنّ ألمه تضاعف. لم تنجلِ شكوكه، بل أرعب نادينكا، ولن يستطيع الآن طبعاً، الحصول على أيّ جوابٍ منها: لأنّه لم يتعامل مع المسألة بصورة صائبة وكما يتبادر الى ذهن كلّ عاشق ولهان، فقد تبادر الى ذهنه الآتي: «وإذا لم تكن مذنبة؟ ربما تكون حقاً غير مكترثة بالكونت؟ قد تكون أمها المشوّشة هي التي تدعوه لزيارتهما يوميا فماذا تستطيع ان تفعل نادينكا؟ فهو لطيف ودمث، ونادينكا فتاة رائعة: ربما يريد إثارة إعجابها به، لكنّ هذا لايعني، انه قد أعجبها. ربما تكون قد أعجبتها الأزهار والتسليات البريئة وركوب الخيل، وليس الكونت؟ لنُسلّم حتى بوجود قليل من الغنج والدلال هنا: ألا يغتفر هذا؟ توجد فتيات أكبر منها سناً، والله وحده يعلم ماذا يفعلن».

استراح، فبرق في أعماقه شعاع من الفرح والسرور. كلّ المحبيّن هكذا: فهم إمّا عميان لايبصرون شيئاً، أو بصراء جداً. زد على ذلك، كم يشعر المحبّ بالسعادة والارتياح عندما يبرر ساحة الحبيب! «ماسبب التغير الحاصل في معاملتها لي؟ -سأل نفسه فجأة، وصار شاحباً من جديد. - لماذا تهرب مني وتلتزم الصمت أثناء وجودي، وكأنها تخجل؟ لماذا كانت البارحة متأنقة كثيراً، علماً أنّ اليوم كان عادياً ويخلو من أية مناسبة؟ لم يكن هناك ضيف غيره. لماذا سألت إنْ كانت حفلات البالية ستبدأ قريباً؟ السؤال عادي بسيط؛ لكنّه تذكّر أنّ الكونت قد وَعَدَ عرضاً، بأنه سيؤمن مقصورة بصورة دائمة، رغم كل المصاعب: هذا يعني، أنه سيكون بصحبتها. «لماذا غادرت البارحة الحديقة؟ لماذا لم تأت الى الحديقة؟ لماذا سألت عن هذا الأمر، ولم تسأل عن ذاك...».

خامره الشك المضني من جديد، وصار يتعذّب بقسوة، ثم توصل الى استنتاج مفاده، أنّ نادينكا لم تحبه أبداً.

«ياإلهي! - قال بيأس. - ما أقسى العيش وما أمرّه! هبني يارب هدوء الموت الأبدي وغفوة الروح الدائمة...»

بعد ربع ساعة، وصل الى الغرفة كئيباً وجلاً.

-وداعاً ياناديجدا ألكسندروڤنا، - قال بحياء.

- وداعاً، - أجابت هي بتقطع، دون ان ترفع عينيها.

- متى تأذنين لي بالمجيء الى هنا؟

- عندما تشاء. بالمناسبة... سننتقل الى المدينة في الأسبوع المقبل. سنحيطك علماً عندئذ... انصرف. مضى أكثر من اسبوعين. هجر الجميع ڤيلاتهم. صارت الصالونات الأرستقراطيّة تتلألأ من جديد. وضع الموظف مصباحين جداريين في غرفة الإستقبال. واشترى نصف بود[1] من عجينة الشمع الأبيض والأصفر ووضع طاولتين مخصصتين للعب الورق ورتّبهما بعناية، انتظاراً لقدوم ستيبان إيڤانيتش وإيفان ستيبانيتش، وأبلغ زوجته أنهما سيزورانهما يوم الثلاثاء. لكن أدوييف لم يتلقّ أية دعوة من أسرة لوبيسكايا. صادف الطاهي والوصيفة. ما إن رأته الوصيفة، حتى هربت منه: واضحٌ ان تصرفها كان متأثراً بسيّدتها نادينكا. أما الطاهي فقد توقف.

-لماذا نسيتنا ياسيّدي؟ - قال هو. - مضى على انتقالنا أسبوع ونصف.

- ربما... ربما لم ترتّبوا أموركم بعد، ولم تصبحوا جاهزين لاستقبال الضيوف.

- كيف لم نصبح جاهزين ياسيّدي: كلّ الضيوف زارونا باستثنائكم أنتم. سيّدتي تستقبلهم بترحاب. سعادته يزورنا يوميّاً... ياله من سيد نبيل كريم! منذ بضعة أيام، قمتُ بزيارته وأوصلت إليه دفتراً من سيدتي نادينكا- فتَكَرّم عليّ بعشرة روبلات.

- يالك من مغفل! -قال أدوييف وابتعد مسرعاً عن الثرثار. في المساء مَرَّ أمام شقة لوبيتسكايا. كانت مضاءة. أمام المدخل، كانت توجد عربة.

- لمن هذه العربة؟ سأل هو.

---

(١) - مقياس وزن يعادل ١٦,٤٨ كغ (المترجم).

twitter @baghdad_library

- إنها عربة الكونت نوڤينسكي.

في اليوم التالي والثالث، شاهد الشيء ذاته. أخيراً، حسم أمره ودخل. استقبلته الأم ببشاشة وترحاب، وعاتَبَتْه لتأخره عن المجيء، ولامَتْهُ، لانه لم يدهن صدره بالمرهم، أما نادينكا فاستقبلته بهدوء، بينما استقبله الكونت باحترام. لم يدر حديث بين ألكسندر من جهة، وبين نادينكا والكونت من جهة أخرى.

تكررت الزيارة مرّة أخرى. كانت نظرته المعبرة، التي رمق بها نادينكا ضرباً من العبث: بدت وكأنها لم تلحظها، لكن، كم كانت تلحظها سابقاً! فيما مضى، كان يصادف أحياناً أن يتحدث ألكسندر مع ماريا ميخايلوڤنا، فتأتي نادينكا وتقف قبالته، خلف ظهر أمها، وتبدأ تصعر خدّها له وتعبث أمامه وتضحكه.

استولى عليه ملل لايطاق، الشيء الوحيد، الذي كان يفكر فيه فقط، هو كيف يزيح عن كاهله هذا العبء الذي فرضه على نفسه طواعية. كان يريد الحصول على توضيح منها. «الأمر سيّان عندي، - كان يفكر هو، - أياًكان الردّ، المهم فقط، أنْ أحولّ الشكّ الى يقين».

ساعدته الظروف كلها. لم تكن هناك عربة عند المدخل. اجتاز الصالة بهدوء وتوقف برهةً أمام صالة الإستقبال، كي يستردّ أنفاسه. كانت نادينكا تعزف على البيانو هناك. أما لوبيتسكايا الأم، فكانت جالسة على الأريكة تنسج شالاً، في مكان بعيدٍ من الصالة. ما إن سمعت نادينكا وقع خطواتٍ في الصالة، حتى تابعت العزف بصوتٍ خافت، ثم مدّت رأسها الى الأمام. كانت تنتظر ظهور الضيف والإبتسامة على وجهها. ظهر الضيف، فاختفت الإبتسامة فوراً، وعلا وجهها تعبير من الخوف. تغير وجهها قليلاً ونهضت عن الكرسي. ليس هذا هو الضيف، الذي كانت تنتظره.

انحنى ألكسندر بصمت، ثم تابع طريقه كالظل باتجاه أمّها. كان يسير ببطء مطرق الرأس، وقد اختفت من مشيته تلك الثقة السابقة المعهودة. جلست نادينكا وتابعت العزف، وصارت تنظر أحياناً الى الخلف بهلع.

بعد نصف ساعة ولسبب ما، استدعيت الأمّ الى غرفة أخرى. ذهب ألكسندر الى نادينكا. نهضت وهمّت بالإنصراف.

-ناديجدا ألكسندروڤنا، - قال بأسى، - أرجوك ان تنتظري وتخصصي لي من وقتك خمس دقائق لا أكثر.

-لاأستطيع الإصغاء إليك! - قالت هي، ثم ابتعدت جانباً - لقد كنتَ في المرة الأخيرة . . .

-كنتُ مخطئاً آنذاك. سأتكلّم الآن بطريقة أخرى مختلفة تماما، وأقسم على ذلك: لن تسمعي منّي أي لوم أو عتاب. لاترفضي طلبي هذا، فلربما يكون هذا الحديث، هو الأخير بيننا. توضيح الأمور ضروري: فأنتِ لم تأذني لي بطلب يدك من أمّك. بعد ذلك، حدث ماحدث . . . لذا، أجد نفسي مضطر لأن أكرّر السؤال. اجلسي وتابعي العزف. سيكون أفضل، لأنّ أمّك لن تسمعنا؛ وهذا الأمر لايحدث للمرّة الأولى، لذا، فلن تستغرب حديثنا . . .

- أذعنت بصورة غريزيّة: بدأت تختار الألحان، التي ستعزفها وقد احمرّت قليلاً، ثم صوّبت نظرها إليه والتخوّف باد عليها.

- ألكسندر فيدوريتش، أين ذهبت؟ - سألت الأم وهي تعود الى مكانها.

- أردت أن أتحدث الى ناديجدا ألكسندروڤنا عن . . . الأدب، - أجاب هو.

- تحدّث، تحدّث: فأنت لم تتحدث حقاً منذ زمنٍ طويل.

- أجيبي بصدق وإيجاز على سؤال واحد فقط، - بدأ هو بصوتٍ خافت، وينتهي استجلاء الأمور فوراً . . . ألم تكفّي عن حبي؟

- يالها من فكرة! - أجابت هي بارتباك. - أنتَ تعرف حقّ المعرفة، أننا كنّا دائماً، أنا وأمّي، نُقدّر صداقتك . . . ومانزال نُسر لرؤيتك، مثلما كنّا دائماً . . .

twitter @baghdad_library

نظر أدوييف إليها وفكّر : «هل أنت حقا ، تلك الفتاة المتقلّبة ، لكن الصادقة؟ هل أنت حقاً تلك الفتاة اللعوب العابثة؟ كم تعلّمت التكلف والتظاهر بسرعة! كم نمت الغرائز الأنثوية فيها بسرعة! هل كما كانت أهواؤها المتقلّبة وليدة الرياء والدّهاء؟ . . . كم تحولت هذه الفتاة الصغيرة بسرعة الى امرأة ناضجة ، لايُلمح في سلوكها أيّ شيء طفولي! ويحدث هذا التحولّ كلّه في مدرسة الكونت خلال شهرين أو ثلاثة! آه ياعماه، آه ياعماه! كم أنت محقّ فيما كنت تقول!» .

-اسمعي . قال هو بصوت أسقط القناع فجأة عن وجه المتكلّفة ؛ -لندع أمك جانباً: عودي كما كنت سابقاً ولو للحظة ، وتحدثي إليّ كنادينكا ، التي أحبّتني قليلاً ذات يوم . . . وأجيبي مباشرة وبصراحة : فأنا بحاجة والله الى جواب صريح .

صمتتْ ، لكنّها غيّرت النوتات فقط ، وصارت تتفحصها بإمعان وتعزف أحد المقاطع الصعبة .

- حسناً ، -سأغيّر صيغة السؤال ، - تابع أدوييف ، - ألم يستحوذ على قلبك - لن أذكر حتى اسمه- شخص آخر غيري؟

ظلّت تنظر الى الشمعة طويلاً ، وهي تلتزم الصمت .

- ناديجدا ألكسندرڤنا ، أجيبي : كلمة واحدة تريحني من العذاب ومنك ومن هذا الاستيضاح البغيض .

-آه ياإلهي ، كفى! ماذا أقول لك؟ لايوجد لديّ شيء أقوله! - أجابت وهي تتحولّ عنه .

شخص آخر غيره كان سيكتفي بجواب كهذا ويحجم عن متابعة الإستيضاح . نظرة واحدة منه الى الأسى الصامت المزعج ، الذي كان يرتسم على وجهها ويلاحقها في حركاتها وكلماتها ، كانت تكفي لإدراك وفهم كل شيء . لكنّ أدوييف لم يكن ليكتفي بهذا كله . كان يعذب ضحيتّه كالجلاد ، وكانت تستبدّ به رغبة يائسة ضاربة في أن يترع الكأس مرّة واحدة وإلى النهاية .

كلا! -قال هو، -أريدك ان تضعي اليوم حداً لهذا العذاب، فالشكّ يتعب تفكيري ويمزّق قلبي إرباً، تعذّبتُ كثيراً، وأعتقد أنّ صدري سينفجر من شدّة التوتّر. . . أنت الوحيدة، التي تستطيع ان تضع حداً لشكوكي، وإلاّ فلن أتخلص منها أبداً.

- نظر إليها وراح ينتظر جوابها: ظلّت تلتزم الصمت.

-تشفقين عليّ! -بدأ من جديد. - انظري إليّ: هل أشبه نفسي؟ كل الناس يخافون منّي ويشفقون عليّ، أنتِ الوحيدة فقط، التي. . .

كانت عيناه تشعّان بريقاً غريباً ضارياً. كان نحيفاً، شاحباً، وكانت قطرات العرق الكبيرة تتصبّب على جبينه.

رمقَتْهُ خلسةً بنظرةٍ كانت مليئة بالأسى والشفقة. حتى أنها أمسكته بيده، لكنها تركتها فوراً وتأوهتْ، وهي ماتزال تلتزم الصمت.

- مابك؟ -سأل هو.

- آه، دعني وشأني! - قالت بألم. - أنتَ تعذّبني بأسئلتك. . .

- أتوسّل إليكِ! ناشدتك الله ان تجيبي! - قال هو. - ضعي نهاية للأمور بكلمة منك. . .

ماذا يفيدك التكتمّ؟ سيبقى لديّ عندئذ أمل سخيف يدفعني للمجيء إليك يومياً شاحباً، مضطرباً. . . سأسبب لك الكآبة والملل. تطردينني من البيت- فأتسكّع تحت النوافذ وأطاردك في المسرح والشارع وألازمك كشبحٍ يذكّرك بالموت. ما أقوله، سخف بسخف، ولربما يبعث على الضحك والسخرية أيضاً لمن يستطيع الضحك - لكنّ ألمي لايحتمل! أنتَ لاتعرفين معنى الغرام، وإلامَ يوصل! أرجو من الله ألا يذيقك طعمه أبداً. . . ما الفائدة من الصمت؟ أليس من الأفضل أن تصارحيني فجأة؟

- عمّ تسألني؟- قالت نادينكا، وهي ترتمي على مسند الكرسي. - لقد ضعتُ تماماً. . . ذهني مشوش تماماً.

twitter @baghdad_library

وضعت يدها على جبينها بتشنج ثم سحَبَتْها على الفور.

- أسألك: ألم يستحوذ على قلبك شخص آخر غيري؟ كلمة واحدة- نعم أو لا- تحسم كل شيء؛ هل تكلفك وقتاً طويلا!

كانت تودّ أن تقول شيئاً ما، لكنها لم تستطع، ثم بدأت تنقر بإصبعها، وهي تخفض عينيها، أحد مفاتيح البيانو. كان واضحاً أنها كانت تُصارع ذاتها بقوّة. «آه!» نطقت أخيراً بأسى. مسح أدوييف جبينه بمنديل.

- نعم أم لا؟ - كرّر وهو يكبت أنفاسه.

مضى بضع ثوانٍ.

- نعم أم لا؟

- نعم! همستْ نادينكا بصوتٍ لايكاد يُسمع، ثم انحنت بعد ذلك صوب البيانو وبدأت تعزف ألحاناً قوية، كما لو كانت في غيبوبة.

كلمة نعم هذه دوّت، كما الزفرة بصورةٍ لم تكن واضحة تماماً، لكنها صعقتْ أدوييف؛ أحسّ انّ قلبه يتمزّق وركبتيه تنثيان تحته. هوى على الكرسي بالقرب من البيانو وصمت.

نظرتْ إليه نادينكا بهلع. كان يرمقها بنظرة خالية من أيّ معنى.

- ألكسندر فيدوريتش! - صرختْ الآمّ فجأة من غرفتها. - أيّ أذن تطنّ؟

ظلّ صامتاً.

- أميّ تسألك، - قالت نادينكا.

- ها؟

أيّ أذن تطنّ؟ صرخت الأم. - هيّا، قل بسرعة!.

- تطنّ الإثنتان! - نطق أدوييف بتجهّم.

- اليسرى! لقد حزرت، سيزورنا الكونت اليوم.

- الكونت! - نطق أدوييف.

- اعذرني! - قالت نادينكا بصوتٍ متوسّل، وهي تندفع نحوه. - أنا لاأفهم نفسي... حدث هذا كله عن غير قصد، ضدّ إرادتي... لا أعرف كيف... لم أكن أستطيع ان أخدعك...

- ناديجدا ألكسندروفنا، سألتزم بوعدي، - أجاب هو، - لن أوجه إليك كلمة عتابٍ أو لوم. أشكركِ على الصراحة والصدق.. لقد فعلتِ الكثير الكثير... اليوم... كان صعباً عليَّ سماع كلمة نعم هذه... لكنّ قولها كان أصعب عليك أيضاً... وداعاً؛ لن تشاهديني بعد الآن: هذه مكافأتي الوحيدة لك على صدقك... لكنّ الكونت، الكونت!

كزَّ على أسنانه واتجّه نحو الباب.

- أجل، - قال وهو يعود، - الى أين سيقودكِ هذا كله؟

الكونت لن يتزوّجك: ماهي نواياه إذن...؟

- لا أعرف! - أجابت نادينكا، وهي تهز رأسها بأسى.

- ياإلهي! كم أنتِ عمياء! - هتف ألكسندر بذعر.

لايمكن ان تكون لديه نوايا سيئة... - أجابت بصوتٍ خافت.

-احترسي ناديجدا ألكسندروفنا!

أخذ يدها وقبّلها، ثم خرج من الغرفة بخطواتٍ مضطربة. كان النظر إليه مريعاً. بقيتْ نادينكا مكانها بلا حراك.

-نادينكا، لماذا لاتعزفين؟ - سألت الأم بعد لحظات.

-الآن ياأمّاه! - أجابت وهي تميل رأسها قليلاً الى الجانب بتأمّل، ثم بدأت تعزف بحياء كانت أصابعها ترتجف. يبدو أنها كانت تتعذّب من وخز الضمير ومن

twitter @baghdad_library

الشكّ. الذي تضمّنتها كلمته التي رماها بها: «احترسي!» عندما قدم الكونت، كانت صامتة ضجرة، في تصرفاتها كان يلحظ شيء من التكلّف. وبحجّة وجع رأسها، فقد ذهبت في وقت مبكر الى غرفتها. بدا لها في هذه الأمسية، أنّ الحياة مُرة وقاسية في هذا العالم.

ما إن بدأ أدوييف ينزل السلم، حتى أحسّ أن قواه تخونه، فجلس على الدرَجة الأخيرة وحجب عينيه بمنديل وبدأ يشهق ويبكي بصوتٍ مرتفع، لكن، دون دموع. في هذه الأثناء، كان البتساني يمرّ أمام المدخل. توقف وصار يصغي.

- مارفا، يامارفا! - صرخ وهو يقترب من بابه الوسخ. - تعالي الى هنا واسمعي كيف يجأر ويزمجر هنا كالوحش، أحدٌ ما، فكّرتُ في نفسي وقلت، ربما يكون كلب الحراسة قد أفلت من الجنزير، أصختُ السمع، فغيرت رأيي.

- كلا، ليس هو! كرّرت مارفا وهي تصيخ السمع. - ماهذه النادرة؟

- اذهبي واجلبي الفانوس: إنه معلّق خلف المدفأة.

جلبت مارفا الفانوس.

- مايزال يجأر؟ - سألت هي.

- أجل! ربما يكون قد تسلّل الى هنا أحد المحتالين.

- مَنْ هنا؟ - سأل البتساني.

لم يلقَ جواباً.

- مَنْ هنا؟ - كرّرت مارفا.

استمرّت الزمجرة. دخلا فجأة. اندفع أدوييف يركض هارباً.

- آه، إنه أحد السادة النبلاء، - قالت مارفا وهي تنظر في أثره، - أما أنت فقد اختلقت وقلت، إنه نصاب محتال! ما أقلّ عقلك! متى كان النصّاب المحتال يجأر عند مداخل البيوت الغريبة!.

- يبدو أنه سكران!

- يالك من ذكي! - أجابت مارفا. - هل تظن أن كل الناس على شاكلتك؟ ليس كل السكارى يجأرون مثلك.

- ربما يجأر من الجوع؟ - لاحظ البتساني بأسى.

- ماذا! -قالت مارفا وهي تنظر إليه، دون أن تعرف ماتقول. - وما أدراك، لعله يكون قد أضاع شيئاً ما - نقوداً مثلاً، أو...

- جلسا فجأة وصارا يفتّشان الأرض في كل الزوايا مستعينين بالفانوس.

- أضاع! غمغم البستاني وهو يضيء الأرض. - أين الشيء الذي أضاعه هنا؟ الدّرج نظيف جداً، إذ يستطيع المرء أن يعثر على الإبرة هنا... أضاع! كان لابد أن يسمع الرنين، ولو أنه أضاع شيئاً ما، كان سيلتقطه حتماً! وهل يمكن ان يضيع هنا أي شيء؟ لامجال هنا لضياع شيء! فالدرج نظيف جداً، زد على ذلك، أن هؤلاء السادة لايضيعون شيئاً! تراهم يضعون أغراضهم في جيوبهم ويتأكدون من وجودها باستمرار! إنهم حريصون جداً. وتأتين بعد ذلك كله لتقولي، إنه أضاع شيئاً ما! ها نحن لم نرَ شيئاً!

ظلاّ طويلاً يزحفان على الأرض بحثاً عن النقود الضائعة.

-لاشيء، لاشيء! - قالت البستاني أخيراً وهو يتنهد، بعد ذلك نفخ الفانوس وأطفأه، ثم فرك نهاية الفتيلة بإصبعين اثنتين ومسحهما بفروته.

twitter @baghdad_library

VI

في المساء ذاته، وفي الساعة الحادية عشرة، وبينما كان بطرس إيڤانيتش متوجّهاً من مكتبه الى غرفة النوم، وهو يمسك بإحدى يديه شمعة وكتاباً، وباليد الأخرى طرف ردائه، أبلغه الخادم، أنّ ألكسندر فيدوريتش يودّ مشاهدته.

قطّب بطرس إيفانيتش حاجبيه وفكر قليلاً، ثم قال بعد ذلك بهدوء:

- ادْخلْه الى مكتبي، سأجيء حالاً.

-مرحباً ألكسندر، -سلّم على ابن أخيه، لدى عودته الى هناك، - لم نلتق منذ زمن طويل لا أعرف أين تختفي نهاراً، ولا إلى أين تذهب ليلا! لماذا أتيت متأخراً هكذا؟ مابك؟ وجهك ممتقع وشاحب كثيراً.

لم يردّ عليه ألكسندر بكلمة، بل جلس على الكنبة، وهو في أشدّ حالات الإعياء. كان بطرس إيڤانيتش ينظر إليه بفضول.

تنهّد ألكسندر.

- هل أنت معافى؟ -سأل بطرس إيفانيتش باهتمام.

- أجل، - أجاب ألكسندر بصوتٍ ضعيف، -أمشي وآكل وأشرب، وبالتالي فأنا سليم الجسم معافى.

- رغم ذلك، لايجوز أن تستخفّ بالأمر: عليك أن تستشير الطبيب.

- أشار عليّ آخرون بذلك، لكنّ الأطباء والمراهم لن يفيدوني شيئاً: مرضي ليس فيزيولوجيا...

-مابك؟ هل خسرت في القمار أم أضعت نقوداً؟ سأل بطرس إيفانيتش بحيوية.

- أراك لاتستطيع ان تتصورّ إطلاقاً وقوع مصيبة غير مالية! -أجاب ألكسندر، وهو يحاول أن يبتسم.

- ماهذه المصيبة، التي لاتكلّف قرشاً واحداً؟

- خذ وضعي الراهن، مثلا، هل تعرف مصيبتي الآن؟-أي مصيبة؟ كل شيء عندكم في القرية على مايرام: هذا ما أعرفه من الرسائل، التي ترسلها أمك لي شهرياً؛ وفي الوظيفة، لايمكن ان يحدث أسوأ مما جرى؛ وها أنت تقول إنك سليم معافى، وإنك لم تفقد أو تخسر نقوداً... هذا هو المهم، وكلّ ماعداه يمكن تدبيره بسهولة؛ أعتقد أن المسألة لابد أن تكون سخيفة، فإما ان تكون حبّاً، أو...

- أجل، حب؛ لكن، هل تعرف ما حدث؟ ربما ستكف عن محاكمة الأمر بمثل هذه البساطة عندما تعرف ماحدث، وقد ترتعب.

- حدّثني، فأنا لم أرتعب منذ زمن طويل، - قال العم وهو يجلس. - بالمناسبة، ليس صعباً عليّ أن أحزر: لقد خُدِعتَ على الأرجح... قفز ألكسندر، وأراد أن يقول شيئاً ما، لكنه عدل عن ذلك، ثم عاد وجلس مكانه.

- أليس صحيحاً؟ لقد حذّرتك، أما أنت فكنت تقول: «كلا، كيف يمكن أن يحدث هذا!».

- وهل كان بوسعي أن أهجس وأتوقع حدوث ذلك... - قال ألكسندر، -بعد كل ما...

- لم يكن ضرورياً بالنسبة لك أن تهجس، بل ان تتنبأ أي أن تعرف- وهذا هو الأصحّ- وتتصرّف على هذا الأساس.

-كيف تستطيع ان تحاكم الأمور بهدوء ياعمّاه فيم أنا... - قال ألكسندر.

- وماعلاقتي بالأمر؟

- لقد نسيت: الأمر سيّان عندك، حتى لو خُسفت المدينة واحترقت!

twitter @baghdad_library

-- خادمك المطيع! والمصنع؟

- أنت تمزح، أما أنا فأتعذّب جدّياً؛ أحسّ بالضيق، فأنا مريض حقاً.

- هل يعقل أن تكون نحفت هكذا بتأثير الحبّ؟ ياللعار! كلا: لقد كنت مريضاً، أما الآن، فإنك تبدأ بالتماثل للشفاء، وقد آن الأوان! ليس سهلاً أن تستمر الحماقة عاماً ونصف. لو استمرّيت قليلاً أيضاً، لوجدت نفسي مضطراً، على الأرجح، لأن أؤمن بوجود حبٍّ أبدي لايتغير.

- عمّاه! -قال ألكسندر، - ارحمني: أشعر وكأني في الجحيم...

- وماذا؟

- حرك ألكسندر أريكته نحو الطاولة. أما العمّ فبدأ يُبعد عن طريق ابن أخيه، المحبرة وغيرها من الأغراض الأخرى.

«ها قد حلّ المساء، - فكّر هو، - ويشعر أنه في الجحيم... سيكسر حتماً من جديد، شيئاً ما».

- لن أجد لنفسي عزاء عندك، ولن أطلبه، - بدأ ألكسندر، - لكنني سألتمس منك المساعدة كعمٍّ وكقريب... أبدو في عينيك بليداً أحمق - أليس كذلك؟

-أجل، وتثير شفقتي أيضاً.

- أنت تُشفق عليّ إذن؟

- كثيراً. وهل أنا خشبة؟ أمامي فتى ذكي طيب، جيد التربية يضيع، ليس بسبب النقود، بل بسبب التفاهات!

- أثبت لي، أنك تشفق عليّ.

- كيف؟ أنت تقول، إنك لستَ بحاجةٍ للنقود.

-النقود، النقود! لو كانت تعاستي مقتصرة فقط على قلّة النقود، لكنتُ باركتُ مصيري!

- لاتقل هذا، - لاحظ بطرس! إيفانيتش بجدّية، - فأنت ماتزال شاباً- ينبغي ان تلعن مصيرك هذا، لا أنْ تباركه! كم مرّة لعنتُ نفسي!

- أرجو أن تسمعني بصبر . . .

- هل ستبقى طويلاً ياألكسندر! - سأل العم.

- أجل، فأنا بحاجة لرعايتك واهتمامك؛ لماذا تسأل؟

- صرتُ أُحسّ برغبةٍ في تناول طعام العشاء. كنتُ ذاهباً لأنام دون عشاء، أما الآن، ومادمنا سنجلس طويلاً، فيُستحسن ان نتعشى ونرشف بعض النبيذ، فيما تحدّثني في غضون ذلك عن كل شيء.

- وهل تستطيع تناول العشاء؟ سأل ألكسندر بدهشة.

- أجل، أستطيع جداً؛ ألن تتناول طعام العشاء معي؟

- أنا -أتعشى! ولن تستطيع أنت أيضاً أن تأكل لقمة واحدة، عندما ستعرف أنّ المسألة تتعلّق بالحياة والموت.

- الحياة والموت؟ . . . كرّر العمّ، - هذا مهمّ جداً بالطبع، لكن دعنا نجرّب إن كنّا نستطيع أن نأكل شيئاً.

رنّ الجرس.

- (مخاطباً الخادم الذي دخل) سل ماذا يوجد عندنا هناك، من عشاء، واجلب لنا زجاجة من النبيذ.

- انصرف الخادم.

- عمّاه! أرى أنك لستَ في وضعٍ يسمح لك بالاستماع الى قصة مصيبتي الحزينة، - قال ألكسندر، الذي تناول قبعته، - الأفضل أن أجيء غداً.

- كلا، كلا، لاعليك، - قال بطرس إيڤانيتش بحيوية وهو يمسك يد ابن أخيه، -أنا دائماً في وضعٍ نفسي واحد. مزاجي لايتغير في وقت الإفطار وأثناء

twitter @baghdad_library

العمل. الأفضل إذن أن ننُهي المسألة فوراً. لن يُفسد العشاءُ المسألة. بالعكس، سيكون إصغائي وفهمي أفضل. فالمعدة الخاوية. كما تعلم، لاتُمكِّن الإنسان من فهم الأمور جيّداً.

جلُب العشاء.

- لنبدأ الطعام ياألكسندر... - قال بطرس إيڤانيتش.

- لا أريد أن آكل! - قال ألكسندر بنفاذ صبر، ثمّ هزّ كتفيه وهو ينظر الى عمه المشغول بالطعام.

- خذُ على الأقل كأساً من النبيذ: لن يضرك!

هز ألكسندر رأسه مبدياً علامة الرفض.

- خذ سيجارة، وحدثني عمّا جرى، فكلّني آذان صاغية، - قال بطرس إيڤانيتش، ثم باشر الطعام بحيويّة.

هل تعرف الكونت نوڤينسكي؟ - سأل ألكسندر ثم صمت.

-الكونت أفلاطون؟

أجل.

- إنه صديقي، لماذا تسأل؟

- أهنئك على هذا الصديق - ياله من نذل!

- توقف بطرس إيڤانيتش عن المضغ فجأة ونظر الى ابن أخيه بدهشة.

- ياللمفاجأة! - قال هو، -وهل تعرفه؟

- جيّداً جداً.

- منذ زمن طويل؟

- منذ ثلاثة أشهر.

- أستغرب كيف تقول هذا عنه. أعرفه منذ خمس سنوات، وبقيتُ أعتبره خلال هذه السنوات كلها إنساناً شريفاً مستقيماً. كما أن الناس جميعاً يثنون عليه ويشكرونه، لذا فإني مندهش كثيراً لأسلوبك في الحديث عنه.

- هل صرت تدافع عن الناس منذ زمن طويل ياعمّاه؟ كنتَ سابقاً...

- سابقاً، كنتُ أدافع أيضاً عن الناس الشرفاء المخلصين. وأنت، منذ متى صرتَ تشتمهم وتكفّ عن تسميتهم ملائكة؟

- منذ أنْ عرفت الناس جيّداً... آهٍ من الناس، آه منهم! جنس تعيس جدير بالدموع والسخرية! أقرّ أمام الأشهاد بذنبي، لأني لم أُصغِ إليك عندما نَصحتني بأن أحذر كلّ...

- وأنصحك الآن أيضاً؛ الحذر لايضرّ ولايعيق: فإذا ظهر الشخص رذيلاً سافلاً، فإنك لاتكون قد خُدعت، وإذا اتضح أنه شريف مستقيم - فليس هنالك من ضير في أن يعترف المرء بخطأ توقعه.

- دلّني، أين يوجد الناس الشرفاء؟ - قال ألكسندر بازدراء.

- نحن على سبيل المثال: أنا وأنت، ألسنا شرفاء؟ والكونت أيضاً إنسان شريف، بصرف النظر عمّا تجد فيه من ثغرات. يوجد لدى جميع الناس بعض الجوانب السيئة... لكن، ليس كلّ مافيهم سيء، وليسوا جميعاً سيئين.

- كلهم أردياء، كلهم أردياء! - قال ألكسندر بحزم.

- وأنت؟

- أنا؟ أملك على الأقل قلباً محطماً، لكنه نظيف وخالٍ من السفالات والدناءات، ونفساً مرتكبة قلقة، لكنها بعيدة عن الكذب والتصنّع والخيانة، فلن أصاب بعدوى هذه المفاسد...

- حسناً، دعنا نتفحّص الأمور جيّداً. ماذا فعل الكونت؟

twitter @baghdad_library

- ماذا فعل؟ سَلَبني كلّ ماأملك .

- تَحدّثْ بطريقةٍ أكثر تحديداً. تحت كلمة كلّ يمكن إدراج أمورٍ لاحصر لها، كالنقود مثلاً: وأعتقد أنه لم يسلبك مالك . . .

- سلبني ماهو أغلى وأثمن من كنوز العالم كلّها بالنسبة لي، - قال ألكسندر .

- ماذا سلبك؟

- سلبني كل شيء -السعادة والحياة .

- لكنّك ماتزال حيّاً!

- أجل - ويالّلأسف! لكنّ هذه الحياة أسوأ من مائة ميتة .

- قل لي بصراحة . ماذا حدث؟

- شيء رهيب! -هتَفَ ألكسندر . - ياإلهي! ياإلهي!

- آه! لابدّ أنه قد سلب فاتنتك . . . ماسمها؟ لقد نسيت . أجل! إنه بارع في هذا المجال: إذ يصعب عليك أن تنافسه . إنه شابّ جذّاب! أجل، إنه شابّ جذّاب - قال بطرس إيڤانيتش، وهو يضع في فمه قطعةً من دجاجة روميّة .

- سيدفع غالياً ثمن براعته هذه! قال ألكسندر بتهيّج - لن أستسلم بلا صراع . . الموت وحده سيحدّد منْ منا سيفوز بنادينكا . سأبيد زير النساء السافل هذا! سأحرمه الحياة، ولن أدعه يستمتع بالكنز، الذي نَهَبه . . . سأكسحه عن وجه الأرض . . . !

ضحك بطرس إيڤانيتش .

-الريف! - قال هو، -أريد أن أسألك ياألكسندر عن أمرٍ محدّد، ونحن في صدد الحديث عن الكونت؛ هل ذكر أمامك، أنه قد استلم إرسالية من الخزف الصيني، من الخارج، لقد طلب بالمراسلة، منذ الربيع، مجموعة منها: أودّ أن ألقي نظرة عليها . . .

- الحديث لايدور عن الخزف الصيني ياعماه، بل هل سمعت ماقلت؟ - قاطع ألكسندر بتوعد.

- إمْ، إمْ - غمغم العم بإيجاب، وهو ينظر الى عظم يمسكه بيده.

- ماذا ستقول؟

- لاشيء. أنا أصغي إليك.

- اسمعني باهتمام ولو مرّة واحدة في الحياة: جئتُك لمناقشة قضية هامّة فأنا أريد أن أهدأ وأجد حلولاً لمليون سؤال وسؤال. كم أتعذب وأعاني بسببها... لقد ضعت... لا أعرف ماذا أفعل، ساعدني...

- تحت أمرك، قل لي فقط ماذا تريد منّي... أنا مستعد حتى لأن أعطيك نقودا... شريطة ألاّ تبددها على ترّهات.

- ترّهات! كلاّ، ليست ترّهات كيف يمكن أن تكون ترّهات، مادمتُ سأموتُ بعد بضع ساعات، أو أصبح قاتلاً... أمّا أنت، فتضحك وتتناول عشاءك ببرود.

-أرجو المعذرة! لقد انتهيت؛ كان عليك أن تتعشى أيضاً.

- لم أذق الطعام منذ يرمين.

- هل الأمر مهمٌّ حقاً الى هذا الحدّ؟

- قل لي كلمة واحدة: هل ستقدم لي خدمة عظيمة؟

- ماهي؟

- أتوافق على أن تكون شاهدي؟

- صارت الشرحات باردة تماماً! - لاحظ بطرس إيڤانيتش بشيء من الإنزعاج، وهو يبعد الصحن عنه.

- هل تسخر منّي ياعمّاه؟

twitter @baghdad_library

- احكم بنفسك، كيف يمكنني أن آخذ على محمل الجدّ كلاماً فارغاً كهذا: تدعوني لأكون شاهدك.

- ما رأيك؟

- لن أذهب طبعاً.

- حسناً، سأعثر على شخص آخر غريب يكون مستعداً لأن يشاركني مصيبتي. ما أطلبه منك فقط، هو أن تتحدث الى الكونت وتعرف شروطه.

- لا أستطيع: لساني لايطاوعني لأن أقترح عليه عرضاً سخيفاً، أحمق كهذا.

- وداعاً! - قال ألكسندر، وهو يأخذ قبعته.

- ماذا! أنت ذاهب؟ أما تريد أن نحتسي بعض النبيذ؟

- اتجه ألكسندر نحو الباب، لكنه مالبث أن جلس على كرسي والحزن يعتصر قلبه.

- إلى من أتوجّه، وعند مَنْ أجدُ العطف والمشاركة الوجدانية؟... قال هو بصوت خافت.

-اسمعْ ياألكسندر! -بدأ بطرس إيڤانيتش، وهو يمسح فمه بفوطةٍ ويُحرك كرسيه نحو ابن أخيه، -أرى أنّ الحديث معك، يجب أن يتخذ طابعاً جديّاً فعلاً. لنبدأ فوراً. أتيت إليَّ طلباً للمساعدة: سأساعدك، لكن فقط، بطريقةٍ أخرى مختلفة عمّا تفكر فيه أنت، شريطة ان تطيعني. لاتبحث عن شاهد: فلا جدوى من ذلك. تريد أن تصنع من الترّهات قصّة تتناقلها الألسن في كلّ مكان، وسيسخر الناس منك، أو يفعلون ماهو أسوأ، كأن يُلحقوا الأذى بك. لن يذهب أحد معك، وإذا عثرتَ في نهاية المطاف على شخص ما مجنون، فسيكون هذا كله عبثاً: فلن يوافق الكونت على مبارزتك، وأنا أعرفه حق المعرفة.

- لن يوافق! لاتوجد فيه ذرّة من النبل والكرامة إذن! - لاحظ ألكسندر بحنق، - لم أكن أعتقد أنه سافل إلى هذا الحدّ!

- ليس سافلاً، بل ذكياً.

-أنا غبيٌ إذن حسب رأيك؟

- كـ. . . لا، أنتَ عاشق، قال بطرس إيفانيتش، وهو يتوقّف بين الكلمات.

- إذا كنت عازماً ياعماه على أن توضح لي سخافة المبارزة، وعدم معقوليتها كرأي باطلٍ ولّى زمانه، فإنّي أحذّرك منذ الآن وأقول، إنّ محاولتك هذه لاطائل منها: سأظلّ ثابتاً متمسكاً بموقفي.

- كلا: لقد ثُبِتَ منذ زمن بعيد، أنّ المبارزة تعتبر بوجه عام، حماقة، ومع ذلك مايزال هناك أناس يتبارزون؛ وهل الحمير قلّة في هذا العالم؟ لن يرشدهم أحد. ما أريد أن أثبته فقط، أنه لاينبغي عليك، أنت بالذات، ان تتبارز مع أحد.

- إنه لأمر طريف أنْ أعرف كيف ستقنعني.

- اسمع. قل لي، ممّن أنت غاضب بوجه خاص، من الكونت، أم منها. . . نسيت اسمها. . . أنيوتا؟

- أكرهه وأحتقرها، -قال ألكسندر.

- لنبدأ من الكونت. لنفترض أنه سيقبل تحدّيك، حتى أنني سأفترض أيضاً، أنك ستجد شاهداً أحمق - ماذا سينتج عن هذا كله؟ سيقتلك الكونت كذبابة، وبعدها سيسخر الناس منك؛ ياله من انتقام جيّد! لكن، ليس هذا ماتريد: إذا كنتَ تودّ أن تبيد الكونت.

- ليس معلوماً مَنْ منا سيقتل الآخر، - قال ألكسندر.

twitter @baghdad_library

- هو الذي سيقتلك على الأرجح . أنتَ لاتجيد إطلاق النار بتاتاً، وحسب القواعد المتْبعة، سيكون الطلق الناري الأول من نصيبه هو .

- النتيجة هنا ستقرّرها المحكمة الإلهية .

- هذه رغبتك - لكنها ستُقرر لمصلحته هو . يقال، إنّ الكونت يستطيع من مسافة خمس عشرة خطوة أن يزرع الطلقة فوق الأخرى، فهل سيخطئك عندما سيُصوب إليك قصدا! حتى أنني سأفترض أيضاً، أنّ المحكمة الإلهية ستتغاضى عن العدالة وتجعله يخطئك ولنفترض أنك بطريقة ما، قد قتلته عفواً - ماذا ستستفيد؟ هل ستعيد بهذا حبّ فاتنتك؟ كلا، ستكرهك أكثر، زد على ذلك، أنك ستساق الى الخدمة العسكرية، أما الأهم من هذا وذاك، فهو أنك في اليوم التالي ستمزّق شعرك من اليأس وستشعر بالبرود فوراً إزاء محبوبتك .

هزّ ألكسندر كتفيه بازدراء .

- إنك تتحدّث ببراعة عن هذا الموضوع ياعماه، - لاحظ ألكسندر، - قل لي : ما الذي ينبغي عليّ أن أفعله وأنا في مثل هذا الوضع؟

- لاشيء! دع المسألة هكذا : لا أمل في تسويتها .

- أترك سعادتي بين يديه، أتركها بين يديّ مالك متغطرس . . . آه! هل يمكن ان يوقفني أيّ خطر كان؟ أنت لاتعرف كم أعاني من عذابٍ وألم! أنت لم تذق طعم الحبّ أبداً، وهذا ما يجعلك تناقش المسألة ببرود . . . في عروقك يسيل حليب، وليس دم . . .

- كفى هذراً ياألكسندر! وهل مثيلات فاتنتك- ماريا أو صوفيا نسيتُ الاسم، قلة في هذا العالم!

- اسمها ناديجدا .

- ناديجدا؟ من هي صوفيا إذن؟

- صوفيا . . . التي في القرية، - قال ألكسندر بلا رغبة .

- أرأيت؟ - تابع العم، - هناك صوفيا، وهنا ناديجدا، وفي مكان آخر ماريا. قلبك بئر عميقة جداً، يصعب الوصول إلى قاعها، سيظلّ يحب حتى الشيخوخة.

- كلاّ، القلب يحبّ مرة واحدة.

- وأنت تكرّر أيضاً ماسمعته من الآخرين! سيظلّ القلب يحب طالما لم يستنفذ قواه بعد، إنه يعيش حياته، مثلما يعيش كلّ عضو في الإنسان، فهو يجتاز فترة الشباب والشيخوخة. فإذا لم ينجح حبٌّ ما، فإنّ القلب يهدأ أو يصمت فقط إلى أن يأتي حبٌّ آخر؛ وإذا ما أعيق الحبّ الآخر وانتهى الى فراق- فإنّ القدرة على الحب من جديد، ستبقى كامنة لاتستنفذ حتى يأتي حبٌّ ثالث أو رابع، أي الى ان يحين الظرف، الذي يتوفر فيه نسج علاقة حبٍّ سعيد متبادل بين طرفين، فيبدأ هذا الحب يشتد ويشتد، ثم يضعف بعد ذلك تدريجياً ببطء الى أن يفتر ويصبح بارداً. يُصادف أيضاً أن ينجح حبّ بعض الناس من المرّة الأولى، لذا تراهم يصيحون، أن الحبّ يحدث مرة واحدة فقط. مادام الإنسان سليماً معافى، لم يبلغ سنّ الشيخوخة بعد، فإنه. . .

- أراك ياعماه تتحدّث طوال الوقت عن فترة الشباب فقط، وبالتالي يظلّ حديثك مقتصراً على الحبّ الماديّ.

- أتحدّث عن فترة الشباب، لأنّ حبّ الشيخوخة خطأ وبشاعة. عن أي حبّ ماديّ تتحدث؟ لاوجود لحبٍّ كهذا، أو بالأحرى، ليس هذا حبّاً، فهو غير موجود، مثلما هو غير موجود أيضاً الحبّ المثالي. في الحبّ، تكون مساهمة الروح والجسد متساوية، وإذا لم يتحقق هذا الأمر، يكون الحبّ غير مكتمل: فنحن لسنا أرواحاً ولا وحوشاً. ها أنت تقول لي: «في عروقك يسيل حليب، وليس دم». تعالَ ندقّق في الأمر! وجود الدم في العروق يعتبر، من ناحية مادياً، بينما نلاحظ من ناحية أخرى، أنّ الكرامة والتعود هما من الجوانب الروحية؛ هذا هو الحب! أين توقّفت. . . آه، تذكرت! وبعد أنْ تُساق الى الخدمة العسكرية، لن يُسمح

twitter @baghdad_library

لفاتنتك بأنْ تراك إطلاقاً، حتى ولو أرادت ذلك. وهكذا تكون قد ألحقت الضرر بها وبنفسك، دون نتيجة. - أرأيت كيف ستكون عاقبة الأمور! آمل أنْ نكون قد أشبعنا نهائياً هذه المسألة تمحيصاً وتحليلاً. والآن. . . صبّ بطرس إيڤانيتش لنفسه شيئاً من النبيذ، ثمّ رشفه.

- ياله من أبله!، - قال هو، - لقد جلب لي نبيذاً بارداً.

كان ألكسندر صامتاً مطأطأ الرأس.

- قل لي الآن، - تابع العم وهو يدفىء كأس النبيذ بيديه، - لماذا كنت تريد أن تمحو الكونت من على وجه الأرض؟

- سبق أن قلتُ لك لماذا! أليس هو الذي حطّم سعادتي؟ لقد اقتحم كالوحش الضاري. . .

-حظيرة الغنم! -قال العم مقاطعاً.

- نهب كل شيء، - تابع ألكسندر.

- لم ينهب، بل جاء وأخذ. هل كان ملزماً ان يستعلم إن كانت فاتنتك مرتبطة أم لا؟ أنا لاَ أفهم هذه الحماقة، التي يرتكبها القسم الأعظم من العشّاق، منذ تكوين العالم وحتى الآن: أقصد، الغضب من الغريم! هل يمكن أن تكون هناك حماقة أكبر من تكرار عبارة -سأمحوه من على وجه الأرض! لماذا؟ لأنه أعجبها! كأنه هو المذنب، أو كأن الأمور ستتحسّن إذا عاقبناه! وفاتنتك. . . ما اسمها؟ كاتينكا، على ما أعتقد، هل رَفَضته؟ هل بذلت أيّ جهد يذكر من أجل ان تتفادى الخطر؟ لقد استسلمت له طواعية وكفّت عن حبّك فما الأمر الذي يمكن أن نناقشه هنا- لا أمل في إعادتها! أما الإصرار فيعتبر أنانية! أن يطالب الرجل زوجته بالإخلاص، له بعض التبرير: فهناك التزام وارتباط غالباً مايتوقف عليهما هناء الأسرة وسعادتها، ومع ذلك لايجوز ان نطالب الزوجة بألا تحبّ أبداً. . . بل يمكن أن نطالبها فقط بـ. . . وماذا لو كنت مكان الكونت، هل كنت ستتخلّى عنها؟ هل ناقشت هذا الأمر؟

- أودّ أن أناقشه، - قال ألكسندر وهو يقفز من مكانه، - لكنك سرعان ما ستضع حداً لعواطفي النبيلة . . .

- تريد أن تناقش والعصا في يدك! -قال العم مقاطعاً. - لسنا في الصحراء القرغيزية. في العالم المتحضّر، توجد وسيلة أخرى للنقاش. كان ينبغي عليك ان تعتمدها في الوقت المناسب، وأن تدخل مع الكونت في مبارزةٍ من نوع آخر، على مرأى من فاتنتك .

نظر ألكسندر الى عمه بارتباك.

- ماهذه المبارزة؟ - سأل هو .

- سأقول لك الآن، كيف كنتَ تتصرّف حتى الآن؟

سَرَدَ ألكسندر سير الأمور بكثير من التعديلات والحيل والمراوغات والتصعيرات.

- أنت مخطىء تماماً فيما فعلت، - قال بطرس إيڤانيتش، بعد أن استمع إليه وهو مقطّب الحاجبين، كم ارتبكت من حماقات! آه ياألكسندر، تبّاً للشيطان، الذي جاء بك الى هنا! هل كان ينبغي أن تقطع المسافات كي تتصرّف هكذا! كنتَ تستطيع ان تفعل هذا كله مع خالتك، هناك في قريتك، عند البحيرة. كيف يمكن أن تتصرّف بمثل هذه الطريقة الصبيانية وتتحامق. . . ويجنّ جنونك؟ تبّاً لك! من يتصرّف هكذا الآن؟ ماذا لو بادرت فاتنتك. . . ما اسمها؟ آه، يوليا. . . ماذا لو بادرت وحدثت الكونت عن كلّ مادار بينك وبينها؟ لكن، لايوجد هناك شيء يبعث على الخوف والحمد لله! إنها جدّ ذكيّة عندما قالت ردّاً على سؤاله عن علاقتكما. . .

- ماذا قالت؟ -سأل الكسندر بسرعة.

- قالت، إنها كانت تسخر منك، وإنّك كنتَ مغرماً مولهاً بها، وإنها قد ضاقت بك ذرعاً، وسئمت منك. . .

twitter @baghdad_library

- هل تعتقد أنها . . . قالت هكذا؟ - سأل ألكسندر وقد أصبح شاحباً .

- بلا أدنى شك . هل كنتَ تتخيّل أنها ستقصّ على مسامعه كيف كنتَ تقطف لها الأزهار الصفراء؟ ياللسذاجة!

- عن أية مبارزة مع الكونت كنتَ تتحدّث؟ - سأل ألكسندر بلهفة .

- عن هذه : ماكان ينبغي أن تكون فظّاً معه ، وماكان جائزاً ان تتحاشاه وتصعّر له خدك ، بل كان ينبغي على العكس من ذلك كله ، ان تردّ على المجاملة واللطافة بأحسن منهما بمرتين وثلاث ، بل وبعشر مرات ، أما فيما يتعلّق بـ . . . ماسمها نادينكا؟ لقد حزرت كما يبدو ، أليس كذلك؟ لم يكن ينبغي أن تثيرها باللوم والتأنيب ، وكان من الجدير بك ان تعاملها بتسامح وتتظاهر بأنك لاتلاحظ شيئاً حتى أنّ افتراض الخيانة ، كان ينبغي ان يكون ضرباً من المستحيل بالنسبة لك . ماكان جائزاً ان تتيح لهما فرصة التقارب والتلاقي في غيابك ولو لفترة قصيرة ، بل كان ينبغي ان ترتّب اللقاءات عن سابق تصميم ، بطريقةٍ تبدو وكأنها عفوية ، فتتواجد معها في كلّ مكان ، حتى أثناء ركوب الخيل ، وتثير في عيني غريمك بصمت ، إشارة التحدي ، وهنا كان لزاماً عليك أن تستخدم إمكاناتك الذهنية كلها لتأسيس مخزونٍ هائلٍ من الذكاء والدهاء وحسن التصرف . . . وأن تكشف عن نقاط ضعف غريمك بطريقة تبدو وكأنها عفوية ، غير مقصودة ، فتبدي لطفك ودماثتك وحتى أسفك وتسامحك لما قد يبدر من هفوات ، وتبدأ بتجريده شيئاً فشيئاً من الزينة ، التي يتباهى بها الشبان عادة أمام فاتناتهم . كان ينبغي عليك أن تلحظ وتحدّد فيه الجوانب ، التي كانت تبهرها ، وعندها تبدأ ببراعة بشن هجوم على تلك الجوانب ، فتعلّق عليها ببساطة وتضعها في إطار طبيعي اعتيادي ، وتكشف لها أنّ البطل الجديد . . . عاديّ . . . وأنّ الزينة ، التي يستخدمها والبهرج ، الذي يتزين به ، هما متكلفين وغير حقيقيين ، إذ يقصد منهما الإبهار لا أكثر . . . لكن ، ينبغي ان تفعل هذا كله ببرود أعصاب وأناةٍ ودرايةٍ وبراعة - تلك هي المبارزة الحقيقية في عصرنا! فأين أنتَ من هذا كلّه!

في غضون ذلك، كان بطرس إيفانيتش قد فرغ من تناول كأسه، فملأه من جديد بالنبيذ فوراً.

-يالها من حيلٍ حقيرة! كيف أقبل أن أستخدم الدهاء والمكر من أجل امتلاك قلب امرأة!... - لاحظ ألكسندر باستياء.

- وهل استخدام العصا أفضل؟ الدّهاء يضمن للمرء شيئاً من الجاذبية، لكنّ القوّة لاتجلب إلاّ النفور. الرغبة في إبعاد الخصم أمر مفهوم بالنسبة لي: فالجهد المبذول للاحتفاظ بالحبيبة وإبعاد الخطر عنها، أمر طبيعي جداً؛ لكن، أن نقتل الخصم لمجرّد انه استطاع ان يوقعها في حبّه، فهذا مايشبه بالضبط تصرّف الأطفال، الذين يضربون المكان، الذي اصطدموا به. يبقى الرأي رأيك، لكنّ الكونت ليس مذنباً إطلاقاً! أنت، كما أرى، لاتفقه شيئاً في أسرار القلب وخفاياه، الأمر الذي يجعل أمورك الغرامية وقصصك سيئة هكذا.

- أموري الغرامية! - قال ألكسندر، وهو يهز رأسه باستخفاف. - وهل يمكن أن يكون الحبّ، المستوحى من المكر والدّهاء، مُرضياً ووطيداً؟

- لاأعرف إنْ كان مُرضياً أم لا، وهذا مايتعلق برغبة كلّ شخص على حده، والأمر سيّان عندي: إذ ليست لديّ بوجهٍ عام، فكرة سامية عن الحبّ - وهذا ماتعرفه أنت. لكن، أن يكون وطيداً - فهذا صحيح. هناك مسألة أودّ ايضاحها، هي أنه لايجوز للمرء ان يتعامل مع القلب بخطّ مستقيم وبصورةٍ مباشرة، فهو أداة دقيقة حسّاسة: والله وحده يعلم أيّ معزوفة ستصدر عنه، إذا لم يعرف المرء أيّ وترٍ يلامس. صحيحٌ أنّ الإنسان حرٌّ في إثارة لواعج الحب بالوسائل الممكنة المتاحة، لكن يبقى هناك أمرٌ لابد منه، هو تدعيم هذا الحبّ بالعقل، لكنّ الدّهاء يعتبر أحد جوانب العقل، ولا مكان هنا للإزدراء إطلاقاً. لايجوز توجيه الإهانة للخصم أو استخدام الوشاية والإفتراء في ساحة التنافس معه: لأن هذا الأمر يرتدّ على الذات الفاعلة ويثير حنق الحسناوات ضدّها، ينبغي فقط ان ننفض عنه البريق، الذي يعمي عينيّ محبوبتك، ونجعله أمامها إنساناً بسيطاً عادياً، لابطلاً... أعتقد

twitter @baghdad_library

أنه لأمر مشروع ان يدافع المرء عن سعادته بشيء من الدهاء النبيل الأصيل، وهذا مالايمكن إغفاله على الصعيد العسكري أيضاً. كنت تريد أن تتزوّج: كم كنتَ ستعاني كزوج، لو أنّك تصرّفت بهذه الطريقة مع زوجتك وبتلويح العصا للمنافسين - إذ أنك كنتَ ستصبح عندئذ. . .

أشار بطرس إيڤانيتش الى جبينه بيده.

- اتضح الآن، أنّ فاتنتك ڤارينكا، كانت أذكى منك بنسبة عشرين بالمائة على الأقل، عندما اقترحت عليك انتظار عام كامل.

-لكن، هل كنتُ أستطيع أن أراوغ وأحتال، حتى لو كنتُ أعرف ذلك كله؟ كي يُراوغ المرء ويمارس الدّهاء، ينبغي ألاّ يحبّ كما أحببت. يتظاهر البعض أحياناً أنهم باردون غير مكترثين، ويتغيّبون عن الحضور بضعة أيام، وفق مخطّط مدروس - ويحصلون على التأثير المطلوب. . . لكن أنا! كيف يمكنني أن أتظاهر وأحسب الأمور، إذا كانت ركبتاي ترتجفان وتنثنيان تحتي، وقلبي يضرب بمجرد أن انظر إليها، وإذا كنتُ مستعداً لأن أتحمل عذابات العالم كلها من أجل ان أراها. . . كلاّ، لن تتغير قناعتي مهما قلت، فغاية السرور عندي - أن أحبّ بكل قواي الروحيّة، على الرغم مما قد أعاني من عذاب، فهذا أفضل عندي من أنْ أكون محبوباً دون أنْ أحبّ، وأفضل أيضاً من أنْ أكون محبوباً وأنا أحبّ نصف حبّ للتسلية، لا أكثر، وفق الأسلوب الكريه المقيت، الذي يجيز العبث بالنساء واللعب عليهنّ، كما يعبث المرء بكلبٍ ربّاه، ثم يطرده بعد ذلك. . .

هزّ بطرس إيڤانيتش كتفيه.

- تعذَّب إذن، مادمتَ تتلذّذ بحلاوة العذاب! - قال هو. - آهٍ، أيها الريف! آهٍ ياآسيا! كان ينبغي عليك ان تعيش في الشرق: فمازالت النساء هناك يؤمرن بالحب أمراً، وإذا رفضن، يُضربْن بالأقدام. كلا، الأمر مختلف هنا، -تابع بطرس إيڤانيتش وكأنه يناجي نفسه، - من أجل أن يكون الرجل سعيداً مع المرأة، أي ليس على طريقتك كما يفعل المجانين، بل العقلاء، - ينبغي أن تتوفر شروط كثيرة، كما

يتوجّب أيضاً ان يخلق المرء من الفتاة امرأة، وفق مخطط مدروس ومنهج محدّد، كي تُدرك وتنفذّ مهمتها. يجب أن تُرسم المرأة ضمن دائرة سحرية غير ضيّقة كثيراً. كي لاتلاحظ الحدود وتتجاوزها كما ينبغي ان تمتلك بدهاء ليس قلبها فقط - فهذا وحده لايكفي! فقلبها يعتبر ملكية زلقة وغير ثابتة، بل عقلها وإرادتها أيضاً، كما يجب إخضاع ذوقها وطبعها لذوق الرجل وطبعه، كي تنظر الى الأشياء من خلال نظرته وتفكر بعقله...

- أي أن نجعلها دمية أو عبدة خرساء لزوجها - قال ألكسندر مقاطعاً.

- لماذا؟ نَظِّم الأمور بطريقة لاتبدل فيها طبعها الأنثوي ولاتنال من كرامتها. امنحها حرية التصرّف في مجالها، لكنّ عقلك الذكيّ الفطن يجب أن يراقب كلّ خطوة تخطوها وزفرة تُطلقها وتصرّف تقوم به، كي تبقى عين زوجها غير المبالية، لكن، اليقظة، دائماً وأبداً بالمرصاد لكلّ اضطراب سريع مفاجىء، وانفعال وجداني تُحس بهما، ولكلّ بداية عاطفية تعيشها. أقم رقابةً دائمة دون أيّ ظلم أو استبداد، على أن يتمّ هذا كلّه ببراعة وبصورة غير ملحوظة من قبلها وقدْها على الطريق المرغوبة... آه، تستطيع أن تُنجز هذا كله فقط، مدرسة حكيمة صعبة- أعني مدرسة الرجل الذكيّ المجرّب، -ذلك هو لبّ المسألة!.

سعل بصورة معبّرة، ثم رشف الكأس دفعة واحدة.

- عندئذ، -تابع هو، يستطيع الزوج أن ينام بهدوء عندما لاتكون الزوجة بجانبه. أو يجلس باطمئنان في مكتبه عندما تكون نائمة.

- ذلك هو سرّ السعادة الزوجية الشهير! لاحظ ألكسندر، -وهل تقييد عقل المرأة وقلبها وسلبها الإرادة بالخداع والتضليل يعتبر مدعاة للتفاخر وتعليلاً للنفس... هل هذه هي السعادة! كيف ستلاحظ هذا كله؟

- علام التفاخر؟ غمغم العم، - هذا ليس ضروريّا!

twitter @baghdad_library

- لهذا السبب بالذات، - تابع ألكسندر، - أراك جالساً في مكتبك باطمئنان عندما تكون زوجة عمي نائمة، هذا يعني أنك رجل . . .

- هس! هس! . . . اسكتْ، - قال العم وهو يُلوح بيده، زوجتي نائمة لحسن الحظّ، وإلاّ . . . لكانت . . .

- في هذه الآونة، بدأ باب المكتب يفتح، لكن، لم يظهر أحد.

-أما الزوجة، فينبغي عليها، - بدأ صوت أنثوي يتكلم من الممشى، - ألاّ تُظهر أنها فهمت مدرسة زوجها العظيمة، وأنْ تكتم ذلك، لكنّ الثرثرة حول هذا الموضوع غير جائزة بعد زجاجة من النبيذ . . .

اندفع أدوييف العم وابن الأخ صوب الباب لكن كانت تُسمع في الممشى خطوات سريعة وحفيف روب، - ثم سكن كل شيء.

نظر كلّ منها الى الآخر.

- ماذا ياعمّاه؟ -سأل ابن الأخ، ثم صمت.

- ماذا! لاشيء! - قال بطرس إيفانيتش وهو مقطّب الحاجبين. - لم يكن تبجحي في محلّه. اعلم ياألكسندر، أنه خير لك ألا تتزوج أبداً، أو أن تتزوج امرأة غبية، لأنك لن تقدر على الزوجة الذكيّة: يالها من مدرسة حكيمة؟

استغرق في التفكير، ثم ضرب جبينه بيده.

- كيف لم أتصور أنها لابّد أن تكون قد علمت بمجيئك المتأخر؟ - قال هو بأسى، - وأن المرأة لاتنام طالما يوجد في الغرفة المجاورة سر بين رجلين، وأنها سترسل وصيفتها، أو تأتي بنفسها لاستقصاء الأمر . . . كيف لم أتوقع هذا! يالها من حماقة! كلّ هذا بسببك ومن كأس النبيذ اللعين هذا! لقد طشت تماماً! آخر ماكنتُ أتخيله، هو أن تُلقنني امرأة في العشرينات درساً كهذا . . .

- أنتَ خائف ياعماه!

- ماذا أخشى؟ مطلقاً! ارتكبتُ خطأ - لم يكن ينبغي أن أفقد ضبط النفس، يجب أن أعرف كيف أتخلص من هذا.

استغرق في التفكير من جديد.

- لقد تفاخرت، - بدأ هو بعد ذلك، - يالها من مدرسة! لكن، لايمكن أن تكون لديها مدرسة: فهي ماتزال فتيّة! قالت هذا فقط... من شدّة الأسى! لكنها لاحظت الآن هذه الدائرة السحرية، وستمكر أيضاً... آه، إني أعرف الطبيعة الأنثوية لكن سنرى...

ابتسم بتشامخ وسرور، وانبسطت التجاعيد على جبينه.

- لكن ينبغي فقط، تدبير الأمر بطريقة أخرى، - أضاف هو، فالأسلوب السابق لايصلح لشيء، ينبغي الآن...

تذكر فجأة وصمت، ثمّ تطلع الى الباب بخوف.

- ليس هذا موضوع حديثنا في اللحظة الراهنة، -تابع هو، - لنهتم الآن بقضيتك ياألكسندر، عن أي شيء كنا نتحدث؟ أجل، ألم تكن تريد قتل فاتنتك... ماسمها؟

- أحتقرها كثيراً، - قال ألكسندر وهو يتنهد بصعوبة.

- ها قد شفيت من نصف مرضك. أليس هذا صحيحاً؟ يبدو أنك ماتزال غاضبا. بالمناسبة ينبغي أن تزدريها، ينبغي أن تزدريها: هذا أفضل ماتفعله في مثل وضعك هذا. كنت أريد ان أقول شيئاً ما... لكنني لن أفعل...

- آه، تكلم بالله عليك، تكلّم! - قال ألكسندر لايوجد لديّ الآن مجال للتفكير، أتعذب، أهلك... أعطني عقلك البارد. قل لي كل مامن شأنه أن يريح ويُطمئن قلبي المعذّب... -أخشى أن تعود الى هناك، إذا ماقلت...

- وهل يُعقل هذا! كيف يمكن ذلك بعد كلّ ما...

twitter @baghdad_library

- بعض الناس يعودون ، حتى بعد حدوث ماهو أسوأ! أتعطيني كلمة شرف بأنك لن تعود؟

- أقسم إن شئت .

- كلا ، أريد أن تعطيني كلمة شرف : هذا أكثر ضمانة .

- بشرفي لن أعود .

- حسناً : قرّرنا أن الكونت ليس مذنباً . . .

- لنفترضْ ذلك ؛ ماذا تريد أن تقول؟

- ماذنب فاتنتك تلك . . . ما اسمها؟

- ماذنب نادينكا! - اعترض ألكسندر باستغراب ، - ليستْ مذنبة!

- كلاّ! قل لي : ماذنبها؟ ليس هناك سبب يدعو لاحتقارها . -

- ليس هناك سبب! لا ياعماه ، هذا لايُحتمل! لنفترض ، أنّ لدى الكونت . . . بعض العذر . . . علماً أنني لستُ مقتنعاً بذلك تماماً! لكن هي؟ من هو المذنب إذن؟ أنا؟

- أجل تقريباً ، لكنّ الحقيقة هي أن الذنب لايقع على أحد . قل لي ، ماسبب ازدرائك لها؟

- لسلوكها المنحطّ السافل .

- فيمَ يتجسّد؟

- في نكرانها للجميل وردّها على العاطفة السامية ، التي لاحدود لها بالجحود . . .

- على أيّ شيء تشكرك؟ هل أحببتها إرضاء لها؟ إذا كان الأمر كذلك ، فقد كان حرياً بك ان تحبّ أمك .

نظر ألكسندر إليه ولم يعرف ماذا يقول.

- ماكان ينبغي أن تكشف أمامها عن مشاعرك بمثل هذه القوّة: فالمرأة تحس بالبرود عندما يفصح الرجل عن أحاسيسه كلها... كان لزاماً عليك أن تعرف طبعها وتتصرف تبعاً لذلك، لا أن تتمدّد عند قدميها كالكلب. كيف يمكن ان يتعامل المرء مع شريكٍ لايعرفه؟ كان عليك ان تتبيّن عندئذ، أنه لايمكن توقع شيء أكثر منها. لقد لعبت قصتها حتى النهاية معك، مثلما ستلعبها مع الكونت أيضاً، ولربما مع شخص آخر أيضاً... يستحيل أن نطلب منها أكثر من ذلك: فهي لاتستطيع ان تذهب أبعد وأسمى من هذا! إنها ليست من تلك الطينة: أما أنت، فالله وحده يعلم إلى أين ذهبت مخيلتك...

- لكن، لماذا أحبّت شخصاً آخر؟ -قاطع ألكسندر بمرارة.

- سنحاول أن نتبيّن أين ينحصر الذنب هنا: ياله من سؤال ذكي! آه منك أيها الهمجي! لماذا أحببتها؟ هيّا، اقلع عن حبّها بسرعة!

- وهل هذا يتعلّق بي؟

- وهل كان الأمر يتعلق بها عندما أحبت الكونت؟ كنت نفسك تؤكد، أنه لايجوز قسر المشاعر، لكن؛ ما إن مَسّكَ الأمر، حتى أنكرت عليها حبها لآخر! صرت تقول، لماذا سمحت لنفسها أن تحب غيري! لماذا مات ذاك الشخص، ولماذا فقدت عقلها تلك المرأة؟ هل يمكن أن نجيب عن أسئلة كهذه؟ لابد أن ينتهي الحبّ في وقت ما: إذ لايمكن ان يستمر أبد الدهر.

- كلا، يمكن أن يستمر. أحس في أعماقي بقوة القلب هذه: فأنا أستطيع ان أعيش حبّاً أبدياً...

-كفاك انفعالاً! أعرف لغة العشاق هذه! تريد أن تؤطّرها بحبك فقط!

- حسناً، لينته حبّها؛ - قال ألكسندر، - لكن، لماذا انتهى هكذا؟...

- أليس الأمر سيّان؟ أحبّتك فاستمتعت - وكفى!

twitter @baghdad_library

- استسلمت لآخر! - قال ألكسندر وقد امتقع لونه.

هل كنت تريدها أن تحبّ شخصاً آخر بصمت، في الوقت الذي تؤكد لك فيه باستمرار أنها ماتزال تحبك؟ احكم بنفسك: ماذا كنت تستطيع ان تفعل؟

- آه، سأنتقم منها! - قال ألكسندر.

- أنت ناكر للجميل، - تابع بطرس إيڤانيتش، - هذا تصرف سيّء! مهما تصرفت المرأة، ومهما فعلت معك، سواء أخانتك، أم بردت عاطفتها نحوك، أم تصرفت بمكر وغدر إزاءك، - كما تقول القصائد، - فلا يجوز مطلقاً أن تفقد أعصابك؛ يمكنك أن تلوم الطبيعة والقدر وتتفلسف بهذه المناسبة، وتشتم العالم والحياة وتفعل ماتشاء، لكن حذار أن تعتدي على امرأة، إن بالكلمة أو بالفعل. سلاح مواجهة المرأة - التسامح، أما أمضى وأقسى الأسلحة ضدها، فهو النسيان! هذا مايسمح به فقط لنفسه، الإنسان المستقيم. تذكر أنك بقيت عاماً ونصف ترتمي على أعناق الآخرين من شدة الفرح، دون ان تدري ماذا تفعل بسعادتك؛ لقد عشت عاماً ونصف في غمرة النشوة الدائمة! يالك من جاحد ناكرٍ للجميل!

- آه ياعماه، بالنسبة لي، لم يكن هناك شيء في هذا العالم أكثر قدسية من الحبّ: الحياة دونه ليست حياة...

- ها! - قاطع بطرس إيڤانيتش بأسى، - يشعر المرء بالغثيان وهو يسمع كلاماً فارغاً كهذا!

- كنتُ سأعبد نادينكا، - تابع ألكسندر، - وماكنت لأحسد أحداً في العالم على سعادته؛ كنتُ أحلم بأن أمضي حياتي كلها معها - لكن، أين أنا من هذا كله؟ أين هذا الشوق الرائع المتوقد، الذي كنت أحلم به؟ لقد تبخر وانتهى الى كوميديا قزمة غبيّة من الآهات و المشاهد المضحكة المحزنة، انتهى الى الغيرة والكذب والتكلف والبشاعة، - ياإلهي، ياإلهي!

- لماذا كنت تتخيل مالايحدث عادة؟ ألم أؤكد لك، أنك كنت تنشد حتى الآن، حياة غير موجودة؟ وخلق الإنسان، من وجهة نظرك، ليكون فقط، حبيبياً أو زوجاً أو أبا. . . لكنك، لاتريد أن تعرف شيئاً عن الجوانب الأخرى الهامة في حياته ،الإنسان أيضاً مواطن له لقب وعمل - فإمّا ان يكون كاتباً أو إقطاعياً أو عسكرياً أو موظفاً أو صاحب مصنع . . . لكنّ الحب والصداقة يحجبان هذا كله عن ناظريك . . . هل يعقل هذا! لقد حشوت رأسك بقصص الحب وحكايات خالتك في ذلك الإقليم النائي، وأتيت الى هنا وأنت تحمل هذه المفاهيم معك . ابتكرت أيضاً - الشوق الأصيل النبيل!

- أجل، إنه أصيل نبيل!

- كفى من فضلك! وهل توجد أشواق أصيلة نبيلة!

- كيف؟

- هكذا. الشوق معناه، أن يصل الإحساس والميل والتعلق وأي شيء آخر من هذا القبيل، الى درجة من القوة يتوقف فيها العقل عن العمل، أليس كذلك؟ ماهو الجانب الأصيل النبيل هنا؟ لا أفهم؛ لايوجد هنا إلا الجنون فقط - هذا ليس إنسانياً. لماذا تأخذ فقط وجهاً واحداً للميدالية؟ لنتكلّم عن الحب - خذ الوجه الآخر وستدرك، أن الحب ليس شيئاً سيّئاً. خذ اللحظات السعيدة: أتتذكر كيف كنت تقرع أذني . . .

- آه لاتُذكّرني، لاتُذكّرني! - قال ألكسندر وهو يلوح بيده، - سهلٌ عليك أن تناقش الأمر هكذا، لأنك تثق في المرأة، التي تحب؛ كنتُ أودّ أن أرى، ما الذي كنت ستفعله لو أنت مكاني؟

- ماذا كنتُ سأفعل؟ . . . كنتُ سأذهب الى المصنع . . . وأتسلى، أما تريد أن تذهب معي غداً؟

twitter @baghdad_library

-كلا، لن نتّفق أبداً، - نطق ألكسندر بأسى، - وجهة نظرك عن الحياة لاتبعث فيّ الطمأنينة. بل تثير في نفسي النفور. أنا كئيب حزين، البرد يغلف روحي. حتى الآن، كان الحب هو المنقذ الوحيد لي من هذا البرد؛ ما إنْ توقّف، حتى صرتُ أشعر الآن بالغمّ والكآبة يستوليان على قلبي؛ أشعر بالخوف والضجر.

- زاول عملاً.

- هذا كله صحيح ياعماه: أنت وأمثالك تستطيعون ان تناقشو الأمور هكذا: أنتَ إنسان بارد بطبيعتك... روحك عاجزة عن التهيج والإضطراب...

- هل تتصـوّر أنك ذو روح جبّارة؟ بالأمس، كنت في السماء السابعة من شدّة الفرح، لكن ما إن صُدمْت قليلاً... حتى عجزت عن مواجهة المشكلة.

- بخار، بخار! - قال ألكسندر بصوت ضعيف، وهو يحاول أن يدافع عن نفسه بصعوبة، - أنت تفكر وتحسّ وتتكلم كالقاطرة، التي تسير على سكّتها بانتظام وانسياب وهدوء. - آمل ألا يكون هذا سيّئاً: هذا أفضل من الخروج عن السكة ومن التهور والإنفجار، كما تفعل أنت الآن، دون أن تعرف كيف تقف على ساقيك، بخار! بخار! ، أجل البخار كما ترى، يُشرّف الإنسان. في هذا الإختراع، تكمن البداية، التي جعلتنا بشراً، أما الموت من المصيبة، فيستطيع أن يفعله الحيوان. توجد أمثلة تؤكد ان الكلاب كانوا يموتون على قبور الأسياد، أو يختنقون من شدة الفرح بعد طول فراق. أين المأثرة هنا؟ أما أنت فكنت تعتقد، أنك كائن خاص تنتمي الى صنف سامٍ من البشر، وأنك لست انساناً عادياً.

نظر بطرس إيڤانيتش الى ابن أخيه، ثم توقّف فجأة.

- ماهذا؟ تبكي؟ - سأل هو، واكفهر وجهه، أي احمرّ.

التزم ألكسندر الصمت. فقد صرعته الحجج الأخيرة. لم يستطع ان يعترض، لكنه كان واقعاً تحت تأثير الشعور المسيطر في أعماقه. تذكر السعادة الضائعة، وحالته الراهنة المختلفة. طفرت الدموع من عينيه وسالت على خده.

- آه! آه! اخجلْ! - قال بطرس إيڤانيتش، - وتقول إنك رجل! ابْكِ، بالله عليك ابْك، لكن، ليس أمامي!

- تَذَكّر سنوات الصّبا ياعمّاه، - قال ألكسندر وهو ينشج، هل كنت تستطيع أن تتحمّل وتُواجه بهدوء وعدم اكتراث، أمرّ أقسى إهانة يمكن ان يلحقها القدر بإنسان؟ ما أصعب حالة الفراغ والضياع، التي ألفيت نفسي فيها فجأة بعد عام ونصف من الحياة المليئة بالهناء والسعادة. . . بعد الإخلاص والوفاء، وجدتُ نفسي أواجه المكر والتكتم والبرود والخداع! ياإلهي، هل يوجد عذابٌ أمرّ وأقسى من هذا؟ من السهل ان يقول المرء عن شخص آخر، إنه تعرّض للخيانة، لكنْ، أن يعاني المرء الحالة ذاتها، فهذا عذاب مابعده عذاب! . . . كم تَغيرتْ! كم صارت تتأنق إرضاء للكونت! كنتُ أصل أحياناً، فأجدها شاحبة لاتقدر على الكلام إلاّ بصعوبة. . . تكذب. . . آه، كلاّ. . . هنا، انبجست الدموع بغزارة أشدّ وأقوى.

- لو بقي لديّ العزاء، - تابع هو، - كأن أكون قد فَقَدتُها بسبب ظروف قاهرة، أو قسر اضطراري لامفرّ منه. . . أو حتى بسبب موتها - لكان أسهل عليّ عندئذ أن أواجه وأتحمل. . . لكن الأمر مختلف الآن. . . آه، ما أقسى وضعي! إنه رهيب لايُحتمل! لاتوجد هناك أية وسيلة لتخليصها من السارق: فقد جرّدتني من كلّ أسلحتي ياعمّاه. . . ارشدني الى ماينبغي عليّ ان أفعله! أحسّ بالإختناق والألم. . . ياللكآبة! ياللعذاب! سأموت. . . سأقتل نفسي بالرصاص.

أسند مرفقه الى الطاولة وغطى رأسه بيديه وبدأ ينشج بصوت مرتفع.

تحيّر بطرس إيڤانيتش. قطع الغرفة مرتين ذهاباً وإياباً، ثم توقف بعد ذلك قبالة ألكسندر وصار يُمسّد رأسه وهو لايعرف كيف يبدأ الحديث.

-ألكسندر، اشرب قليلاً من النبيد، - قال بطرس إيڤانيتش بأقصى مايستطيع من الرقة واللطف - قد يساعدك.

twitter @baghdad_library

لم يقل ألكسندر شيئاً، فقد ظلّ يبكي وكتفاه يرتجفان ورأسه يهتز بتشنجّ. تجهم بطرس إيڤانيتش ولوّح بيده، ثم خرج من الغرفة.

-كيف ينبغي أن أتصرف معه؟ - قال هو، مخاطباً زوجته - إنه يبكي ويشهق هناك، حتى أنه طردني. لقد أنهكني تماماً.

- وهل تركته على هذه الحال؟ - سألت هي. - مسكين! دعني، سأذهب إليه.

- لن تستطيعي فعل شيء: طبعه خاص جداً. إنه مثل خالته تماماً: فهي دمّاعة بكّاءة مثله. كم بذلتُ من جهد لإقناعه!

- هل حاولْتَ إقناعه فقط؟

- وأقنعته: فقد وافق على رأيي.

- آه، أنا لاأشكّ في ذلك: فأنت ذكي جداً. و... داهية! - أضافت هي.

- شكراً لله، إذا كان الأمر هكذا: يبدو لي، أن هذا هو كلّ مايلزم.

- يبدو لك، أنّ هذا، هو كل مايلزم، وتركته يبكي.

- لست مذنباً، فعلت كل ماأستطيع كي أواسيه وأخفّف عنه.

- ماذا فعلت؟

- فعلت الكثير الكثير. تحدثت ساعة كاملة... حتى أنّ حلقي جفّ... شرحتُ له نظرية الحب كلها بوضوح وجلاء، وعرضتُ عليه مالاً وعشاءً ونبيذاً...

- وظلّ يبكي؟

- أجل! حتى أنّ بكاءه اشتدّ.

- عجيب! دعني: سأحاول، فيما تفكرّ أنت في غضون ذلك، بوسيلة أخرى جديدة...

- ماذا ، ماذا؟

- لكنها أفلتت من الغرفة كالظلّ.

- كان ألكسندر مازال جالساً، وهو يسند رأسه الى يديه. أحس أنّ أحداً ما يلامس كتفيه. رفع رأسه : كانت تقف أمامه امرأة فتيّة رائعة الجمال، تضع خماراً على وجهها وتعتمر قلنسوه فينيقية.

- زوجة عمي! قال هو.

جلست بالقرب منه ونظرتْ إليه بإمعان ، كما تستطيع ان تفعل النساء فقط، بعد ذلك، مسحت له عينيه بمنديل وقبّلت جبينه، أما هو فقد وضع شفتيه على يدها، تحدثا طويلا. بعد ذلك، خرج ساهماً، متأمّلاً، لكن وهو يبتسم، ثم نام لأول مرّة بهدوء، بعد ليال مؤرّقة كثيرة لم يذق فيها طعم النوم. عادت الى غرفة النوم وعيناها مغروقتان بالدموع. كان بطرس إيڤانيتش يشخر منذ زمن بعيد.

twitter @baghdad_library

I

مضى عام على المشاهد والأحداث، التي وصفناها في الفصل الأخير من الجزء الأول.

كان ألكسندر يتحول تدريجياً من اليأس القاتم الى الحزن البارد. لم يعد يزمجر بلعناته المصحوبة بصريف الأسنان، كما توقف عن إطلاق التهديدات ضدّ الكونت ونادينكا. ، فقد صار يتذكّرهما أحياناً بازدراء عميق.

كانت ليزابيتا ألكسندروڤنا تواسيه بكلّ رقة ولطف الصديقة والأخت. كان ينصاع بطيب خاطر لهذه الوصاية اللطيفة. فكلّ الذين يملكون طبعاً كطبعه، يحبون ان يضعوا إرادتهم رهن تصرف شخص آخر، فالحاضنة ضرورية بالنسبه لهم.

أخيراً، نضب الشوق فيه وانقضى الحزن الحقيقي، لكنه كان يأسف لانقضائه؛ كان يقسر نفسه على الاستمرار فيه، أو ربما يكون من الأفضل أن نقول، إنه كان يخلق لنفسه حزناً متكلّفاً يعبث ويتباهى به، ويغرق فيه.

كان معجباً بلعب دور المعذب. كان هادئاً، وقوراً، مكفهراً بسبب ماكابد وعانى من لطمة القدر - كما كان يقول، - وكان يتحدث عن عذاباته الرهيبة ومشاعره المقدسة السامية، المضطربة والممرَّغة بالوحل - «وممّن؟ -كان يضيف هو: -من فتاة لعوب ومن فاسق داعرٍ مبهرج. هل يعقل ان يكون القدر قد جاء بي الى هذا العالم، كي أقدّم كلّ ماهو سامٍ رفيع في نفسي، قربانا لشخص حقير؟». ماكان بوسع أي رجل ان يغفر لآخر، ولا امرأة لأخرى، هذا التكلف. ولقادَ كل منهما الآخر فوراً بطوآلة. لكنْ ما الشيء، الذي لايمكن ان يغفره أناس كلا الجنسين لبعضهم بعضاً؟

كانت ليزابيتا ألكسندر وفنا تصغي لشكواه المريرة بتسامح وتواسيه قدر استطاعتها. لم يكن هذا الأمر يتم بالضد منها إطلاقاً. ربما لأنها كانت تجد في ألكسندر، رغم ذلك كله، التعاطف مع قلبها، وتسمع في شكواه الدائمة من الحب، عذابات ليست غريبة عنها.

كانت تصغي بشغف الى أنّات قلبه وتردّ عليها بآهات غير ملحوظة وبدموع لايراها أحد. حتى أنها كانت تردّ على عواطفه الصريحة المبالغ فيها، المفرطة في الحلاوة والنابعة من قلبٍ مكلوم ضجر، بعبارات عزاء ومواساة تتّسم بنفس الروح والنبرة، لكنّ ألكسندر لم يكن يريد الإصغاء إليها.

-لاتقولي هذا ياخالة، كان يقول معترضاً، - لا أريد ان أدنس كلمة الحبّ المقدسة بتسمية علاقاتي مع تلك الفتاة... بأنها...

هنا صعّر خدّه بازدراء وكان مستعداً، كما كان يفعل بطرس إيفانيتش، لأن يسأل: ماسمها؟

-بالمناسبة، أضاف هو بازدراء كبير، - أنا أعذرها: كنتُ أسمى بكثير منها ومن الكونت ومن كلّ هذا الوسط التافه الحقير. لم يكن من السهل ان أبقى لغزاً بالنسبة لها.

بعد هذه الكلمات، ظلّ طويلاً يحتفظ بسمات الإزدراء لها.

- عمي يؤكد على أن الواجب يقتضي أن أكون شاكراً لنادينكا، - تابع هو، - على أيّ شيء؟ بم يتميز هذا الحب؟ كله تفاهات وعبارات مبتذلة. هل كانت هناك ظاهرة واحدة تخرج عن إطار المشاحنات والمخاصمات اليومية؟ هل كان في هذا الحب أيّ ملمح من البطولة والتفاني ونكران الذات؟ كلا. فقد كانت تفعل كل شيء تقريباً بمعرفة أمّها! هل تخلّت من أجلي، ولو مرّةً واحدة، عن شروط ومتطلبات عليّة الناس؟ أبداً! هل يُسمى هذا حبّاً!! أيّ فتاة تلك، التي لم تعرف أن تسكب الشاعرية في العاطفة!

twitter @baghdad_library

- بأيّ حبّ كنت ستطالبها؟ - سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

- بأيّ حبّ؟ -أجاب ألكسندر. - كنتُ سأطالبها بأن تكون لي الأولوية في قلبها. فالمرأة، التي أحبّ، لاينبغي أن تلحظ أو ترى رجالاً آخرين غيري؛ يجب أن يبدو كل الرجال في عينيها لايُطاقون. أنا الوحيد الأسمى والأروع، - هنا انتصب في جلسته، - والأفضل والأنبل. كلّ لحظة لاتمضيها معي - ينبغي أن تكون بالنسبة لها وقتاً ضائعاً. يجب أن تعبّ السعادة والهناء من عيني وأحاديثي، كما لايجوز أن تتعرّف على أحدٍ غيري.

حاولت ليزابيتا ألكسندروڤنا إخفاء ابتسامتها. لم يلاحظ ألكسندر ذلك.

- من أجلي، - تابع هو. بعينين برّاقتين، - يجب أن تضحّي بكلّ شيء: بالمصالح التافهة والحسابات، كما يجب أن تزيح عن كاهلها نير استبداد الأم والزوج، وتذهب إذا كان ذلك ضرورياً، الى طرف العالم، وتحتمل بجلد وطاقة كل الحرمانات، وأخيراً، أن تتحدى الموت نفسه - ذلك هو الحبّ، وهكذا ينبغي أن تكون...

- بمَ كنتَ ستكافئها على هذا الحبّ؟ - سألت الخالة.

- أنا؟ آه! - بدأ ألكسندر وقد وجه نظره الى السماء. - كنتُ سأكرّس حياتي كلها لها، وأتمدّد عند قدميها. كل كلمة تقولها، هي قانون بالنسبة لي. كنتُ سأكتب القصائد الطوال عن جمالها وحبنا وعن الطبيعة:

سيجد الناس معها شفتيَّ

ولغة بترارك الشعريّة الوجدانية

لقد أثبتُّ لنادينكا، كم أستطيع ان أحبّ.

- أنت لاتثق إذاً بالمشاعر، عندما لاتتجلّى حسب رغبتك؟ المشاعر القوية تتوارى...؟

- هل تريدين ياخالة أن تثبتي لي، أنّ المشاعر، كمشاعر عمّي مثلاً، تتوارى؟

احمرّت ليزابيتا ألكسندروفْنا فجأة. لم تستطع داخلياً إلاّ ان توافق ابن الأخ، على أنّ المشاعر التي لاتتجلى مطلقاً، مشكوك فيها، وربما ليست موجودة أيضاً، لأنها إن وجدت، لابد أن تتفجر الى الخارج. وأن الحبّ هو وحده فقط، الذي يضفي عليها مسحة من الجمال والروعة الأخاذة. هنا استعرضت ذهنياً فترة حياتها الزوجية كلها واستغرقت في التفكير بعمق. فتلميح ألكسندر الجارح حرّك في قلبها السر، الذي كانت تخفيه في الأعماق، وقادها لأن تتساءل: هل هي سعيدة؟ لم تكن تملك حق الشكوى: فكلّ الشروط الخارجية للسعادة، التي يسعى الناس من أجلها، كانت تؤمن لها وفق البرنامج الموضوع. فالرخاء وحتى البذخ الرّاهن، والرفاه المضمون في المستقبل- كل هذا كان يحررّها من الهموم الحياتية المريرة، التي تعتصر قلوب الفقراء وتُيبّس صدورهم.

كان زوجها يعمل بلا كلل ومايزال يعمل أيضاً. لكنْ، ماذا كانت الغاية الرئيسة لجهوده؟ هل كان يعمل لغاية إنسانية عامة، وهو ينفذ الدرس الذي منحه له القدر، أم أنه كان يفعل هذا كله لأسباب شخصية خاصة تتعلق بإشغال موقع وظيفي ومالي هام، أم أنه كان يجدُ ويكدح، كي لاتخضعه الحاجة والظروف بعنف لسيطرتها؟ الله وحده يعلم. لم يكن يحبّ الحديث عن الأهداف السامية، مسمياً هذا ثرثرة وهذياناً، لكنه كان يقول ببساطة وبلهجة جافة، إنّ العمل يجب انجازه.

خرجت ليزابيتا ألكسندروفْنا فقط باستنتاج حزين مفاده، أنها لم تكن هي شخصياً ولا حبّه لها أيضاً الهدف الوحيد لنشاطه المحموم وجهوده. كان يعمل بجدّ ونشاط قبل الزواج أيضاً أي قبل أن يكون قد عرف بعد من ستكون زوجته. لم يحدثّها عن الحبّ أبداً كما أنه لم يسألها عنه أيضاً. كان يتملّص من أسئلتها عنه بنكتة أو بحِدَّة أو بنوم. بعد تعرفه عليها، سرعان مابدأ يتحدث عن الزواج، وكأنه

twitter @baghdad_library

كان يريد أن يوحي لها، أن الحبّ موجود بالطبع وأنّ التحدث عنه كثيراً هو أمر لاطائل منه . . .

كان عدواً لكلّ الإنفعالات - وهذا يمكن أن يكون أمراً حسناً، لكنه لم يكن يحبّ أيضاً تبدّيات القلب الصادقة ولم يكن يؤمن بهذه الحاجة عند الآخرين أيضاً. رغم ذلك كان يستطيع بنظرة وبكلمة واحدة ان يثير فيها شوقاً عميقاً نحوه، لكنه كان يصمت ويرفض. حتى أنّ هذا الأمر لم يكن يساور نفسه. جربّت إثارة الغيرة فيه، ظناً منها، أن الحب عندئذ سيثور حتماً . . . لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث. ما إن يلاحظ انها قد ميّزت في لقاء أو سهرة عامة شاباً ما وأعارته اهتمامها، حتى يسارع بطرس إيڤانيتش و يوجه له الدعوة لزيارته في البيت، ويلاطفه، دون أن يملّ ويتعب من الثناء على مزاياه، حتى أنه لم يكن يخشى بقاءه مع زوجته على انفراد.

كانت ليزابيتا ألكسندروڤنا تخادع نفسها أحياناً، عندما كانت تظنّ ان بطرس إيڤانيتش ربما يكون يتصرف من منطلق استراتيجي، إذ لايستبعد أن يكون أسلوبه المتكتم في إخفاء عواطفه نابعاً من هذا المنطلق بالذات، كي يعزز الشك في نفسها دائماً ويوطد من خلال ذلك أيضاً الحبّ ذاته: لكن آمالها كانت تخيب لدى أول رأي يبديه زوجها عن الحب.

لو كان جلفاً، فظّاً، قاسياً وبليداً، ولو كان واحداً من أولئك الأزواج، الذين يعتبرون خيانة زوجاتهم لهم أمراً ضرورياً يبعث السرور في النفس، مادامت تلك الخيانة تجلب لهم المنفعة المادية والترقي في المناصب، - لكان الأمر مختلفاً عندئذ: ربما كانت قد تصرفت كما تتصرف الأغلبية الساحقة من الزوجات في مثل هذا الحال، لكن بطرس إيڤانيتش كان إنسانياً ذكياً، لطيفاً ونادراً. كان رقيقاً فطناً وحاذقاً. كان يدرك بعمق اضطرابات القلب وهواجسه كلها، وكذلك انفعالات الروح وهباتها، لكنه كان يدرك ذلك مجرد إدراك فقط. كان قانون قضايا القلب

وشؤونه واضحاً وراسخاً في عقله، لكن ليس في قلبه. في مناقشاته عن هذا كله، كان واضحاً، أن حديثه يحكي شيئاً سمعه وحفظه عن ظهر قلب، لكنه لم يكن نابعاً من أحاسيسه مطلقاً. كان يتحدث عن الأهواء والمشاعر بصورةٍ صائبة، لكنه لم يكن يُسلم بسيطرتها عليه، حتى أنه كان يسخر منها ويعتبرها أخطاءً وانحرافات شائهة عن الواقع، شأنها شأن الأمراض، التي تصيب الجسم الإنساني، والتي ستزول مع الزمن من خلال ظهور فرع من الطب يعالجها ويشفيها.

كانت ليزابيتا ألكسندروڤنا تحس ّبتفوّقه الذهني على كل الوسط المحيط به، وكانت تتألّم لذلك. «لو لم يكن ذكيّاً هكذا، - كانت تفكر هي، - لكنتُ أنقذت. . . » كان يعبد الأهداف العملية - وهذا واضح بجلاء ويطالب الزوجة بالابتعاد عن الأحلام.

«لكن ياإلهي! - كانت ليزابيتا ألكسندروڤنا تفكر، - هل يُعقَل ان يكون قد تزوّج فقط، من أجل ان يمتلك ربّة بيت تضفي على شقه العزوبيّة كمال ووقار البيت الزوجي وتمنحه مكانة أكبر في المجتمع؟ كم سيكون الأمر فظيعاً حقاً إذا اتضح، أنه ينشد فعلاً مدبّرة منزل في هيئة زوجة - بكلّ ماتعنيه العبارة من مضامين عادية حقيقية! لكن، هل يعقل، وهو الرجل الذكي الفطن، أنه لم يدرك، أن الحبّ مُتضَمَّنٌ حتماً في الأهداف الإيجابية، التي تنشدها المرأة؟ . . . - الواجبات الأسروية لابّد ان تدخل ضمن مشاغلها الرئيسة: لكن، هل يمكن تأديتها دون حب؟ فالحاضنات والمرضعات يخلقن لأنفسهن معبوداً من الطفل، الذي يرعينه، فكيف حال الزوجة والأم! آه، ، كم أودّ ان أشتري المشاعر بالعذابات وأتحمل الآلام الملازمة للشوق، من أجل أن أعيش حياة حقيقية كاملة وأحسّ بكياني ووجودي، فهذا أفضل بكثير من أن أذوي وأذبل! . . . ».

نظرتْ الى الأثاث الفاخر، وإلى حليها وملابسها الرائعة ومخدعها الوثير - وإلى كلّ وسائل الراحة والرّفاه، التي تحيط بها عادة بعناية يد عاشقٍ محبّ، المرأة الحبيبة، فبدا لها هذا كله سخرية لاذعة باردة من سعادتها الحقيقية. كانت شاهدة

twitter @baghdad_library

على شططين رهيبين متجسدين في الزوج وابن أخيه. واحدٌ باردٌ حتى القساوة، وآخر متحمسٌ منفعل حتى الهوس.

«ماأقلّ فهمهما وفهم الأغلبية الساحقة من الرجال للمشاعر الحقيقية الصادقة! كم أفهمها أنا! - فكرت هي. - لكن، ماالفائدة؟ ماالهدف؟ آه، لو كنتُ. . . » أغمضت عينيها وبقيت على هذه الحال بضع دقائق، ثم فتحتهما وتطلّعت حولها، وتنهدت بصعوبة، ثم اتخذت فوراً مظهراً عادياً هادئاً. مسكينة! ما من أحدٍ يعرف شيئاً عن وضعها هذا، ما من أحد رأى ذلك كله. ربما كانت هذه العذابات الخفية، مجهولة التسمية، التي لايحس بها أحدٌ غيرها، ستتّهمها بارتكاب جريمة لم تترك أثراً لجرح أو دم، ولم تُغط بالأسمال، بل بالمخمل لكنها كانت تُخفي حزنها بتفانٍ بطولي، وتجد في نفسها أيضاً القوّة على مواساة الآخرين والتخفيف من آلامهم.

سرعان ما أوقف ألكسندر الحديث عن العذابات السامية والحبّ الخفي الغامض، الذي يعرف الناس قيمته وغناه. تحوّل الى موضوعٍ أكثر عمومية. صار يشكو من رتابة الحياة، وخواء الروح ومن الضجر المضني القاتل.

تحمّلتُ عذاباتي

وأقلعت عن حبّ أحلامي. . .

كان يؤكّد بلا انقطاع.

- والآن يطاردني ماردٌ أسود. إنه زوجة عمي، التي تُلازمني في كلّ مكان: في الليل وأثناء الحديث الودي والوليمة، وفي لحظة التفكير العميق!

هكذا انقضت بضعة أسابيع. يبدو أنه لن يمضي إلا اسبوعان أيضا، حتى يكون غريب الأطوار هذا قد هدأ تماماً. وربما يكون قد أصبح إنساناً قوياً تماماً، أي إنساناً بسيطاً عادياً مثل الآخرين. لكنّ هذا لم يحدث. فخصوصية طبعه الغريب، كانت تجد في كلّ مكان الفرصة السانحة لأن تتبدّى.

ذات مرّة جاء الى زوجة عمه، وهو في وضع نفسي مزرٍ فقد كان حانقاً على الجنس البشري برمّته. بدأ يستخدم الكلمة والسباب تارةً، والإدانة والهجاء تارةً أخرى، لمهاجمة حتى من ينبغي احترامهم وتقديرهم. لم يرحم أحداً. فقد طالها هجومه، الذي طال أيضاً بطرس إيڤانيتش. صارت ليزابيتا ألكسندرڤنا تحاول استكشاف السبب.

-تريدين ان تعرفي، - بدأ هو بصوتٍ خافتٍ مهيب، - السبب، الذي جعلني حانقاً، مضطرباً؟ اسمعي: تعرفين، أن لديّ صديقاً لم أره منذ بضع سنوات، صديقاً أحتفظ له في قلبي بمحبة زائدة. في بداية وصولي الى هنا، أجبرني عمي ان أكتب إليه رسالة غريبة، يعرض فيها مبادئه المحببة وأسلوب تفكيره. لكني مزّقت تلك الرسالة وبعثتُ إليه بأخرى، لأني وجدتُ أن التخلي عن الصديق، هو أمر لامبرر له. بعد هذه الرسالة، انقطعت مراسلاتنا وفقدتُ الصلة بصديقي. ماذا حدث؟ منذ ثلاثة أيام، بينما كنتُ أسير في شارع نيفسكي، وقع نظري عليه فجأة، تسمّرت مكاني وصرت أرتعش، كما طفرت الدموع من عينيّ. مددتُ له يدي ولم أستطع أن أقول كلمة واحدة من شدّة الفرح. فقد انحبست أنفاسي. صافحني. «مرحباً أدوييف! - قال هو بصوتٍ يوحي وكأننا قد افترقنا البارحة فقط. - أنت هنا منذ زمن بعيد؟». أستغرب لأننا لم نلتقِ حتى الآن، ثم سألني باقتضاب عن طبيعة ومكان عملي، ورأى من الواجب ان يخبرني بأنه يشغل منصباً هاماً وأنه سعيد في عمله، ممتنٌ من رؤسائه وزملائه، ومن. . . الناس جميعاً، وراضٍ بمصيره. . . بعد ذلك، قال لي إن وقته ضيّق جداً، وإنه مستعجل كثيراً، لأنه ذاهب الى موعد مهم- هذا ماقاله ياخالة، أثناء لقائه بي، بعد فراقٍ طويل. لم يستطع تأجيل موعد الغداء. . .

- لكن، ربما كان هناك أحدٌ ما ينتظره، - لاحظت زوجة عمه، - فلم تسمح آداب السلوك. . .

twitter @baghdad_library

- آداب السلوك والصداقة؟ أنت أيضاً تقولين هذا ياخالة! سأقول لك ماهو أنكى من هذا. دسّ في يدي عنوانه وقال، إنه سينتظرني مساء الغد في منزله، ثم اختفى. نظرتُ في أثره طويلاً ولم أستطع ان أعود الى رشدي. هذا هو زميل الطفولة وصديق الشباب! ياله من صديق! لكنّي فكّرتُ بعد ذلك وقلت، ربما يكون قد أرجأ كل شيء الى مساء الغد، وعندئذ، يكرسّ وقته كله لحديث وديّ صادق. «هذا ماسيكون، فكّرتُ في نفسي، - سأذهب إليه». وصلت. كان عنده عشرة أصدقاء. مدّ يده لي بدمائة أكثر من الليلة الفائتة، - هذه حقيقة لابدّ من ذكرها، لكنه بالمقابل، أشار إليّ، دون أن ينبس ببنت شفه، كي أجلس الى طاولة اللعب. قلت: لاألعب، وجلستُ على الأريكة وحيداً، وأنا أتوقع انه سيترك اللعب ويأتي إليّ. «لاتلعب؟ قال بدهشة. - ماذا تفعل إذن» ياله من سؤال! انتظرتُ ساعتين، لكنه لم يأت إليّ، فبدأ صبري ينفد. كان يعرض عليّ سيجارة تارةً، وغليوناً تارةً أخرى، مبدياً أسفه لأنني أحسّ بالضجر لعدم مشاركتي في اللعب وحاول أن يشغلني - لكنْ، بأيّ شيء؟ - كان يتلفّت نحوي باستمرار ويحكي لي عن نجاحه وفشله في اللعب. فَقَدْتُ صبري أخيراً، فدنوتُ منه وسألت: هل هو عازم على أن يخصّص لي في هذه الأمسية بعضاً من الوقت؟ أما قلبي فكان يحتدم غيظاً، وصوتي يرتجف. يبدو أنّ هذا قد أدهشه. نظر إليّ باستغراب. «حسناً، - قال هو، - انتظرني حتى أنهي هذه الجولة». ما إن قال هذا، حتى خطفتُ قبعتي وعزمت على الإنصراف، لكنه لاحظ ذلك واستوقفني: «أوشكت الجولة ان تنتهي، - قال هو- سنتناول العشاء الآن». انتهى اللعب أخيراً. جلس بالقرب منّي وتثاءب: هكذا كانت بداية حديثنا الودّي. «هل كنتَ تودّ أن تقولي لي شيئاً ما؟» - سأل هو. قال هذا بصوت رتيب يخلو من أيّ تعاطف أو ودّ، مما اضطرني لأن أنظر إليه فقط والبسمة الحزينة ترتسم على وجهي، لكنني لم أتفوه بكلمة. بدا عليه هنا، أنه قد تنشط فجأة، وراح يمطرني بأسئلته: «مابك؟ ألا تحتاج شيئاً ما؟ ألا يمكنني أن أفيدك على صعيد عملك الوظيفي؟ الخ. هززتُ رأسي وقلت له، إنني كنتُ أودّ التحدث معه، ليس عن العمل الوظيفي، ولا عن المنافع المادية، بل عما هو أكثر

قرباً الى القلب: عن أيام طفولتنا الذهبية وملاعبنا وذكرياتنا . . . تصوري، أنه لم يمكّنني من متابعة الحديث. «ماتزال حالماً كما عهدتك! - قال هو- » بعد ذلك غيّر الحديث فجأة، وكأنه قد اعتبره ضرباً من السخف، ثم بدأ يسألني جديّاً عن أموري وشؤوني وتطلعاتي للمستقبل، وعن طموحي، كما يفعل عمّي تماماً. دُهشت، ولم أصدق، أن قلب الإنسان يمكن أن يصبح غليظاً، قاسياً الى هذا الحدّ. حاولتُ ان أجرّب معه للمرة الأخيرة، فعدتُ أحدثه عن أموري وعما جرى لي، «سأحدّثك عما فعل الناس بي. . . » -بدأت أنا. «وماذا فعلوا؟ - قاطعني فجأة بهلع، - سرقوك بالتأكيد، أليس كذلك؟» ظنّ، أنني كنتُ أتحدّث عن الخدم، فهو لايعرف إلاّ هذا النوع من المصائب فقط، شأنه شأن عمي تماماً: إلى أيّ حدّ يمكن أن يتجمّد قلب الإنسان! «أجل! -قلتُ أنا، - لقد سرق الناس روحي. . . » هنا، تحدّثتُ عن عذاباتي وحبي وفراغي الروحي. . . بدأتُ أتحدث عن الحبّ بشغفٍ واستمتاع، ظناً مني أن قصة عذاباتي ستذيب القشرة الجليديّة، التي تغشي عينيه. . . انفجر فجأةً بالضحك. نظرتُ فشاهدتُ منديلاً في يده: كان طوال حديثي يردع نفسه عن الضحك، لكنه لم يصمد أخيراً. . . توقّفت بذعر.

- كفى، كفى، - قال هو، - الأفضل أن ترشف شيئاً من الڤودكا، لأننا سنتناول العشاء بعد قليل. كم أنتَ غريب الأطوار! أنت إنسان عجيب! هيّا، هيّا، ها، ها، ها!. . . يوجد عندي روست. . . رائع. . . ها، ها، ها!. . . روستو. . .

تأبّط ذراعي، لكنّي تملّصتُ منه وابتعدت راكضاً عن هذا الوحش. . . أرأيت أيّ إنسانٍ هذا ياخاله! - ختم ألكسندر حديثه، ثم لوح بيده وانصرف.

أشفقت ليزابيتا ألكسندروڤنا على ألكسندر. أشفقت على قلبه المتوقد، ذي الوجهة الخطأ. رأت، أنه كان يستطيع ان يكون سعيداً ويسعد شخصاً آخر أيضاً في ظلّ تربيةٍ أخرى ونظرة صائبة الى الحياة، أما الآن فهو ضحية عميً خاص أصابه، وضحية متاهات قلبه الأكثر إيلاماً. إنه بالذات، الذي يجعل من الحياة عذاباً. كيف يمكن ان ندل قلبه على الطريق الصحيحة؟ أين هذه البوصلة المنقذة؟ كانت ليزابيتا

twitter @baghdad_library

ألكسندروڤنا تدرك، أنّ يداً رقيقة حنونة فقط، هي وحدها التي تستطيع أن ترعى هذه الزهرة وتعتني بها.

تيسَّر لها ذات مرّة، أن تتغلّب على الإضطرابات المؤلمة في قلب ألكسندر، لكنّ الأمر كان يتعلق بحبّ أنثى. كانت تعرف كيف تتعامل مع قلبٍ مُهان. فقد وضعت اللوم أولاً على نادينكا، وهي تتصرف كديبلوماسية بارعة، وأظهرت له تصرفها بأسوأ صورة وجعلتها مبتذلة في عينيه، وأفلحت بأن تثبت له، أنها غير جديرة بحبه. بهذا تكون قد انتزعتْ من قلب ألكسندر، الألم المضني، لتستبد له بإحساس هادىء مريح، وإن لم يكن مُنصفاً تماماً، - إنه الإزدراء. كان بطرس إيڤانيتش، على العكس منها، يسعى لأن يبرىء ساحة نادينكا، وبهذا لايكون قد حرمه من الهواء فقط بل زاد من عذابه وألمه أيضاً.

لكنّ الأمر مختلف على صعيد الصداقة. كانت ليزابيتا ألكسندروفنا ترى أن صديق ألكسندر كان مذنباً في عينيه ومُحقاً في عيون الناس. كم هو مطلوب توضيح هذا الأمر لألكسندر! لم تتجرأ على تضحية كهذه، ولجأت الى زوجها، وهي تفترض، أنه لن يسوق الأدلة ضدّ الصداقة، ولم يكن افتراضها هذا بلا أساس.

- بطرس إيڤانيتش! - قالت له ذات مرة بلطف. - أتيتُك بطلب.

- ماهو؟

- احزر.

- تكلمي: تعرفين أنني لا أستطيع أن أرفض لك طلباً. الأمر يتعلّق حتماً بالڤيلا الصيفية في بيترغوف: مايزال الوقت مبكّراً الآن. . .

-كلا! - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

- ماذا؟ كنتَ تقولين، إنك تخشين أحصنتنا، وإنك تريدين أحصنةً أكثر وداعةً وهدوءاً. . .

-كلا.

- عن الأثاث الجديد؟ . . .

- هزّت رأسها بالنفي.

- عجزت، لا أعرف، -قال بطرس إيڤانيتش، - ثمّ أخرج محفظة نقوده، وقال: تصرفي وخذي مايلزمك . . .

- كلاّ، لاتقلق، خبىء نقودك، - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا، - هذه المسألة لن تكلفك كوبيكاً واحداً.

ترفضين النقود عندما تُعطى! -قال بطرس إيڤانيتش، وهو يخبّىء محفظة نقوده. - هذا أمرٌ يستحيل فهمه! ماذا تحتاجين إذن؟

-أحتاج فقط لقليلٍ من الإرادة الطيبة . . .

-لكِ ماتريدين.

- زارني ألكسندر منذ ثلاثة أيام . . .

- آه، أحسّ بالتعب! - قاطع بطرس إيفانيتش.

- كان كئيباً جداً، - تابعت ليزابيتا ألكسندروفنا. - أخشى أن يقوده [illegible]

الى مالاتُحمد عقباه . . .

- ماذا حدث له أيضاً؟ هل خانته إحداهنّ من جديد؟

- كلا، خانه أحد أصدقائه.

- أحد أصدقائه! يتدرّج الحال من سيءٍ إلى أسوأ! هذا مثير للفضول. حدثيني من فضلك عما جرى.

- إليك ماحدث.

هنا، قصّتْ ليزابيتا ألكسندروڤنا على مسامعه كلّ ماحكاه ابن الأخ. هزّ بطرس إيڤانيتش كتفيه بقوّة.

twitter @baghdad_library

- ماذا تريدين أن أفعل هنا؟ تعرفين، كم هو صعبٌ إقناعه!

- اظهرْ له العطف والإهتمام وسَلْهُ عن مشاعره وحالته العاطفية.

- كلا، هذا مايحب أن تفعليه أنتِ

- تحدث إليه. . . لكن، برقةٍ ولطف، وليس كما كنتَ تتحدّث إليه دائماً. . . لاتهزأ بمشاعره. . .

- ألا تأمرينني بأنْ أبكي؟

- ماكان هذا ضاراً.

- وما الفائدة من هذا؟

-الفائدة كبيرة. . . ليس له فقط. . . - لاحظتْ ليزابيتا ألكسندروڤنا بصوتٍ خافت.

- ماذا! - سأل بطرس إيڤانيتش.

- التزمت الصمت.

- آه، لقد تعبتُ من ألكسندر هذا: إنه يجلس هنا! - قال بطرس إيڤانيتش مشيراً إلى رقبته.

- بِمَ أزعجك؟

- كيف؟ ست سنوات وأنا أكابد معه: يُعاقَب تارةً، فأواسيه، وأكتب الى أمه تارةً أخرى.

- إنه مسكين حقاً! وهل تسمي ماتبذله من أجله جهدا؟ ياله من عمل شاق: تستلم مرّة في الشهر رسالةً من أمه العجوز، فترميها تحت الطاولة دون ان تقرأها أو تتحدّث مع ابن أخيك! وهل يعيقك هذا! آهٍ منكم، أيها الرجال! آهٍ منكم، آيها الرجال! تتركون كل شيء من أجل غداء فاخرٍ ونبيذٍ جيد وورق لعب! وإذا أضفنا الى هذا كله أيضاً، مناسبة للتحذلق والتباهي- فإنّ سعادتكم تكتمل عندئذ.

- ألا يكفي النساء ماعندهن من غنجٍ ودلالٍ وتكلف، - لاحظ بطرس إيفانيتش. - لديكن مايكفي ياعزيزتي! وماذا أيضاً؟

- ماذا! والقلب! أنت لاتتطرّق الى هذا أبداً.

- هذا ماينقصني!!

- نحن ذكيّات جداً هل يمكن أن تشغلنا صغائر الأمور هذه؟ نحن نتحكم بمصائر الناس. أنتم، الذين يهمكم فقط المال والجاه. تريدون ان يكون الناس جميعاً هكذا! وُجِد بينكم شخص رقيق حساس يستطيع ان يحبّ، فإذا بكم تحاولون اجباره على أن يحبّ نفسه...

- حسناً، لكنْ هل هو الذي أجبر تلك الفتاة على أن تُحب نفسها... ما اسمها؟ ڤيروتشكا؟ لاحظ بطرس إيڤانيتش.

- عثرت على من يمكن أن تقارنه بها! هذه هي سخرية القدر. يبدو أنها خُلقت قصداً، كي تنتقم دائماً من الرجال الحسّاسين اللطفاء! كم هي عديمة الإحساس! مسكين ألكسندر! عقله لايسير بالتوازي مع قلبه، لذا، فإنه مذنب في عيون أولئك، الذين سبقت عقولهم قلوبهم مسافة كبيرة الى الأمام، وفي عيون أولئك الذين لايستخدمون إلا عقولهم فقط في كلّ ظرفٍ وحالة...

- مع ذلك، عليك أن تُسلمي، أنّ هذا هو الأمر المهمّ، وإلاّ...

- لن أسلِّم بذلك، فلا سبب يدعو للتسليم؛ هذا - مهمٌّ في المصنع؛ أراك قد نسيت، أنّ الإنسان يمتلك أيضاً أحاسيس ومشاعر...

- خمس حواس! - قال أدوييف. - أعرف هذا جيداً، فهذا ألفْباء المعرفة.

- كم هذا مؤلم ومحزن! - همست ليزابيتا ألكسندروڤنا.

- لا، لاتغضبي: سأفعل كل ماتأمرين به، لكنْ علّميني- كيف! - قال بطرس إيڤانيتش

twitter @baghdad_library

- اعطه درساً بسيطاً . . .

- هل أوبّخه؟ أعتقد، أن هذا سيفيده .

- توبّخه! أوضح له برقّةٍ ولطف، ما الذي يمكن أن يتطلّبه ويتوقّعه من الأصدقاء الحاليين؛ قل له، إن صديقه ليس مُذنباً كما يتصور . . . هل سأعلمك ماستقول؟ أنت ذكيّ جدّاً . . . تُتقن المكر . . . - أضافت ليزابيتا ألكسندروڤنا .

تجهم بطرس إيڤانيتش قليلاً لدى سماعه الكلمة الأخيرة .

-أما يكفي مابَذلت معه من جهد وما استخدمت من عواطف؟ - قال بغضب . - كم تهامستما عن الصداقة والحبّ، دون ان تصلي معه الى نتيجه، هذا مايُعقّد مهمتي الآن . . .

- آمل، أنه سيجد العزاء الكافي بعد محاولتك الأخيرة هذه، - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا- هزّ بطرس إيڤانيتش رأسه بارتياب .

- هل يوجد معه نقود؟ - سأل هو - ربما لايملك شيئاً منها؛ قد يكون هذا هو . . .

-لايُفكر إلا بالنقود! كان مستعداً لأن يتخلّى عن نقوده كلها، لقاء كلمة سارّة بشوشة من صديقه .

- ما الخير الذي سيناله منه! سَبَقَ له أن أعطى ذات مرّة، موظفاً كان يعمل معه في الدائرة، نقوداً بسبب كلماته المعسولة . . . جرس الباب يرنّ: أليس هو؟ ماذا عليّ أن أفعل؟ كرّري: أوبخه . . . ثمّ ماذا أيضاً؟ أعطيه نقوداً؟

-أيّ توبيخ! ستزيد الأمور سوءاً. رجوتك أن تحدّثه عن القلب وشؤونه برقةٍ واهتمام .

سلّم ألكسندر بصمت، كما أكل كثيراً بصمتٍ أيضاً أثناء الغداء، وفي الإستراحات الفاصلة، كان يدحرج كريّات صغيرة من فتات الخبز، وينظر إلى الزجاجات والدوارق وهو عابس. بعد الغداء، تناول قبعته وهَمّ بالإنصراف .

- إلى أين! سأل بطرس إيفانيتش. - اجلس معنا.

- امتثل ألكسندر بصمت. كان بطرس إيڤانيتش يفكر كيف سيباشر الحديث معه برقة ولطف، فسأل فجأة بسرعة:

- سمعتُ ياألكسندر، أنّ صديقك قد تصرّف معك بلؤم، هل هذا صحيح؟

- لدى سماع هذه الكلمات المباغتة، نفض ألكسندر رأسه، كما لو أنه قد جُرِح، ورمق زوجة عمّه بنظرةٍ مليئةٍ باللوم والعتاب. لم تكن تتوقع هي الأخري أيضاً، مثل هذه البداية المفاجئة، فأطرقت رأسها أولاً، ثم رمقت زوجها بعد ذلك بنظرةٍ ملؤها اللوم والعتاب أيضاً، لكنه كان في ظلّ رعايةٍ مزدوجة للتخمة والنعاس، لذا فإنه لم يحس بوقع هذه النظرات.

ردّ ألكسندر على سؤاله بزفرةٍ لاتكاد تُسمع.

- أجل، -تابع بطرس إيڤانيتش، - ياله من لؤم! ياله من صديق! بعد خمس سنوات من الفراق، يقابلك بمثل هذا البرود، فعوضاً من أنْ يأخذك بالأحضان بقوّة وشوق، - يتصرف معك بهذه الطريقة، فيدعوك لزيارته مساء ويغريك بالجلوس الى طاولة اللعب... ويُطعمك... وبعدها... - ياله من إنسان ماكرٍ غادر! لاحظ على وجهك سيماء حزينة، فراح يسأل عن أمورك وظروفك وحاجاتك - ياله من فضولٍ كريه! كم كان متمادياً في وقاحته! - تجاسر وعرض عليك خدماته... ومساعدته... وربما كان سيعرض عليك نقوداً! لكنه لم يبد أية مشاعر صادقة! أمر رهيب، رهيب حقاً! أرني من فضلك هذا الوحش، اصطحبه معك يوم الجمعة ليتغدى عندنا... ماهي لعبته المفضلة بالورق؟

- لا أعرف، - قال ألكسندر بغضب. - اسخرْ كما تشاء ياعمّاه: أنت على حقّ فأنا وحدي المذنب. الثقة بالناس والبحث عن العواطف، عبث بعبث! أمامَ منْ يرمي المرء بالدّرر! أين يجد المرء من يثق به؟ لايجد الإنسان من حوله إلاّ الدّناءة والتفاهة والإستسلام للمغريات، في الوقت الذي مأزال أحافظ فيه على ثقة الشباب بالخير والمروءة والثبات على العهد...

twitter @baghdad_library

بدأ بطرس إيفانيتش يهزّ رأسه بصورة متكرّرة ومنتظمة .

- بطرس إيفانيتش ! - قالت ليزابيتا ألكسندروفنا بهمس ، وهي تشدّه من كُمه . - هل أنت نائم؟

- نائم ! - قال بطرس إيفانيتش بعد أن استيقظ . - أنا أسمع كل شيء : «المروءة والثبات على العهد» ، -كيف تقولين إني نائم؟

-لاتزعجي عمّي ياخاله ! - لاحظ ألكسندر- سيرتبك هضمه إذا لم ينم ، والله وحده يعلم ما الذي سينتج عن هذا . الإنسان سيّد العالم بالطبع ، لكنه عبد معدته أيضاً .

أثناء ذلك ، أراد علي مايبدو ، أن يبتسم بمرارة ، لكنه ابتسم ابتسامة كابية .

- قل لي ، ماذا كنت تريد من صديقك؟ هل كنت تريد أن يقوم بتضحية ما ، كأن يتسلق الجدار أو يرمي بنفسه من النافذة؟ كيف تفهم الصداقة وماذا تعني بالنسبة لك؟ - سأل بطرس إيفانيتش .

- لاتقلق ، - أنا لا أطالب الآن بتضحية - بسبب الناس ، تدنّيْتُ في فهمي للصداقة وللحب . . . فيما مضى كنت أحمل دائماً مفهوماً سامياً عن الصداقة والحب وكنتُ أعتقد أنني محق كثيراً في اعتقادي هذا ، أما الآن فأرى ، أن هذا كذب وافتراء على الناس ، أو جهل مطبق في فهم قلوبهم . . . الناس غير مؤهلين لمثل هذه المشاعر .

- أخرج من جيبه محفظة ، ومن المحفظة قصاصتين مكتوبتين من الورق .

- ماهذا؟ - سأل العم . - أرني .

- لا داعي لذلك ! - قال ألكسندر وأراد أن يُمزّق القصاصتين .

- اقرأهما ، اقرأهما ! - صارت ليزابيتا ألكسندروفنا تتوسّل إليه .

- سأقرأ الآن ماكتبه روائيان فرنسيّان معاصران في معرض تحديدهما للصداقة والحب، وكنتُ متفقاً معهما في الرأي، ظناً منّي، أنني سأصادف في الحياة كائنات كهذه، أجد فيها . . . لكن، ما الفائدة! - لوّح يده بازدراء وبدأ يقرأ: «الحبّ ليس صداقة خجولة زائفة تعشعش في قصورنا المذهبة؛ الحبّ ليس صداقة لاتقوى على مواجهة إغراء المال والذهب، ولا هو عبارة جوفاء مبرقشة، بل صداقة جبارة تغذي الدم بالدّم، صداقة تؤكد ذاتها في المعركة وأثناء قصف المدافع وسيل الدماء وزمجرة العواصف، عندما يُقبّل الأصدقاء بعضهم بعضاً بشفاه كساها سخام البارود، ويتعانقون بأحضان دامية . . . وإذا جُرح بيلاد[١] جرحاً مميتاً . . . فإنّ صديقه الوفيّ أوريست[٢] يوافيه ويودّعه بحرارة وصدق، ويضع حداً لعذاباته بطعنة من خنجره، ويُقسم بصورةٍ مريعة، أنه سيثأر له ويبر بقسمه، ثمّ يمسح بعد ذلك، الدمعة ويهدأ. . . ».

بدأ بطرس إيڤانيتش يضحك ضحكاً هادئاً منتظماً.

- ممّن تسخر ياعمّاه؟ - سأل ألكسندر.

- من الكاتب نفسه. إذا كانت هذه هي قناعته فعلاً، ومنك أيضاً، إذا كنت تفهم الصداقة حقاً هكذا.

- وهل هذا مدعاة للسخرية فقط؟ - سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

- أجل، آسف: هذا الفهم يبعث على السخرية والشفقة في آنٍ واحد. بالمناسبة، ألكسندر موافق على هذا وقد أذن لي بالضحك. اعترف الآن من تلقاء نفسه، أنّ صداقة كهذه ليست إلاّ كذباً وافتراء على الناس. هذه خطوة مهمة إلى الأمام.

- أقول إنّ صداقة كهذه كذب، لأنّ الناس غير قادرين على ان يرتفعوا ويسموا بأنفسهم الى ذلك المفهوم عن الصداقة، كما ينبغي أن تكون. . .

---

(١) - بيلاد، هو صديق أوريست الوفيّ في الأسطورة اليونانية (المترجم).

(٢) - أوريست - صديق بيلاد الوفيّ في الأسطورة اليونانية (المترجم).

twitter @baghdad_library

- مادام الناس غير قادرين، فهذا يعني، أنه لاينبغي . . . - قال بطرس إيڤانيتش .

- لكن الأمثلة موجودة .

- هذه استثناءات، والإستثناءات تكون سيئة بشكل دائمٍ تقريباً .

«أحضان دامية، قسمٌ مريع، طعنة خنجر . . . » .

ثم ضحك من جديد .

- اقرأ عن الحبّ، - تابع هو، - لقد طار نعاسي .

- بطيب خاطر، إذا كان هذا يمكن ان يوفر لك فرصة سانحة للضحك! - قال ألكسندر، وبدأ يقرأ التالي :

«أنّ يُحبَّ المرء -معناه، أنه لم يعد ملكاً لنفسه، ولايعيش من أجل نفسه، فهو يندمج في كيان آخر ويُركزُ على موضوعٍ واحدٍ مشاعرَهُ الإنسانية كلها - الأمل، الخوف، الحزن والمتعة . أن يُحبّ المرء - معناه، أنْ يعيش في حالة وَجدٍ دائم . . . » .

- الشيطان يعلم ماذا يعني هذا كله! - قاطع بطرس إيڤانيتش . - إنه مجرّد لغو في الكلام، لا أكثر!

- كلا، هذا رائع جداً! - يعجبني هذا الكلام، - لاحظت ليزابيتا ألكسندروڤنا . - تابعْ ياألكسندر . «الحب لايعرف حداً للمشاعر، فالمحبّ يكرّس نفسه لكائنٍ واحد، - تابع ألكسندر القراءة، - يحيا ويفكر من أجل إسعاده فقط، ويجد العظمة في الهوان والمتعة في الحزن، والحزن في المتعة، ويستسلم للمتناقضات المحتملة والممكنة، ماعدا الحبّ والكراهية . أن يحبّ المرء -معناه، أن يعيش في عالمٍ مثالي . . . » .

- في غضون ذلك، كان بطرس إيڤانيتش يهز رأسه .

«العيش في عالمٍ مثالي، - تابع ألكسندر، - معناه أن يحيا المرء ببهاء ساحر وعظمةٍ رائعة. السماء في هذا العالم تبدو أكثر صفاءً والطبيعة أكثر سحراً وغنى. وإذا قسمنا الحياة والزمن الى قمسين: الحضور والغياب، ووزّعناهما على زمنين: الربيع والشتاء، وكان القسم الأول - الحضور- من نصيب الربيع، والقسم الثاني- الغياب- من نصيب الشتاء، فإنّ روعة الأزهار وسحر السماء الزرقاء الصافية سيختفيان في حال غياب الحبيبة. أنْ يُحب المرء، - معناه أن يرى العالم كله كائناً واحداً فقط، يرى فيه تجسيداً لهذا العالم. . . أخيراً، أن يُحب المرء، - معناه ان يرصد المحبّ كلّ نظرة من نظرات المحبوب، كما يرصد البدويّ كلّ قطرة ندى لترطيب شفتيه اللتين جفّفهما القيظ. بغياب المحبوب يضطرب المحب وتتزاحم الأفكار في ذهنه، فيما لايعرف بوجوده الإفصاح عن أية فكرة، ويحاول كلٌّ منهما أن يبزّ الآخر بالتضحية والتفاني. . . ».

- (مقاطعاً) كفى، بالله عليك كفى! - قال بطرس إيڤانيتش. - لم يعد لديّ صبر. كنت تريد أن ترغي، هيّا، هيّا بسرعة!

حتى أن بطرس إيڤانيتش نهض عن الكرسي وبدأ يمشي في الغرفة جيئة وذهابا.

- هل يُعقل ان يكون قد مرّ زمنٌ، كان الناس فيه يفكرون هكذا ويفعلون هذا كله؟ - قال هو، - هل يُعقل ان كلّ ماكُتب عن الفرسان والراعيات لم يكن تزويراً مُسيئاً بحقهم؟ كيف يستطيع الحبّ ان يثير ويُحرك بواعث النفس الإنسانية الخفّية بمثل هذه القوّة، ويؤجج المشاعر ويُزكيها الى هذا الحدّ! كيف يستطيع الحب ان يُضفي على هذا كلّه، مثل هذه الأهمية. . .

-لماذا ذهبت ياعمّاه بعيداً هكذا؟ - قال ألكسندر. - أنا شخصياً أشعر بقوة الحبّ هذه وأفاخر بها. شقائي نابعٌ فقط من كوني لم أصادف بعد إنسانة جديرة بمثل هذا الحبّ وقادرة على أن تحبّ بمثل هذه القوّة.

twitter @baghdad_library

- قوّة الحبّ! - قال بطرس إيڤانيتش. - هذا يساوي تماماً عندما أمو... الضعف.

- ليس هذا من صفاتك يابطرس إيڤانيتش، - لاحظت ليزابيتا ألكسندروڤنا، - أنت لاتريد أن تُصدق، أن حباً كهذا موجود حتى لدى الآخرين.

- وأنت؟ أيعقل أنّك تُصدقين؟ - سأل بطرس إيڤانيتش وهو يقترب منها. كلا، أنت تمزحين! إنه مايزال طفلاً، لايعرف ذاته ولا الآخرين، أما أنت، فلابدّ أنك كنتِ ستخجلين من هذا!.

تركت ليزابيتا ألكسندروڤنا عملها.

- كيف! -سألت بصوتٍ خافت، وهي تُمسك يديه وتشدّه...

حرّر بطرس إيڤانيتش يديه من بين يديها وأشار خلسةً إلى ألكـ...ـر، الذي كان واقفاً عند النافذة، وهو يدير لهما ظهره، ثم بدأ من جديد يمشي في الغرفة جيئة وذهابا.

-كيف! - قال هو. - كأنك لم تسمعي كيف يكون الحبّ.

- كيف يكون! - كرّرتْ بتأمّل، ثم استأنفت عملها من جديد.

استمر الصمت ربع ساعة. كان بطرس إيڤانيتش أوّل من خرق جدار الصمت.

- ماذا تفعل الآن؟ - سأل مخاطباً ابن أخيه.

- لاشيء.

- ألا تقرأ شيئاً ما على الأقلّ؟

- أجل.

- ماذا؟

- أساطير كريلوف[1].

- إنه كتاب جيّد، هل تكتفي بقراءته فقط؟

- أجل، لا أقرأ الآن، إلاّ هذا الكتاب فقط. ياإلهي! ما أروع صور الناس، وما أكثر الصدق والإخلاص فيه!

- أراك ماتزال حاقداً على الناس. هل حبّك لتلك... ما اسمها؟ هل حبك الفاشل جعَلَك حاقداً على الناس الى هذا الحد؟

- أوه! نسيتُ تلك الحماقة. منذ فترة غير بعيدة، مررتُ بنفس الأماكن، التي عشتُ فيها ذروة السعادة ومرّ العذاب، وأنا أحسب، أنّ الذكريات ستمزّق قلبي إرباً.

- هل تمزق؟

- شاهدت الڤيلا والحديقة والعريشة والسور، ولم يخفق قلبي.

-ألم أقل لك هذا! ما الذي يجعلك إذاً تقرَف من الناس وتشمئز منهم؟

- وضاعتهم، تفاهتهم، سطحيتهم وقلة إحساسهم... ياإلهي عندما أفكرّ بالسفالات، التي تُرتكب هنا وهناك، أتساءل قائلاً: أين رمت الطبيعة تلك البذور الرائعة...

- ماذا يهمك هذا؟ هل تريد ان تُقوّم الناس؟

- ماذا يهمني هذا! ألن تصلني طراطيش من ذاك الوسخ، الذي يسبح فيه الناس؟ أنت تعرف كلّ ماجرى لي - فهل تريدني بعد هذا كله ألاّ أكره وأحتقر الناس!

---

(١) - كريلوف- كاتب روسي مشهور (١٧٦٩ - ١٨٤٤) كان يهتم بكتابة الأساطير وبإصدار المجلات الإنتقادية الساخرة، وبكتابة المسرحيات الكوميدية والتراجيدية. كتاباته مشبعة بالروح الديمقراطية (المترجم).

twitter @baghdad_library

- ماذا جرى لك .

- خيانة في الحبّ ونسيان بارد فظّ في الصداقة . . . لهذا السبب ، أشعر بوجه عام ، بالقرف والاشمئزاز من النظر الى الناس والعيش معهم! أفكارهم وكلماتهم وأمورهم كلها ترتكز على الرّمال . تراهم اليوم يسعون نحو هدف ، فيركضون ويتزاحمون ويكيد كل منهم للآخر ، ويتصرفون بدناءة وسفالة ، ويتملقون ويتذلّلون ويتآمرون على بعضهم ، بينما تراهم قد نسوا مافعلوه البارحة ، ويتابعون الركض من أجل مصلحة أخرى ، اليوم يبدون إعجابهم بأحدٍ ما ، بينما يسبّونه غداً ، تراهم اليوم متحمسينَ مندفعين ، بينما يصيرون غداً باردينَ ، فاتريّ الهمة . . . كلا! أينما أوليّ وجهي ، أرى الحياة رهيبة مُقرفة! آهٍ من الناس وأفعالهم! . . .

غفَا بطرس إيڤانيتش من جديد ، وهو جالس على معقده الوثير .

-بطرس إيڤانيتش! - قالت ليزابيتا ألكسندروفنا ، وهي تدفعه برفق .

- أراك كئيباً دائماً! يجب أن تزاول عملاً ، قال بطرس إيڤانيتش وهو يفرك عينيه ، - لن تشتم عندئذ الناس إطلاقاً . ماهي عيوب معارفك؟ كل الناس طيبون .

- هكذا إذن! دقق في طبيعة أيّ امرىء كان ، وستجده وحشاً من وحوش أساطير كريلوف ، - قال ألكسندر .

- كآل خازاروف مثلاً؟

- (مقاطعاً) كلّ الناس وحوش! - قال ألكسندر . - ترى أحدهم يتملقك ويطريك في حضورك ، لكنه يقول العجائب في غيابك . . . أعرف هذا من تجربتي الخاصة . تصادف شخصاً آخر يتباكى اليوم ، مبدياً تعاطفه وأسفه لما لحق بك من سوء ، بينما تراه غداً منحازاً ومتضامنا مع المسيء إليك ؛ تراه اليوم يسخر معك من آخر ، بينما يسخر غداً مع آخر منك . . . ياللبشاعة!

-وآل لونين؟

- بِمَ يختلفون عن غيرهم. لونين نفسه لايختلف عن الحمار، الذي يهرب منه العندليب الى ماوراء البحار والجبال. أما زوجته فتظهر كالثعلب المسكين. . .

- وماذا تقول عن آل سونين؟

- لايمكن ان أقول شيئاً جيداً عنهم، تشاهد سونين يقدم النصائح الجيّدة عندما تنتهي المصيبة، لكنْ جَرِّبْ أنْ تطرق بابه عند الحاجة. . . سيتركك تنام دون عشاء، ولن يلبي لك أيّ طلب.

ألا تذكر كيف كان يتملّقك عندما كانت له مصلحة معك؟ أما الآن، فاسمع مايقوله عنك. . .

- وڤولولتشكوف، أما يستحوذ على إعجابك؟

- إنه حيوان حقير وشرير أيضاً. . .

- حتى أن ألكسندر بصق.

- ختَمتها! - قال بطرس إيڤانيتش.

- ما الذي يمكن انتظاره من الناس؟- تابع ألكسندر.

-كل شيء: الصداقة والحبّ والجاه والمال. . . هيّا، اختم الآن متحف صورك بنا! ضمن أيّ نوع من الوحوش تصنّفنا أنا وزوجتي؟

لم يُجب ألكسندر بشيء، لكن، لاح على وجهه تعبير خفي من السخرية. ابتسم. لم يُخف التعبير ولا البسمة عن بطرس إيڤانيتش. تبادل العم النظرات مع زوجته، التي غضّت بصرها.

- وأنت، ضمن أيّ نوعٍ من الوحوش تُصنف نفسك؟ - سأل بطرس إيڤانيتش.

- لم ألحق الأذى بالآخرين! - نطق ألكسندر باعتداد. - لقد أديت واجباتي نحوهم. لدي قلب مُحبّ، وفتحت ُصدري وذراعي للناس؛ لكنْ، ماذا فعلوا؟

twitter @baghdad_library

- مـاهـذا! كم يتكـلم بصـورة مـضـحكـة! - لاحظ بطرس إيڤـانيـتش، وهو يخاطب زوجته.

- كل شيء مضحك بالنسبة لك! - أجابت هي. - أنا لم أطالب الناس، - تابع ألكسندر، - بالتـضـحيـات والكرم ونكران الذات.. طالبـتـهم فـقـط بحقي الطبيعي، الذي تقره كلّ الشرائع..

- أنت مُحقٌ إذن؟ خرجت من الماء دون أن تبـتلّ. مهـلاً، سـأكشـفك على حقيقتك...

لاحظت ليزابيتا ألكسندروڤنا أنّ زوجها بدأ يتكلم بلهجة قاسية، فبدا عليها الإنزعاج.

-بطرس إيڤانيتش! - همست هي- كفى...

- كلا، يجب أن يسمع الحقيقة. سأنهي حديثي بسرعة. قل لي من فضلك ياألكسندر، ألم تحس بشيء من تأنيب الضمير، وأنت تصف معارفك بأنهم أوغاد وحمقى؟

- بسبب ماذا ياعمّاه؟

لأنك كنت تلقى دائماً من جانبهم، ولبضع سنوات، حسن الاستقبال والمعاملة: لنفترض، أن هؤلاء الناس كانوا يتصرّفون بمكرٍ ودهاء، ويحيكون الدسائس، كما تقول، لمن كانوا يخطبون ودهم، طمعاً في الحصول على منفعه، لكنهم لم يكونوا يبتغون منك شيئاً، ما الشيء الذي كان يجبرهم على ملاطفتك واستقبالك بالترحاب؟... لايجوز هذا ياألكسندر...! -أضاف بطرس إيڤانيتش بجدية. - شخص آخر غيرك، كان سيسكت حتماً من أجل هذا فقط، عن بعض المثالب، التي قد يعرفها عنهم.

تورد ألكسندر.

- أعزو اهتمامهم بي لتوصيتك، - أجاب هو، إذ لم يكن تعاملهم معي نابعاً من إحساسٍ بكرامة أو شعورٍ إنساني، بل كان إذعاناً لمشيئتك وتزلفا إليك. - زد على ذلك، أنّ هذه العلاقات تتسم بسمةٍ اجتماعية. . .

-حسناً، لنأخذ العلاقات الإنسانية. ألم أثبت لك، أنك لم تكن محقاً في تعاملك مع تلك الفتاة. . . مااسمها؟ ساشينكا؟ أجل، لم تكن محقاً في تعاملك معها. أمضيت عاماً ونصف في بيتها: كنت تتواجد فيه طوال تلك المدّة، من الصباح الى المساء، وكنت أيضاً محبوباً من هذه الفتاة الحقيرة، كما تصفها أنت. هل تستحق منك الإزدراء بعد كلّ مالقيته منها طوال تلك المدة من محبة ولطف.

-لماذا خانتني؟

- تقصد لماذا أحبتّ غيرك؟ هذا ماتوصلّنا بشأنه الى اتفاقٍ أيضاً، هل تظنّ أنك كنت ستظلّ ثابتاً على حبها، فيما لو بقيت تحبك؟

- أنا؟ الى الأبد.

- أنت لاتفقه شيئاً. لنذهب أبعد من هذا. تقول أن ليس لديك أصدقاء، أما أنا فكنتُ أعتقد أن لديك ثلاثة.

- ثلاثة؟ - هتف ألكسندر. - كان لديّ صديق واحد في أحد الأوقات لكنه. . .

- ثلاثة، - كرر بطرس إيڤانيتش بإصرار. - لنبدأ بتعدادهم حسب الأقدمية. الأول: هو ذلك الصديق، الذي تتحدث عنه. شخص آخر غيره بعد هذه السنوات الطويلة من الفراق، ماكان ليتعرّف عليك أثناء لقاء الصدفة هذا، بل كان سيتحولّ عنك ويتجاهلك، أما هو فقد دعاك لزيارته، وعندما جئته بعدم رضى وارتياح، صار يستفسر منك بودّ وتعاطف إن كان يلزمك شيء ما، وعرض عليك خدماته ومساعدته، لدرجة أنه كان مستعداً لأن يعطيك المال أيضاً، وأنا أستطيع أن أؤكد هذا بثقة! أمثاله قلة في أيامنا هذه. . . كلا، ينبغي أن تعرّفني عليه، إنه إنسان مستقيم كما أرى. . . بينما تعتبره أنت ماكراً، خبيثاً.

twitter @baghdad_library

كان ألكسندر يقف مطأطأ الرأس .

- من تظنّ صديقك الثاني؟ - سأل بطرس إيڤانيتش .

- منْ؟ -قال ألكسندر بحيرة . - لاأحد .

-(مقاطعا) كم أنت عديم الضمير! - قال بطرس إيڤانيتش ، - هكذا إذن؟ وليزا! ألا تخجل! وأنا ، من أكون بالنسبة لك؟

- أنت . . . قريب .

- لقب مُهمّ! كلاّ ، كنتُ أظنّ أنني أكثر من هذا بالنسبة لك . ليس حسناً ياألكسندر : هذه سمة سيئة ، أقلّ مايمكن أن يقال عنها ، إنها بشعة جداً ، ويبدو أنها غير موجودة في أساطير كريلوف .

-لكنّك تصدّني وتبعدني عنك دائماً . . . - قال ألكسندر بحياء ، دون أن يرفع عينيه .

-أجل ، عندما كنت تريد أن تعانقني .

-كنتَ تسخر منّي ومن مشاعري . . .

- ما السبب ولماذا؟ - سأل بطرس إيڤانيتش .

- كنت تراقبني في كلّ خطوة أخطوها .

- ها ، لقد قلتها! كنتُ أراقبك إذن! الأفضل ان تستأجر لنفسك مربياً! تظنّ أني مهتم بك الى هذا الحد! هذا ماينقصني !كنتُ أستطيع ان أضيف شيئاً ما ، لكنّ هذا سيكون نوعاً من عتابٍ معيب . . .

- عمّاه! - قال ألكسندر وهو يقترب منه ماداً يديه .

- اثبتْ مكانك : أنا لم أفرغ من كلامي بعد! - قال بطرس إيڤانيتش ببرود . - آمل أن تُسمي أنت بنفسك ، صديقك الثالث ، والأفضل . . .

- صار ألكسندر ينظر إليه من جديد، وكأنّ لسان حاله يقول: «أين هو؟» كان بطرس إيڤانيتش يشير الى زوجته.

- هذا هو، - قال وهو يشير الى زوجته.

- (مقاطعة) بطرس إيڤانيتش، -قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا، -ناشدتك الله ألاّ تتحذلق، كفى...

- كلاّ، لاتزعجيني.

- أعرف كيف أقدّر صداقة زوجة عمي... - قال ألكسندر بصورة غير واضحة.

-كلا. لاتعرف: لو أنك تعرف هذا حقاّ، ماكنت بحلقت عينيك في السقف بحثاً عن صديق، ولكنت أشرتَ إليها فوراً. لو كنت تُقدر صداقتها فعلاً، لما احتقرت الناس جميعاً، احتراماً لمزاياها على الأقل. من كان يجفّف دموعك ويبكي معك؟ من كان يواسيك في سخافاتك ويتعاطف معك! حتى الأمّ لاتعرف مداراة ابنها ومعاملته بمثل هذه الحرارة والعطف. لو كنت تحسّ بهذا، لما ابتسمت بسخرية ولما رأيت ذئبة أو ثعلباً هنا، بل امرأة تحبك وتحنو عليك كالأخت تماماً.

-آه ياخالة! - قال ألكسندر، الذي أربكه وحطمه هذا العتاب. -أقدّرك وأعتبرك استثناءً رائعاً من بين الناس جميعا! ياإلهي، ياإلهي! أقسم...

- أصدقك، أُصدقك ياألكسندر! - أجابت هي. - لاتُصغ إلى بطرس إيڤانيتش: إنه يصنع من الحبة قبّة، كما إنه يُحب ان يغتنم الفرص ليتحذلق، بطرس إيڤانيتش، ناشدتك الله أن تكفّ عن هذا.

- سأنهي، سأنهي كلامي حالاً، - بقيت عندي فكرة أخيرة واحدة! ألم تقل، أنك تنفذ كل ماتتطلبه مسؤولياتك تجاه الآخرين؟

- لم يردّ عليه ألكسندر بكلمة، ولم يرفع عينيه.

twitter @baghdad_library

- قل لي، هل تحب أمك؟

- انتعش ألكسندر فجأة.

- ماهذا السؤال؟ - قال هو -ومن أحب أكثر منها؟ أعبدها وأفديها بحياتي. . .

- حسناً، هذا يعني، أنه معلوم لديك، أنها تعيش وتتنفس من خلالك فقط، فسرورها من سرورك، ومصيبتها من مصيبتك. إنها لاتحسب الوقت الآن بالأشهر، ولا بالأسابيع، بل بالأخبار، التي تصلها منك وعنك. . . قل لي، متى كتبت إليها؟

ارتعش ألكسندر.

-منذ ثلاثة. . . أسابيع، - غمغم هو.

- كلاّ: منذ أربعة أشهر! كيف تريد أن أسُمي تصرفك هذا؟ قل لي، أيّ وحشٍ أنت؟ ربما يكون هذا هو السبب، الذي يجعلك تنفي وجود وحشٍ كهذا عند كريلوف.

- مامعنى هذا؟ أنّ أمك العجوز مريضة من همها عليك.

- أيُعقل هذا؟ ياإلهي، ياإلهي!.

- غير صحيح! غير صحيح! - قالت ليزابيتا ألكسندروفنا وركضت فوراً الى المكتب وأخرجت منه رسالة أعطتها الى ألكسندر. - إنها ليست مريضة، بل مشتاقة كثيراً إليك.

- أنت تدلليه ياليزا، - قال بطرس إيڤانيتش.

- وأنت قاسٍ زيادة عن اللزوم. كانت لدى ألكسندر ظروف شغلته مؤقتا عن. . .

- ينسى أمّه من آجل فتاة - يالها من ظروف مجيدة!

-كفى، بالله عليك! - قالت بإلحاح وهي تشير الى ابن أخيه.

- ما إنْ فرغ ألكسندر من قراءة رسالة أمه، حتى حجب بها وجهه.

- لاتُعارضي عمّي ياخالة: ليعنِّفني كما يشاء، فأنا أستحق أكثر من ذلك. أنا وحش! - قال ألكسندر، وهو يُصعر خدّه بيأس.

-اهدأ ياألكسندر! - قال بطرس إيڤانيتش. - ما أكثر أمثالك من الوحوش. انشغلت بحماقتك ونيست أمك- هذا أمر طبيعي؛ حبّ الأمّ- إحساسٌ هادىء مريح. لديها في العالم كله، شخص واحد فقط، هو أنت: هذا مايجعلها كئيبة بالطبع. الحكم عليك بالإعدام لامبرّر له هنا. سأقول لك فقط كلمات كاتبك المحبّب.

- أليس من الأفضل أن نلتفت لأنفسنا عوضاً من أن نُطلق الأحكام على الآخرين؟

ينبغي على المرء أن يكون متسامحاً إزاء نقاط ضعف الآخرين. حياتنا وحياة الآخرين، لايمكن ان تستقيما، مالم يتم التقيد بهذه القاعدة. هذا كل ماأردت أن أقوله لك. والآن، سأذهب لأنام.

-عمّاه! هل أنت غاضبٌ مني؟- قال ألكسندر بصوتٍ ينمّ عن ندمٍ عميق.

- كيف تظنّ هذا؟ لماذا أعكر مزاجي؟ لم أكن أريد أن أغضب. كنتُ أريد فقط أن ألعب دور الدبّ في قصة كريلوف الرمزية «مارتيشكا والمرآة». هل أدّيتُه ببراعة؟ مارأيك ياليزا؟

أراد ان يُقبلها، وهو يمرّ بها، لكنها تملّصت.

- يتراءى لي، أنني قد نفّذت أوامرك بمنتهى الدقّة، - أضاف بطرس إيڤانيتش، - مابك؟ . . . أجل، لقد نسيتُ أمراً واحداً. . . كيف حال قلبك ياألكسندر؟- سأل هو.

twitter @baghdad_library

التزم ألكسندر الصمت .

- ألستَ بحاجة لنقود؟ - سأل بطرس إيڤانيتش من جديد .

- كلاّ ياعمي . . .

- إنه لايطلب النقود أبداً! - قال بطرس إيڤانيتش ، وهو يغلق الباب وراءه .

- ما الفكرة ، التي سيأخذها عمي ّعني؟ - سأل ألكسندر ، ثم صمت .

- ذات الفكرة ، التي كانت لديه عنك سابقاً ، - أجابت ليزابيتا ألكسندروڤنا . - أتظن انه قد قال لك هذا كله من قلبه وروحه؟

-كيف إذن؟

- كلا . صدقني ، إنه كان يريد ان يتباهى ، لا أكثر ، ألم ترَ كيف فعل هذا كله بأسلوب تعليمي؟ فقد ساق الحجج ضدك وفق ترتيب محدّد ، إذ بدأ بالأضعف ، متدرّجاً نحو الأقوى . كشف أولاً عن الأسباب الكامنة وراء آرائك السيئة حول الناس . . . وبعد ذلك . . . تابع الحديث بأسلوبه التعليمي المعروف! أعتقد ، أنه قد نسي الآن كل شيء .

-كم هو ذكي! كم يعرف الحياة والناس . وكم يسيطر على نفسه!

- أجل ، إنه ذكي ّجداً ويعرف جيداً كيف يسيطر على نفسه ، - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا بتأمل ، لكنها . . .

- وأنت ياخالة ، هل ستكفين عن احترامي؟ لكن ، صدقيني ، أن مثل تلك الصدمات القوية ، التي حدثت لي ، هي وحدها فقط ، الي يمكن ان تشغلني عن . . . ياإلهي! ياللأم المسكينة! مدّتْ له ليزابيتا ألكسندروڤنا يدها .

- لن أكفّ عن احترام قلبك ياألكسندر - المشاعر تدفع المرء نحو الخطأ أحياناً ، لذا فإني أعذرك .

- آه ياخاله! أنت نموذج المرأة الرائعة!

- إني مجرّد امرأة

- أثر على ألكسندر بقوة توبيخ عمّه له. استغرق في أفكاره الأليمة، وهو جالس هنا مع زوجة عمّه. يبدو أن الهدوء، الذي أدخلته ليزابيتا ألكسندروڤنا الى قلبه ببراعة، بعد جهد جهيد، قد فارقه فجأة. عبثاً كانت تتوقع منه نزوة طائشة شريرة. كانت نفسها منزعجة من تأنيب بطرس إيڤانيتش لابن أخيه ومُحرجة للغاية: كان ألكسندر أصم وأبكم. كان فاتر الهمة، كمن سُكِب عليه سطل ماءٍ بارد.

-مابك؟ لماذا أنت هكذا؟ سألتْ زوجة العم.

- أحس بكآبة في قلبي ياخالة. جعلني عميّ أعرف نفسي جيّداً، عندما حلل شخصيتي بصورة رائعة!

- لاتصغِ إليه: إنه يقول أحياناً كلاماً غير صحيح.

- كلا، لاتواسيني. أحسّ الآن أني أكره نفسي. فيما مضى، كنتُ أحتقر وأكره الناس، أما الآن، فأحتقر نفسي أيضاً. أستطيع انْ أتواري عن الناس، لكنْ كيف يمكن أن أهرب من نفسي؟ كلّ شيء تافه: المصالح الشخصية، سفاسف الحياة، الناس وأنا نفسي...

-آه من بطرس إيڤانيتش هذا! - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا وهي تتنهد بعمق. - كم يُثير الكآبة في النفس!

- بقي عندي عزاء سلبي واحد فقط، هو أنني لم أخدع أحداً ولم أخن في الحبّ ولافي الصداقة...

- لم يعرفوا قيمتك، - نطقت زوجة العم، - لكنْ، صدقني، أنك ستعثر على القلب، الذي يعرف قيمتك، وأنا أضمن هذا. أنتَ لاتزال فتيّاً، وستنسى هذا كله، عليكَ أن تعمل: أنت موهوب: اكتبْ... هل تكتب الآن شيئاً ما؟

twitter @baghdad_library

-كلا .

- آكتبْ .

-أخاف ياخالة .

- لاتُصغ الى بطرس إيڤانيتش : ناقشه في أي شيء تريد : في السياسة والزراعة ، لكن ، ليس في الشعر ، لن يقول لك الحقيقة أبداً في هذا المجال . سيقدّرك الجمهور - أنا متأكدة من هذا . . . ألن تكتب؟

- حسناً .

- هل ستبدأ قريباً؟

- حالما أستطيع . لم يبق عندي الآن إلاّ هذا الأمل .

- انضمّ إليهما بطرس إيڤانيتش ، الذي نام نوماً كافياً ، وهو يرتدي ملابس الخروج ويمسك قبعته بيديه . نصح هو الآخر أيضاً بأن يستأنف نشاطه ويزود المجلة بدراسات عن الاقتصاد الزراعي .

- سأحاول ياعمّاه ، - أجاب ألكسندر ، - لكنني وعدت زوجة عمي . . .

غمزته ليرابيتا ألكسندروڤنا كي يصمت ، لكنّ بطرس إيڤانيتش لاحظ ذلك .

- ماذا ، ماذا وعدت؟ - سأل هو .

- وَعَدَ ان يجلب لي نوتات جديدة ، -أجابت هي .

- كلا ، ليس صحيحاً ، ما الأمر ياألكسندر؟

- وعدتُ ان أكتب رواية ، أو شيئاً ما آخر . . .

- ألم تكف بعد عن كتابة الأدب الرفيع؟ - قال بطرس إيڤانيتش ، وهو يزيل ذرّات الغبار عن معطفه - وأنت ياليزا ، عبثاً تضلّلينه وتربكينه!

- لا أملك الحقّ ، بالكفّ عن هذا ، - لاحظ ألكسندر .

- وهل هناك من يمنعك؟

- لماذا ينبغي عليّ ان أرفض طوعاً النعمة، التي يجب أن أحافظ عليها وأنمّيها؟ كيف يمكن أن أحطم آخر أمل في حياتي؟ عندما أقضي على مامنحه الله لي من موهبة، أكون قد قضيتُ على نفسي . . .

-اشرح لي من فضلك: ما الذي منحه الله لك؟

- هذا مالا أستطيع أن أوضحه لك ياعماه: ينبغي عليك أن تدرك هذا بنفسك. هل وقف شعر رأسك من دون مشط؟

- كلا! -قال بطرس إيڤانيتش.

- أرأيت! هل اضطرم فيك الهوى والتهب خيالك، وصوّر لك أطباقاً ساحرة رائعة تطالب بأن تجد تجسيداً لها؟ هل خفق قلبك خفقاناً خاصاً مميّزاً؟

- ياللغرابة، ياللغرابة! ماذا تريد ان تقول؟ - سأل بطرس إيڤانيتش.

- هذا يعني، أنه يستحيل توضيح سبب الرغبة في الكتابة لمن لم يحسّ بهذا كله. فالنفس القلقة المنشغلة، التي تُردّد بإلحاح نهاراً وليلاً، في الحلم واليقظة: اكتبْ، اكتبْ، لايستطيع صاحبها أن يكفّ عن هذا . . .

- لكنّك لاتجيد الكتابة، أليس كذلك؟

- بطرس إيڤانيتش، كفى: إذا كنت لاتعرف الكتابة، فلماذا تعيق الآخرين؟ - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

- معذرة ياعمّي إنْ قلت، بأنك لاتصلح أنْ تكون حكَماً في هذا المجال.

- من الحكَم إذن؟ هي؟

أشار بطرس إيڤانيتش إلى زوجته.

إنها تفعل هذا قصداً وأنت تصدّق، - أضاف هو.

twitter @baghdad_library

- أنت نفسك نَصحتني في بداية مجيئي الى هنا بأن أكتب وأختبر نفسي . . .

- ماذا تريد ان تستنتج من هذا؟ جَرّبْتَ، فلم تُفلح : الأفضل ان تترك .

- هل يُعقل أنك لم تجد فيما كتبت ، فكرةً جيّدةً وبيت شعر رائع؟

- كيف! وجدت . أنت لاتخلو من الذكاء : هل يُعقل ألا يجد المرء فكرة جيّدة واحدة في بضع بودات من انتاج إنسان لايخلو من الذكاء؟ لكنّ هذا لايدخل ضمن إطار الموهبة . بل العقل .

- آه! قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا بأسى ، وهي تُغيّر جلستها على الكنبة .

- من منّا لايحسّ بخفقان القلب وخلجات الفؤاد وبحلاوة هذا كله؟

- أعتقد أنك أولُ من لايحسّ بهذا كله! - لاحظت الزوجة .

- هكذا إذن! لعلّك تذكرين ، أنني كنتُ أُبدي إعجابي أحياناً . . .

- بأيّ شيء ؟ لا أذكر .

- (مخاطباً ابن خيه) كلّ الناس يعيشون هذه الأحاسيس ، - تابع بطرس إيڤانيتش ، - مَنْ منّا لايؤثّر فيه الصمت وحلكة الليل وحفيف غابة البلّوط ، أو الحديقة والنبع والبحر؟ لو كان الفنّانون وحدهم قد أحسوا بهذا فقط ، لما تيسر لأحدٍ قط إدراك هذه الأحاسيس ، لكنّ تصوير هذه الأحاسيس كلها وعكسها في مؤلّفات إبداعية ، - يعتبر مسألة أخرى : من أجل هذا ينبغي أن تتوفر الموهبة ، التي لاتوجد عندك حسب اعتقادي . الموهبة لايمكن إخفاؤها : إنها تتبدى وتسطع في كل سطر وجرّة قلم . . .

-بطرس إيڤانيتش! حان أنْ تذهب الى عملك ، قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا .

-سأنهي حديثي حالاً .

- تريد أن تتمير عن الآخرين؟ - تابع هو . - يوجد لديك ماتتميز به . رئيس التحرير يثني عليك ، ويقول إن مقالاتك عن الإقتصاد الزراعي قد صيغت بعناية ،

ففيها مايكفي من الأفكار الجيدة، التي تكشف عن باحثٍ علمي متميز. سُررت لهذا وقلتُ في نفسي: «كل آل أدوييف أذكياء!». أنت ترى الآن، أنه توجد لدي أنفة وعزّة! تستطيع ان تتميز في عملك الوظيفي أيضاً، وتستحوذ في الوقت نفسه على شهرة كاتب.

-يالها من شهرة: كاتبٌ يتحدث عن الزراعة والأرض.

- لكلّ إنسانٍ مجاله: كُتب على البعض التحليق في السماوات الفسيحة، بينما كُتب على« البعض الآخر، التنقيب في الأرض لاستخراج الكنوز منها. لا أفهم السبب، الذي يجعل الناس يستخفّون بالمهامّ المتواضعة؟ إنها تملك سحرها الخاص أيضاً. كان بإمكانك أن تنال حظاً كبيراً من النجاح في هذا المجال وتحصل على مالٍ وفير لقاء جهدك وعملك، وتتزوّج زواجاً رابحاً مفيداً كما تفعل الأغلبية الساحقة من الناس... لا أعرف ماذا تريد أكثر. هكذا تكون قد نفّذت واجبك وأمضيت حياتك بشرفٍ وكدّ واجتهاد- لعمري تلك هي السعادة! هذه هي وجهة نظري. أنا مثلاً، مستشارٌ على صعيد الوظيفة، وصاحب مصنع على صعيد المهنة، فلو عرض عليَّ عوضاً من هذا لقبُ أفضل شاعر، لَرَفضته بلا تردد!

-(مقاطعة)! بطرس إيڤانيتش: لقد تأخرت كثيراً! - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا. - لم يبق إلا لحظات حتى تصبح الساعة العاشرة.

- حان وقت ذهابي حقاً. إلى اللقاء.

twitter @baghdad_library

II

ما إن عاد ألكسندر من عند عمه الى البيت، حتى جلس على كرسيه الوثير، واستغرق في تفكير عميق. استرجع كلّ الحديث، الذي دار بينه وبين عمه وزوجة عمه وطالب نفسه بحساب صارم عسير.

كيف يسمح لنفسه في مثل هذا العمر أن يكره ويحتقر الناس، وهو ينتقد تفاهتهم وسطحيتهم و نقاط ضعفهم، بينما ينسى أن يحاكم نفسه، وهو يصنّفهم جميعاً ويصنف كل واحد من معارفه! ياله من عمى! لقد لقّنه عمّه درساً، كما يلقّن المعلم تلميذاً مبتدئاً، وعرّاه على حقيقته، وفعل هذا كله أمام امرأة، كي يجبره على أن يلتفت لنفسه! كم فاز عمه في عيني زوجته في هذه الأمسية! هكذا ينبغي أن يكون، ولا غرابة في هذا مطلقاً، بيد أن فوز عمه كان على حسابه هو. بهذا يكون العمّ قد حقّق عليه تفوقاً لاجدال فيه، في كلّ المجالات والأمكنة.

«بعد هذا كله، -فكر هو، أين أفضلية الشباب والنضارة وتوقد الذهن واضطرام المشاعر، إذا كان إنسانٌ يمتلك بعض الخبرة وكثيراً من قساوة القلب، قد استطاع دون عناء أو جهد، أنْ يُحطّمه في كل خطوة يخطوها؟ متى سيكون النقاش متكافئاً ومتى سيكون التفوق الى جانبه؟ ورغم انه يبدو متفوّقاً في الموهبة ووفرة القوى الروحية... فإنّ عمه يبدو جباراً بالمقارنة معه. فهو يناقش بثقة غير محدودة بالنفس ويزيل ببساطة متناهية كل تناقض يعترض طريقه، ويبلغ هدفه وهو يمزح ويتثاءب، ويسخر من المشاعر والإنفعالات في الحب والصداقة. بكلمة واحدة، إنه يسخر من كلّ مامن شأنه أن يثير حسد وغيرة الكهول من الشبان».

أحسّ ألكسندر بالخجل، وهو يسترجع هذا كله في ذهنه. قطع على نفسه عهداً بأن يراقب نفسه بصرامة، ويهزم عمه في أوّل فرصة سانحة ويثبت له أنّ مامن

تجربةٍ تستطيع أن تحل مكان ما أودعه الله في النفس من خصال وميزات، وأن تكهنات بطرس إيفانيتش وأساليبه الباردة لن تجدي معه نفعاً منذ هذه اللحظة، مهما حاول أن يستخدم من نصائح ومواعظ. عزم ألكسندر على أن يجد لنفسه طريقه الخاصة، التي سيسير عليها بخطى ثابتة، غير خجولة ولا مترددة. لم يعد الآن كما كان منذ ثلاث سنوات خلت. فقد اخترقت نظرتُه أعماق النفس وأسرارها وتمكن من تفحص لعب الأهواء والمشاعر والوقوف على حقيقة الأحاسيس، واكتشف سرّ الحياة، لكن، ليس دون عذاب وألم. بيد أنه بالمقابل، صقل نفسه ووطّدها الى الأبد ضد كل التحديات، التي ستواجهه. أصبح المستقبل واضحاً أمامه، وتمرّد وتحصن ضدّ المظاهر الخادعة البراقة، فلم يعد طفلاً، بل صار رجلا يشق طريقه الى الأمام بشجاعة. سيرى عمه كيف سيلعب في نهاية المطاف أمام ألكسندر الخبير المتمرس، دور التلميذ المسكين. سيعرف والدهشة تستولي عليه، أن هناك حياة أخرى وميزات وفوارق وسعادة أخرى، غير ذلك المستقبل البائس، الذي اختاره لنفسه والذي فرضه عليه ربما بدافع من الغيرة والحسد. لايلزمه إلا جهدٌ واحد فقط، حتى يصبح الصراع محسوماً لصالحه.

انتعش ألكسندر. صار يخلق لنفسه من جديد، عالما خاصاً أكثر حكمة وعقلانية من السابق. كانت زوجة عمه تقوّي وتُدعّم فيه هذا الميل، لكن في السرّ، عندما يكون بطرس إيفانيتش نائماً، أو بعد أن يذهب الى المصنع، أو الى النادي الانكليزي.

كانت تتجادل معه غالباً، لكنها كانت تتفق مع آرائه أكثر.

تعلق ألكسندر بالعمل، كما يتعلق المرء بآخر أملٍ له. «بعد العمل، - كان يقول لزوجة عمّه، - لايوجد شيء إلاّ البراري المقفرة، التي لا ماء فيها ولا خضرة؛ بعد العمل، لايوجد إلا الظلام والصحراء؛ كيف ستكون الحياة عندئذ؟ الأفضل أن يُدفن المرء وقتئذ!» وكان يعمل بلا كلل.

twitter @baghdad_library

كان الحبّ المنطفىء يخطر على باله أحياناً، فيضطرب ويلجأ الى القلم، ويكتب رثاء مؤثراً. في مرّة أخرى، كانت المرارة تعتصر فؤاده، فينبعث من أعماق النفس ماكان يجيش فيها منذ أمد بعيد، من حقدٍ على الناس وازدراء لهم، فيتجسد ذلك كلّه في بضع أبيات حماسية غاضبة. في الوقت نفسه، كان يبتكر ويكتب رواية. أنفق عليها كثيراً من الأمل والتفكير والإحساس والجهد الفيزيولوجي، الذي استمر قرابة نصف عام. هاهي الرواية قد أُنجزت في نهاية المطاف، ثمّ نُقُحّت وصيغت من جديد بشكلها النهائي الناجز. كانت زوجة عمّه معجبة بها أشد الإعجاب.

لم تكن أحداث هذه الرواية تدور في أمريكا، بل في إحدى قرى تامبوفسك. شخوص الراوية كانوا أناساً عاديين: من بينهم الواشي والكذاب وكلّ أصناف الوحوش، وهم يتبخترون في بزاتهم الرسمية، والى جانبهم نساءٌ خائنات بمشداتهن وقبعاتهن، وكلهنّ يتظاهرن بالحشمة والأدب.

- ألا تعتقدين ياخالة، أنني أستطيع أن أطلع عمي على هذه الرواية؟

- طبعاً، طبعاً - أجابت هي... لكن، أليس من الأفضل ان تنشرها كما هي، دون أن تستمزج رأيه؟ إنه يعارض دائماً هذا اللون من الإبداع الفكري: سيقول شيئاً ما في معرض السخرية والتهكم... أنت تعرف، أنّ هذا اللون من الإبداع الفنّي يبدو في عينيه دائماً عملاً صبيانياً.

-كلا، من الأفضل ان أطلعه عليها! - أجاب ألكسندر. - أنا لا أخشى أحداً بعد رأيك السديد ووعيي الخاص، لذا سأطلعه عليها كي يرى كيف...

تَمَّ إطلاع بطرس إيڤانيتش عليها. ما إن رأى العم الدفتر، حتى تجهم قليلاً وهز رأسه.

- هل ألفتما هذه الرواية بصورة مشتركة؟ - سأل هو. -إنها كبيرة. كم هي مكتوبة بخطٍ ناعم، دقيق: ما الحاجة لذلك!

– توقف عن هز رأسك ، – أجابت الزوجة ، الأفضل أن تسمع أولاً . اقرأها لنا ياألكسندر . لكن ، ينبغي عليك ان تصغي بانتباه ، دون ان تنام ، وبعدها تستطيع إصدار حكمك . هناك ملاحظة أودّ أن أقولها في هذا السياق ، هي ان المرء يستطيع أن يجد الثغرات في كلّ مكان ، إذا أراد البحث عنها . لذا ، ينبغي أن تكون متساهلاً .

– كلا ، لماذا؟ كُن منصفاً فقط ، – أضاف ألكسندر .

–لا مفرّ من ذلك ؛ سأصغي ، – قال بطرس إيڤانيتش وهو يطلق زفرة ، – لكن بشرطين اثنين : أولاً ألاّ تتمّ القراءة بعد الغداء فوراً ، وإلاّ فلن أستطيع أن أكفل نفسي بعدم النوم . هذا مايجب أن تضمنه أنت بنفسك ياألكسندر ، فأنا لا أستطيع مقاومة إغراء النوم بعد الغداء . ثانيا : إذا وَجدتُ شيئاً ما جيداً ، فسأقوم بإبداء رأيي ، وإن لم أجد ، فسأصمت فقط .

بدأ ألكسندر القراءة ، لم ينم بطرس إيڤانيتش مطلقاً ، وكان يصغي دون أن يُحوّل نظره عن ألكسندر ، حتى أنه نادراً ما كان يرفّ عينيه ، وهز رأسه مرّتين مبدياً علامة الإستحسان .

– أرأيت! قالت الزوجة بصوتٍ خافت . قلت لك ، أنه . . .

استمرت القراءة أمسيتين متتاليتين : في الأمسية الأولى بعد القراءة ، ذكر بطرس إيفانيتش لزوجته كلّ ماسيحدث لاحقاً ، وكانت دهشتها كبيرة .

–كيف عرفت هذا؟ سألت هي .

– وهل الأمر غاية في التعقيد! الفكرة ليست جديدة ، فقد كُتب عنها ألف مرّة . أعتقد أن لاداعي للقراءة أكثر ، لكن ، سنرى مع ذلك كيف ستتطور الأحداث عنده .

عندما أنهى ألكسندر في الأمسية الثانية ، قراءة الصفحة الأخيرة ، رَنّ بطرس إيڤانيتش الجرس . دخل شخص .

twitter @baghdad_library

- جهِّز لي ملابسي، - قال هو، - اعذرني ياألكسندر لمقاطعتك: إني مستعجل، - فأنا أخشى أن أتأخر عن لعب الورق في النادي.

- انتهى ألكسندر. أسرع بطرس إيڤانيتش في الإنصراف.

- إلى اللقاء! - قال هو مخاطباً زوجته وألكسندر. تأخّرتُ عن الذهاب الى هناك.

- مهلاً، مهلاً! - صرخت الزوجة - لماذا لم تقل شيئاً عن الرواية؟

- لايترتب عليّ قول شيء بموجب اتفاقنا! - أجاب هو وأراد أن ينصرف.

- هذا تعنّت وعناد! - قالت هي. - آه، كم هو عنيد- أنا أعرفه جيداً! لاتعر هذا الأمر أي اهتمام ياألكسندر.

« هذا موقف عدائي!- فكّر ألكسندر. - إنه يريد أن يُشوِّه سمعتي ليحملني على الإلتحاق بوسطه الإجتماعي. مع ذلك، يظلّ موظفاً وصناعياً ذكياً، لا أكثر، أما أنا فشاعر. . . ».

-هذا تصرّف رديء جداً يابطرس إيڤانيتش! - بدأت الزوجة والدموع تكاد أن تطفر من عينيها. - قل ولو شيئاً ما. رأيتك كيف كنت تهز رأسك مبدياً علامة الإستحسان، هذا يعني أنّ الرواية قد أعجبتك. لكنك لاتريد أن تعترف بسبب عنادك فقط. لاتريد ان تُسلّم، أنّ الرواية قد أعجبتك! اعترف بأنها جيدة.

- كنت أهز رأسي، لأنه كان واضحاً من سياق الرواية، أن ألكسندر ذكي، لكنه لم يتصرف بذكاء عندما كتبها.

- بيد أن حكما كهذا ياعماه. . .

- اسمع: أنتَ لاتثق بي، لذا فإنه لاداعي للنقاش. من الأفضل ان نختار وسيطاً، أعني مُحكّماً حتى أنني سأخبرك بماسأقوله، كي ننهي هذا الأمر فيما بيننا مرّة واحدة وإلى الأبد: سأدعي أنني مؤلف هذه الرواية وأرسلها الى صديق يعمل

في مجلة: سنرى ماسيقول. أنت تعرفه، وتثق بحكمه على الأرجح، إنه إنسان خبير.

- حسناً، سنرى.

جلس بطرس إيڤانيتش الى الطاولة وكتب بضعة أسطر، ثم أعطى الرسالة لألكسندر:

«دخلتُ عالم الكتابة والتأليف في سنّ متأخرة، - كتب هو، - ما العمل: فأنا أريد أن أكتسب الشهرة، لذا قرّرت أن ألجَ عالم الكتابة هذا، - لقد جننت! ها أنا ذا أبعث إليك بروايتي هذه. اقرأها، وإذا وجدتها مناسبةً، فأرجو أن تنشرها في مجلتكم لقاء مكافأة مالية بالطبع: أنت تعلم، أنني لا أحبّ العمل مجاناً. ستتعجب ولن تُصدق، لكني أفوضك حتى بوضع كنيتي على الرواية، هذا يعني أنني لا أكذب».

صار ألكسندر الواثق بتلقي تقييم إيجابي عن الرواية، ينتظر الردّ بهدوءٍ واطمئنان. حتى أنه سُرَّ كثيراً عندما تطرّق عمه في رسالته الى مسألة النقود.

«إنها لبادرةٌ ذكيّة منه، -فكّر هو، -أمي تشتكي وتقول، إن الحبوب رخيصة: أُرجح أنها لن ترسل لي نقوداً في وقتٍ قريب، لذا فإن استلام ألف وخمسمائة روبل كمكافأة على الرواية، تأتي في الوقت المناسب».

ثلاثة أسابيع انقضت، ولم يأتِ الردّ. أخيراً، ذات مرّة صباحاً، تلقى بطرس إيڤانيتش طرداً كبيراً ورسالة.

- ها! لقد أعيدت! - قال وهو ينظر بمكرٍ الى زوجته.

لم يفضّ الرسالة ولم يُطلع زوجته عليها، رغم إلحاحها ورجائها. في مساء نفس اليوم، قبيل ذهابه إلى النادي، توجه بنفسه الى ابن أخيه.

لم يكن الباب موصداً. دخل. كان يفسيي يشخر وهو مستلقٍ على الأرض بصورة مائلة في غرفة المدخل. أما الهباب فكان يغطّي السراج بكثافة ويتدلّى من الشمعدان. نظر إلى الغرفة الثانية، فلم يرَ إلا الظلام.

twitter @baghdad_library

«أيها الريف!» - غمغم بطرس إيفانيش .

ظلّ يهزّ يفسيي حتى أيقظه ، ثم أشار الى الباب والشمعدان ولوّح له مهدّداً بالعصا . كان ألكسندر يجلس في الغرفة الثالثة واضعاً يديه على الطاولة ، ومسنداً رأسه عليهما ، وهو نائم أيضاً . كانت توجد أمامه صحيفة من الورق . نظر بطرس إيڤانيتش الى الورقة ، فرأى أبياتاً من الشعر مُدوَّنة عليها . أخذ الورقة وقرأ التالي :

انقضى فصل الربيع الرائع

واختفت الى الأبد لحظة الحبّ الساحرة

ونامت في الصدر نوم القبور

لن يسري اللهيب في دمي الآن!

على مذبحه تيتّمت

منذ زمن بعيد أقمْتُ معبوداً آخر

أصلي إليه . . لكنْ

- ثم نمت! صلّ ياعزيزي ولاتتكاسلْ! -قال بطرس إيڤانيتش بصوت مسموع . - كم ذَهَبَتْ بك بعيداً قصائدك هذه! لماذا أردت مُحكماً آخر؟ أنتَ الذي تجني على نفسك .

-ماذا! - قال ألكسندر وهو يتمطى . - لاتزال ضدّ مؤلفاتي! قل لي بصراحة ياعماه : ما الذي يجعلك تحارب موهبتي بإصرار في الوقت الذي ينبغي عليك فيه أن تعترف . . .

- الحسد ياألكسندر . احكم بنفسك : أنتَ تمتلك المجد والإحترام وربما الخلود أيضاً ، أما أنا فلستُ إلا إنساناً جاهلا يضطر لأن يرضى ويقتنع بلقب الكادح المفيد . لكنني أنتمي إلى آل أودييف أيضاً . كم يبعث هذا الوضع على الأسى والأسف! من أنا ومن أكون؟ عشتُ حياتي كلها منسيّاً مغموراً ، لكنني نفذّت

واجبي وقمتُ بعملي على أحسن وجه، وكنتُ فخوراً وسعيداً بهذا. أليس مصيري محزناً؟ عندما سأموت، أي عندما يزول إحساسي وتنتهي معرفتي، فإنّ أوتار الأرمونيكا المتنبئة لن تتحدّث عني ولن تمتلىء العصور المقبلة والعالم بإسمي، ولن يعرف أحدٌ في هذا الكون، أنّ مستشاراً يدعى بطرس إيڤانيتش أدويف قد عاش في هذا العالم في وقت من الأوقات، ولن يكون هذا كله عزاءً لي وأنا في القبر، إذا سلم القبر وسَلمتُ أنا بطريقةٍ ما حتى عصر الأحفاد. سيكون الأمر مختلفاً جداً بالنسبة لك: فعندما ستخفق بجناحيك وتطير تحت الغيوم، فإن عزائي الوحيد المتواضع، هو أنني سأجد بين الأعمال الإنسانية الكثيرة قطرة من عسلي، كما يقول كاتبك.

- ناشدتك الله ان تدع هذا جانباً؛ عن أي كاتب محببٍ تتحدّث! تريد أن تسخر فقط ممّن هو قريب منك.

- أسخر! ألم تكفّ عن حبّ كريلوف منذ أن رأيت صورتك عنده؟ بالمناسبة: هل تعلم أنّ مجدك المقبل وخلودك موجودان في جيبي؟ لكنني كنتُ أريد ماهو أفضل من هذا كلّه، أي أن تكون النقود موجودة في جيبي أيضاً.

- أيّ مجد؟

- الجواب على رسالتي.

- آه! ناشدتك الله أن تعطيني إيّاه بسرعة. ماذا يقول؟

- لم أقرأه. اقرأهُ أنتَ بصوتٍ مسموع.

- كيف استطعتَ أن تصبر؟

- وماعلاقتي بالأمر؟

-كيف! ألستُ ابن أخيك " ألا ينبغي ان يثير الأمر فضولك؟ ياله من برود! هذه أنانية ياعماه!

twitter @baghdad_library

- ربما. لكنني بالمناسبة، أعرف ماهو مكتوب هنا. خذ واقرأ.

بدأ ألكسندر يقـرأ بصـوت عـالٍ، بينمـا كـا بطرس إيڤانيـتش ينقـر حـذاءه بالعصا. كانت الرسالة تتضمن الآتي:

«ماهذه الشعوذة أيها العزيز بطرس إيفانيتش؟ صرت تكتب روايات! من يُصدّقك؟ هل كنت تظن ّأنك ستضللني، وأنا المحنَّك الذي يصعب تضليله! إذا كان ماتقوله حقيقةً لاسامح الله، وثبت أنك قد توقفت ولو مؤقتاً، عن تدوين السطور الثمينة بكلّ ماتحمله هذه الكلمة الأخيرة من معنى حرفي، والتي يعادل كلّ سطرٍ منها أكثر من عشرة روبلات، وأقلعت عن استخلاص الإستنتاجات الموقّرة، - إذا ثبت هذا كله وتأكد أنك قد انتجت الرواية الموجودة أمامي، فلا يسعني إلا أن أصارحك بأن منتجات مصنعك الهشة هي أمتن وأفضل بكثير من عملك الفني هذا...».

أحسّ ألكسندر، أن صوته قد خانه فجأة.

«لكنني أستبعد مثل هذا الشك، فلا أتصور مطلقاً أن تقوم بعمل كهذا». - تابع هو بحياء وبصوتٍ خافت.

«أنت متعاطف مع كاتب الرواية، وتريد على الأرجح أن تعرف رأيي. سأقول لك رأيي صراحةً. ينبغي أن يكون الكاتب شاباً. ليس غبياً، لكنه غاضب من العالم كله. كم يكتب بروح حانقةٍ قاسية! لابّد أنه خائب الأمل، آه ياإلهي! متى سينقرض هؤلاء الناس؟ كم أشعر بالأسى والأسف، وأنا أرى مواهب عديدة تضيع عندنا في متاهات وأوهام فارغة لاجدوى منها، وفي محاولات باطلة لاأمل فيها، - كلّ هذا ناتجٌ عن تبني نظرة زائفة للحياة».

توقف ألكسندر واستردّ أنفاسه. أما بطرس إيڤانيتش فقد أشعل سيجارة ونفث حلقه من الدخان، كان وجهه كالمعتاد يعبر عن هدوء كامل، تابع ألكسندر القراءة بصوتٍ خافتٍ لايكاد يسمع:

« رقة الإحساس، والعيش في عالم الأحلام والإضطرام المبكر للعواطف، وجمود الذهن، ومايتنج عنه بالضرورة من كسل، - تلك هي أسباب هذا الحقد والغضب. بيد أن شبيبتنا الخاملة المريضة لايمكن إعادتها الى طريق الصواب، إلاّ من خلال العلم والعمل والممارسة التطبيقية على صعيد الواقع».

-يمكن شَرحُ المسألة كلها بثلاثة أسطر، - قال بطرس إيڤانيتش وهو ينظر الى الساعة، - لكنه دبّج في رسالته الودّية هذه أطروحة كاملة! أليس هذا ضرباً من الإدعاء؟ هل ستتابع القراءة ياألكسندر؟ كفى: لقد شعرتُ بالملل. أريد أن أقول لك شيئاً ما. . .

- كلا، اسمح لي ياعمآه أن أشرب الكأس حتى النهاية: سأكملُ القراءة.

-اقرأ هنيئاً.

«هذه النزعة الحزينة للإمكانات الروحية والنفسية، - قرأ ألكسندر، - تتبدى في كلّ سطر من سطور الرواية المرسلة من قبلك. قُل لمن هو تحت وصايتك وحمايتك، إنّ المرء يصبح كاتباً فقط، عندما يكتب أولاً بذكاء وفطنة ويتحرر من تأثير نزواته وأهوائه. ينبغي عليه أن يتناول الحياة والناس بوجهٍ عام من خلال وجهة نظر هادئة متفائلة، - وإلا فإنه لن يعبر إلاّ عن ذاته فقط، التي لاتهم الناس كثيراً. هذا العيب يسيطر على الرواية بشكل ملحوظ جدّاً. الشرط الثاني والرئيسي - أرجو ألا تبوح به للكاتب، من باب الشفقة على شبابه وأنفته كمؤلف، التي يعتبر النيل منها من أكثر الأمور إيلاما وإزعاجاً، - هو الموهبة، التي لا أعثر على أثر لها. اللغة بالمناسبة، صحيحة ونظيفة، حتى أنّ الكاتب يمتلك أسلوباً. . . » أكمل ألكسندر بعد جهدٍ جهيد.

-كان ينبغي ان تعرف هذا منذ زمن بعيد! - قال بطرس إيڤانيتش، - وإلاّ فالله وحده يعلم ما الذي كنت ستقوله! أما الأمور الأخرى، فيمكن ان نناقشها معاً، دون استعانة بأحد.

twitter @baghdad_library

استولى اليأس على ألكسندر. كان ينظر مباشرة الى الجدار بعينين زائفتين وهو صامت، كما ينظر إنسانٌ صعقتَه ضربة قوية مفاجئة. أخذ بطرس إيڤانيتش الرسالة منه وقرأ الملاحظة التالية: «إذا كنت تصر على نشر هذه الرواية في مجلتنا - فيمكن أن ننشرها إكراماً لك خلال أشهر الصيف، عندما يقلّ إقبال الناس على القراءة، لكنّ التفكير بمكافأة مالية، هو ضرب من المستحيل».

- كيف حالك الآن ياألكسندر؟ - سأل بطرس إيڤانيتش.

- أشعر أني أهدأ حالاً بكثير مما كنتُ أتوقع، - أجاب ألكسندر بصعوبة. - إحساسي الآن، هو إحساس إنسانٍ مخدوعٍ بكل شيء.

- كلا، إحساسك الآن، هو إحساس إنسانٍ يخدع نفسه بنفسه ويريد أن يخدع الآخرين...

لم يسمع ألكسندر هذا الإعتراض.

- أيعقل أنْ يكون هذا حلماً؟... أُخدَع بهذا أيضاً؟ - همس هو - يالها من خسارة مريرة! ينبغي أن أكون قد تعوّدت على الخداع! لكن، لماذا لم أدرك سر هذه الدوافع الخفية نحو الإبداع الفني، المغروسة في نفسي، والتي لاتُقهر؟...

- هكذا إذاً! أجل، الدوافع الإبداعية مغروسة فيك، لكنّ الإبداع ذاته لم يُغرس فيك سهواً كما يبدو- قال بطرس إيڤانيتش، - كم قلتُ لك هذا!

أجاب ألكسندر بتنهيدةٍ واستغرق في التفكير، ثم اندفع فجأة بحيوية وفتح كل الجوارير، وأخرج منها مجموعة من الدفاتر والأوراق والقصاصات وبدأ يرميها بعنف في الموقد...

- لاتنس هذه أيضاً! - قال بطرس إيڤانيتش، وهو يحرك نحوه صحيفة من الورق كتبت عليها بداية قصيدة، كانت متروكة على الطاولة.

- وهذه أيضاً - قال ألكسندر بيأس، وهو يرمي بعض الأشعار في الموقد.

- لم يبق شيء؟ فتّشْ جيّداً، - سأل بطرس إيڤانيتش وهو ينظر حوله، - أنجزْ عملاً ذكياً ولو مرّة واحدة في العمر، ماهذه الصرّة، التي هناك على الخزانة؟

- إلى النار أيضاً! - قال ألكسندر وهو يتناولها، - هذه مقالات عن الإقتصاد الزراعي.

- لاتحرقها، لاتحرقها! هاتها! - قال بطرس إيڤانيتش وهو يمدُّ يده. - هذه ليست سخافات.

لكنّ إلكسندر لم يمتثل لطلبه.

- كلا! - قال هو بغيظ، - مادام الإبداع الفني الرفيع قد أُتلف عندي، فلا أريد أن أحتفظ بما هو أقلّ أهمية: لن يقهرني القدر في هذا!

طارت الصرّة الى النار.

-عبثاً! - لاحظ بطرس إيڤانيتش، فيما كان يبحث هو بنفسه في السلة الموجودة تحت الطاولة عن شيءٍ ما آخر، كي يرميه في النار.

- ماذا سنفعل بالرواية ياألكسندر؟ إنها عندي.

- ألا تحتاجها لتلصيق الحواجز الخشبية؟

- كلا، لا أحتاجها الآن. ألا نجلبها؟ يفسيي! نمتَ من جديد! انتبه، قد يُسرق معطفي الموجود هناك أمام عينيك! اذهبْ الى البيت واطلب هناك من ڤاسيلي دفتراً سميكاً، موجوداً على مكتبي، واجلبه الى هنا.

جلس ألكسندر، وهو يتكىء على يده وينظر الى الموقد. جُلب الدفتر. نظر ألكسندر الى ثمرة نصف عام من الجهد واستغرق في التفكير. لاحظ بطرس إيڤانيتش ذلك.

- أتمْ عملك ياألكسندر، - قال هو، كي نتحدث بعد ذلك عن أمرٍ آخر.

- وهذا أيضاً الى هناك! - صرخ ألكسندر وهو يرمي الدفتر في النار.

twitter @baghdad_library

صارا ينظران كيف سيحترق. كان بطرس إيفانيتش ينظر كما يبدو، بارتياح، فيما كان ألكسندر ينظر بأسى، وبالدموع تقريباً. هاهي ذا الورقة العلوية تتحرك وترتفع الى الأعلى، كأنّ يداً خفيّة كانت تقلبها. صارت أطرافها تنثني، ها قد أصبحت سوداء اللون؛ بعد ذلك، صارت تتغضّن، ثم اشتعلت فجأة؛ اشتعلت بعدها بسرعة ورقة ثانية وثالثة، ثم ارتفعت هناك فجأة الى الأعلى عدة أوراق اشتعلت جميعها دفعة واحدة، لكنّ الصفحة، التي كانت تحتها مباشرة، لازالت بيضاء، وبعد ثانتين بدأت أطرافها تسود أيضاً.

رغم ذلك، لحق ألكسندر أن يقرأ عليها: الفصل الثالث. تذكّر ماكان مكتوباً في هذا الفصل، وشعر بالأسى والحزن لفقدانه. نهض عن الكرسي وخطف الملقط كي يُنقذ بقايا إبداعه الفنّي. «ربما يتيسر أيضاً. . .» همس له الأمل.

- تمهّلْ، الأفضل استخدام العصا، قال بطرس إيڤانيتش، - وإلا سيحرقك الملقط. دفع الدفتر الى عمق الموقد، الى الجمر مباشرة. توقف ألكسندر متردداً. كان الدفتر سميكاً لم تؤثر فيه النار فوراً. أخذ الدخان الكثيف يتصاعد من تحته أولاً، فيما كان اللهب يندلع أحياناً من الأسفل، فيلحس طرفه مُخلّفاً عليه بقعة سوداء، ثم يتوارى من جديد، كان مازال ممكناً إنقاذه. مدّ ألكسندر يده، لكن، في هذه اللحظة بالذات، أنار اللهب الكرسي ووجه بطرس إيڤانيتش والطاولة. اشتعل الدفتر كله، ثم خمد بعد دقيقة، وقد تحوّل الى كومة من الرماد الأسود، كانت تسري خلالها في بعض الأماكن حيّات ناريّة. رمى ألكسندر الملقط.

- كلّ شيء انتهى! - قال هو.

- انتهى! - كرّر بطريس إيڤانيتش.

- آه! - غمغم ألكسندر، - أنا حرّ!

- في المرّة القادمة، سأساعدك في تنظيف الشقة، قال بطرس إيفانيتش، - آمل أن تكون هذه المرة. . .

- الأخيرة ياعماه .

-آمين! - نطق العم، وهو يضع يديه على كتف ابن أخيه . - أنصحك ياألكسندر ألاّ تتلكأ : اكتب الى إيڤان إيفانيتش فوراً، كي يرسل إليك عملاً يتعلق بفرع الإقتصاد الزراعي . تستطيع الآن، بعد أن انتهيت من هذه السخافات كلها، ان تكتب دون تأخير، عملاً رائعاً جداً. أما هو، فكان يلحّ عليّ قائلاً : «ماذا قال ابن أخيك . . . » .

هزّ ألكسندر رأسه بأسى .

- لا أستطيع، - قال هو، كلا، لا أستطيع : كل شيء انتهى .

- ماذا ستفعل الآن؟

- ماذا؟ -سأل هو واستغرق في التفكير . - لن أفعل الآن شيئاً .

- يحدث هذا في الريف فقط، عندما يعرف الناس بطريقةٍ ما، أنهم لايفعلون شيئاً، أمّا هنا . . . لماذا أتيت الى هنا؟ هذا غير مفهوم! . . . كفى حديثاً عن هذا الآن . لي عندك رجاء .

رفع ألكسندر رأسه ببطء ونظر الى عمه متسائلاً .

- ألا تعرف، - بدأ بطرس إيڤانيتش الكلام، وهو يُقرِّب كرسيه نحو ألكسندر، - شريكي سوركوف؟

- هزّ ألكسندر رأسه .

- أجل، سبق أن تناولت الغداء معه عندي، لكن، هل تيّسر لك فقط أن تنظر إليه جيّداً وتتبين أيّ إنسانٍ هو؟ إنه فتى طيّب، لكنه تافه جداً. نقطة ضعفه المسيطرة - النساء . إنه لسوء حظه، ليس سيئاً، ولابشعاً كما تعلم، فهو مورّد الخدين، ناعم، أهيف، لكنه دائماً مجعد الشعر، معطّر برائحة قوية ومهندم كالصورة : يتصورّ أن كل النساء مفتونات به - إنه باختصار، شخص طائش متأنق!

twitter @baghdad_library

ليذهب الى الشيطان! ماكنتُ لألاحظ هذا كله، لولا مصيبة واحدة: ما إن يهزه الشوق، حتى يذهب ويبدد ماله. عندئذ تنهال المفاجآت والهدايا والاسترضاءات، ويغرق كلياً في عالم اللهو والتسلية، ويبدأ بتغيير العربات والأحصنة... بكلمات أخرى، يبدأ الخراب والإفلاس! صار يغازل زوجتي أيضاً. فيما مضى، لم أكن أهتم دائماً بإرسال شخص لتأمين بطاقات الى المسرح: كان سوركوف يؤمنها حتماً. وإذا تطلب الأمر تبديل الأحصنة والحصول على شيء ما نادر، وشق طريق وسط الزحام، والذهاب لمعاينة الڤيلا، أو الى أيّ مكان آخر - فإنه ينفذ هذا كله على أحسن وجه! إنه كالذهب الخالص! مثله لايكترى بمال، ويالالأسف! كنت أتجنب إزعاجه قصداً، لكنه ضايق زوجتي كثيراً، فاضررتُ لطرده. وعندما أطلق العنان لنفسه في عالم اللهو والتسلية، لم يعد يكفيه دخله، فبدأ يطلب المال منّي - فإذا رفضت، فإنه عازم على طرح رأس مال المصنع على بساط البحث.

«ماذا يفيدني مصنعك؟ - كان يقول- لا أجد فيه مطلقاً أموالا غير موظّفة، أستطيع الاستعانة بها عند الحاجة! أنا بحاجة إلى سيولة!». إنه يبحث دائماً عن العلاقات النسائية. «كم أنا بحاجة الى مغامرة غرامية، يقول هو، - لا أستطيع أن أحياد دون حبّ!» أليس حماراً؟ تجاوز الأربعين، ولايستطيع أن يحيا دون حبّ!

تذكر ألكسندر نفسه وابتسم بأسى.

- إنه يكذب دائماً، -تابع بطرس إيفانيتش، - قررت بعد ذلك، التدقيق في اهتماماته. وَجدْتُ، أن أكثر ماينشده ويفاخر به، هو أن يتحدث الناس عنه وعن علاقاته بهذه المرأة وتلك، وأنه قد شوهد في مقصورة إحداهن، أو أحداً رآه جالساً على انفراد مع إحدى النساء على شرفة إحدى الڤيلات في ساعةٍ متأخرة من الليل، أو في عربة، أو ممتطياً حصاناً بصحبة إحدى الفاتنات. لكنّ هذه المغامرات الغرامية تكلفه من المال أكثر بكثير مما تحققه من إمتاع. تلك هي الحماقة بعينها!.

- ماذا تريد أن تقول ياعماه، من خلال هذا كله؟ - سأل ألكسندر - أنا أرى، أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً هنا.

- سترى الآن. منذ مدة قريبة، عادت الى هنا من خارج الحدود أرملة فتيّة تدعى يوليا باڤلوڤنا تافاييڤا. إنها ليست سيئة إطلاقاً. كنّا، أنا وزوجها وسوركوف، أصدقاء، مات تافاييف في بلد غريب. هل تستطيع أن تحزر الآن؟

- أجل: وقع سوركوف في حبّ الأرملة.

-صحيح! لقد تبلد ذهنه تماما! وماذا حدث أيضاً؟

- لا أعرف...

- حسناً، سأقول لك! اسمع! ذكر لي سوروكوف مرّتين، أنه سيحتاج قريباً لبعض المال. أدركت فوراً معنى قوله هذا، لكنني لم أعرف فقط من أيّ جهة تهبّ الريح - ولم أستطع أن أحزر. حاولتُ استشكاف سبب حاجته للمال. تردّد أن يقول لي في البداية، لكنه أفصح أخيراً، بأنه يريد إصلاح شقة على شارع ليتيني. صرتُ أتذكر سبب اختياره شارع ليتيني. تذكّرتُ أن تافاييڤا تعيش هناك قبالة المكان، الذي اختاره، حتى أنه دفع عربوناً. مصيبة محتمة ستقع، إذا... لم تساعدني أنت. هل حزرت الآن؟

رفع ألكسندر أنفه الى الأعلى قليلاً، ثم مرّر نظره على الجدار والسقف، وبعد ذلك رفّت عيناه مرتين وصار ينظر الى عمه، لكنه ظلّ صامتاً.

كان بطرس إيفانيتش ينظر إليه والبسمة تعلو محيّاه. كان يحبّ ان يلحظ الخوف الناجم عن عجز شخصٍ ما في تقدير أمرٍ من الأمور، وعن عدم قدرته على استنتاج ماهو ضروري، وكان يجعله يحس بذلك.

-مابك ياألكسندر؟ تكتب روايات! - قال هو.

- آه، لقد حزرتُ ياعمّاه!

- الحمد لله!

- سوروكوف يطلب مالاً منك، والمال ليس بحوزتك، لذا فأنت تريدني أن... ولم يكمل كلامه. صار بطرس إيفانيتش يضحك. توقف ألكسندر عن الكلام، وهو ينظر إلى عمه حائراً.

twitter @baghdad_library

-كلا، لم تحزر! - قال بطرس إيڤانيتش. - هل سَبَقَ أن كنت بلا مال؟ حاول أن تطلبه منّي متى تشاء، وستتأكد بنفسك! حقيقة الأمر، هي أنّ تافاييڤا تريد أن تُذكرني من خلاله بصداقتي مع زوجها. عَرَّجتُ عليها وطلبت منّي أن أزورها. وَعَدتُها وقلت بأني سأصحبك معي. آمل أن تكون قد فهمت الآن.

- تصحبني أنا؟ - كرّر ألكسندر، وهو ينظر إلى عمّه بعينين مفتوحتين. - أجل، بالطبع... فهمتُ الآن... - أضاف هو بسرعة، ثم تلعثم وهو ينطق الكلمة الأخيرة.

- ماذا فهمت؟ - سأل بطرس إيڤانيتش.

- اقتلني، لكنني لا أفهم شيئاً ياعمّاه! ربما يكون بيتها رائعاً. لذا، فأنت تريدني أن أتسلى... لأتخلص من ضجري...

- رائع! لم يبق لديّ من عمل إلاّ أنْ آخذك إلى البيوت للتسليه! بعد هذا، يبقى من واجبي فقط، أن أغطي فمك بمنديل، كي لايدخل الذباب فيه، عندما تكون نائماً! كلا، ليس هذا ما أقصد أردتُ أن أقول لك: استخدم مهارتك واجعلْ تافاييڤا تحبك.

رفع ألكسندر حاجبيه فجأة ونظر إلى عمه.

- تمزح ياعمّاه؟ هذا سخف! - قال هو.

- أنت تعكس الأمور دائماً، إذ تجعل السخيف مهمّاً، والبسيط الاعتيادي سخيفاً. أين السخف هنا؟ حان ان تدرك، أن الحب سخف وعبث: فهو لايعدو كونه انفعالاً وفورة دم... لاجدوى من الكلام معك: أنتَ لاتزال تؤمن برسالة الحبّ المقدّسة وبصدق العاطفة!

- اعذرني، فأنا لا أؤمن الآن بشيء. لكنْ، هل يمكن أن يُحب المرء ويكون محبوباً على هواه؟

- يمكن، لكنْ، ليس بالنسبة لك. لاتَخفْ: لن أكلفك بمهمة معقدة كهذه. ما أريده منك فقط، هو أن تُغازل تافاييڤا وتهتم بها، وتُبعد سوروكوف عنها...

أي أن تُغضبه وتُغيظه، لا أكثر ولا أقلّ. تَقصَّد إزعاجه: إذا قال كلمة، قل كلمتين، وإذا أبدى رأياً، ادحضه. أربكه باستمرار، حَطِّمه في كل خطوة.

- لماذا؟

- لم تفهم بعد! اجعله يفقد صوابه في البداية من الغيرة والحزن، كي تفتر همتّه بعد ذلك. إنه مغرور حتى الحماقة. لن يكون عندئذ بحاجة للشقة، وسيتخلى عنها، فيبقى رأس المال سليماً، وتسير أمور المصنع في مجراها المعتاد... هل فهمت؟ هذه هي المرّة الخامسة، التي ألعبُ فيها عليه: في السابق، عندما كنتُ لاأزال فتيّاً عازباً، كنت أقوم بهذا الملعوب بنفسي، أو أرسل أحد أصدقائي.

- لكنني لا أعرفها، - قال ألكسندر.

- من أجل هذا، أصحبك معي إليها يوم الأربعاء. في أيام الأربعاء يجتمع عندها عادة بعض معارفها القدامى.

- وإذا استجابت لحبّ سوروكوف، فعليك أن تعترف عندئذ، أن مداعباتي ومجاملاتي لها، لن تزعجه وحده فقط.

- كفى! المرأة السّويّة الذكيّة تكف عن الإهتمام بالرجل، عندما تتبين أنه مغفل، وخاصة أمام الشهود: أنفتها تفرض عليها هذا. سيكون بالقرب منها شخص آخر أكثر ذكاء وجمالا: ستخجل وتتخلى عنه، من أجل هذا، وقع اختياري عليك.

انحنى ألكسندر.

- سوروكوف ليس خطيراً، -تابع العم، - لكنّ تافاييڤا تستقبل عدداً جداً من المدعوين، الأمر الذي قد يتيح له، في وسطها الضيق المحدد هذا، أن يشتهر كرجلٍ مقدامٍ ذكي. المظهر الخارجي يفعل فعله عند النساء. إنه بارع في ملاطفة النساء واسترضائهن، وهذا ما يرغبن فيه، قد تُداعبه وتغازله، مما يشجعه على

twitter @baghdad_library

مبادلتها . . . فالنساء الذكيّات يرغبن أن تُرتكب الحماقات من أجلهن ، وخاصّةً عندما تكون غالية الثمن . لكنّ أغلبيتهنّ الساحقة لاتحبّ مرتكبيها ، إنما تريد من خلالها لفت انتباه شخصٍ آخر . . . كُثُرٌ هم الرجال ، الذين لايريدون إدراك هذا الأمر ، بمن فيهن سوروكوف .

- لكنّ سوروكوف ، على الأرجح ، لايتواجد أيام الأربعاء فقط . أستطيع إزعاجه يوم الأربعاء ، لكن ، ما العمل في الأيام الأخرى؟

- آه! وهل ينبغي أن أعلّمك كلّ شيء ! زد من إطرائك لها ، والعَبْ قليلاً دور المعجب ، بل العاشق ، -ستدعوك لزيارتها في مرّةٍ ثانية ، ليس يوم الأربعاء ، بل الخميس أو الجمعة . ضاعف من اهتمامك بها ، عندها سأتدخّل قليلاً وأجعلها تحسّ من خلال إشارةٍ أبديها ، وكأنك قد وقعتَ فعلاً في . . . فهي . . . ومن خلال ملاحظتي لها . . . إنسانة حسّاسة . . . ولابدّ أن تكون غير بعيدة عن عالم العواطف . . . والانفعالات . . .

-كيف يمكن هذا؟ - قال ألكسندر ، وقد استغرق في التفكير . - أنا لاأستطيع أن أُحبّ بعد كلّ ماحدث لي ، لذا فإنني لن أفلح .

- على العكس تماماً ، أنت ستفلح لهذا السبب بالذات . لو كنت تحبها فعلاً . لما استطعت أن تلعب هذا الدور ، ولكانت قد لاحظت تعلقك بها فوراً ، فتستفيد من الوضع وتلعب على الاثنين . أما الآن . . . فأريدك فقط أن تُغيظ سوروكوف : إني أعرفه كما أعرف أصابع يدي . ما إن يتأكد أنّ حظّه ضعيف ، حتى يكفّ عن تبديد النقود عبثاً ، وهذا ماأريده فقط . . . اسمع ياألكسندر ، هذا الأمر مهمٌّ جداً بالنسبة لي : إذا نَفّذت ما أريده منك - سأعطيك الزهريتين ، اللتين أعجبت بهما في المصنع ، لكن عليك فقط ، أن تشتري قاعدتين لهما .

- معذرة ياعماه ، هل تظنّ أنني . . .

- لماذا تُضيّع وقتك مجاناً إذاً؟ هل يمكن هذا !ليس هناك مايجبرك ! كلا، هذا لايجوز! الزهريتان رائعتان. في زمننا هذا، لايفعل الناس شيئاً بلا مقابل. عندما سأفعل من أجلك شيئاً ما، اعرض عليَّ هديّة، وسأقبلها.

- يالها من مهمة غريبة! - قال ألكسندر بتردّد.

- آمل، أنك لن تمتنع عن تنفيذها لي. أنا على استعداد لأن أفعل بدوري كل ما أستطيع من أجلك أيضاً: لاتتردد في طلب النقود منّي، عندما تكون بحاجة إليها! اتفقنا! موعدنا الأربعاء! ستستمر هذه القصة شهراً، وعلى الأكثر شهرين. سأخبرك بموعد انتهائها، وعندها لن يصبح ضرورياً متابعتها.

- حسناً ياعماه، موافق؛ لكنّ الموضوع كله، غريب حقاً. أنا لا أضمن لك النجاح... لو كنتُ أستطيع أن أحبّ أيضاً، لكان بمقدوري أنْ أضمن لك... أما الآن، فلا...

- إنه لأمر جيّد كونك لاتستطيع ان تحب، وإلاّ لكنت أفسدت المسألة كلها، أنا نفسي، أكفل النجاح، وداعاً!

انصرف هو، أما ألكسندر فقد ظلّ يجلس طويلاً عند الموقد، وهو ينظر إلى الرماد العزيز عليه. عندما عاد بطرس إيڤانيتش الى البيت، سألته زوجته:

- ماهو قرار ألكسندر؟ هل سيكتب روايته؟

- كلا، لقد أشفيته الى الأبد.

- قَصَّ أدوييف على مسامعها مضمون الرسالة، التي تلقاها مع الرواية وكيف أحرقا كل شيء.

- أنت عديم الشفقة يابطرس إيڤانيتش، -قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا، - أو أنك لاتعرف تنفيذ أيّ شيء بأمانة واستقامة.

- وهل فعلتِ حسناً، عندما أجبرتِه على توسيخ الورق؟ هل توجد لديه موهبة؟

twitter @baghdad_library

- كلا.

نظر إليها بطرس إيڤانيتش بدهشة.

- لماذا تصرفتِ هكذا إذاً.؟

- لم تفهم وتحزر بعد؟

- صمتَ وتذكر عن غير قصد، المشهد، الذي دار بينه وبين ألكسندر.

- كيف لم أفهم؟ الأمر واضح جدّاً! - قال وهو ينظر إليها بعينين مفتوحتين.

- قل لي إذاً!

- كنت... كنُت... كنُت تريدين أن تلقّنيه درساً... لكن، بطريقة أخرى مختلفةَ، أكثر ليونَة، بأسلوبكَ الخاص...

- لم تفهم، وتأتي لتقول إنك ذكي! لماذا كان طوال هذه الفترة كلها، مسروراً ومعافى وسعيداً تقريبا؟ لأنه كان يتطلع الى المستقبل بأمل. كنت أوطد فيه هذا الأمل، هل أصبح كل شيء واضحاً الآن؟

- كنت تتصرفين معه بدهاء إذاً؟

- اعتقد أنّ هذا أمر مشروع. لكن، ماذا ارتكبت أنت؟ إنك لاتشفق عليه مطلقاً: لقد انتزعت منه آخر أمل.

- كفى، عن أيّ أملٍ تتحدثّين! الحماقات وحدها كانت تنتظره فقط.

- ماذا سيفعل الآن؟ ألن يسير من جديد منكّساً رأسه؟

- كلا! لن يفعل هذا - سيكون مشغولاً تماما: فقد كلفته بعمل.

- ماذا؟ هل كلفته من جديد بترجمة شيءٍ عن البطاطا؟ هل يمكن أن يشغل موضوع كهذا شاباً، وخاصة إذا كان متوقّد العاطفة، شديد الانفعال؟ مايهمّك فقط، هو أنْ يكون الذهن مشغولاً بشيء ما.

- كلا ياعزيزتي، ليس عن البطاطا، بل عن المصنع.

twitter @baghdad_library

III

حل يوم الأبعاء . في صالون يوليا باڤلوڤنا، اجتمع اثنا عشر أو خمسة عشر ضيفاً . أربع سيّدات شابات، أجنبيان ملتحيان . وسيّدات أجنبيات وضابط - كانوا يشكلون حلقة واحدة . وبشكلٍ منعزلٍ عنهم، كان يجلس رجلٌ، أشيب الشعر، على صدره شارات ونياشين؛ يبدو من هيئته، أنه ضابط متقاعد . كان يتداول أطراف الحديث عن الإلتزامات المستقبلية مع رجل كهل .

في الغرفة الأخرى، كان يلعب الورق رجلان وامرأة عجوز . أمام البيانو، كانت تجلس فتاة صغيرة السنّ، كما كانت تجلس غير بعيد عنها أيضاً، فتاة أخرى تتحدث مع طالب . دخل أدوييف العم وابن الأخ . قِلّةٌ هم الرجال، الذين يتقنون الدخول باعتدادٍ وبلا تكلّف، كبطرس إيڤانيتش . كان ألكسندر يتبعه بشيء من التردّد .

ما الفرق بينهما : أحدهما أطول من الآخر بمقدار الرأس، أهيف، ممتلىء، ذو طبع قاسٍ محدّد المعالم، يقرأ المرء في عينيه وسلوكه، الثقة والإعتداد بالنفس . لكن، يتعذر على أي امرىءٍ أن يتبين من خلال النظرة والحركة والكلمة، أفكار وطبع بطرس إيڤانيتش - سبب هذا، هو أن براعته في السيطرة على نفسه ومهارته في التصرف والسلوك كانتا تحجبان هذا كله . يبدو أن حركاته وآراءه كانت محسوبة بدقة . كان وجهه الشاحب الزرين يظهر قدراً من التحكم بالمشاعر والأهواء لدى هذا الرجل، هذا التحكم، الذي تفرضه سيطرة العقل المطلقة ورقابته، اللتان تفرضان بدورهما على قلبه ان يخفق أو يتوقف عن الخفقان وقتما يشاء عقله الآمر .

أما ألكسندر، فكان على العكس منه تماماً، كان كل شيء فيه يكشف عن تكوينه الهشّ الضعيف وعن تغيرٍ في تعابير الوجه، وكسلٍ وخمولٍ وعصبيةٍ في

الحركات، وعن نظرة ربداء تعكس كالمرآة مايعتمل في داخله من إحساس ويعكر قلبه من ألم، كما تعكس أيضاً مايجول في ذهنه من أفكار. كان متوسط القامة، لكنه نحيف وشاحب، -ليس منذ الولادة كما هو حال بطرس إيڤانيتش، بل بسبب الانفعالات العاطفية المستمرة. لم يكن شعره طويلاً كشعر عمه، الذي كان كالغابة على رأسه وصدغيه، بل كانت تتدلّى على فوديه وقذاله، خصلات طويلة ضعيفة، لكنها ناعمة جداً كالحرير، فاتحة اللون، رائعة.

قدَّم العم ابن أخيه.

- هل صديقي سوروكوف غير موجود؟ - سأل بطرس إيڤانيتش، وهو يتطلع حوله بدهشة. - يبدو أنه نساك.

- كلا! أنا شاكرة له جداً، - أجابت صاحبة البيت. - إنه يزورني باستمرار، أنتم تعرفون، أنني لا أستقبل أحداً تقريباً، إلاّ معارف المرحوم زوجي.

-لكن، أين هو؟

- سيأتي الآن. تَصَوّر، أنه قد وعدني وابنة عمي بأن يحجز لنا حتماً مقصورة لعرض الغد، في الوقت، الذي يؤكد فيه الجميع استحالة هذا الأمر... ذَهبَ الآن خصيّصاً لهذا الغرض.

- سيحجز، أنا أكفله: إنه عبقريّ في هذا المجال، فهو يحجز لي دائماً، عندما لاتفيد المحسوبيّة ولا الوساطة. لكن، كيف يؤمّن هذا كله، ومقابل أي نقود، فهذا سرّه، الذي لايعرفه أحد.

جاء سوروكوف. كان ملبسه أنيقاً وعصرياً، كل ثنية فيه كانت تكشف بوضوح عن رغبةٍ باديةٍ في أن يكون زير نساءٍ يبزّ بجدة زيّه الموضة ذاتها، وكلّ المتأنقين: فإذا كانت الموضة تتطلب مثلاً بدلةً مفتوحة، فإنّ بدلته تكون مفتوحة كثيراً، لدرجة أنها تشبه جناحين مبسوطين لطائرٍ ما، وإذا اقتضت الموضة ياقة

twitter @baghdad_library

مقلوبة، فإنه يرتدي بدلة مُبالغاً في مواصفاتها المطلوبة، بحيث يصير أشبه مايكون بمحتال قُبض عليه من الخلف، وهو يحاول ان يفلت من بين الأيدي. كان يُملي على خيّاطه التفصيلة، التي يرغبها ويعلمّه الأصول. عندما قَدِم الى تافاييفا، كان شاله هذه المرّة مشبوكاً بالقميص بدبّوس كبير الحجم، أشبه مايكون بعصا.

- حجزت؟ -تعالت الأصوات من كل الجهات.

كان سوروكوف على وشك الإجابة، عندما شاهد أدوبيف وابن أخيه، فتوقف فجأة، ونظر إليهما بدهشة.

- استيقظت هواجسه! -قال بطرس إيڤانيتش مخاطباً ابن أخيه بصوتٍ خافت. -أراه يمسك عصا بيده. ماذا يعني هذا؟

- مابك؟ - سأل هو سوروكوف، مشيراً الى العصا.

- منذ فترة غير بعيدة، كنتُ أخرج من العربة... فزلّت قدمي وصرتُ أعرج قليلاً، أجاب وهو يسعل.

- هراء! همس بطرس إيڤانيتش لألكسندر. - لاحظ مقبض العصا: ألا ترى رأس ليثٍ مذهّب؟ ظلّ ثلاثة أيام يتبجّح أمامي، بأنه دفع ثمنها ستمائة روبل، وها هو الآن يعرضها. هذا نموذج صارخ عن الأساليب، التي يستخدمها. كافح بثباتٍ واهزِمْهُ.

- أشار بطرس إيڤانيتش عبر النافذة، إلى البيت المقابل.

- تَذكّرْ، أنّ الزهريتين لك، فعليك أن تتشجّع، - أضاف هو.

- هل لديك بطاقة لعرض يوم غد؟ - سأل سوروكوف تافاييفا وهو يقترب منها بمهابة.

-كلا.

- اسمحي لي أن أقدّمها! - تابع هو وأكمل جواب زاغوريتسكي كما ورد في «مصيبة من عقله»[1]. تحرك شاريا الضابط قليلاً، وهو يبتسم. نظر بطرس إيڤانيتش الى ابن أخيه شزراً، أما يوليا باڤلوفنا، فاحمرت خجلاً. دَعَتْ بطرس إيڤانيتش لمرافقتها الى المسرح.

- أنا شاكر لك جداً، - أجاب هو، -سأكون مناوباً في المسرح غداً مع زوجتي؛ اسمحي لي أن أَقدم لك هذا الشابّ بدلا عنّي...

أشار الى ألكسندر.

- كنتُ أُريد أنْ أدعوه أيضاً؛ نحن ثلاثة فقط: أنا وابنة عمي و...

- سيعوّضك عني، قال بطرس إيڤانيتش، - كما سيعوّضكِ عن الحاجة عن هذا الشابّ الطائش أيضاً.

أشار إلى سوروكوف وبدأ يقول لها بصوتٍ خافتٍ شيئاً ما. في غضون ذلك، نظرت خلسة إلى ألكسندر مرتين وابتسمت.

- أشكُرُكَ، - أجاب سوروكوف، -كان مناسباً أكثر، لو أنك اقترحت هذا البديل قبل تأمين البطاقات: كنتُ سأرى عندئذ، كيف بمقدوره أن يكون بديلاً عنّي.

- آه! أنا شاكرة لك جداَ على جميلك، - قالت المضيفة بحيويّة، وهي تخاطب سوروكوف - أنا لم أوجه إليك الدعوة لمقصورتي، لأنه يوجد لديك مكان خاصّ بك. إنكَ تُفضل بالتأكيد أن تكون قبالة خشبة المسرح مباشرة... وخاصة أثناء الباليه.

-- كلا، كلا، إنك تتحايلين، لاتفكري هكذا؛ لن أتخلى عن المكان الذي بجانبك - مهما كلف الثمن!

---

(١) - «مصيبة من عقله» - مسرحية كوميدية شعرية للكاتب الروسي غريبا ييديف، الذي عـ... مابين (١٧٩٥ - ١٨٢٩) (المترجم).

twitter @baghdad_library

- لكنني وَعَدْتُ به . . .

- كيف؟ مَنْ؟

-السيد رينييه .

أشارت الى أحد الأجانب الملتحين .

- أجل، لقد شرفتني السيدة بدعوتها لي . . . - قال ذاك بحيوية .

نظر سوروكوف، الذي فغر فاه، إليه ومن ثمّ إلى تافاييفا .

-سأتبادل معه، سأعرض عليك مكاني، - قال هو .

- حاولْ

رفض الملتحي رفضاً باتاً .

- أشكرك كثيراً ! - قال سوروكوف مخاطباً بطرس إيڤانيتش، وهو ينظر شزراً إلى ألكسندر - أنا مدين لك بهذا .

- لاداعي للشكر . ألا تريد أن تجلس في مقصورتي؟ سأكون أنا وزوجتي فقط؛ أنت لم ترها منذ زمن بعيد : يمكنك أن تُغازلها .

تحول سوروكوف عنه بأسى، غادر بطرس إيڤانيتش المكان بهدوء . أجلست يوليا ألكسندر بجانبها، وتَحدثّت إليه ساعة كاملة . تَدَخّل سوروكوف عدّة مرّات في الحديث، لكنّ تدخّله كان في غير محلّه . قال شيئاً ما عن الباليه وأجيب بنعم، عندما كان ينبغي أن يجاب بلا، وبالعكس : واضح أنهما لم يصغيا إليه . بعد ذلك، غيَّر حديثه فجأة وصار يتكلم عن المحارات، مؤكداً أنه قد أكل منها هذا الصباح مائة محارة، - لكنه لم يلقَ اهتماماً . قال أيضاً بضع عبارات أخرى، ولم يحصل على نتيجة، فما كان منه إلاّ أن خطف قبعته وتململ بالقرب من يوليا، محاولاً لفت انتباهها وإشعارها بعدم رضاه وبعزمه على الإنصراف . لكنها لم تلحظ شيئاً .

- أنا ذاهب! -قال أخيراً بوضوح . - وداعاً!

- كانت كلماته هذه تنضح بحزن خفيّ.

- الآن! - أجابت بهدوء. - ألن تدعني أراك غداً في مقصورتي ولو لدقيقة؟

- ياللدّهاء! دقيقة واحدة فقط؛ أنتِ تعلمين، أنني أفضل أن أجلس بجانبك، على أنْ أكون في الجنّة.

- أصدّق، إذا كان الحديث يدور على خشبة المسرح!

لم يَعُدْ يودّ الإنصراف. فقد زال حزنه بمجرد سماعه تلك الكلمة اللطيفة، التي رمَتْهُ بها يوليا أثناء الوداع. لكن الجميع شاهدوه، وهو ينحني مودعاً: الأمر الذي فرض عليه رغماً عنه أن يغادر، وقد غادر، وهو يتلفت حوله، كالكلب السائر في أثر سيده، الذي يُطرد إلى الخلف.

كانت يوليا باڤلوفنا في الثالثة والعشرين، أو الرابعة والعشرين من العمر. صدق ظنُ بطرس إيڤانيتش: فقد كانت في الواقع، عصبية المزاج لكن هذه السمة لم تمنعها من أن تكون في الوقت نفسه، امرأة جيدة، ذكية وظريفة جداً. كانت فقط خجولة، حالمة وحساسة، كما هو حال أغلبية النساء عصبيات المزاج. قسمات وجهها، لطيفة ناعمة ودقيقة، وكانت نظرتها وديعة، متأملة دائماً وحزينة قليلاً، بلا سبب، وإن شئتم، بسبب عصبيتها.

لم تكن تنظر إلى العالم والحياة بعين الرضا تماماً، وكانت تفكر بإمعان بكيانها، وتجد أن لالزوم لوجودها هنا. وإذا ما أفلت الكلام صدفة، لاقدّر الله، من أحدٍ ما عن القبر والموت - فإنها تمتقع وتصير شاحبة. كان الجانب المشرق، المضيء للحياة، يغيب من نظرتها. في الحديقة والغابة، كانت تختار للنزهة ممراً مظلماً كثيفاً، وتنظر بلا اكتراث الى المناظر البهيجة الضاحكة. وفي المسرح، كانت تُؤثر دائماً مشاهدة المأساة، بينما لم تكن تشاهد الكوميديا إلاّ نادراً، أما المسرحيات الهزلية الخفيفة، فلم تكن تشاهدها مطلقاً. كانت تصمّ أذنيها عن ألحان أغنيةٍ بهيجة تصل الى مسامعها صدفة، ولم تبتسم يوماً لنكتة.

twitter @baghdad_library

في وقت آخر، كانت قسمات وجهها تعبِّر عن تعب، لكنّ هذا التعب، لم يكن مَرَضياً أو مُعذباً، بل كان نوعاً من التنعّم. كان واضحاً، أنها كانت تصارع في أعماقها حلماً ما مغرياً - وكان هذا الصراع ينهكها تماماً. بعد صراعها هذا، كانت تظلّ فترة طويلة، صامتة حزينة، ثم تصبح بعد ذلك فجأة، بلا تعليل، فرحة مسرورة، دون أن تُبدّل طبعها: ما الذي كان يجعلها فرحة مسرورة؟ كلّ هذا بسبب أعصابها! الإصغاء الى هذا النوع من السيدات، وإلى مايتفوّهن به من ألفاظ وتعابير، أمرٌ يثير الفضول! في أحاديثهنّ تتردّد كلمات: المصير، العاطفة، الميل العفوي، الحزن الخفي، الرغبات المبهمة - حيث تتزاحم وتدفع كلّ واحدةٍ منها الأخرى، لينتهي هذا كله أخيراً بزفرة وبكلمة واحدة «الأعصاب» وبزجاجة من الكحول.

- كم استطعت ان تفهمني! - قالت تافاييفا لألكسندر أثناء الوداع. - من بين الرجال جميعاً، لم يستطع أحدٌ، حتى زوجي، أن يفهم طبعي جيّداً.

حقيقة الأمر، هي أن ألكسندر نفسه يكاد أن يكون على شاكلتهم تقريباً لكن مساعدة عمّه له، أفادتَه كثيراً.

- إلى اللقاء.

مدّت له يدها وصافحتهُ.

- آمل، أنك ستجد الطريق إليّ، دون مساعدة من عمّك، - أضافت هي. حلّ الشتاء. كان ألكسندر يتناول الغداء عند عمّه عادة أيام الجمعة. لكنْ، هاهي الجمعة الرابعة تمر، وألكسندر لم يظهر إطلاقاً، حتى أنه لم يمرّ في الأيام الأخرى أيضاً. أغضب هذا الأمر ليزابيتا ألكسندروڤنا، أما بطرس إيڤانيتش فقد لام نفسه، لأنه انتظر نصف ساعة عبثاً. في هذه الأثناء، لم يكن ألكسندر بلا عمل: كان ينفّذ ماكلفه به عمه. توقف سوروكوف منذ فترة بعيدة عن زيارة تافاييفا، معلناً في كل مكان، أنّ كلّ شيء قد انتهى بينهما، وأنه قد قطع الصلة بها. ذات مرّة، مساءً - حدث هذا يوم الخميس -، أثناء عودته الى البيت، وجد ألكسندر على الطاولة

زهريتين ورسالة من عمّه، تتضمّن شكر بطرس إيفانيتش له على الجهود المخلصة التي بذلها من أجله، ويدعوه في اليوم التالي لتناول الغداء معه كالمعتاد. استغرق ألكسندر في التفكير، وكأنّ هذه الدعوة قد أفسَدَت خططه. رغم ذلك، ذهب في اليوم التالي إلى بطرس إيڤانيتش قبيل الغداء بساعة واحدة.

-مابك؟ لم نعد نراك مطلقاً. هل نسيتنا؟ - انهالت عليه الأسئلة من عمه وزوجته

- عملت معروفاً كبيرا! - تابع بطرس إيڤانيتش، - فاق كلّ توقع! كنت تتواضع وتقول: «لا أستطيع، لا أعرف!» - لاتعرف! كنتُ أودّ أن أراكَ منذ مدّة، لكنني لم أستطع أن أجدك، أنا شاكر لك جداً! هل استلمت الزهريتين بسلام؟

- أجل، لكنني سأعيدهما إليك.

- لماذا؟ إنّهما من حقكّ.

-كلاّ! - قال ألكسندر بصورة قاطعة، - لن آخذ هذه الهدية.

-كما تشاء! ستُعْجبُ زوجتي بهما، وستأخذهما.

- لم أكن أعرف ياألكسندر، - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا، وهي تبتسم بمكر، - أنك بارع هكذا في مثل هذه القضايا... حتى أنني لا أجد الكلمات الكافية لـ...

- هذا كله من تدبير عمي، - أجاب ألكسندر بخجل، - أنا لم أفعل شيئاً من عندي، فهو الذي علّمني كلّ شيء.

- أجل، أجل، مايقوله صحيح: ماكان ليعرف هذا من تلقاء نفسه. لقد رتّبتُ له المسألة... أنا شاكر لك جداً، جداً! كاد الأحمق سوروكوف أن يفقد صوابه لقد أضحكني. منذ أسبوعين دخل عليّ راكضاً، وقد جنّ جنونه؛ تظاهرتُ وأنا أكتب، بأنّي لا أعرف شيئاً. «هذا أنت، - قلتُ أنا، - ماذا تحمل إليّ من أخبار جيّدة؟». ابتسم وأراد أن يتظاهر بأنه هادىء... لكنّ الحقيقة، كانت مختلفة

twitter @baghdad_library

تماماً. كانت الدموع تكاد أن تطفر من عينه. «لا أحمل إليك أيّ شيء جيد، - قال هو، - أتيتك بأخبار سيئة». تظاهرتُ بالدهشة، وأنا أنظر إليه. «ما الأمر؟» - سألتُ أنا. «الأمر يتعلق بابن أخيك!» ماذا جرى؟ أنت تخيفني، قل بسرعة!» سألتُ أنا. هنا انفجر غيظاً: بدأ يصرخ، ثم جنّ جنونه، ابتعدتُ عنه والكرسي ينزلق تحتي: كان الرذاذ يتطاير من فمه. «كنتَ نفسك تشكو وتقول، بأنه لا يعمل إلاّ قليلاً جداً، وها أنت تُعلّمه الكسل والبطالة».

«أنا!» «أجل، أنت! مَنْ عَرَّفهُ على جولي؟» ينبغي أن أقول لك، إنه بدأ يناديها، منذ اليوم الثاني للتعارف، باسم التصغير، أعني باسم الدلّع. «وهل هذا مصيبة؟» - قلتُ أنا. «المصيبة الكبرى، - قال هو، - هي أنه صار يجلس عندها الآن من الصباح وحتى المساء. . .» احمرّ ألكسندر فجأة.

- فكّرتُ في نفسي وقلت، كم يكذب من شدّة الغضب، -تابع بطرس إيڤانيتش وهو ينظر الى ابن أخيه، - لا يُعقل أن يجلس ألكسندر هناك من الصباح وحتى المساء! أنا لم أطلب منه أمراً كهذا. أليس كذلك؟

ثبّتَ بطرس إيڤانيتش على ابن أخيه نظرته الهادئة الباردة، التي بَدَتْ لألكسندر نظرةً نارية مضطرمة.

- أجل. . . إنّي أتردّدُ. . . أحياناً. . . - نطق ألكسندر.

- أحياناً - هذا فرق كبير، تابع العم، - هكذا طَلَبْتُ منك، وليس يومياً، كنتُ أعرف، أنه يكذب. ما الذي ستفعله هناك يومياً؟ ستضجر! . . .

- كلا، إنها امرأة ذكيّة جداً. . . تربيتها رائعة. . . تُحبُّ الموسيقى. . . - قال ألكسندر بصوت غير واضح، مع توقّف بين الكلمات، وحَكَّ عينه، علماً أنّها لم تكن تحكّه، ثم مَسَّد صدغه الأيسر، وأخرج بعد ذلك منديلاً ومَسَح شفتيه.

نظرتْ إليه ليزابيتا ألكسندروڤنا خلسةً بإمعان، ثمّ حولّت نظرها نحو النافذة وابتسمت.

-يكون أفضل ، - تابع بطرس إيڤانيتش ، - إذا لم تكن ضجراً ؛ كنتُ أخشى طوال الوقت ، أنْ أكون قد سبَّبْتُ لك أموراً مزعجة . قلتُ لسوروكوف : « شكراً ياعزيزي ، لأنك تتعاطف مع ابن أخي ؛ أنا شاكر لك جداً ، جداً . . . لكنْ ، ألا تلاحظ ، أنّك تُبالغ وتُضخّم الأمور؟ المصيبة ليست كبيرة بعد . . . » «كيف ! -صرخ هو - إنه لايعمل شيئاً ، - قال هو - عليه أن يعمل ويُكافح . . . » «وهذا ليس مصيبة ، - قلتُ أنا ، - وما علاقتك أنت؟» «كيف؟ - قال هو ، - بدأ يستخدم حيله ضدّي . . . » «أين المصيبة هنا!» صِرْتُ أغيظه . «إنه يوحي ليوليا أشياء عنّي لايعرفها الشيطان ، -قال هو ، - لقد تغيرت الآن معاملتها نحوي تماماً . سألقّن هذا الغرّ درساً ، - اعذرني ، فأنا أردد كلماته ، وهل يستطيع ان يصمد في الصراع ضدي؟ إنه يستخدم التلفيق فقط ؛ آمل ان تُرشده . . . » سأوجه له اللوم ، - قلتُ أنا ، - سأوجّه له اللوم حتماً ، ؛ لكن هذا سيكون كافياً ، أليس كذلك؟ بِمَ أزعجَك؟» هل كنت تهديها الزهور؟ . . . توقف بطرس إيڤانيتش من جديد ، كما لو كان ينتظر جواباً . التزم ألكسندر الصمت . تابع بطرس إيڤانيتش : « قال ، إنك كنتَ تحمل إليها الأزهار يومياً . الآن . . . -قال هو - فصل الشتاء ، كم يكلف هذا؟ . أعرف ماتعنيه باقات الزهر هذه؟» «صرتُ أفكر في نفسي وأقول : القريب يختلف عن الغريب ؛ القرابة ليست شيئاً فارغاً ، - هذا ماتأكّدتُ منه بنفسي : هل كنتَ ستبذل مثل هذه الجهود من أجل إنسانٍ آخر؟» «لكنْ ، هل يذهب يومياً حقاً؟ - قلت أنا - حسناً ، سأسأله : أنت تكذب على الأرجح» . اتّضح ، أنه كان يكذب! هل يُعقل مايقول؟ لا أستطيع أنْ أصدقّ ، أنك كنتَ تذهب . . . كان ألكسندر يودّ أن تنشقّ الأرض وتبتلعه . أما بطرس إيڤانيتش ، فكان يُحدّق في عينيه مباشرة بلا شفقة ، وهو ينتظر ردّه .

- أحياناً . . . كنتُ أحمل . . . إليها . . . - قال ألكسندر ، وهو يغضّ بصره .

twitter @baghdad_library

- تقول أحياناً، وهذا أمر مختلف تماماً. ليس يومياً: هذا مُكلفٌ حقاً. قل لي بالمناسبة، كم كلّفك هذا كله؛ لا أريد أن تُبدّد نقودك من أجلي؛ يكفي مابذلته من جهود. أعطني الحساب، لأسدّده لك. أعود الآن إلى حديثي السابق. بقي سوروكوف مضطرباً فترة طويلة. «إنهما يتنزّهان دائماً، - قال هو، - لوحدهما، سيراً على الأقدام أو في العربة، في الأماكن، التي لايتواجد فيها إلاّ قلةٌ من الناس».

صُدم ألكسندر لدى سماعه هذه الكلمات. سَحَبَ ساقيه من تحت الكرسي وتربع من جديد، فجأة:

- هززت رأسي متشككاً، - تابع العم. - «لاأصدق أنه يتنزّه يومياً!»، -قلتُ أنا. «سل الناس، -قال هو، - «الأفضل أن أسأله شخصياً، -قلتُ أنا. . . هذا غير صحيح، أليس كذلك؟

- لقد تنزّهتُ معها حقاً. . . بضع مرآت. . .

- بضع مرات، وليس يومياً؛ لم أسألك عن هذا من قبل؛ كنتُ أعرف، أنه يكذب. «قلتُ له، وما هذا الأمر الهامّ؟ إنها أرملة، ولايوجد لديها رجال أقرباء؛ ألكسندر شابّ متواضع- إنه ليس طائشاً مثلك. إنها، لهذا السبب، تُحبُّ أن تكون بصحبته: إذ لا يُعقَل أن تبقى وحدها». لكنه لم يطق أن يسمع كلاماً من هذا القبيل. «كلا، - قال هو، - لن تستطيع خداعي! أعرفُ كلّ شيء. إنه يرافقها دائماً إلى المسرح؛ صحيح، أنني أستطيع ان أحجز أحياناً مقصورة بعد جهد جهيد، - قال هو- لكنّ ابن أخيك مُعسكرٌ هناك دائماً». لم أستطع هنا أن أتمالك نفسي، فانفجرت في الضحك. «هذا ماتستحقه أيها الأبله! - فكرتُ أنا- مرحى ياألكسندر! هكذا يكون ابن الأخ! لكنني شعرتُ بتأنيب الضمير، لأنك بَذَلْتَ هذه الجهود كلها من أجلي.

كان ألكسندر يتلظّى بنار العذاب. قطرات كبيرة من العرق كانت تتصبّب على جبينه. لم يكن يسمع مايقوله عمّه إلاّ بصعوبة، ولم يكن يتجرأ على النظر إليه

ولا إلى زوجة عمّه. أشفقَتْ ليزابيتا ألكسندروڤنا عليه. هَزَّت رأسها لزوجها لائمةً، لأنه يعذّب ابن أخيه. لكنّ بطرس إيڤانيتش لم يسكت.

- حاول سوروكوف من شدّة الغيرة، - تابع هو، - إقناعي بأنك غارق في حبّ تافاييفا حتى أذنيك. «كلاّ، اعذرني، هذا غير صحيح، قلتُ أنا، فهو لايستطيع أن يُحبّ مطلقاً بعد كلّ ماحدث له. أصبح يعرف النساء جيّداً ويحتقرهنّ... »أليس هذا صحيحاً؟

هزّ ألكسندر رأسه، دون أن يرفع عينيه.

كانت ليزابيتا ألكسندروڤنا تتألمّ بسببه.

-بطرس إيڤانيتش! - قالت هي، كي تُغيِّر الحديث بطريقة ما.

- ماذا؟

- منذ مدة، جاءنا شخصٌ يحمل رسالة من آل لوكيانوف.

- أعرف. حسناً، عند أيّ نقطةٍ توقّفْتِ؟

- بطرس إيفانيتش، أراك قد صرتَ من جديد تنفض الرّماد على أزهاري. انتبه، ماهذا؟

- لاتخافي ياعزيزتي: قال، إنّ الرّماد يساعد على النمو... كنتُ أُريد أن أقول...

- ألَمْ يَحَن موعد الغداء يابطرس إيفانيتش.

- حسناً، أصدري أوامرك بمدّ الطاولة! لقد ذكّرتني بالمناسبة، بموضوع الغداء. قال لي سوروكوف، إنك ياألكسندر، تتغدّى هناك كلّ يوم تقريباً، وهذا هو السبب، الذي جعلك، حسب زعمه، تمتنع عن زيارتنا أيام الجمعة، وكأنكما تُمضيان الأيام كلها على انفراد... الشيطان وحده يعلم، ما الذي لفّقه هنا؛ سَئمتُ منه وطَرَدْتُه، وها قد ثبت بالدليل القاطع، أنه يكذب. فاليوم هو الجمعة، وها أنتَ موجود عندنا!.

twitter @baghdad_library

وضع ألكسندر إحدى ساقيه على الأخرى وأمال رأسه نحو كتفه الأيسر.

- أنا شاكر لك جداً، جداً، هذه خدمةٌ من قريبٍ وصديق! - ختم بطرس إيڤانيتش كلامه. - اقتنع سوروكوف، أنه لن يستطيع أخذ شيء، فلم يبقَ أمامه إلاّ أنْ ينسحب: «إنها تتصورّ أنّي سأتحرق شوقاً إليها، - قال هو، - تخطىء إذ تعتقد هكذا! كنتُ أُريد أن أصلح شقّةً كانت نوافذها تُطلّ على نوافذ شقّتها، وكنتُ متلهّفاً لإنجاز ذلك؛ كانتْ تقول بأنها لم تكن تحلم بما كنتُ أُهيّئه لها من سعادة وسرور. كنتُ سأتزوّجها، - قال هو، - لو أنّها عرفت كيف تجذبني إليها. انتهى كل شيء الآن. لقد نَصَحْتني وحذّرتني حقّاً يابطرس إيفانيتش. سأوفر المال والوقت!». إنه مصابٌ الآن بإحباط وخيبة أمل؛ تراهُ دائماً حزيناً، حتى أنه لايطلب مالاً. لم تعدْ هناك مشكلة بيننا: كل شيء انتهى! لقد أنْجزْتَ مهمّتك بمهارة ياألكسندر! سأبقى الآن مطمئناً لفترةٍ طويلة. لم تعد هناك حاجة لتبديد وقتك وجهدك، يمكنك ان تنقطع الآن كليّاً عن زيارتها: فأنا أتصور كم تعاني أنتَ من الضجر هناك... ! اعذرنْي من فضلك... سأردّ لك جميلك بطريقةٍ ما. أرجو أنْ تطلب منّي كلّ ماتحتاجه من مال. ليزا، مُري بوضع أفضل ماعندنا من نبيذ على الغداء: سنشرب نخب نجاح قضيتنا.

خرج بطرس إيفانيتش من الغرفة. نظرتْ ليزابيتا ألكسندروڤنا مرتين خلسةً إلى ألكسندر عندما رأت، أنه لم يتفوّه بكلمةٍ واحدة، وخرجت بدوها من الغرفة أيضاً لتصدر أوامرها المتعلقة بترتيب الغداء.

جلس ألكسندر ساهماً، وهو ينظر طوال الوقت الى ركبتيه. رفع رأسه أخيراً ونظر حوله، فلم يشاهد أحداً. استعاد نشاطه ونظر إلى الساعة، فوجدها تشير إلى الرابعة. خطف قبعته بسرعة ولوّح بيده صوب الجهة، التي ذهب إليها عمّه، فوصل الى غرفة المدخل، وهو يسير بهدوء على رؤوس أصابعه. وتَلَفّتَ إلى كلّ الجهات، ثم تناول معطفه واندفع يركض مسرعاً على الدرج قاصداً تافاييڤا.

لم يكن سوروكوف يكذب: كان ألكسندر يحب يوليا. أحس بنوبات هذا الحب الأولى، برعبٍ تقريباً، كما لو أنه كان يُحس بوباءٍ وافد. كان يعذّبه الخوف والخجل: الخوف من أن يعاني، من جديد، من نزوات قلبه وقلب من يُحب، والخجل من الآخرين، وخاصةً من عمّه. كان مستعداً لأن يفعل المستحيل، من أجل ان يُخفي هذا الحب عنه. فمنذ أمد غير بعيد، أي منذ ثلاثة أشهر فقط، كان يتفاخر علناً بأنه قد ارتدّ عن الحب نهائياً، حتى أنه كتب مرثيّة شعرية لهذا الإحساس المنغص، الذي تبرأ منه بصورة حاسمة، قرأها عمّه شخصياً، وأخيراً، صار يحتقر النساء جهاراً- وها هو الآن، من جديد، يخرّ صريعاً عند قدمي امرأة! هذا إثباتٌ جديد عن طيشه الصبياني. ياإلهي! متى سيتحرّر من تأثير عمّه، الذي لايقهر؟ هل يعقل ألاّ تتخذ حياته أبداً منحى مفاجئاً خاصاً، أم أنها ستظلّ تسير إلى الأبد وفق تنبؤات بطرس إيڤانيتش؟

كانت هذه الفكرة تقوده الى اليأس. ربما يسرّه الهرب من هذا الحب الجديد. لكن، كيف يهرب؟ ما الفرق بين حبه لنادينكا وحبه ليوليا! الحب الأول عبارة عن زلة قلبٍ غير موفقة، كانت تتطلّب غذاء ورعايةً، لكن القلب في تلك السنوات يكون قليل الخبرة والدراية، إذ إنه يتلقف بشغف كل مايصادفه أولاً. لكن، هل ينطبق هذا على يوليا! فهي ليست فتاة جامحة، متقلبة الأهواء لاتفهمه، ولاتفهم نفسها ولا الحب. إنها امرأة ناضجة تماماً. صحيح أنّها ضعيفة جسدياً، لكنها تذخر بالحيوية والطاقة الروحية: إنها تجسد الحب كله! فهي لاتعترف بشروط أخرى للسعادة والحياة. وهل الحياة ترّهة؟ إنها موهبة أيضاً، ويوليا عبقرية في هذا المجال. ذلك هو الحب، الذي كان يحلم فيه: الحب الناضج الواعي، لكنْ، القوي، الذي لايعترف بشيءٍ خارج إطاره.

«لن ألهث وينقطع نفسي من السرور كالحيوان، - كان يُسرُّ لنفسه، - فالقلب لن يتوقّف عن الخفقان، لكنّ تحولاً ملحوظاً يتحقّق في داخلي، إنه أسمى وأهمّ مما عرفت حتى الآن: إني أدرك سعادتي وأتأملها بتبصّر وتفكير، وهي أكثر

twitter @baghdad_library

غنى وعمقاً، رغم أنها قد تكون أكثر صمتاً وهدوءاً. . . كم استسلمت يوليا لمشاعرها بصدقٍ وعفويةٍ ونبل! لايعثر المرء إطلاقاً في أحاسيسها على أيّ أثر للتكلّف. كأنها كانت تنتظر الإنسان الذي يدرك الحبّ بعمق- وهاهو قد ظهر. دَخَلَ قلبها كالملك الشرعيّ المعترف به طواعية، الذي يدخل مملكته الغنيّة الموروثة بفخرٍ واعتزاز. ياله من فرحٍ عظيم، وياله من نعيم، - كان ألكسندر يفكر، وهو في طريقه إليها من عند عمّه، - عندما يعرف المرء، أنّ كائناً موجوداً في هذا العالم يظلّ يتذكّر من يُحبّ، رغم المشاغل والمسافات، ويجمع الأفكار والإهتمامات والتصرّفات كلها في نقطة واحدة ومفهوم واحد - في الكائن المحبوب! إنّه كالشبيه تماماً. فكلّ ما يسمعه ويراه ويحدث معه، يُثبَّتُ في ذاكرة ووجدان الشبيه الآخر، فالانطباع الذي يتكوّن عند أحدهما يكون معروفاً لدى الإثنين، فقد درس كلّ منهما الآخر جيّداً وعرف كيف يتصرف ويفكر ويتعامل مع الأشياء والناس، لذا فإن الإنطباع الذي يتأكد ويترسّخ بهذه الطريقة، يُستوعب من قبل النفس ويترسّخ فيها بسمات لاتُمحى. يرفض كلّ من الشبيهين الأحاسيس والمشاعر ا لخاصة، إذا لم تكن مقبولة من الآخر وقابلة للتقاسم معه مناصفة. كلّ واحدٍ منهما يحبّ مايحبّه الآخر، ويكره مايكرهه. إنهما يعيشان بشكلٍ لاتنفصم عراه؛ بإحساس واحدٍ وبفكرةٍ واحدة؛ لديهما بصر واحد وسمعٌ واحد وذهنٌ واحد وروح واحد. . . ».

-سيّدي! أي مكانٍ تريد على شارع ليتيني؟ سأل الحوذي.

كانت يوليا تحبّ ألكسندر أكثر ممّا كان يحبّها، حتى أنها لم تكن تدرك قوّة حبّها كلها، ولم تفكر فيها. كانت تحبّ للمرّة الأولى، وهذا مايفسر اندفاعتها العاطفية، لأن الحبّ في المرّة الثانية لايتمّ عادةً بسهولة متناهية، أي لايتمّ فوراً وبصورة مباشرة. لكن المصيبة تكمن في أنّ قلبها كان حسّاساً للغاية، فقد تفتّح على قراءة الروايات العاطفية، ولم يكن مُعداً ومصنوعاً للحبّ الأول، بل لحبٍّ جارفٍ موجودٍ في بعض الروايات فقط، لا في الواقع العملي المعاش، لحبّ ينتهي دائماً بصورةٍ مأساوية حزينة، لأنه غير ممكن واقعياً. في غضون ذلك، لم يكن ذهن يوليا يجد في قراءة الروايات وحدها، الغذاء الكافي السليم، وكان يتخلف عن

قلبها. لم تستطع بحالٍ من الأحوال أن تتصور وجود حبّ بسيط هادىء، دون انفعالات عاصفة ومشاعر قويّة. كانت ستكفّ فوراً عن حبّ أيّ إنسانٍ لايسقط عند قدميها في أوّل فرصة سانحة، ولايقسم لها بكلّ قواه الروحيّة على الوفاء لها. وإذا تجرأ وامتنع عن حرقها وتحويلها الى رماد في أحضانه، أو إذا ماطمح للانشغال بأمر آخر غير الحب، ولم يكتف فقط برشف كأس الحياة قطرة قطرة من دموعها وقبلاتها.

من هنا نشأت النزعة الحالمة، التي خلقت لها عالماً خاصاً بها. وإذا حدث شيء ما في العالم الاعتيادي البسيط بصورةٍ تشذ عن قوانين الخاص، فإنها تستاء وتتعذب. فجسد المرأة الضعيف يتعرض عندئذٍ لهزة تكون أحياناً قوية جداً. فالإضطرابات المتكررة توتر الأعصاب وتؤدي بها في نهاية المطاف الى اختلالٍ كامل. ذلكم هو سرّ هذا التأمل والحزن البادين دون سبب، وهذه النظرة القاتمة الى الحياة لدى الكثيرمن النساء؛ ذلكم هو السبب، الذي يجعل نظام الوجود الإنساني السليم، المبني بعقلانية، والمكون بموجب قوانين غير مألوفة يبدو لهنّ قيداً ثقيلاً؛ ذلكم هو السبب الذي يجعلهن باختصار يخشين الواقع، ويجبرهن على بناء عالمٍ شبيهٍ بعالم السحر والخيال.

منْ ذا الذي يسعى قبل الأوان من أجل ان يصنع قلب يوليا ويصوغه هكذا بشكل غير صحيح، ويترك عقلها في هدوء؟... مَنْ هو؟ وذاك المجلس الكلاسيكي للمربين، الذي تَعَهّدَ، بطلبٍ من الوالدين، واستجابةً لندائهما، العقل الفتي اليافع بالعناية والرعاية، فكشف له عن سرّ الأشياء وأسباب حدوثها، وأماطَ اللّثام عن الماضي ودلّنا عمّا هو موجود تحتنا وفوقنا وفي نفوسنا، - يالها من مسؤولية صعبة! بالمقابل، فإنّ هذه التضحية الهامة أنيطت بثلاث أمم. لقد أحجم الوالدان عن التربية، مفترضين أن مشاغلهما وهمومهما كلها تنتهي بالاعتماد على نصح وتوصية الأصدقاء الطيبين، كأنْ يستأجرا الفرنسي بوليه لتعليم الأدب الفرنسي وغيره من العلوم الأخرى، وكذلك الألماني شميت، لمجرد ان الناس قد

twitter @baghdad_library

اعتادوا على هذا، لكن ليس من أجل تعلّم الألمانية مطلقاً؛ وأخيراً المعلم الروسي إيفان إيفانيتش.

- أجل، إنهم جميعاً غير مصّففي الشعر، - تقول الأم، ملبسهم رديء دائماً، لدرجة أنه يبدو أسوأ من لباس الخدم، كما أنّ رائحة النبيذ تفوح منهم أحياناً.

- وكيف يمكن الإستغناء عن المعلم الروسي؟ مستحيل! -قرّر الأب. - لاتقلقي: سأختاره بنفسي، وسأحرص على أن يكون أكثر نظافة وترتيباً.

ها قد باشر الفرنسي العمل. الأب والأم يحيطانه بالرعاية والإهتمام ويتقربان منه. وجها إليه الدعوة لزيارة البيت كضيف، وتعاملا معه باحترام: كان بالنسبة لهما مواطناً فرنسياً عزيزاً.

كان سهلاً عليه تعليم يوليا: إذا كانت بفضل مربّيتها تثرثر بالفرنسية وتقرأ وتكتب بها، دون أخطاء تقريباً. بقي على المسيو بوليه فقط أنْ يعلمّها التأليف. كان يعطيها موضوعات مختلفة: كأن تصف شروق الشمس تارةً، وتحدّد الحبّ والصداقة تارة أخرى، وتكتب رسالة تهنئة ومعايدة للوالدين أحياناً، أو تصف حالة الحزن، التي تحسّ بها لدى فراق صديقةٍ أحياناً أخرى.

لكن يوليا كانت ترى من نافذتها فقط، كيف كانت الشمس تغرب وراء منزل التاجر غرين؛ لم تفارق صديقاتها أبداً، أما الحبّ والصداقة... فإنّ الفكرة عن هذه الأحاسيس تلوح في ذهنها هنا لأول مرّة. لكن، ينبغي أن تعرف شيئاً عنهما في وقتٍ من الأوقات. بعد استنفاد ذخيرة هذه الموضوعات كلها، قرّر بوليه أخيراً أنْ يلجأ لدفتره الرقيق المقدّس، المعنْوَن بأحرف كبيرة: محاضرات في الأدب الفرنسي، مَنْ منا لايذكر هذا الدفتر؟ بعد شهرين، صارت يوليا تحفظ عن ظهر قلب، الأدب الفرنسي، أي الدفتر الرقيق، وبعد ثلاثة أشهر نسته، لكنّ الآثار المدمرة ظلت باقية. كانت تعرف اسم ڤولتير، وكانت تنسب إليه أحياناً

«المعذّبون»، أما شاتوبريان فكانت تنسب إليه «القاموس الفلسفي» بينما كانت تطلق على مونتين اسم مسيو دومونتينيه، وكانت أحياناً تذكر إلى جانبه هوغو. عن موليير كانت تقول، إنه يكتب للمسرح، ومن راسين حَفظت خطابه الشهير: لم نخرج من بوابة تريزين إلاّ بصعوبة.

على صعيد الأسطورة، أعجبتها كثيراً الملهاة، التي يؤدي الأدوار فيها ڤولكان، مارس وڤينيرا. في البداية، وقفت الى جانب ڤولكان، لكنْ، ما إن علمتْ أنه كان أعرج أخرق، وأنه كان يعمل أيضاً حداداً، حتى تحولّت فوراً الى جانب مارس. أحبّتْ الأسطورة، التي تتحدّث عن سيميل وجوبيتر وعن طرد أبولون إلى الأرض، وكانت تأخذ كل شيء وتفهمه كما هو مكتوب، دون أن يتبادر لذهنها أيّ معنى آخر لهذه الأساطير. لكن هل كان يتبادر لذهن المعلم الفرنسي نفسه معنى آخر - الله أعلم! وعن أسئلتها المتعلقة بتحديد ديانة هؤلاء القدماء، كان يجيبها بكبرياء، وهو مقطب الجبين: سخافات! لكن ينبغي أن يكون لدى هذا الأحمق ڤولكان شيء ما، لأن تعبيراً أحمق كان يرتسم على وجهه. . . اسمعي، أضاف بعد ذلك، وقد ضيق عينيه قليلاً، وهو يُربّت على كتفها: ماذا كنتِ ستفعلين لو كنت مكان ڤينيرا؟ لم تُجب شيئاً لكنها احمرت لأول مرة في حياتها، لسبب لاتعرفه.

ختم الفرنسي أخيراً تربية يوليا عندما عرّفها على المدرسة الجديدة للأدب الفرنسي، ليس من الناحية النظرية، بل من الناحية العملية التطبيقية. فقد أعطاها مؤلفات أثارت في ذلك الزمن ضجّة كبيرة، هي: «المخطوطة الخضراء»، «الخطايا السبع المميتة» و «الحمار الميت» ومجموعة أخرى من الكتب، التي كانت تُغرق آنئذ فرنسا وأوروبا.

أقبلت الفتاة المسكينة على قراءة هذه الوفرة من الكتب بنهمٍ شديد. كم بدت لها نماذج الأزواج من طراز جان ودروينو وغيرهما من الأزواج العظماء، أبطالاً

twitter @baghdad_library

حقيقيين! أمام تصوراتهم الرائعة، تشحب أسطورة ڤولكان البائسة! وكم تبدو ڤينيرا ساذجة بسيطة أمام هؤلاء البطلات الجديدات! صارت تقرأ بِنَهَمٍ هذه المدرسة الجديدة، وهكذا تفعل الآن على الأرجح.

في غضون ذلك، وفيما ذهب الفرنسي بعيداً هكذا، لم يلحق الألماني ان ينهي علم القواعد: كان يحب كثيراً أن يضع بمهابة جداول التصريف والإعراب، مبتكراً أساليب عديدة جديدة لحفظ نهايات الحالات الإعرابية، كما كان يوضح أن ZU يمكن أن تُوضع أحياناً في النهاية... الخ. وعندما طُلب منه تعليم مادة الأدب، اضطرب المسكين وخاف. أُطلع على دفتر الفرنسي، فهز رأسه وقال، إنّ أموراً كهذه يُحظر تعليمها بالألمانية، إذ توجد مختارات لآلر، تتضمّن كافة الكتّاب الألمان ومؤلفاتهم. لكنه لم يستطع ان يتملّص: فقد طولب بإلحاح، بأن يعرف يوليا على الكتّاب الألمان، كما فعل المسيو بوليه.

أذعن الألماني أخيراً ووعد بأن يفعل ذلك، ووصل الى البيت، ثم استغرق في تفكير عميق. فتح أو الأصح ان نقول، فَكّ الخزانة ونزَع درفة أسندها الى الجدار، لأن الخزانة لم تكن تملك منذ زمن بعيد مفصّلات، ولا قفلاً، فأخرج من هناك حذاءً قديماً وقطعة من السكر وزجاجةً وعلبة نشوق ودورقاً زجاجياً مليئاً بالڤودكا وقطعةً من الخبز الأسود، وطاحونة قهوة مكسورة وأداة حلاقة وقطعة صابون وفرشاةٍ موضوعة في وعاء زجاجي وحمّالات بنطال قديمة ومسنّاً لشحذ السكاكين وبعض النفايات الأخرى المشابهة. أخيراً، ظهر بعد هذا كله كتابٌ، ثم ظهر آخر وثالث ورابع وخامس. صار يضرب الواحد على الآخر، فتصاعد الغبار كالدخان، مكوّناً سحابة كثيفة، فَبَرَقَ الإلهام في رأس المربي بمهابة.

كان الكتاب الأول عبارةً عن سيرة حياة غيسنر الرغيدة، -- حسناً - قال الألماني، ثم قرأ بمتعة قصّة الإبريق المكسور. فتح الكتاب الثاني: المفكرة القوطية لعام ١٨٠٤ صار يُقلب صفحاتها: وجد فيها السلالات الأوروبيّة والحكام وصوراً

لقلاع وحصونٍ مختلفة وشلالات، - جيّد جداً - قال الألماني. تناول الكتاب الثالث، فوجد أنه الكتاب المقدس: وضعه جانباً وغمغم بورع: كلا! الكتاب الرابع - «ليالي يونغ»، هزّ رأسه وغمغم أيضاً: كلاً! الكتاب الأخير - ڤايس! - ابتسم الألماني بمهابة: هذا موجود عندي، - قال هو. وعندما قيل له، إنه يوجد آيضاً شيلر، غوته وآخرون، هزّ رأسه وأصرّ بعنادٍ قائلاً: كلاّ!.

تشاءبت يوليا بمجرّد أن ترجم لها الألمانيّ الصفحة الأولى مع فايس، ولم تُصغ إليه بعد ذلك مطلقاً. بقي في ذاكرتها فقط من كلّ ماقاله الألماني لها، أن حرف ZU يوضع أحياناً في النهاية.

والروسي؟ كان ينفّذ واجبه بإخلاص أكثر من الألماني. كان يؤكد ليوليا والدموع تكاد أن تطفر من عينيه، أنّ الإسم الموصوف أو الفعل يمثلان جانباً هاماً في اللغة، أما الحرف فلا يرقى إلى مصافهما من حيث الأهمية، وأفلح أخيراً بأن جعلها تصدقه وتحفظ عن ظهر قلب، تعريف كلّ قسم من أقسام الكلام. حتى أنها كانت تستطيع ان تورد دفعة واحدة كلّ حروف الجرّ والعطف والظروف، وعندما سألها المعلم بمهابة: «ماهي علامات التعجب المعبّرة عن الخوف والدهشة، قالت دون أن تلتقط أنفاسها: «آه، أوه، تباً، هيهات... الخ»، وكان المربي مندهشاً.

تعلّمت بعض الحقائق من علم النحو أيضاً، لكنها لم تستطع الإستفادة منها أبداً، وظلّت تقترف الأخطاء النحوية طوال حياتها.

عرفت من التاريخ ان شخصاً مهماً يدعى ألكسندر ماكيدونسكي، قد عاش في وقتٍ من الأوقات، وحارب كثيراً، وكان مقداماً... ورائعاً بالطبع... لكن، ماذا كان يمثل من معانٍ ومدلولات، وماذا كان يمثل عصره أيضاً، فهذا مالم يخطر على بالها ولا على بال معلّمها أبداً.

وعندما طُلب من المعلّم تدريس مادّة الأدب، جلَبَ كومة من الكتب القديمة المستعملة، كانت تتحدث عن كُتّابٍ كثيرين، من بينهم كانتيمير، سوماروكوف،

twitter @baghdad_library

لومانوسوف، درجاڤين وأوزيروف[1]، دُهش الجميع. تَمَّ فتح أحد الكتب بحذر، فَشُمَّ ورُمي وطولب بكتاب أكثر جدّة. جلب المعلّم كتاباً يتحدّث عن كارامزين[2]، لكنْ كيف يمكن ا ن يُقرأ كارامزين بعد مدرسة الأدب الفرنسي الجديدة! قرأت يوليا قصة «ليزا المسكينة» وبضع صفحات من «الأسفار»، ثمّ أعادتْهُ.

كانت الإستراحات والفواصل تضيع بين هذه الدروس، ولم تتوفّر للتلميذة المسكينة أيّ فرصة للتفكير! صار ذهنها يتعب وقلبها يضرب. في هذه الأثناء، جاءها صدفة ابن عمها الخدوم اللطيف، وجلب معه بضعة فصول من «أنييغين» و«أسير القفقاس»[3] وغيرهما، فعرفت الفتاة عذوبة وروعة الشعر الروسي. حفظت «أنييغين» عن ظهر قلب وظلّت هذه القصيدة الملحمية حيّة في ذاكرة يوليا، ولم يعرف ابن عمّها، شأنه شأن كافة المربين والمعلمين، أن يشرح لها أهمية ومكانة هذا الإنتاج الأدبي الرائع. أخذت تاتيانا نموذجاً، وصارت تُردد ذهنيّاً، وهي تُخاطب نموذجها الرائع هذا، السطور الملتهبة، التي تضمّنتها رسالة تاتيانا لأنييغين، فأحسّتْ بألمٍ واضطرابٍ في قلبها. كان خيالها يبحث عن أنييغين تارةً، وعن أحد أبطال المدرسة الجديدة الحزينين، الشاحبين واليائسين تارةً أخرى.

أكمل إيطاليٌّ وفرنسيٌّ تربيتها وتعليمها، فاكتسب صوتها، كما اكتسبت حركاتها أيضاً سمات رشيقة رائعة، أي أنها تعلّمت الرقص والغناء والعزف، أو الأصح ان نقول، أنّها تعلّمت العزف على البيانو قبل الزواج، لكنّهما لم يعلّماها الموسيقى. ها قد بلغت الثامنة عشرة، لكنّ نظرتها ظلّت دائماً شاردة، حزينة. وجهها شاحب، لكنْ جذّاب، خصرها نحيل رشيق، وقدماها منمنمتان جميلتان، - هكذا كانت تظهر في المناسبات والصالونات أمام الجميع.

---

(١)- أسماء بعض الكتّاب والشعراء والعلماء الروس، الذين عاشوا في القرن الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر (المترجم).

(٢) - كارامزين (١٧٦٦ - ١٨٢٦)- منظر ومؤرخ وكاتب روسي مشهور، من مؤلفاته «ليزا المسكينة (المترجم)

(٣) - أينيغين» و «أسير القفقاس» - من القصائد الملحمية للشاعر الروسي العظيم بوشكين (المترجم).

استرعت انتباه تافاييف، الذي كان يتمتّع بمزايا العريس كلّها، أي أنه كان ذا مقامٍ رفيع، ثرياً يحمل صليباً على عنقه - أي أنه باختصار صاحب جاهٍ وثروة. لايصحّ ان نقول عنه، إنه كان مجرد إنسانٍ بسيط طيّب فقط. كلا! كان يدافع عن وجهة نظره ويحلّل الأوضاع الراهنة في روسيا بحكمةٍ وصواب، ويتحدث عن نقص الإنتاج في القطاعين: الزراعي والصناعي، وكان يُعتبر في وسطه إنساناً عملياً.

تركت الفتاة المتأمّلة لديه، انطباعاً قوياً، ربما يكون ناجماً عن سماتها الشخصية المتناقضة مع طبعه المتماسك والغريبة عنه. في السهرات، كان يقوم عن طاولة اللعب ويستغرق في تفكيرٍ متواصل، وهو ينظر الى هذا الشبح الرشيق، الطائر أمامه. وعندما كانت تقع عليه صدفةً بالطبع، نظرتها الساجية، كان يرتبك أمام هذه الفتاة الخجولة، وهو المحترف، المشهود له في قدرته على التصرف والنقاش بثقةٍ في هذه الصالونات، وكان يريد أن يقول لها أحياناً شيئاً ما، لكنه لم يكن يستطيع. سئِمَ من هذا كلّه، وقرر ان يتصرف بإيجابية وفاعلية أكثر، من خلال بعض العمّات والخالات.

المعلومات عن الصّداق بَدَتْ مُرْضيةً بالنسبة له. «ماذا: كلّ منا يناسب الآخر! - كان يسرّ لنفسه. - صحيحٌ، أنني بلغتُ الخامسة والأربعين، بينما لاتزال هي في الثامنة عشرة، لكنّ هذا لايمنع من أن نعيش بسعادةٍ وسرور. ثروتنا ستمكننا من العيش معاً بصورةٍ لايحلم بها اثنان غيرنا. والمظهر الخارجي؟ إنها جميلة بسيطة، وأنا رجلٌ بكل معنى الكلمة... جميل الهيئة. يقال أنها مثقّفة، وأنا أيضاً تعلمت ودرستُ في وقتٍ ما، وأذكر أني درستُ اللاتينية والتاريخ الروماني. أذكر الآن أيضاً، أنه كان ثمة قنصل... لا أستطيع أن اذكر اسمه... ليذهب الى الشيطان! أذكرُ أنني قد قرأت عن الإصلاح... وهذه الأبيات: سعيدٌ ذاك الفتى... ماذا أيضاً؟ آه، لقد نسيتُ كل شيء - الشيطان يعلم. أقسم أنّ الناس يتعلّمون كي ينسوا فيما بعد. فأنا، كما قلت، لا أتذكر ذاك القنصل، لكنني

twitter @baghdad_library

واثق أيضاً، أن مامن أحد من بين هؤلاء الموظفين والناس الأذكياء كافة يستطيع أن يتذكّر ذاك القنصل . . . أو يقول متى جرت الألعاب الأولمبية. هذا يعني أنّ التعليم مبنيٌ بطريقة تفرض على المتلقين النسيان . . . المهم هو أن يشاهد الآخرون بأمّ أعينهم، أنّ فلاناً قد تعلم. وكيف لاينسى المرء: مادام الإنسان لايسمع في حياته أحداً يتكلم شيئاً مما كان يتعلمه، وإذا ماتكلم أحدٌ ما، فأعتقد أنه سيسبّب إزعاجاً للآخرين، وسيتحول الجميع عنه! أجل، كلّ منا يناسب الآخر».

عندما تجاوزت يوليا مرحلة الطفولة، صادفها في أول خطوة تخطوها، واقعٌ حزين جداً - زوجٌ عاديّ. كم كان بعيداً عن أولئك الأبطال، الذين كانت تصورّهم لها مخيلتها ويصورهُم الشعراء! أمْضَتْ خمس سنوات في هذا الحلم الكئيب المُملّ، كما كانت تسمّي الزواج دن حبّ، وهاهما: الحبّ والحريّة يظهران فجأة. ابتسمت وفتَحت لهما ذراعيها لتستقبلهما بحرارةٍ وترحاب، واستسلمت للشوق كما يستسلم المرء لسباقٍ سريع على ظهر حصانٍ أصيل. وهاهو الفارس يمرّ مسرعاً على صهوة هذا الحصان الجبّار، وقد نسي الفضاء. الروح تسكن والأشياء تركض الى الخلف، والرطوبة تنعش الوجه؛ الصدر بالكاد يتحمل لحظة الإحساس بهذا النعيم . . . إنه أشبه مايكون بإنسانٍ في قارب يستسلم دون قلق لاتّجاه الموج: فتدفىء الشمس وجهه، بينما تلُوحُ الشطآن الخضراء في عينيه وتُدغدغ الموجة العابثة مقدمة الزورق، - فيحسّ بسبب هذا كله بالسعادة والإرتياح ويندفع الى الأمام فتشدُّه أكثر فأكثر وتغويه طريق التيار المندفع، الذي لايرى نهاية لها . . . وينجذب طائعاً، حيث لايستطيع أن ينتظر ويفكر عندئذ الى أين تقوده هذه الطريق: هل سيحمله الحصان الى الهاوية، أم ستقوده الموجة الى الصخور؟ . . . كانت الأفكار تذهب بعيداً، فتُغمض العينان ويصبح السحر طاغياً . . . هكذا لم تستطع ان تقهره؛ بل كانت تنجذب إليه وتنجذب . . . في نهاية المطاف، سيَطَرتْ عليها لحظات الحياة الشاعرية: أحبّتْ قلق النفس العذب تارة، والمؤلم تارةً أخرى، وكانت تبحث بنفسها عن الإضطرابات وتخلق لنفسها العذاب والسعادة. تولّعتْ بحبها، كما يتولعُ المدمن بالأفيون، وكانت تعبُّ السمّ القاتل بنهمٍ شديد.

كان الترقب يقلق يوليا. كانت تقف عند النافذة، ونفاذ صبرها يتزايد كل دقيقة. كانت تنتف الوردة الصينيّة، وترمي أوراقها على الأرض بأسى، أما قلبها فكان يتوقّف عن الخفقان: كانت هذه لحظة الألم والعذاب. كانت تشغل نفسها بسؤال وجواب: هل سيأتي أم لا؟ كانت قوة إدراكها كلها موجهة لحل هذه المهمة الصعبة. كانت تبتسم عندما ينتهي تفكيرها الى نتيجة إيجابية، وتصبح شاحبة، عندما تتوصّل الى عكس ذلك.

عندما اقترب ألكسندر، تهاوتْ على كرسيّها شاحبةً من شدّة التعب - إذ كانت أعصابها قد أُنهكت تماماً. وعندما دخل... كان يستحيل وصف تلك النظرة، التي استقبلتهُ بها، وذاك السرور الذي غمر وجهها فجأة، كأنهما لم يلتقيا منذ عام، علماً أنهما التقيا البارحة. أشارت بصمت الى ساعة الحائط، لكن ما إن بدأ بتبرير موقفه، حتى صدَّقتْه، ودون ان تكون هناك حاجة لسماعه، فَغَفَرت له ونسيت ألم انتظارها كلّه ونفاذ صبرها، ومدت له يدها وجلسا على الأريكة. تحدثا طويلاً، وصمتا طويلاً، ونظر كلٌّ منهما الى الآخر طويلاً. ولو لم يُذكِّرهما النادل، لَنَسيا الغداء حتماً. ياللنعيم! لم يحلم ألكسندر يوماً بمثل هذا الإمتلاء الوجداني الداخلي، وبمثل هذه المشاعر القلبية الصادقة. في الصيف، كانا يتنزهان معاً في الضواحي: وإذا ما استرعى انتباه الناس، نغم موسيقي عذب وألعاب نارية صادرة من مكان ما، فإنهما كانا يلوحان بين الأشجار، وهي تتأبط ذراعه. في الشتاء، كان ألكسندر يأتي في موعد الغداء، وبعد ذلك، كانا يجلسان قرب الموقد حتى الليل. أحياناً، كانا يأمران بتجهيز العربة، وبعد نزهة يقومان بها، كانا يجدّان السير في الشوارع المظلمة، ليعودا الى [illegible] كي يتابعا حول السماور حديثاً لاينتهي. كانا يلحظان كلّ ظاهرة من حولهما، وكلّ حركة عابرة للأفكار والمشاعر ويتبادلان الرأي بشأنها. كان ألكسندر يخشى لقاء عمّه، مثلما يخشى النار. أحياناً، كان يتردّد على ليزابيتا ألكسندروفنا، لكنها لم تستطع أبداً أنْ تُحرك الصراحة فيه. كان يحسّ بالقلق دائماً ويخشى أن يفاجئه عمّه، ذات مرّة، بحديثٍ من نمط الأحاديث السابقة المعهودة، ممّا كان يضطرّه لأن يجعل زيارته مُختَصَرة.

twitter @baghdad_library

هل كـان سعيداً؟ في مثل هذه الحال، يمكن أن نقول عن الآخرين نعم ولا، أمّا عنه، فنقول لا؛ كان الحبّ عنده يبتدىء بالعذاب. في اللحظات، التي كان يتيسّر له فيها نسيان الماضي، كان يثق بإمكانية ان يجد السعادة في يوليا وحبها. في وقتٍ آخر، كان يضطرب فجأة ويرتبك عندما تضطرم نار الشوق والأحاسيس الصادقة، ويسمع بخوف هذيانها المستعر الصادق. كان يتراءى له، أنها ستخونه، أو أنّ ضربة قدرٍ مُباغتة ستُدمّر بلمح البصر هذا العالم الرائع من النعيم والسعادة. كان يعلم وهو يتذوّق لحظة السرور والفرح، أنه يتوجّب عليه أن يفتديها بالعذاب، فيسيطر الحزن عليه من جديد.

رغم ذلك، انتهى الشتاء وحلّ الصيف، وحبه لم ينته. كانت يوليا تتعلق به بصورة أشدّ وأشدّ. لم تكن هناك خيانة ولا ضربةُ قدرٍ مُفاجئة: ماحَدَث كان مختلفاً تماماً. أصبحت نظرته جلية واضحة. ألِفَ الفكرة القائلة بإمكانية التعلّق الدائم بالحبيبة. «لكنّ هذا الحبّ لم يعد متوقّداً. . . فكّر ذات مرة وهو ينظر إلى يوليا، - لكنه بالمقابل، راسخ وطيد، وربما أزلي! كلا، لايعتوره أي شك. آه! أخيراً، فَهمتُك أيها القدر! تريدُ ان تُعوضني عن عذاباتي السابقة، وتُدخلني بعد ترحالٍ طويل الى برّ الأمان. هنا ملجأ السعادة إذاً. . . يايوليا! - هتف هو بصوت مسموع. ارتَعَشتْ.

- مابك؟ - سألت هي.

- كلا! لاشيء. . .

- قل لي: هل كانت لديك فكرةٌ ما؟

- عانَدَ ألكسندر، أصرّت هي.

- كنتُ أفكّر في نفسي قائلا: ينقص سعادتنا كي تكتمل. . .

- ماذا؟ - لاشيء! خطرتْ لي فكرة غريبة.

ارتبكت يوليا.

- آه، لاتُعذّبني، تَكَلّم بسرعة! - قالت هي.

استغرق ألكسندر في التفكير وصار يتكلّم بصوتٍ خافت، كما لو أنه كان يُكلّم نفسه.

-إنه لأمر رائع حقاً أن أملك الحقّ بعدم مغادرتها لحظة واحدة، وأن ألازمها في البيت . . . وأكون معها دائماً في كلّ مكان، وأصبح في أعين الناس مالكها الشرعي . . . وهكذا طوال الحياة! وأفاخر بهذا الى الأبد . . .

وصل أخيراً وهو يتحدّث بهذا الأسلوب الرفيع الى كلمة الزواج. ارتعشت يوليا وبَكَتْ. مدّت له يدها بحبٍّ وامتنان لايمكن التعبير عنهما، فانتعشا معاً وصارا يتحدّثان فجأة بحيوية. كان من المفروض أن يتحدّث ألكسندر مع زوجة عمه ويطلب مساعدتها في هذه المسألة المعقّدة.

في غمرة السرور، لم يكونا يعرفان ماينبغي ان يفعلاه. كانت فترة مابعد الظهيرة رائعة توجها الى أحد الأماكن الواقعة في الضواحي وصارا يبحثان عن هضبة قريبة، فعثرا عليها بعد جُهد، وجلسا على قمتها حتى الغروب، وراحا يرقبان مغيب الشمس ويحلمان بنمط حياتهما المقبلة مُفترضَيْن أنهما سيكتفيان بدائرة ضيقة من المعارف، واتفقا على أن يمتنعا عن القيام بزيارات فارغة، أو أن يستقبلا زوّاراً متُعبين مُملِين.

بعد ذلك، عادا الى البيت وراحا يتحدّثان عن النظام المقبل في البيت وتوزيع الغرف، وغير ذلك من الأمور. وصلا في حديثهما الى ترتيب الغرف. اقترح ألكسندر تحويل غرفة زينتها الى مكتبٍ له، كي تصبح قريبة من غرفة النوم.

- مانوع الأثاث، الذي تريده في مكتبك؟ - سألت هي.

- أودّ أنْ يكون مصنوعاً من خشب الجوز، أما القماش فأفضّل أن يكون مخملياً أزرق.

twitter @baghdad_library

- ذوق لطيف جداً: فالألوان الغامقة تلائم كثيراً مكاتب الرجال، لأن الدخان يُفسد الألوان الفاتحة. أما هنا، في هذا الرواق الصغير، الذي يصل مابين مكتبك المقبل وغرفة النوم، فسأضع بعض نباتات الزينة - سيكون هذا رائعاً، أليس كذلك؟ سأضع هناك أيضاً كرسياً وثيراً واحداً، أستطيع وأنا جالسة عليه أن أقرأ أو أعمل شيئاً ما، وأراك وأنت في مكتبك.

-يَعزُّ عليّ أن أتركك الآن، - قال ألكسندر مُودّعاً.

- وضعتْ يدها على فمه.

في اليوم التالي، ذهب ألكسندر الى ليزابيتا ألكسندروڤنا ليفاتحها بما أصبح معروفاً لديها منذ زمنٍ بعيد، وليطلب منها المشورة والمساعدة. لم يكن بطرس إيڤانيتش موجوداً في البيت.

- حسناً! - قالت هي، بعد أن سمعت اعترافه. - لم تعد الآن فتى يافعاً: صار بمقدورك أن تحكم على مشاعرك وتتصرف بحكمة وتتّخذ قرارك. لاتستعجل فقط: تَعَرّفْ عليها جيّداً.

- آه ياخالة، ليتك كنت تعرفينها! ما أكثر المزايا، التي تتمتّع بها!

- مثلاً؟

- إنها تحبني كثيراً. . .

- هذه مزيّة مهمة بالطبع، لكنّها لاتكفي وحدها للزواج.

أوردتْ هنا بضع حقائق عامة تخصّ المؤسسة الزوجيّة وعمّا ينبغي أن تكون عليه الزوجة والزوج.

-لكنْ، عليكَ ان تنتظر فقط. الخريف يحلّ الآن، - أضافت هي، - سينتقل الجميع الى المدينة. سأزور خطيبتك عندئذ؛ سأتعرف عليها وسأهتمّ بالأمر بجدّية. لن تتركها: أنا متأكدة منْ أنّك ستكون أسعد زوج.

سرّت كثيراً .

كم تُحبّ النساء تزويج الرجال؛ يلاحظن أحياناً، لسببٍ ما، أنّ مشروع زواج ما غير مناسب، ولاينبغي ان يتم، لكنهنّ رغم ذلك، يبذلنَ جهودهنّ لانجاز المشروع، المهم فقط ان يتمّ الزواج، وبعدها، ليتصرف الزوجان على هواهما. الله وحده يعلم البواعث، التي تدفعهنّ للعمل على إتمام الزواج أو ذاك.

رجا ألكسندر زوجة عمّه ألا تخبر بطرس إيڤانيتش بشيء قبل إتمام المسألة. مرّ الصيف وحلّ الخريف المملّ. حلّ الشتاء أيضاً. كانت لقاءات أدوييف ويوليا متكرّرة أيضاً. كانت يوليا تحصي الأيام والساعات والدقائق، التي يمكن ان يقضياها معاً. فقد استكشفت كل الفرص والمناسبات، التي ستجمعهما.

- هل ستتوجّه الى الوظيفة غداً في وقتٍ مبكر؟ -كانت تسأل أحياناً.

- في الحادية عشرة.

- عرِّج عليّ في العاشرة، ستناول الإفطار معاً. هل يُعقل أن تنقطع عنّي تماماً؟ كأنهم لايستطيعون أن يفعلوا هناك من دونك شيئاً.

- كيف؟ الوطن... الواجب... كان يقول ألكسندر.

- رائع! قل لهم إنك عاشق ومعشوق. أيُعقل أن رئيسك لم يحبّ أبداً؟ سيفهمك إذا كان لديه قلب. اجلب عملك الى هنا؛ منْ سيعيقك عن العمل هنا؟

- في مرّةٍ أخرى، لم تتركه يذهب الى المسرح، أما إلى معارفه، فلم تدعه يذهب أبداً. وعندما قامت ليزابيتا ألكسندروڤنا بزيارتها، مضى وقتٌ طويل قبل أنْ تستطيع يوليا تمالك نفسها، بعد أن رأت كم هي فتيّة وجميلة زوجة عمّ ألكسندر. كانت تتصورّها متقدمة في السنّ غير جميلة، كما هو حال الأغلبية الساحقة من العمات والخالات وزوجات الأعمام، اللواتي تجاوزن فترة الشباب، وإذا بها تُفاجأ بامرأة في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين، وهي فوق ذلك كله فاتنة! أقامت زفّة لألكسندر، ولم تعد تسمح له بالذهاب الى عمّه إلاّ نادراً جداً.

twitter @baghdad_library

لكنْ، ماذا كانت تعني غيرتها؟ ماذا كان يعني استبدادها بالمقارنة مع استبداد ألكسندر؟ لقد تأكد من تعلّقها به. رأى أنّ التغير والبرود ليسا في طبعها، فأحس بالغيرة: لكن، كم كان يغار! لم تكن غيرته هذه ناجمة عن فقدان حبّ: إنها لم تكن غيرة باكية مشتكية، مؤلمه ولا منغّصة، لكنها كانت باردة، غير مبالية وشرّيرة. كان يظلم المرأة المسكينة بحبه، أكثر من ظلمه الآخرين بكرهه لهم. كان يتراءى له مثلاً، أنها بوجود الضيوف مساء، لم تنظر إليه طويلاً بصورة متكررة بما يكفي من الرقة والحبّ، فيغضب ويتطلع حوله كالوحش- والمصيبة الكبرى أذا صادف في تلك اللحظات وجود شابّ بالقرب من يوليا، أو وجود مجرّد رجل، حتى وإن لم يكن شاباً. عندئذ، كانت تنهال عليها كالمطر، الشتائم والكلمات الجارحة وعبارات اللوم والظنون السيئة. فتجد نفسها مضطّرة هنا لأن تبرّر موقفها وتسترضيه بشتى الوسائل والأساليب، وتذعن لإرادته: فلا تتحدث مع ذاك، ولاتجلس هناك، ولا تقترب من فلان، فتتحمل بسبب هذا كلّه، الإبتسامات الماكرة وهمسات المراقبين ووشوشاتهم، فتحمر وتمتقع وتشعر بالإهانة.

وإذا تلقّت دعوة الى مكانٍ ما، فإنها تمتقع وتضطرب، فتُلقي عليه أولاً نظرة متسائلة، دون أن ترد على الدعوة- فترفض فوراً إذا قطبّ حاجبيه. أحياناً، كان يسمح لها -فتستعد وتلبس ثيابها وتصبح على وشك الجلوس في العربة - فيعترض فجأة بسبب نزوةٍ لحظيّة عابرة، فتعدل عن الذهاب وتُغيِّر ملابسها وتصرف النظر عن الموضوع. بعد ذلك، وفي أغلب الأحيان، يبدأ بالإعتذار منها ويقترح عليها الذهاب الى مكانٍ ما، فما إن تبدأ بزينتها وتأمر بتجهيز العربة، حتى يعدل عن رأيه من جديد. لم يكن يغار من الشبّان الأذكياء الموهوبين والوسيمين فقط، بل وحتى من البشعين، الذين لم تكن تعجبه أشكالهم.

ذات مرّة، قدم زائر كان آتياً من المنطقة، التي كان يعيش فيها أهلها. كان الضيف كهلاً يخلو من الوسامة، وقد ظلّ طوال الوقت يتحدث عن المحصول ومجلس الشيوخ، الذي كان عضواً فيه، فضجر ألكسندر من سماعه وذهب إلى الغرفة المجاورة. لم يكن هناك أيّ مبرّر للغيرة. أخيراً، وقف الضيف مودّعاً.

-بَلَغَني، - قال هو، - أنك تتواجدين أيام الأربعاء في البيت، ألا تسمحين لي بالإنضمام لمعارفك؟

ابتسمت يوليا، وبينما كانت على وشك أن تقول: تَفَضل! - صدح في الغرفة المجاورة همسٌ أعلى من أيّ صراخ: «لاأريد!».

- لا أريد! - كرّرت يوليا بسرعة للضيف، بصوت مسموع، وهي ترتعش.

تَحَمّلت يوليا كلّ شيء. فقد احتجبت عن الضيوف ولزمت بيتها، فلم تعد تخرج الى أيّ مكان، بل كانت تظلّ جالسة مع ألكسندر على انفراد.

ظلا يشربان حتى الثمالة من النعيم بصورة منتظمة، وبعد أن استنفدا مخزون نعيمهما كله، بدأت تبتكر وتنوّع عالم المتعة والسعادة المليء بالمسرّات. يالموهبة الابتكار والتجديد، التي تكشّف عنها ذهن يوليا! لكنّ هذه الموهبة استنفدت أيضاً. صارا يكرران ويكرران. لم يبق لديهما شيء يرغبانه ويجرّبانه.

لم يبق مكانٌ واحدٌ في الضواحي إلا وقاما بزيارته، ولامسرحية إلاّ وشاهداها معاً، ولاكتاباً إلا وقرآه وناقشاه سوية. درس كلٌ منهما مشاعر ونمط وتفكير ومزايا وعيوب الآخر، ولم يعد هناك شيء يمنع تنفيذ مخططهما المرسوم.

الإنفعالات العميقة الصادقة صارت قليلة. أحياناً، كانا يمضيان ساعات بكاملها، دون أن يقولا كلمة واحدة. لكنّ يوليا كانت سعيدة، حتى في غمرة هذا الصمت. أحياناً، كانت تلقي على ألكسندر سؤالاً فتتلقى منه إجابة بنعم أو لا، وكفى؛ وإذا لم تتلقّ هذا، فإنها كانت تنظر إليه بإمعان، فيبتسم لها وتصبح سعيدة من جديد، وإذا لم يبتسم لها أو يجبها بشيء، فإنها تبدأ بمراقبة كلّ حركةٍ ونظرةٍ له، فتفُسرها على طريقتها الخاصة، ويطالها لومه حتماً.

لم يعودا يتحدثان عن المستقبل، لأن ألكسندر كان يحسّ أثناء ذلك بنوعٍ من الحيرة والإرتباك، اللذين لم يكن يعرف سببهما، وكان يسعى لتغيير الموضوع فوراً. صار ساهماً متأملاً. الدائرة السحرية، التي كانت حياته مؤطرة ضمنها

twitter @baghdad_library

بالحبّ، بدأت تتهدّم في بعض الأماكن، وصارت تلوح له في الأفق البعيد وجوه أصدقائه وبعض الملذات تارة، وحفلات الرقص المغرية، التي تغصّ بالحسناوات تارةً أخرى، بينما كان يلمح في أحيانٍ أخرى أعماله التي تركها، وصورة عمّه المشغول أبداً.

في مثل هذا الوضع النفسي، كان جالساً ذات مرّة مساءً عند يوليا. كانت عاصفة ثلجية تهبّ في فناء الدار. كان الثلج يصفع النوافذ، فتلتصق على الزجاج قطع صغيرة منه. كانت الريح تحفر الحجارة وتحتّ الجدران، فتُصدر أغنية حزينة. وفي الغرفة، كان يسمع صوتٌ رتيبٌ لرقاص ساعة حائط، كما كانت تسمع في بعض الأحيان زفرات يوليا وتنهيداتها.

ألقى ألكسندر بسبب الفراغ والملل، نظرةً على الغرفة، ثم على الساعة، فوجدها تشير الى العاشرة، أي أنه كان ينبغي عليه أن يجلس ساعتين أيضا: صار يتثاءب. توقّفت نظرته على يوليا. كانت تقف مسندة ظهرها إلى الموقد، وقد أمالت وجهها الشاحب نحو كتفها، وهي تراقب بعينيها ألكسندر، لكن، ليس بتعبير من الشكّ والتساؤل، بل بتنعّم وحبٍّ وسعادة. يبدو أنها كانت تُصارع إحساسها الخفي هذا، وحلمها الجميل العذب، فَبَدَت متُعبة.

كانت الأعصاب تعمل بشدّة، فتسبّب لها ارتعاشة النعيم ذاتها، تعباً مُضنياً: كان الألم ممزوجاً بالسعادة بصورةٍ لاتنفصم.

ردّ عليها ألكسندر بنظرةٍ جافة قلقة. اقترب من النافذة وبدأ ينقر الزجاج بأصابعه نقراً خفيفاً، وهو ينظر إلى الشارع.

من الشارع، كانت تصل إلى مسامعها ضجّة مكونة من أصوات مختلفة ومن صرير العربات. أما الأضواء فكانت تشع من النوافذ، فيما كانت الظلال تلوح في كل مكان. بدا له أنّ الأماكن، التي كان يشع منها ضياءٌ أكثر، كانت تحتضن أناساً أكثر سعادة وسروراً؛ ربما يتم هناك تبادلٌ حيّ للأفكار والمشاعر الصادقة الجيّاشة المتوقّدة: فالناس هناك يعيشون بمرحٍ وسعادةٍ وهناء. أما الأماكن، التي يبدو الضوء

من نوافذها خافتاً ضعيفاً، فيسكنها على الأرجح، أناسٌ كادحون يعملون ليل نهار. فكّر ألكسندر بوضعه، فوجد أنه يعيش منذ سنتين تقريباً حياةً خاملة تافهة، - ها قد انقضى سنتان من العمر بهذه الطريقة، - كلّ هذا باسم الحبّ! هنا شنّ هجوماً عنيفاً على الحبّ.

«أيّ حبٍّ هذا - فكّر هو. - إنه حبٌّ خامل كسول، لم يتطلّب أي جهد. لقد استسلمت هذه المرة له، دون صراعٍ أو جهد أو عوائق، كما تستسلم الضحيّة تماماً؛ يالها من امرأةٍ ضعيفة، عديمة الشخصية! أسعدت نفسها بحبّ أولّ رجلٍ صادفته؛ لو لم أكن أنا لكانت قد أحبّت سوروكوف حتماً مثلما أحبتني! كم هي ضعيفة المقاومة! فإذا أتى شخصٌ أكثر جرأة ونشاطاً ومهارة منّي، فلابد ان تستسلم له... هذه خلاعة! أيّ حبٍّ هذا! أين العاطفة هنا، التي تنشدها النفوس المرهفة؟ لكن، ألم يشعر كلٌّ منا بالإنجذاب نحو الآخر: ألم نسعد معاً، لدرجة أننا قررنا أن نتحد الى الأبد! الشيطان وحده يعلم حقيقة هذا كله!» - أسرَّ لنفسه بأسى.

- ماذا تفعل هناك؟ بمَ تفكّر؟ - سألت يوليا.

- لاشيء... - قال، وهو يتثاءب، ثم جلس على طرف الأريكة بعيداً عنها، وأحاط بيده زاوية المسند.

- اجلس هنا، بالقرب منّي.

جلس ولم يُجب بشيء.

- مابك؟ تابعت وهي تقترب منه.

- أنت لاتُطاق اليوم.

- لا أعرف... - قال بفتور، - أحسّ... كأنني...

لم يكن يعرف بِمَ يجيبها، حتى أنه لم يكن يعرف بمَ يجيب نفسه أيضاً، إذ لم يوضح لنفسه بعد حقيقة مايجري في داخله.

twitter @baghdad_library

جلست بالقرب منه، وبدأت تتحدث عن المستقبل، ثم صارت تنتعش تدريجياً. تصورت لوحة الحياة الزوجية السعيدة، وكانت تمزح أحياناً، لكنها ختمت حديثها برزانة فائقة.

- أنت - زوجي! انظر، - قالت وهي تشير الى ماحولها، - سيصير هذا كله ملكاً لك. ستصبح أنت السيد الآمر في هذا البيت، كما في قلبي. أنا الآن حُرة، أستطيع أن أفعل ما أشاء وأذهب إلى أي مكان أريد، أما بعد الزواج، فلن يتحرك أيّ شيء هنا من مكانه إلا بأمر منك؛ سأكون رهن إرادتك، لكن كم سيكون هذا القيد رائعاً! قيدني بسرعة! متى سيتمّ هذا؟... بقيتُ طوال حياتي أحلم بإنسان كهذا، وبحبّ من هذا النوع... وهاهو حلمي يتحقق... السعادة أصبحت قريبة... لا أكاد أصدق... يبدو لي وكأنني في حلم. ألا يعتبر هذا تعويضاً عن عذاباتي السابقة كلها.

أحسّ ألكسندر بالعذاب، وهو يسمع هذه الكلمات.

- وإذا أقلعتُ عن حبك؟ - سأل فجأة، وهو يحاول ان يُكسب صوته نبرةً مازحة.

- كنت سأقطع أذنيك! - أجابت وهي تمسك بأذنه، بعد ذلك تنهّدت واستغرقت في تفكير عميق بسبب تلميحه المازح هذا.

ظلّ ملتزماً الصمت.

- مابك؟ سألت فجأة بحيوية- أراك صامتاً لاتكاد تسمعني، وأنت تحوّل نظرك عنّي جانباً.

هنا اقتربت منه ووضعتْ يدها على كتفه وصارت تتكلّم بصوت خافت يكاد يشبه الهمس، عن الموضوع السابق ذاته، لكن بصورةٍ أقل إيجابية. ذكرته ببداية تقاربهما وغرامهما وبأمارات حبهما وبأفراحهما الأولى. كادت أنفاسها ان تنقطع من نعيم تلك الأحاسيس؛ ظهرتْ على وجنتيها الشاحبتين بقعتان حمراوان.

صارت وجنتاها تتورّدان تدريجياً وعيناها تتألقان، ثم أصبحتا ساجيتين نصف مغلقتين؛ أما صدرها فكان يتنفس بقوّة. كانت تتكلم بصورة غير واضحة تماماً، وهي تعبث بإحدى يديها بشعر ألكسندر الناعم، ثم نظرت بعد ذلك الى عينيه. حرّر رأسه من يدها بهدوء، وأخرج من جيبه مشطاً وسرح بعناية خصلات الشعر، التي كانت تعبث بها. نهضت ونظرت إليه بإمعان.

- مابك ياألكسندر؟ - سألت باضطراب.

- «بدأت تُلح! وما أدراني؟» - فكر هو، لكنه ظلّ صامتاً.

تشعر بالضجر؟ - قالت فجأة، لكنّ صوتها كان ينمّ عن تساؤلٍ وشكّ في آن واحد. «أشعر بالضجر حقاً! - فكرّ هو. - وَجَدَتْ التعبير الملائم! أجل! إنه ضجر منغصٌ قاتل! منذ شهر، وهذه الدودة تدبّ في قلبي وتنخره... آه، ياإلهي، ماذا ينبغي أن أفعل؟ وتأتي بعد هذا كله للتحدث عن الحبّ والزواج. كيف يمكن أن أرشدها الى الصواب؟» جلست الى البيانو وعزفت بضع مقطوعات محببة الى قلبها. لم يسمعها، بل ظلّ يفكر طوال الوقت بهاجسه ذاك.

أحسّت يوليا باليأس. تنهّدتْ ولفّت نفسها بالشال وارتمت على الطرف الآخر للأريكة، وراحت ترقب ألكسندر بنظراتها الحزينة.

خطف القبعة.

- إلى أين؟ - سألت هي بدهشة.

- إلى البيت.

- لم تبلغ الساعةُ الحادية عشرة بعد.

- يجب أن أكتب لأمي: فأنا لم أكتب إليها منذ زمن بعيد.

-كيف منذ زمنٍ بعيد! أنت تكتبُ إليها لليوم الثالث على التوالي.

twitter @baghdad_library

التزم الصمت: إذ لم يكن لديه مايقوله. لقد كتب إليها فعلاً، وأخبرها حينئذ بذلك عرضاً، ونسي؛ لكنّ الحبّ لاينسى أصغر الأشياء. فكلّ مايمس الحبيب، ينظر إليه المُحب على أنه أمر هامّ. ففي ذهن المُحب يحاك نسيج معقد جداً من الملاحظات والتصورات والذكريات الدقيقة والبسيطة والهواجس المتعلقة بكل مايُحيط بالمحبوب من أحداث ومايجري في وسطه من أمور وبكلّ مايؤثر عليه. في الحبّ، تكفي النظرة الواحدة، والتلميح الواحد... لأن يُفهم المقصود! فالنظرة وحركة الشفاه، التي لاتكاد تُلحظ، تكفيان لأنْ تكوِّنا ظنّاً بعد ذلك، يتحوّل الظنّ الى تصور، والتصورّ إلى استنتاج حاسم، ومن ثمّ يتعذب المُحب، أو ينعم بالفكرة، التي توصل إليها. منطق المحبين يكون أحياناً زائفاً، وأحياناً أخرى صحيحاً بصورةٍ مدهشة، فيشيِّد بسرعة بناء من الظنون والشكوك، لكنُ قوّة الحبّ سرعان ماتقوِّض هذا البناء: إذ غالباً ماتكفي لتحقيق ذلك ابتسامة ودموع، وكلمتان أو ثلاث، أو أربع على أكثر تقدير - وعندها وداعاً أيتها الشكوك. هذا النوع من الرقابة لايمكن إضعافه ولا خداعه بأية وسيلة. فالعاشق يدخل الى رأسه تارة مالا يحلم به شخص آخر، بينما لايرى تارةٍ أخرى مايجري أمام عينيه؛ تراه أحياناً فطناً لدرجة التبصرّ، بينما تراه أحياناً أخرى، قصير النظر لدرجة العمى.

قفزت يوليا عن الأريكة كالقطة، ومَسكته بيده.

- مامعنى هذا؟ إلى أين؟ - سألت هي.

- لاشيء، لاشيء حقاً؛ أريد فقط أن أنام: لم أنم اليوم إلا قليلاً - هذا كل ما في الأمر.

- لم تنم إلا قليلاً! قلت لي هذا الصباح، إنك نمتَ تسع ساعات، حتى أن رأسك تؤلمك من كثرة مانمت، أليس كذلك؟

لم يفلح من جديد.

-رأسي توجعني... - قال هو، وقد ارتبك قليلاً، - هذا هو سبب ذهابي.

- لكنك قلت بعد الغداء، إنّ الألم قد زال.

- ياإلهي، يالذاكرتك! هذا لايطاق! أريد أن أذهب الى البيت وكفى.

- وهل تشعر بعدم الإتياح هنا؟ ماذا عندك هناك في البيت؟

هزّت رأسها بارتياب، وهي تنظر في عينيه: طمأنها بطريقةٍ ما وانصرف.

«ماذا سيحدث إذا لم أذهب اليوم الى يوليا؟» -طرح ألكسندر على نفسه هذا السؤال، عندما استيقظ في صباح اليوم التالي.

اجتاز الغرفة ذهاباً وإياباً ثلاث مرّات. «لن أذهب حقاً!» -أضاف هو بصوة قاطعة.

-يفسيي! هاتِ ملابسي. - وراحَ يتسكّع في المدينة.

«ما أسعد وأبهج أن يتنزه المرء جيداً! -فكّرهو. - يذهب الى حيث يشاء، ويتوقف في المكان، الذي يريد، يقرأ هذه اليافطة ويتفرج على واجهة هذا المخزن، ويذهب الى هنا وهناك.. رائع جداً، جداً! الحرّية - سعادةٌ مابعدها سعادة! أجل! الحرية بمعناها السامي الواسع تعني بوجهٍ خاص - أن يتنزه المرء وحيداً».

صار يضرب الرصيف بالعصا ويُسلم على معارفه بسرور. وبينما كان يعبر شارع مورسكوي، رأى في نافذة أحد البيوت وجهاً مألوفاً. دعاه هذا الشخص للدخول بإشارة من يده. نظر إليه. إنه ديوما! دخل وتغدّى وجلس حتى المساء، ثم ذهب الى المسرح ومنه الى المطعم ليتناول العشاء. حاول ان ينسى البيت: كان يعلم أنها تنتظره هناك.

في الواقع، وجد لدى عودته الى البيت نصف دزينة من الرسائل المختصرة على الطاولة، وخادماً يبدو عليه النعاس في غرفة المدخل. لم يكن مسموحاً للخادم أن يغادر قبل مقابلته. كانت الرسائل المختصرة تتضمّن لوماً واستفسارات واستجوابات وآثار دموع. في اليوم التالي، كان لزاماً عليه أن يبرّر تصرفه. تذرّع، أنه كان مشغولاً بعمل طارىء في الوظيفة، وتصالحا بطريقةٍ ما.

twitter @baghdad_library

بعد ثلاثة أيام، تكرّر الشيء ذاته، فعاد واختلق بعض الأعذار. بعد فترة أخرى، تكرّر غيابه من جديد أكثر من مرّة. ازدادت يوليا نحافة وشحوباً، فلم تكن تغادر البيت مطلقاً، كما لم تكن تستقبل أحداً، بل كانت تلتزم الصمت طوال الوقت، لأنّ ألكسندر غضب بسبب ما وجَّهَتْهُ إليه من لوم.

بعد أسبوعين اتفق ألكسندر مع أصدقائه على اختيار يومٍ يطربون فيه ويمرحون على هواهم؛ لكن، في صباح اليوم المحدّد، تلقى رسالة من يوليا ترجوه فيها أن يمضي معها اليوم كله، وأن يأتي لزيارتها في وقتٍ مبكر أكثر من المعتاد. كتبت أنها مريضة، حزينة، وأنّ أعصابها منهكة... الخ غضب، لكنه مع ذلك، ذهب إليها كي يحذرها بأنه لايستطيع البقاء عندها لكثرة أعماله ومشاغله.

- طبعاً: غداء عند ديوما، مسرح، تزلج على الثلج- أعمال مهمّة جداً...
- قالت بفتور همة.

- مامعنى هذا؟ -سأل هو بأسى - يبدو أنك تراقبينني، أليس كذلك؟ هذا مالا أطيقه.

نهض وأراد أن ينصرف.

- قف، اسمع! - قالت هي. - لنتحدث.

- ليس لديَّ وقت.

- اجلس ولو دقيقة.

جلس على طرف الكرسي دون رغبة.

صارت تنظر إليه باضطراب وهي مشبوكة اليدين، كأنها تريد أن تقرأ على وجهه جوابه المسبق عما تريد أن تقوله.

صار يتململ على الكرسي بسبب نفاد صبره.

- هيّا، تكلمي بسرعة! ليس لديّ وقت! - قال هو بجفاء.

- تنهّدتْ.

- لم تعد تحبّني، أليس كذلك؟ - سألت وهي تهز رأسها قليلاً.

- أغنية قديمة! - قال وهو يسدّ القبعة بكمّه.

- كم أنت ضجر ومنزعج! - قالت هي.

نهض وبدأ يتمشى في الغرفة بخطواتٍ سريعة. بعد دقيقة سُمع نشيج.

- هذا ماكان ينقصني! - قال بغيظٍ تقريباً، وهو يتوقّف أمامها. - كم عذّبتني... !

- عذّبتك! - صرخت هي وصارت تبكي بقوة أكثر.

-هذا لايطاق! - قال ألكسندر وهو يستعد للإنصراف.

- سأكف عن البكاء، سأكف عن البكاء! - قالت بسرعة وهي تمسح دموعها. - انظرْ، ها قد توقفتُ عن البكاء؛ أرجو أن تبقى وتجلس.

- حاولتْ أن تبتسم، فيما كانت الدموع تسيل على وجنتيها. أحسّ ألكسندر بالشفقة. جلس وبدأ يهزّ ساقه. صار يسأل نفسه ذهنياً السؤال تلو السؤال، حتى توصل الى استنتاج مفاده، أنه أصبح بارداً في علاقته مع يوليا وأنه لم يعد يحبها. بسبب ماذا؟ الله أعلم! حبها له كان يتزايد يوماً بعد يوم؛ أليس بسبب هذا؟ ياإلهي! ياللمفارقة! كل شروط السعادة متوفرة هنا. ليس هناك، عائق يعترض طريقهما، لكنّ عاطفته نحوها فترت! آهٍ، أيتها الحياة! لكنه، كيف سيهدّىء يوليا؟ هل يضحّي بنفسه؟ الأمر يتطلّب منه ان يعيش معها أياماً طويلة مملّة؛ ماذا يفعل؟ هل يتصنع ويتظاهر؟ -لكنه لايعرف ان يفعل هذا، وإذا لم يتصنّع - سيرى الدموع كل دقيقة ويسمع اللوم والعتاب، فيعذّبها ويعذّب نفسه... هل يُحدثّها فجأةً عن نظرية عمّه المتعلّقة بتقلّب المشاعر وبرود العاطفة- أرجو أن يمتنع عن هذا: ستبكي بكاءً مرّاً، ولن يفيدها هذا شيئاً، وعندئذ ! ما العمل؟

twitter @baghdad_library

عندما رأت يوليا، أنه ظلّ ملتزماً الصمت، أمسكت يده ونظرت في عينيه تحوّل عنها ببطء وحرّر يده بهدوء. لم يشعر فقط أنه لايميل نحوها، بل أحسّ وهي تلمس يده برعشة باردة كريهة تسري في جسده. زادت من مداعباتها. لم يردّ عليها، بل صار أكثر بروداً وتجهماً. سحبت يدها فجأة عنه واضطرمت. استيقظ فيها كبرياء الأنثى، والخجل والكرامة المهانة. رفعت رأسها ونصبت قامتها واحمرّت من الأسى.

- اتركني! - قالت بتقطع.

- انصرف بسرعة، دون أن يبدى اعتراضاً، لكن عندما بدأ صوت خطواته يتلاشى، اندفعت في أثره.

- ألكسندر فيدوريتش! ألكسندر فيدوريتش! - صرخت هي.

عاد.

- إلى أين؟

- لقد أمرتني بالإنصراف.

- وأنت مسرور بالهرب. ابقَ!

- ليس لديّ وقت.

- أمسكت يده وبدأ كلامها اللطيف، المشبوب بالعواطف الحارّة ينساب، والتوسّلات والدموع تتخلّله. لم يُظهر تعاطفاً، لا بالنظرة، ولا بالكلمة أو بالحركة، - كان يقف بارداً جامداً، بعيداً عن أي تأثر. أخرجها بروده عن طورها. بدأت تنهال التهديدات والملامات. مَنْ كان بمقدوره أن يجد فيها الآن، تلك المرأة الوديعة الضعيفة، سهلة الإنقياد؟ كانت خصلات شعرها محلولة مسترسلة، وعيناها تقدحان شرراً، ووجنتاها متورّدتين. أما قسمات وجهها، فقد تبدلّت وأُفسدَتْ بصورة غريبة «كم هي سيئة!» - فكّر ألكسندر وهو ينظر إليها ويصعر خدّهَ.

- سأنتقم منك، - قالت هي، - هل تظنّ أنك تستطيع بمثل هذه السهولة أن تلعب بمصير امرأة؟ تسللْتَ إلى قلبي بالرياء والتصنّع والتزلّف، حتى سيطرتَ عليَّ تماماً، وتريد بعد ذلك ان ترميني بعد أن أصبحتُ عاجزة عن شطبك من ذاكرتي. . . كلاّ! لن أتركك: سأطاردك في كلّ مكان. لن تفلت منّي: تذهب الى القرية - سأتبعك، تسافر الى خارج الحدود -سأسافر الى هناك أيضاً، سأطاردك دائماً وسألاحقك في كلّ مكان. لن أتخلى عن سعادتي بسهولة. الأمر عندي سيّان: لم تعد حياتي تهمني. . . لم يبق عندي شيء أفقده؛ لكنني سأسمّم حياتك: سأنتقم، سأنتقم؛ ينبغي أن تكون لديك الآن امرأة أخرى! إذ لايُعقل أن تكون قد تركتني، دون ان تكون هناك غريمة. . . سأعثر عليها - سترى ماذا سأفعل: لن تكون مسروراً في حياتك! كم كنتُ سأتلقّى نبأ مقتلك الآن بكثير من الغبطة والمتعة. . . ربما سأقتلك بنفسي!

«ياللحماقة! ياللسخافة!» -فكّر ألكسندر وهو يهزّ كتفيه.

عندما رأتْ أنّ ألكسندر غير مكترث بتهديداتها، تغيّرت فجأة للتحدّث بلهجةٍ هادئة حزينة، ثمّ نظرتْ إليه بصمت.

- اشْفق عليّ! -بدأت الكلام- لاتتركني، ماذا سأفعل الآن من دونك؟ لن أتحمل مرارة الفراق. سأموت! فكّرْ في هذا! النساء يحببن بطريقةٍ تختلف عن الرجال: حبهنّ أقوى وأكثر توقّداً. بالنسبة لهنّ، الحبّ- كلّ شيء، وخاصّةً بالنسبة لي: بعض النساء يتدلّعن ويحببن الأضواء والبهرج والصخب، لم أعتد على هذا، طبعي مختلف تماماً. أحبّ الهدوء والعزلة والكتب والموسيقى، لكنني أحبّك أكثر من أيّ شيء آخر في هذا العالم كشف ألكسندر عن نفاد صبره.

- حسناً! لا أطالبك بأنْ تحبني، -تابعت هي بحيويّة، - لكنْ نفّذْ وعدك: تزوّجني وابقَ معي فقط. . . ستكون حراً: افعل ماتشاء، حتى أنك تستطيع ان تحبّ من تشاء. ما أبغيه فقط، هو أن أراك أحياناً. . . ناشدتُك الله: ارحمني، ارحمني! . . .

twitter @baghdad_library

صارت تبكي، ولم تستطع أن تتابع الحديث. أنهكها الإضطراب واستنفد قواها، فتهادت على الأريكة وأغمضت عينيها وأطبقت أسنانها بشدّة، واعوجّ فمها بتشنج وأصابتها نوبة هستيريّة. بعد ساعة، عادت الى رشدها وتمالكت نفسها. كانت وصيفتها تتململ بجانبها. تطلّعت حولها. - أين؟... - سألت هي.

- ذهب!

- ذهب! - كررت بحزن، ثم جلست مدّة طويلة، وهي صامتة بلا حراك.

في اليوم التالي، أرسلت الى ألكسندر الرسالة، تلو الرسالة. لم يأت ولم يردّ على رسائلها، وكذلك كان الأمر في اليومين الثالث والرابع أيضاً. كتبت يوليا رسالة الى بطرس إيفانيتش ووجهّت إليه الدعوة لزيارتها لأمرٍ هامّ. لم تكن تُحبّ زوجته، لأنها كانت فتيّة وجميلة، ولأنها زوجة عمّ ألكسندر.

- كم هو متكلّف! - قال بطرس إيفانيتش.

- ماذا تقول؟ - سأل ألكسندر.

يتظاهر وكأنّ الأمر لايعنيه! يدعي أنه لايجيد تحبيب النساء به، في الوقت الذي يستطيع فيه سلب عقولهن.

- لاأفهم ياعماه...

- ما الأمر غير المفهوم هنا؟ -سأفهمك! كنتُ عند تافاييفا؛ قالت لي كلّ شيء.

- كيف! - غمغم ألكسندر بارتباك شديد. - قالت كلّ شيء!.

- كل شيء. كم تحبك! كم أنت محظوظ! كنت تبكي دائماً وتقول بأنك لاتستطيع أن تعثر على مشاعر صادقة جيّاشة؛ ها قد وجدتها: تحقّقت أمنيتك! ها هي تكاد أن تفقد صوابها؛ تغار وتبكي وتحتدم غيظاً... لكن، قل لي فقط، لماذا تريد أن تحشرني في شؤونك؟ صارت علاقاتك النسائية مفروضة عليّ، وكأنه

مطلوب منّي أن أتدخل وأحلّها. هذا ماكان ينقصني فقط: أمضيتُ الصباح كلها معها. ظننتُ أن أمراً مهماً ينتظرني هناك: حسبتُ أنها تريد أن تضع بعض العقارات تحت تصرّف مجلس الوصاية... وإذا بها تدعوني للتحدثّ عنك. يالها من مسألة!

- لماذا كنتَ عندها؟

- دعتني لِتُحدثّني عن معاملتك لها. ألا تخجل حقّاً أن تعاملها بمثل هذا الإهمال؟ تختفي عنها أربعة أيام - هل هذا أمرٌ بسيط؟ كم صارت شاحبة بسببك! إنها تعاني الكثير الكثير من العذاب! هيّا، اذهب إليها بسرعة...

- ماذا قلتَ لها؟

قلت كلّ ماهو عاديّ مألوف: أخبرتُها أنك تحبها أيضاً حباً جنونيّاً، وأنك كنتَ تبحث منذ زمن بعيد عن قلبٍ رقيق دافىء، وأنّ الانفعالات الصادقة هي غايتك المنشودة، وأنك لاتستطيع أن تعيش دون حبّ. قلتُ أنها تضطرب عبثاً: إذ إنك ستعود إليها؛ نَصَحتُها بألا تضايقك كثيراً وأن تسمح لك أحياناً بالتسلية والتسكّع... وإلاّ سَيَمَلُّ كلّ منكما الآخر... قلت لها باختصار، كل ماهو عادي ومألوف في مثل هذه الحالات. سُرّت كثيراً وصار الفرح بادياً عليها. انطلقت في الحديث وقالت لي، أنه يُفترض أن يكون عرسكما قريباً وأنّ زوجتي قد تدخّلت في الموضوع أيضاً. حدث هذا كله، دون أن تقول لي كلمة واحدة - آه منك! أتمنى لكما التوفيق! الزواج منها أمرٌ مفهوم، فهي تملك مايوفر لكما معاً حياة رغيدة. قلتُ لها، أنك ستنفذ وعدك حتماً... أحسّ ياألكسندر، أنني رددتُ لك الآن جزءاً مما أسديته لي من خدمة... أكدّت لها، انك تحبها حباً جارفاً متوقّداً.

- ماذا اقترفتَ ياعمّاه! - بدأ ألكسندر الكلام وقد تغيّر وجهه. - لم... لم أعد أحبّها!... لا أريد أن أتزوجها!.. إني بارد نحوها كالثلج...! لم أعد أستطيع احتمال هذا الوضع...

twitter @baghdad_library

- ها، ها، ها! قال بطرس إيفانيتش بدهشة متكلّفة. - أنت الذي تقول هذا؟ ألستَ الذي كنت تقول، إنك تحتقر الطبيعة الإنسانية وخاصة الأنثوية، وأنه لايوجد قلب في هذا العالم جدير بك؟ . . . ألا تذكر؟ ماذا قلت أيضاً؟ ليمنحني الله قوة الذاكرة. . .

-ناشدتك الله ألا تزيد كلمة واحدة ياعماه: يكفيني هذا اللوم؛ علام هذه العظةُ أيضاً؟ تظنّ أنني لا أفهم. . . آه أيها الناس! آه أيها الناس!

بدأ يضحك فجأة، وصار عمّه يضحك معه أيضاً.

- هكذا أفضل! - قال بطرس إيفانيتش. - قلتُ لك، أنك ستسخر من نفسك في وقتٍ ما - وها أنتَ قد فعلت. . .

صار الإثنان يضحكان من جديد.

- قل لي، تابع بطرس إيفانيتش، - ما رأيك الآن بتلك. . . آه، نسيتُ اسمها باشينكا ذات الثؤلول؟

-ليس هذا مقبولاً ياعماه!

- كلا، أقول هذا فقط، كي أعرف إن كنتَ لاتزال تحتقرها أم لا؟

- ناشدتك الله أن تدع هذا الأمر، الأفضل الآن أن تساعدني في الخروج من هذا الوضع الرهيب، الذي أنا فيه. أنت ذكيّ ومتبصّر جداً. .

- ها! جاء الآن دور المديح والتملّق! كلا، الأفضل أن تتزوجها.

- مستحيل ياعماه! أتوسّل إليك، ساعدني. . . !

- يسعدني أنّ أكون قد اكتشفتُ حيلك منذ زمن بعيد. . .

- كيف منذ زمن بعيد!

- هكذا: كنتُ أعرف صلتك بها منذ البداية.

- لابد أن تكون قد عرفتَ هذا من زوجة عمي .

- العكس هو الصحيح! أنا الذي أخبرتها بالأمر . وما الأمر المعقد هنا؟ كان كلّ شيء واضحاً على وجهك . لاتأسف : لقد قدّمت لك المساعدة، التي تطلبها .

- كيف؟ متى؟

- اليوم صباحاً . لاتقلق : لن تزعجك تافاييڤا بعد اليوم . . .

- كيف تمكّنتَ من هذا؟ ماذا قلت لها؟

- يلزمني وقتٌ طويلٌ جداً، كي أعيد كلّ ماقلته ياألكسندر! أشعر بالملل من التكرار .

- لكن، الله وحده يعلم ما الذي يمكن أن تكون قد قلته لها . ربما ستكرهني وتحتقرني بسبب ما قلت .

- أليس الأمر سيّان عندك؟ لقد هدّأتُها - وهذا وحده يكفي . قلتُ لها، أنك لاتستطيع أن تحبّ، وأنك لاتستحقّ الجهد والعناء .

- ماذا قالت؟

-حتى أنها صارت الآن مسرورة، لأنك تركتها .

- مسرورة! - قال ألكسندر بتأمّل .

- هكذا، مسرورة .

-ألم تلاحظ عليها الأسى والكآبة؟ هل الأمر سيّان عندها حقاً؟ هذا مايصعب تصديقه! بدأ يتمشى في الغرفة، وقد بدا الإضطراب عليه .

- مسرورة، هادئة! - كان يردّد بإلحاح . - سأذهب إليها حالاً .

- آه من هكذا ناس! - لاحظ بطرس إيفانيتش . - القلب دائماً هكذا! من يعش بقلبه، يظلّ مسروراً دائماً . ألست أنت الذي كنتَ تخشى أن تطاردك وتبحث

twitter @baghdad_library

عنك؟ ألست أنت الذي طلبت منّي المساعدة؟ أراك الآن قد اضطربت، بعد أن علمت أنها لن تموت غماً بعد فراقك.

- مسرورة، راضية! - كان ألكسندر يردّد، وهو يتمشى في الغرفة جيئة وذهاباً، دون أن يصغي الى عمّه. - ها! لم تكن تحبني إذاً! لادموع ولا كآبة. كلا، سأراها.

هزّ بطرس إيڤانيتش كتفيه.

- لا أستطيع أن أبقى هكذا ياعماه! - أضاف ألكسندر وهو يخطف قبعته.

- إذا ذهبت إليها من جديد، فلن تستطيع الابتعاد عنها عندئذ. حذار أن تلحّ عليّ بعد الآن في طلب المساعدة: لن أتدخل ثانية؛ تدخلّتُ الآن لسببٍ واحد فقط، لأنني كنتُ المسؤول عن هذا الوضع، فأنا الذي عرّفتك عليها من أجلِ تقديم خدمةٍ لي. أما كفاك حزناً واكتئاباً؟

-إنه لمن العار أن يعيش المرء في هذا العالم! . . . - قال ألكسندر وهو يتنهد.

- إذا لم يمارس عملاً، - نطق العم. - كفى! تعال اليوم لعندنا؛ سنستعيد أثناء الغداء قصتك ونضحك، بعد ذلك تنتزه في العربة ونحن في طريقنا الى المصنع.

- كم أنا حقير تافه! قال ألكسندر وهو مستغرق في التفكير. - لايوجد لديّ قلب! أنا مسكين وفقير روحياً.

-كل هذا بسبب الحبّ! قال بطرس إيڤانيتش مقاطعاً. - ياله من عمل أحمق: اتركه لأمثال سوروكوف. أما أنت، أيها الفتى الذكيّ، فيمكنك أن تمارس عملاً آخر أكثر أهميّة. كفى سعياً وراء النساء.

- لكنْ، ألا تحبّ زوجتك؟

- أجل، طبعاً. تعودت عليها كثيراً، لكنّ هذا لايمنعني من أن أمارس عملي. وداعاً، لاتنسى أن تأتي إلينا.

جلس ألكسندر مرتبكاً متجهماً. تسلل يفسيي لعنده، وهو يضع يده في فردة حذاء كان يحملها.

- أرجوكم ياسيّدي أن تتفضّلوا وتنظروا إلى دهان الأحذية الرائع هذا، قال هو بلطف، - إنه يجعل الحذاء يلمع كالمرآة تماماً، علماً أن ثمنه لايتجاوز ربع روبل.

صحا ألكسندر، ونظر آلياً الى الحذاء، ثم إلى يفسيي.

- أخرجْ من هنا! - قال هو. - يالك من مغفل!

- ليتكم ترسلونني الى القرية... بدأ يفسيي من جديد.

- انصرفْ، أقول لك انصرف! -صرخ ألكسندر بصوتٍ يشبه البكاء- لقد أنهكتني، ستقودني الى القبر جراء أحذيتك هذه... أنت... همجي!

انصرف يفسيي بسرعة الى غرفة المدخل.

twitter @baghdad_library

IV

- لماذا لايتردّد ألكسندر علينا؟ أنا لم أرهُ منذ ثلاثة أشهر، - سأل ذات مرّة بطرس إيفانيتش زوجته، لدى عودته الى البيت من أحد الأماكن.

- فَقدتُ الأمل بأن أراه، - أجابت هي.

- ماذا جرى له؟ هل هو عاشق من جديد؟

- لا أعرف.

- هل هو معافى؟

- معافى.

- اكتبي إليه من فضلك. يجب أن أتحدث إليه. حدثت عندهم تغيرات في الوظيفة، وأعتقد أنه لايعرف شيئاً عنها. لا أفهم إهماله هذا.

- كتبتُ له ودعوتُهُ عشر مرّات للمجيء إلينا. يقول إنه مشغول جداً، أعتقد أنه يمضي الوقت في لعب الشطرنج مع بعض الناس، غريبي الأطوار، أو في صيد السمك. من الأفضل أن تذهب بنفسك، لتطلّع على أحواله وأموره.

- كلا، ليست لديّ رغبة. سأرسل شخصاً.

- لن يأتي ألكسندر.

- سنحاول.

- أُرسل الشخص، عاد بسرعة.

- هل هو موجود في البيت؟ - سأل بطرس إيڤانيتش.

- أجل ياسيدي. يبلغكم تحياته.

- ماذا يفعل؟

- إنه مستلق على الأريكة.

- كيف! في مثل هذا الوقت؟

- يقول أنه دائماً هكذا.

- هل هو نائم؟

- لا ياسيدي. ظننتُ في البداية أنه نائم، لكنّ عينيه كانتا مفتوحتين ومحملقتين في السقف. هزّ بطرس إيڤانيتش كتفيه.

هل سيأتي الى هنا؟

- كلا ياسيدي، ولا بحال من الأحوال. قال لي «سلّم على عمي وأبلغه اعتذاري لعدم تلبيتي الدعوة: صحتي منحرفة قليلاً، كما يقرئك السلام ياسيدتي.

- ما أخباره أيضاً؟ هذا غريب حقاً! سَيُدمّر نفسه بهذه الطريقة! سأذهب إليه، إذ لامناص من ذلك! لكنني سأفعل هذا للمرّة الأخيرة.

- وصل بطرس إيفانيتش، وألكسندر مازال مستلقياً على الأريكة. أثناء دخول عمه، نهض نصف نهوض ثم جلس.

- هل أنت مريض؟ -سأل بطريس إيڤانيتش.

- أشعر ببعض. . . -أجاب ألكسندر وهو يتثاءب.

- ماذا تفعل؟

- لاشيء.

- هل تستطيع أن تبقى بلا عمل؟.

- أستطيع.

- ألكسندر، سمعتُ اليوم، أنّ إيفانوف سيترك العمل عندكم.

twitter @baghdad_library

-أجل .

- من سيحلّ مكانه؟

- يقال إيتشينكو .

- وأنت؟ ماذا عنك؟

- أنا لا شيء .

- كيف لاشيء؟ لماذا لاتكون أنت؟

- لا أُمنَحُ مثل هذا الشرف . ما العمل ، أنا لا أصلح حقاً لهذا.

- ألكسندر ، ماذا تقول ، ينبغي أن تسعى من أجل ذلك . لو تذهب الى المدير .

- كلا ، - قال ألكسندر وهو يهز رأسه .

- الأمر سيّان عندك كما يبدو .

-سيّان . لكنْ ، هذه هي المرة الثالثة ، التي يتمّ تجاوزك فيها .

- الأمر سيّان . ليكنّ!

- سنرى ماستقول عندما سيتجاوزك مرؤوسك السابق ويصبح مسؤولاً عنك ، فيصدر لك الأوامر ، وتضطرّ للوقوف والانحناء لدى دخوله .

- ماذا : سأقف وأنحني .

- وعزّة النفس؟

- لاوجود لها عندي .

- مع ذلك ، توجد لديك بعض الإهتمامات الحياتية ، أليس كذلك؟

- مطلقاً . كانت موجودة وزالت .

- هذا مستحيل : إذ لابد أن تتحول هذه الإهتمامات الحياتية أو تلك الى أخرى. فما السبب الذي يجعل هذه الإهتمامات الحياتية تزول عندك، بينما تبقى عند الآخرين؟ مازال الوقت مبكراً جداً كي تزول عندك هذه الاهتمامات، فأنتَ لم تبلغ الثلاثين بعد.

هزّ ألكسندر كتفيه.

لم يعد بطرس إيفانيتش يرغب بمتابعة هذا الحديث. كان يسمي هذا كله تقلبات مزاجيّة، لكنه كان يعلم أنه لن يستطيع تفادي أسئلة زوجته، لدى عودته الى البيت، لذا فقد قرّر أن يتابع الحديث بلا رغبة.

-يُستحسن أن تُروّح عن نفسك بشيءٍ ما، كأن تزور وتخالط الناس، - قال هو، أو تقرأ شيئاً.

- لاتوجد لديّ رغبة ياعماه.

- بدأت الأحاديث تنتشر . . . بأنك قد اختبلت بسبب الحبّ، وأصبحت تتصرف بغرابة، فلا تعاشر إلاّ غريبي الأطوار فقط . . . ينبغي أن يحملك هذا الأمر وحده فقط على زيارة الناس وممارسة حياتك بشكلٍ اعتياديّ.

-ليقل الناس مايريدون.

- اسمع ياألكسندر، لندع المزاح جانباً. هذه الأمور كلها تفاهات؛ تستطيع أن تنحني، أو لاتنحني، أن تزور الناس أم لا - المسألة ليست هنا. لكن عليك ان تتذكر أنه ينبغي عليك، مثلما هو حال الآخرين أيضاً، أن تبني لنفسك مستقبلاً ما. هل تفكر في هذا أحياناً؟

-كيف لا أفكّر، لقد بنيتُ مستقبلي.

- كيف؟

- رسمتُ لنفسي دائرة، لا أريد أن أخرج منها. أنا السيد هنا - هذا هو مستقبلي.

twitter @baghdad_library

- هذا كسل.

- ربما.

- لاتملك الحقّ بأن تتمدّد على جنبك، عندما تستطيع أن تفعل شيئاً آخر، ومادمت تملك القوى اللازمة لذلك. هل حققت ماكنت تصبو إليه؟

- ها أنا ذا أمارس عملاً. لن يلومني أحدٌ على كسلي. في الصباح أكون في الوظيفة، أما أن أزاول عملاً آخر الى جانب عملي الوظيفي- فهذا ما اعتبره ترفاً وواجباً تعسفياً. لماذا أجهد نفسي؟

- كل الناس يجهدون أنفسهم: هذا يجهد نفسه، لأنه يعتبر أنّ من واجبه أن يكدح ويعمل، طالما أنه قادر على العمل، وآخر من أجل الحصول على المال، وثالث من أجل الشرف، فهل أنتَ استثناءٌ من هذا كله؟

- شرف، مال! المال خاصّة! علامَ المال! أنا شبعان ومكتسٍ: لستُ بحاجة إليه.

- لكنني أرى الآن، أنّ ملابسك رديئة، - لاحظ العم، - هل هذا مايلزمك فقط؟

- أجل.

- وروعة المتعة الذهنية والروحية، والفن... بدأ بطرس إيڤانيتش يتكلّم مقلّداً لهجة ألكسندر. - ينبغي أن تسير قدماً الى الأمام: رسالتك سامية وواجبك يدعوك لممارسة عمل نبيل... أما الطموح فيتطلب تحقيق أهداف سامية - هل نسيت؟

- استغنيتُ عن هذا كله! استغنيتُ عن هذا كله! - قال ألكسندر باضطراب. وأنت ياعماه أراك تتكلّم بغرابة! ماتتفوه به الآن، لم يكن يعجبك سابقاً... أليس من أجلي تتكلّم هكذا؟ ياله من جهدٍ ضائع! كنتُ أسعى لبلوغ كلّ ماهو سام- ألا تذكر؟ لكن، بلا نتيجة!

- أذكر كيف كنتَ تريد أن تصبح فوراً وزيراً ومن ثمّ كاتباً. لكنْ ما إن رأيت، أن طريقاً طويلة صعبة ينبغي اجتيازها كي يصل المرء الى منصبٍ رفيع كهذا، وأنّ الموهبة شرط لابد منه كي يصبح المرء كاتباً، حتى تراجعت. ما أكثر أمثالك، الذين أتوا الى هنا بآرائهم السامية ووجهات نظرهم الإنسانية المتحمسة، لكنهم عجزوا عن أن يروا ماهو موجود أمام أعينهم من قضايا وأمور تخصهم. . . مثلما الورق ضروري للكتابة - كذلك ينبغي على المرء ان يتبيّن ماهو بحاجة إليه كي يصبح. . أنا لا أتحدث عنك: لقد أثبتَّ أنك تستطيع أن تعمل وتحقق مع مرور الزمن نجاحاً ما ملحوظاً. لكنك مللت من طول الإنتظار. نحن نريد كل شيء أن يتحقق فوراً، وإذا لم يتيسر لنا ذلك، فإننا نقنط ونيأس.

- لا أريد أن أسعى لبلوغ ماهو سام. أريد أن أبقى هكذا. كما أنا الآن: ألا أملكُ الحقّ في اختيار العمل الذي أريد، سواء أكان أقلّ من إمكاناتي أم أكبر؟ إذا قمتُ بعملي بإخلاص، أكونُ قد أديت واجبي. ليلمني الآخرون على عجزي عن بلوغ ماهو سام: فهذا لن يكدرني ولن يُسيء إليّ في شيء، حتى لو كان هذا حقيقة. سبق أن قلت لي، أن الشاعرية يمكن ان توجد في مصير متواضع، وها أنت تلومني، لأنني ارتضيت مصيراً متواضعاً. من سيمنعني من نزول بضع درجات الى الأسفل، كي أقف على الدرجة التي تعجبني؟ أنا لا أريد تحقيق رسالة سامية - أتسمعني، لا أريد!.

- أسمعك! لستُ أصمّ، لكنني أقول فقط، أنّ هذا كله سفسطات بائسة.

- لاحاجة لذلك. لقد وجدتُ لنفسي مكاناً، سأجلس فيه مدى الحياة. عثرت على أناسٍ بسطاء سذجّ، لايعيبهم مطلقا كونهم من ذوي التفكير المحدود، ألعب معهم الشطرنج وأصطاد السمك - هذا رائع! لايهمني أن أعاقب من قبلكم على هذا؛ افعلوا ماشئتم؛ احرموني من المكافآت والمال والإحترام والمناصب الرفيعة - ومن كلّ مايثير شهواتكم. أرفض هذا كله الى الأبد.

twitter @baghdad_library

- ألكسندر، تريد أن تتظاهر بالهدوء وعدم الإكتراث بكلّ شيء، في الوقت الذي تنضح كلماتك فيه بالأسى، كأنك تتحدثّ بالدموع، لا بالكلمات. في أعماقك كثير من المرارة، التي لاتعرف على من تصبّها، لأنّ الذنب يقع عليك وحدك.

- ليكن! - قال ألكسندر.

- ماذا تريد؟ ألا ينبغي على الإنسان أن ينشد شيئاً ما؟

- أريد أن أبقى في وسطي المظلم هذا، دون أن يزعجني أحد، وأنْ أظلّ هادئاً مستكيناً، لا أسعى لهدف، ولا أجهد نفسي من أجل شيء.

- وهل هذه حياة؟

- الحياة، التي تعيشها، ليست حياةً من وجهة نظري، هذا يعني أني على حقّ.

- ربّما تريد إعادة صنع الحياة على هواك: أستطيع أن أتصوركم سيكون هذا رائعاً. سيتنزه العشّاق والأصدقاء عندئذ، أزواجاً أزواجاً، بين الورود والأزاهير...

لم يقل ألكسندر شيئاً.

نظر بطرس إيفانيتش إليه بصمت. رأى أنه ازداد نحافة، كما غارت عيناه وظهرت على وجنتيه وجبينه تغضّنات قبل الأوان.

خاف عمه. صحيحٌ أنه لم يكن يثق إلا قليلاً بالعذابات العاطفية، لكنْ ماكان يخشاه، هو ان يكون هذا الحزن والإكتئاب يخفيان بداية مرضٍ فيزيولوجي. «يبدو أنه قد أصيب بمسّ من الجنون، - فكّر العمّ، - كيف سأنجو من أمه: سأضطر لمكاتبتها! ستأتي عندئذ الى هنا».

- أراك قد أصبت بخيبة أمل ياألكسندر، -قال هو.

«كيف أستطيع أن أعيده الى أفكاره المحببة، - فكر هو، - سأحاول. . .».

- اسمع ياألكسندر، - قال هو، - يبدو أنك يئست كثيراً. انفضْ عن نفسك هذا الخمول. ياللعار! ما سبب هذا كله؟ ربّما تكون قد أخذتَ على محمل الجدّ ما أقوله أحياناً بلا اكتراث عن الحبّ والصداقة. كنتُ أقول هذا مازحاً، من أجل أن أجعلك تخفّف حماسك، الذي يبدو أنه غير مناسب في عصرنا العمليّ هذا. وخاصة هنا في بطرسبورغ، في العاصمة التي تتساوى فيها الأزياء والمشاعر والأعمال والملذّات، والتي أصبح كل شيء فيها موزوناً ومعروفاً ومُقيماً. . . كل شيء هنا مُحدّد. . . لماذا يشذ واحد فقط عن هذا النظام العام؟ هل يُعقل ان تظنَّ حقّاً، أنني عديم الإحساس والمشاعر ولا أعترف بالحب؟ الحب - شعور رائع: ليس هناك أقدس من اتحاد قلبين، أو من صداقة حميمة تنعقد بين اثنين مثلاً. . . أنا على قناعة بأن المشاعر ينبغي أن تستمرّ دائماً وأبداً. . .

بدأ ألكسندر يضحك.

- مابك؟ - سأل بطرس إيڤانيتش.

- ما أغرب كلامك ياعماه! ألا ترغب بسيجارة؟ سندخن: سأصغي إليكَ، وأنت تتابع الحديث.

- ماذا جرى لك؟

- لاشيء. خطر على بالك أن تصطادني! كنتَ تعتبرني في وقت من الأوقات شخصاً لايخلو من الذكاء! تريد أن تلعب بي، كما تلعب بالكرة- هذا مؤسف حقاً! لايمكن أن أظل فتى يافعاً الى الأبد. لابّد أن تفيدني بصورة ما، المدرسة التي أنهيت. كم استرسلت في الكلام! كم تفاصَحْتَ! هل تفترض أنّي بلا عينين؟ أنتَ تُدبر الحيلة، وأنا أنظر.

«لم أقْبل على عمل يخصّني، - فكرّ بطرس إيڤانيتش، - سأرسله الى زوجتي».

twitter @baghdad_library

- تعال لعندنا، - قال هو، - زوجتي مشتاقة إليك كثيراً.

- لا أستطيع ياعماه.

- هل تفعل حسناً عندما تنساها؟

- ربما يكون تصرفي هذا سيئاً جداً، لكن، ناشدتك الله أن تعذرني الآن: امهلني بعض الوقت، وسأزوركما من تلقاء نفسي.

- كما تشاء، - قال بطرس إيفانيتش- لوّح بيده وذهب إلى البيت.

- قال لزوجته، إنه سيترك ألكسندر يفعل مايريد، ولن يتدخل في شؤونه من جديد، بعد أن فعل هو، بطرس إيڤانيتش، كل مايستطيع، وإنه الآن يغسل يديه من هذه المسألة.

بعد أن افترق ألكسندر عن يوليا، رمى نفسه في زوبعة من المسرّات الصاخبة. كان يردّد بإلحاح أبيات شاعرنا المشهور:

لنذهب الى حيث تهبّ أنسام المسرّات
إلى حيث يضجّ إعصار اللهو الصاخب
حيث لايحيا الناس، بل يهدرون الحياة والشباب!
وسط الألعاب البهيجة حول طاولة المسرّات
يشرب القلب ساعةً حتى الثمالة من معين السعادة الكاذبة
سأتعوّد على الأحلام التافهة
سأستسلم لمصيري برشف النبيذ
سأقمع هموم قلبي
لن أدَعَ أفكاري تحلّق عالياً
ولن أسمح لعينيَّ أن تتطلّعا
إلى بهاء السماء الهادىء

ظهرت مجموعة من الأصدقاء ومعهم الكأس المعهودة. تأمّل الأصدقاءُ وجوههم في الماء المزبد، ومن ثمّ في الأحذية اللمّاعة. «اغربي أيتها المصيبة، - هتفوا مبتهجين، - اغربي أيتها الهموم! سنعيش، سنحطم الكؤوس، سنُحوّل الأشياء إلى رماد، وسنعبّ رحيق الحياة والشباب! فلتكن الحياة هكذا دائماً!» وتطايرت الكؤوس والزجاجات مقرقعة على الأرض.

أجبرته حياة الحرية والفوضى والاجتماعات الصاخبة على أن يغفل عن يوليا لبعض الوقت. لكنّ مآدب الغداء المتكرّرة في المطاعم، والوجوه المألوفة ذاتها والعيون الزائفة، وهذيان المتحدثّين الثمل التافه، الذي يتكرّر يومياً بنفس الوتيرة، والمعدة المضطربة دائماً، التي تأتي فوق هذا كله لتزيد الطين بلّة - لم يكن هذا كلّه لينسجم مع طبع ألكسندر. فبنية الجسم الضعيفة، وروحه الميّالة للحزن، لم تستطيعا أن تحتملا أكثر، حياة اللهو والعربدة هذه.

كان يتجنب الألعاب البهيجة حول طاولة المسرات، فوجد نفسه وحيداً في غرفته، منزوياً مع نفسه ومع الكتب المنسيّة. لكنْ، كان الكتاب يسقط من يده والقلم يعصى إلهامه. كان شيلر، غوته وبايرون يُظهرون له الجانب المظلم للإنسانية - أما الجانب ا لمضيء المشرق، فلم يكن يلاحظه: لم يكن وضعه يسمح بذلك.

كم كان سعيداً في هذه الغرفة في وقتٍ من الأوقات! لم يكن وقتها وحيداً: كان يتواجد معه حينئذ طيف رائع يلهمه نهاراً في عمله. ويسهر بجانبه ليلاً عند طرف سريره من ناحية الرأس. كانت تعيش معه وقتئذ الأحلام الجميلة. وكان المستقبل مغلّفاً بغشاوة، لكنها لم تكن كثيفة ثقيلة، ولم تكن تنبىء بجوٍ ممطرٍ ملبّد بالغيم، بل بفجرٍ مُضيءٍ مشرق. خلف هذه الغشاوة، كانت على الأرجح تتوارى السعادة... والآن؟ لم تكن غرفته مقفرة فقط، بل كان العالم كله مقفراً بالنسبة له، فيما كان يعشعش في أعماقه الغمّ والبرود... كان يرى، وهو يمعن النظر في الحياة ويستنطق قلبه وعقله، أنه لم يبق لديه أيّ حلمٍ أو أمل واعد: كل شيء قد أصبح في ذمة الماضي. انقشعت الغشاوة وتكشفت عن صحراء وعن واقعٍ عارٍ

twitter @baghdad_library

وأجرد. ياإلهي! ياله من فراغٍ شاسع لايحدّه البصر! ياللمشهد الكئيب المضجر! مات الماضي وتحطّم المستقبل، ولم يعد للسعادة من وجود: لم يبق إلاّ الأمل الباطل والخيال العجيب فكيف يعيش المرء في ظرف كهذاَ!

لم يكن يعرف ماذا يريد، لكن أموراً كثيرة لم يكن يرغبها!

كأنّ غشاوة كانت تُغلق عقله. لم يكن ينام، لكنه كان يبدو وكأنه في غيبوبة. كانت الأفكار المضنية تتتالى في رأسه كرتلٍ لانهاية له. كان يفكر:

«ما الذي يمكن أن يستهويه؟ الآمال الواعدة الآسرة، اللامبالاة - كلا! كان يعرف كلّ ماهو آتٍ. الكرامة، والتمسك بالإستقامة والشرف! ماذا سينال من هذا كله. هل يتوجّب عليه من أجل بعض الناس، أن يكافح ويُصارع بضراوة، كالسمك الذي يصدم الجليد عشرين أو ثلاثين عاماً؟ هل سَيُدفّىء هذا قلبه؟ هل سيحسُّ بالسرور والإرتياح عندما يحني بعض الناس هاماتهم له وهم يُسَلّمون عليه؛ بينما يقولون في سرّهم: «ليأخذك الشيطان!»».

الحب؟ هه! صار يحفظه عن ظهر قلب، زد على ذلك أنه فقد إمكانية الحبّ، أما ذاكرته المخدومة، فكانت تُذكّره في معرض السخرية بنادينكا، لكنْ، ليس بنادينكا البريئة، الطيّبة - فهي لم تُذكّرهُ بهذه أبداً، - بل بنادينكا الخائنة تحديداً، وبالوضع كلّه: بالأشجار والطريق والأزهار، ووسط هذا كلّه، تلك الإنسانة الخبيثة بابتسامتها المعهودة وحمرة النعيم والخجل... كلّ هذا ليس من أجله، بل من أجل شخصٍ آخر!... أمسك قلبه وهو يتأوّه. «الصداقة - فكّر هو، - حماقة أخرى! لقد جرّب وتذوّق كل شيء؛ الجديد - لاوجود له، والماضي لن يتكرر، فكيف يحيا المرء!»».

فَقَدَ الثقة بكلّ الناس والأشياء وغرق في اللذة؛ كان يتذوّقها كما يتذوّق إنسانٌ بلا شهيّة، صنفاً لذيذاً من الطعام، وهو يعرف ببرود أنّ الضجر سيعقب هذا كله لامحالة، وأنّ مامن شيء يستطيع ملء هذا الفراغ الروحي. فَقَدَ الثقة بالمشاعر أيضاً، فهي خداعة متقلبة؛ إنها تقلق الروح فقط وتُسبّب جروحاً جديدة تضاف الى

السابقة. وعندما كان ينظر الى الناس، الذين يجمعهم رباط الحبّ والذين نسوا أنفسهم من شدّة البهجة والفرح، كان يبتسم بسخرية، وهو يقول في نفسه: «انتظروا، سيزول هذا كله وستفيقون. بعد المسرّات الأولى، ستبتدىء الغيرة وفصول الخصام والمصالحة والدموع. سيقتلكم الملل بعد فترةٍ من الحياة المشتركة وستذرفون دموعاً مضاعفة عندما تفترقون. تلتقون من جديد- فتعانون أسوأ مما سبق. مجانين! يتخاصمون باستمرار، ويضجرون من بعضهم ويغارون، ثم يتصالحون برهةً، كي يتشاجروا بصورة أشدّ: هذا هو الحبّ والإخلاص عندهم! تراهم يرغون ويزبدون ودموع اليأس في المآقي أحياناً، ورغم ذلك يسمّون هذا كلّه بعناد، سعادة! وصداقتكم... ارمِ عظماً، وسنشاهد كيف سيتحولون الى كلاب!».

كان يخشى الأمنية، لأنه كان يعلم أنّ القدر غالباً مايخطف السعادة من بين يديّ الإنسان في لحظة بلوغ مايتمنّاه، ويقدّم شيئاً آخر مغايراً تماماً، لايرغبه المرء مطلقاً - شيئاً من سقط المتاع؛ وإذا أعطاك ماتتمنّاه أخيراً، فإنه يعذّبك وينهكك ويذلّك أولاً، وبعد ذلك يرمي إليك بقشيشاً فيجبرك على أنْ تزحف أولاً كالكلب الذي يتجرجر، حتى يبلغ العظم الشهيّ، فينظر إليه ويمسكه بسرعة ثمّ يمرّغه في التراب وهو واقف على قائمتيه الخلفيّتين، وعندئذ - يصيح لك بأنْ تنقضّ على الصدقة!.

كان يخشى المدّ الدوريّ المتناوب للسعادة والشقاء. المسرّات لم يكن يتوقّعها، أمّا المصيبة فآتية حتماً ولا مفرّ منها: فكلّ شيء خاضع للقانون العام. كان يبدو له، أنّ نصيباً متساوياً من السعادة والشقاء ينتظر الناس جميعاً. السعادة انتهت بالنسبة له وأيّ سعادة؟ وهمٌ باطل وخداع. المصيبة فقط، واقعية وحقيقية، وهي آتية لامحالة. هناك الأمراض والشيخوخة والخسائر المتنوّعة، وربما الفاقة أيضاً... لطمات القدر هذه كلها، كما تقول خالته في القرية، تتربّص به. والمتَعُ والمسرّات؟ لقد خدَعَتْهُ الأهداف السامية، وأنهكته الأعباء المضنية، التي يسمّونها

twitter @baghdad_library

واجباً! بقيت المنافع التافهة- النقود، الراحة، الرتّب والمناصب. . . أنا في غنى عنهم! آه، إنه لأمرٌ مُحزنٌ حقاً أن يتبين الحياة ويتعمق في سبرها، دون أن يفهم الغاية منها! .

هكذا كان مكتئباً يائساً، لم يكن يجد مخرجاً من مستنقع الشكوك هذه. كانت التجارب تنهكه فقط، فلم تكن تزيده صلابة وتماسكاً في الحياة، ولم تكن تُنير دربه أو تُنقّي الهواء، الذي يستنشقه. لم يكن يعرف ماينبغي ان يفعله: كان يتقلّب من جنبٍ لآخر على أريكته ويسترجع ذهنياً معارفه - فيتحسر في أغلب الأوقات. هذا يؤدي واجبه الوظيفي بصورة ممتازة، فينال الإحترام ويكتسب الشهرة كمدير ناجح، وآخر يصبح ربّ عائلة، فَيُفَضّل الحياة الهادئة على ملذّات ومتع العالم كلّها، فلا يحسد أحداً ولا يرغب بشيء، وثالث. . . يحقّق ماكان يصبو إليه. لقد أفلح معارفه كلهم بترتيب أوضاعهم بصورة مريحة، وهاهم يسلكون الآن طريقاً واضحة مأمونة. «أنا الوحيد فقط، الذي لم يستطع. . . من أنا؟».

هنا، صار يحاول استكشاف نفسه: هل كان بوسعه أن يصبح مديراً أو قائداً لكتيبة خيّالة؟ هل كان بوسعه أن يكتفي فقط بحياةٍ أسرويّة؟ رأى، أنّ أيّاً من الإحتمالات الثلاثة لم يكن يلبي حاجته ويحقق طموحه. كان شيطانٌ يتحرّك في داخله ويهمس له قائلاً، إنّ هذا أمر سطحي بسيط بالنسبة لك، فيجب أن تحلّق عالياً وتسمو فوق هذا كلّه. . . لكنْ، أين وكيف - فهذا مالم يستطع تقريره. لم يحالفه الحظّ في التأليف. «ماذا أفعل، وبم أبدأ؟» كان يسأل نفسه ولم يكن يعرف ماذا يجيب. أما الضجر فكان يستولي عليه وكذلك الحسرة والأسى، ليتني أصبحت على الأقل مديراً أو قائداً لكتيبة خيّالة. . . كلا: الوقت مضى، ويجب أن أبدأ من ألفباء.

كان اليأس يحمله على ذرف الدموع - دموع الحسرة والأسى والحسد والعداء لكلّ شيء، أي، أكثر الدموع إيلاماً وتعذيباً. كان نادماً بمرارة، لأنه لم يُصغ لأمّه عندما هرب من قريته قاصداً بطرسبوغ.

«أحسّتْ أمّي بقلبها، أنّ مصيبة بعيدةً آتية لامحالة، - فكّرهو، - فهذه الهبّات العاطفية المزعجة والإنفعالات العاصفة، كانت ستظلّ نائمة هناك ملء الجفون، فما كنتُ لأتذمّر هناك في القرية بشدّة، أو أستاء بعنف من هذه الحياة المعقدّة، بينما كانت ستنغرس فيّ هناك المشاعر والأحاسيس الإنسانية الرائعة: عزة النفس، الكبرياء وحب الرفعة- كان لابد أن يلامس هذا كله قلبي على نطاق ضيّق، بما ينجسم مع الحدود الضيقة لمنطقتنا - وكان هذا سيكفيني. ربّما كنتُ صرتُ هناك الأول في المنطقة كلّها! أجل! كلّ شيء نِسبي. كانت الشرارة الإلهية لنور السماء، التي تومض فينا جميعاً بهذه الدرجة أو تلك، ستتلألأ فيّ هناك بصورةٍ غير ملحوظة، ثم تنطفىء بسرعة وتغرق في لجّة الحياة الخاملة الكسولة، أو تضطرمُ من خلال تعلّقي بزوجتي وأبنائي. ماكان كياني ليتسمّم هناك، وكنتُ سأحقق غايتي بكبرياء وارتياح: فطريق الحياة في الريف هادئة، وكان لابدّ أن تبدو لي بسيطة واضحة المعالم، كما أنّ الحياة بحدّ ذاتها في تلك الأصقاع هي ضمن إمكاناتي، وكان سهلاً عليّ تحمّلها ومواجهة أعبائها... والحب؟ كان لابّد أن يزدهر ويتزيّن بالألوان البهيجة الرائعة، ويملأ حياتي كلها بالسعادة والحبور. كانت صوفيا ستحبّني بصمتٍ وسكينة. ماكنتُ لأفتقد هناك الثقة بشيء، ولكنتُ قطفتُ الورود، دون أن أعرف الأشواك، حتى أنني ماكنتُ لأعرف الغيرة الناجمة عن المزاحمة والمنافسة. لماذا شدّني البعاد بمثل هذه القوة والعمى الى الضباب، الى صراع مجهول، غير متكافىء مع القدر؟ كم كنتُ أفهم الحياة والناس آنئذ بشكل رائع! حبذاّ لو بقي فهمي هكذا الآن أيضاً، دون أن أشوّش ذهني بأية مفاهيم أخرى. كنت أنتظر وقتئذ من الحياة الكثير الكثير، دون أن أتفحصها بإمعان، وكنت سأنتظر منها هناك شيئاً ما في الفترة الراهنة أيضاً. كم اكتشفتُ في نفسي من كنوز: أين اختفت؟ لقد بدّدتها في هذا العالم، فتخلّيت عن إخلاص القلب، وعن الحبّ الأولّ المقدّس- على أيّ شيء حصلت؟ على الفشل المرير والإحباط واليأس. عرفتُ أنّ كل شيء خداع بخداع، وأن كلّ شيء واه، غير مستقر، وأنه لايمكن

twitter @baghdad_library

للمرء ان يثق بنفسه ولا بالآخرين - وصرتُ أخشى الآخرين ونفسي أيضاً . . . لم أكن أستطيع في غمرة هذا التحليل أن أعترف بصغائر الحياة وأقتنع بها كما فعل جدي وآخرون كثرٌ غيره . . . وها قد وصلتُ إلى ما أنا عليه الأن ! . . . » .

كان يتمنّى الآن شيئاً واحداً : أن ينسى الماضي ، كي يتيسر له من خلال ذلك ، الهدوء وغفوة الروح . كان بروده يزداد أكثر فأكثر تجاه الحياة ، وكان ينظر الى كل شيء بعينين ناعستين . كان يحسّ بالضجر وسط جموع الناس وفي صخب الإجتماعات ويهرب ، لكنّ الضجر كان يطارده .

كان يتعجّب كيف يستطيع الناس أن يفرحوا ويبتهجوا . وكيف يستطيعون العمل بلا انقطاع ، ويُولعون كل يوم باهتمامات جديدة . كم كان يستغرب كيف لايسير الناس جميعاً مثله بكسل وخمول ، ولايبكون ، كما كان يبدي دهشته عندما يرى الناس يثرثرون عن الطقس بدلاً من أن يتحدثوا عن الألم والعذابات المتبادلة ، وإذا ماتحدثّوا عن ذلك ، فإنهم يتحدثّون عن الألم في الساقين ، أو في أيّ مكانٍ اخر ، وعن الروماتيزم والباسور . الجسد وحده ، هو الذي يثير قلقهم ، أما الروح فقد أصبحت أثراً بعد عين ! «يالهم من أناسٍ تافهين حقراء ، يالهم من حيوانات ! » - فكّر هو . أحياناً كان يستغرق في تفكير عميق . «كم هي كثيرة أعداد هؤلاء الناس التافهين ، - كان يقول لنفسه ببعض الإضطراب ، -أما أنا ففريد وحيد : هل يُعقل . . . أن يكونوا جميعاً . . . فارغين . . . مخطئين . . . وأنا . . . » .

هنا ، كادَ أن يبدو له ، أنه وحده المخطىء ، فأحسّ بسبب هذا ، بتعاسةٍ أكبر . توقّف عن زيارة معارفه القدامى . التقرّب من شخصٍ جديد ، كان يثير فيه نوعاً من البرود . بعد حديثه مع عمه ، غرق أكثر في حلمه الخامل ، اللاّمبالي ، وغرقت روحه في نعاسٍ مسيطر . استسلم لعدم الإكتراث ، وصار يعيش بخمول وينأى بعناد عن كلّ شيءٍ يُذكّره بالعالم المتمدّن والمتحضر .

«المهمّ أنْ أعيش على هواي ! » -كان يقول هو - كلّ إنسانٍ حرّ في أن يفهم الحياة كما يريد . . . » .

كان ينشد سماع أحاديث الناس ذوي الطباع الحادة الحاقدة، والقلوب القاسية، ويفرِّج همّه بالإصغاء الى سخرياتهم اللاذعة من القدر، أو كان يمضي الوقت مع الناس، الذين هم دون مستواه إدراكاً وتربيةً وثقافة، وخاصة مع العجوز كوستيكوف، الذي كان زايز جالوف يريد أن يُعرّف بطرس إيڤانيتش عليه.

كان كوستيكوف يعيش في بيسكي ويتمشى في شارعه معتمراً سدارة لماعة، ومرتدياً رداءً تزنّر فوقه بمنديل جيب. كانت تعيش عنده طبّاخه كان يلعب معها الورق في الأماسي. وإذا شبّ حريق، فإنه كان أول من يظهر وآخر من يغادر. وإذا مرَّ بكنيسة يُقام فيها قدّاسٌ على روح ميت، فإنه كان يخترق الجموع ليلقي نظرة على وجه المتوفى، ثم يسير بعد ذلك في الجنازة حتى المقبرة. بوجه عام، كان شغوفاً بكلّ المراسم، البهيجة منها والمحزنة، كان يحبّ ان يحضر أيضاً ويشاهد الحوادث المختلفة غير العادية: الشجارات وحوادث الموت المفاجئة وحالات تهدّم سقوف المنازل، وغيرها من الحوادث الأخرى، - وكان يقرأ بمتعة كبيرة في الجرائد، الإحصاءات المتعلقة بهذه الحوادث. إضافة لذلك، كان يقرأ أيضاً الكتب الطبّية، «كي يعرف، - كما كان يقول، - ماهو موجود في الإنسان». في الشتاء، كان ألكسندر يلعب الدّاما معه، وفي الصيف يصيدان السمك معاً. كان العجوز يتحدّث في مواضيع مختلفة. فعندما يسيران في حقل، فإنه يتحدّث عن الحبوب والمزروعات، وعندما يسيران على شاطىء فإنه يتحدّث عن السمك والملاحة، وعندما يتمشيان في شارع، فإنه يبدي بعض الملاحظات المتعلّقة بالبيوت وطراز بنائها وعن مداخيل سكّانها وأوضاعهم الماديّة... وهكذا نرى، أن لا أثر للتجريد في أحاديثه كان ينظر الى الحياة على أنها شيء رائع عندما تتوفّر النقود، فيما كان يعتبرها قاسية سيئة، في حال عدم توفّرها. مثل هذا الشخص لم يكن يُشكل خطراً على ألكسندر، ولم يكن يستطيع إثارة انفعالاته الوجدانية.

كان ألكسندر يدأب بجدّ، كي يقتل في أعماقه البدايات الوجدانية الروحية، مثلما يدأب النسّاك لقتل حاجات الجسد. كان صامتاً أثناء الخدمة؛ ولدى لقائه

twitter @baghdad_library

بمعارفه، لم يكن يتبادل معهم أكثر من كلمتين أو ثلاث، متذرّعاً بضيق الوقت، ثم يتركهم. لكنه بالمقابل، كان يلتقي صديقه كوستيكوف يومياً. فإما أن يجلس العجوز عنده طوال اليوم، أو يلبي أدوييف دعوة كوستيكوف لتناول شوربة الملفوف عنده. كان العجوز قد علّم ألكسندر طهي الكرشة وشوربة اللحم الممزوج مع الفطر، كما علّمه أيضاً تحضير بعض المشروبات الروحية. بعد ذلك، كانا يذهبان معاً الى إحدى القرى الكائنة في الضواحي المجاورة. كان معارف كوستيكوف كُثُرٌ جداً وكانوا يتوزّعون في أماكن عديدة مختلفة. مع الفلاحين، كان يتحدث عن حياتهم وأحوالهم بينما كان يمزح مع زوجاتهم - فقد كان مزّاحاً على حدّ تعبير زايزجالوف.

كان ألكسندر يتيح له الحرية الكاملة في الحديث، فيما كان هو نفسه، يظلّ في أغلب الأوقات ملتزماً الصمت.

صار يحسّ أنّ أفكار العالم الذي تركه، نادراً ماكانت تجول في ذهنه، وكان يتعامل معها بهدوء وعدم اكتراث، ولم تكن تجد في الوسط المحيط به انعكاساً ولا مقاومة، كما أن لسانه لم يكن يتلفّظ بها، فكانت تموت دون أن تُثمر. كانت أعماقه خاوية موحشة كحديقة مُهمله. لم يبق له إلا القليل، حتى يبلغ حالة الخَدَر الكامل. ماهي إلا بضعة أشهر أخرى - حتى يقول وداعاً! لكن، هاكُم ماحدث.

ذات مرّة، كان ألكسندرو كوستيكوف يصيدان السمك. كان كوستيكوف يرتدي قميصاً طويلاً ويعتمر سدارة جلّدية، وقد نصب عدّة صنانير مختلفة الأحجام بعضها ذات غمّازات، والبعض الآخر ذات دفوف، والقسم الثالث ذات أجراس، وكان يدخّن غليوناً ويراقب، دون أن يطرف له جفن. هناك باختصار شبكة من الصنابير، بما فيها صنّارة أدوييف. لكن ألكسندر كان يقف مستنداً الى شجرة وهو ينظر الى جهة أخرى. ظلاّ طويلاً واقفين هكذا بصمت.

-ألكسندر فيدوريتش، انتبه! يبدو أن سمكة تعضّ صنارتك! - قال كوستيكوف فجأة بصوتٍ هامس.

نظر أدوييف الى الماء، ثم حَوَّلَ نظره الى جهة أخرى.

-كلا، هكذا بدا لك بسبب التموّجات الخفيفة، - قال هو.

- انظر، انظرْ! -صرخ كوستيكوف، - هناك سمكة تعض صنّارتك! اي، اي! أقسم أنّ هذا صحيح! انشلْها، انشلْها!

في الواقع، كانت الغمَّازة قد غطست في الماء وتبعها بسرعة خيط صيد السمك. بعد ذلك، أفلت العود من الشجرة. تَمَسّكَ ألكسندر بالعود، ثم بخيط صيد السمك.

- على مهل، بالتدريج... مابك تفعل هكذا؟ -صرخ كوستيكوف، وقد أمسك الخيط بسرعة - ياأبتاه! كم هو وزنها كبير! لاتنترها: سايرها، سايرها، وإلا ستفلت. إلى اليمين، إلى اليسار، إلى هنا، إلى الشاطىء! ابتعد! عن الشاطىء أيضاً؛ اسحبها الآن اسحَبها، لكنْ، ليس فجأةً، انظر، هكذا.

ظهرت على سطح الماء سمكة ضخمة. انفتلتْ بسرعة على شكل حلقة، ولمعتْ فضيّة اللون، ثم ضربتْ ذيلها الى اليمين واليسار، راشّة الماء الى مسافة بعيدة. امتقع كوستيكوف... -كم هي ضخمة! صرخ تقريباً بهلع، وانكبّ على وجهه في الماء، فسقط وتعثّر بصنانيره وقبض بكلتا يديه على السمكة المراوغة فوق الماء - هيّا إلى الشاطىء، هيّا إلى الشاطىء! لن تفيدها المراوغة هناك. إنها تنزلق كالشيطان! آه كم هي ضخمة رائعة!

«آه» - كرّر من الخلف شخصٌ ما.

استدار ألكسندر. على بُعد خطوتين منهما، كان يقف عجوز يتأبط ذراع فتاة رائعة، طويلة القامة، مكشوفة الرأس، في يدها مظلّة. كان حاجباها مقطبين قليلاً. كانت منحنية الى الأمام قليلاً، وهي تُتابع بعينيها باهتمام وتعاطف شديدين، كلّ حركة تصدر عن كوستيكوف حتى أنها لم تلاحظ ألكسندر.

twitter @baghdad_library

أربك ألكسندر هذا الظهور المفاجىء. سقط العود من يده، فسقطت السمكة مدوّية في الماء، وهزّت ذيلها برشاقة واندفعت مسرعة الى العمق، شادّةً خلفها خيط الصيد. حدث هذا كلّه بلحظة واحدة.

-ألكسندر فيدوريتش! ماذا فعلت؟ - صرخ كوستيكوف كالمسعور وبدأ يشدّ خيط الصيد. شدّ وسحَبَ نهايته فقط، لكنْ بدون الصنّارة والسمكة.

استدار صوب ألكسندر، وهو ممتقع، شاحب اللون، فأراه نهاية الخيط ونظر إليه مغتاظاً بصمت دقيقة من الزمن، ثم بصق.

- لن أرافقك لصيد السمك أبداً بعد الآن، لتحلّ عليّ اللعنة إن فعلت! - قال هو، ثم ابتعد قاصداً صنّاراته.

في هذه الآونة، لاحظت الفتاة، أنّ ألكسندر ينظر إليها، فاحمرّت خجلاً وتراجعت إلى الوراء. انحنى العجوز، الذي كان في أغلب الظنّ والدها، لألكسندر. ردّ أودوييف على الإنحناءة بتجهّم، ثم رمى الصنّارة وجلس على بُعد عشر خطوات، على معقد تحت الشجرة.

«والهدوء غير موجود هنا! - فكّر هو. - هاهو أوديب وأنتيغونا[1]. امرأةٌ من جديد! لامفر من المرأة. ياإلهي ما أكثر النساء! إنهن في كلّ مكان!».

- آه، يالكَ من صيّاد سمك بارعٍ! - قال كوستيكوف، وهو يضبط صنانيره وينظر بغضب الى ألكسندر أحياناً، - أنّى لك ان تصطاد السمك! كان أجدر بك أن تصطاد الفئران هناك في شقتك، وأنت مستلقٍ على الأريكة: لا أن تصطاد السمك! كيف تستطيع ان تصطاد، مادام السمك يفلت من بين يديك؟ كادت ان تصل اللقمة الى الفم، لم يبق إلاّ أن نشويها! أستغرب كيف لايهرب السمك من صحنك!

- هل يوجد صيد؟ سأل العجوز.

---

(١) - انتيغونا - ابنة الملك اوديب في الأسطورة اليونانية (المترجم).

-أتمنّى لو أنّ فرخاً نهرياً قد اقترب من إحدى صنانيري الست ولو مزاحاً،- أجاب كوستيكوف، لكن واأسفاه، وقعت في المصيدة سمكة ضخمة تزن ستّة أرطال، لكنّنا ضيعناها. يقال، الوحش يهرب من الصيّاد! مهما يكن من أمر: كنتُ سأخرجها من الماء، لو أنهّا أفلتتْ منّي. السمكة تأتي إلينا صاغرة منصاعة، بينما نحن نيام. . . ويسمّون أنفسهم صيّادي سمك! هل هكذا يكون صيّاد السمك؟ كلا، صيّاد السمك الحقيقي، هو الذي لايمكن أن يُفْلت السمكة، حتى ولو كان القصف المدفعّي يتمّ على مقربة منه. هكذا يكون صيّاد السمك الحقيقي! أنّى لكَ أن تصطاد السمك!.

في غضون ذلك، تيسّر للفتاة أن ترى، أنّ ألكسندر ينتمي الى صنفٍ من الناس مختلف كليّاً عن كوستيكوف، فزيّ ألكسندر كان مختلفاً عن زيّ كوستيكوف، وكذلك خصره وعمره وسلوكه وكلّ شيءٍ فيه. لاحظت فيه بسرعة هذه السمات، فرأت على وجهه أفكاره حتى أنّ علامة الحزن لم تغبْ عنها.

«لكن، لماذا هرب - فكّرت هي - هذا أمر غريب، يتراءى لي، أنني لستُ ممّن يهربُ منهنّ».

استقامت بكبرياء وأسبلتْ جفونها ثم رفعتها، ونظرت الى ألكنسدر بعدم تعاطف:

كانت قد أحسّتْ بالألم. جذبت أباها ومرّت بمهابة بالقرب من أدوييف. انحنى العجوز من جديد لألكسندر، لكنّ ابنته لم تُنْعم عليه حتّى بنظرة.

«أريده ان يعرف، أنّ الآخرين لايهتمون به مطلقاً!» -فكّرت وهي تنظر خلسةً الى أدوييف.

ومع أنّ ألكسندر لم ينظر إليها، إلا أنه اتخذ عن غير قصد، وضعيّة أكثر بهاءً. «كم هو معتدٌ بنفسه! لايُلقي نظرةً على أحد! - فكّرت الفتاة. - يالها من وقاحة!» في اليوم التالي، أغرى كوستيكوف من جديد ألكسندر بالذهاب الى صيد السمك، وهكذا تكون اللعنة قد حلّت عليه، بموجب العهد الذي قطعه على نفسه.

twitter @baghdad_library

مرّ يومان، لم يعكّر عزلتهما شيء. في البداية، صار ألكسندر يتطلعّ حوله بشيءٍ من الهلع لكنه اطمأنّ وهدأ من جديد، عندما لم يشاهد أحداً. في اليوم الثاني، اصطاد ذئب بحرٍ ضخماً. غفر له كوستيكوف نصف ذنوبه.

- لكنّ ذئب البحر هذا يظلّ أقلّ أهميّة من السمكة الضخمة الرائعة التي ضيّعتها! - قال متنّهداً، - كانت السعادة قد صارت في أيدينا ولم نعرف كيف نحافظ عليها، وهذا لايحدث مرتين، ما أتعس حظّي! لم أوفّق بصيد شيءٍ هذه المرة أيضاً! ستّ صنارات- لم يعلق عليها شيء.

-رِنّ الأجراس! - قال فلاحٌ كان قد توقّف أثناء مروره بهما، ليلقي نظرة على سير عملية الصيد، - ربما يجذب السمكَ رنينُ الأجراس.

نظر كوستيكوف إليه بحنق.

- اسكتْ أيها الجاهل! - قال هو، - فلاح!

انصرف الفلاّح.

-يالك من أحمق! -صرخ كوستيكوف في أثره، - بهيمة، إنك بهيمة حقاً. امزح مع أمثالك، حلّتْ عليك اللعنة! بهيمة، حقاً بهيمة! فلاح!

ياإلهي، ماأصعب نرفزة صيّاد السمك في لحظة الفشل!

في اليوم الثالث، وفيما كان يصيدان بصمت، وهما يُثبّتان نظرهما على الماء بلا انقطاع، سُمعت من الخلف خشخشة. استدار ألكسندر وارتعش، كأنّ بعوضة قد عضتهُ، لا أكثر ولا أقل. كان العجوز والفتاة موجودين هنا.

ردّ أدوييف، الذي كان ينظر إليهما شزراً، على انحناءة العجوز ببعض الصعوبة، لكنه كان على مايبدو، يتوقّع هذه الزيارة. كان يتردّد الى صيد السمك عادةً، وهو يرتدي ثياباً بسيطة جداً، لا أثر للإعتناء فيها، أما الآن، فكان يرتدي معطفاً جديداً، ويربط على رقبته بدلال منديلا أزرق، وكان شعره مصفوفاً بعناية،

حتى أنه كان أجعد قليلاً. كانت هيئته باختصار، تشبه هيئة صيّاد سمك مُترف جدّاً. بعد أن انتظر الفترة الزمنية، التي تقضيها أصول اللياقة، ذهب وجلس تحت الشجرة!.

«لقد تجاوز كلّ الحدود!» فكرت أنتيغونا، وقد اضطرمت غيظاً.

-عذراً! - قال أوديب مخاطباً أدوييف، - هل أزعجناكم؟

- كلا! - أجاب أدوييف. - كلّ مافي الأمر، أنني متعب.

- هل يوجد صيد؟ - قال العجوز مخاطباً كوستيكوف.

- أيّ صيد يمكن أن يكون عندما يُنرفز الآخرون الصيّاد، -أجاب ذاك بغضب. - مرّ متسول من هنا، وصار يثرثر ويُخرّف، ومنذ ذلك الوقت، لم أصطد شيئاً. يبدو أنكما تعيشان قريباً من هنا، أليس كذلك؟ - وجه كوستيكوف السؤال لأوديب.

- تلك الڤيلا ذات الشرفة، هي ڤيلّتنا، -أجاب ذاك.

- هل تدفعون إيجاراً غالياً؟

- خمسمائة روبل لقاء فترة الصيف.

- يبدو أنها ڤيلاّ رائعة. في فنائها كثير من المباني. لابد ان تكون قل كَلّفَتْ صاحبها ثلاثين ألف روبل.

- أجل، في هذه الحدود تقريباً.

-وهل هذه ابنتك ياسيّدي؟

- أجل.

- إنها آنسة رائعة! أتيتما للنزهة؟

- أجل. ينبغي أن تتنزه مادمنا نعيش هنا.

twitter @baghdad_library

- صحيح، صحيح، ولمَ لا: الطقس رائع جداً. إنه مختلف تماماً عن الطقس، الذي كان سائداً الأسبوع الماضي: كم كان رديئاً! آي، اي، اي! ليحمنا الله من ذاك الطقس! يخال المرءُ نفسه وكأنه في الخريف.

- هذا مانرجوه!

- الصيد عندك الآن سيء إذن؟

- عادي، لكن، تَفَضّل وانظر كم هو رائع عنده.

- أشار إلى ذئب البحر.

- أودّ أن أضيف، -تابع هو، - أنّ هذه النتيجة، هي صدفة نادرة، كم هو محظوظ! يؤسفني أنه لايعرف أصول الصيد كثيراً، لكنّ حظّه يفلق الصخر. لو كنتُ أملكُ حظاً مثل حظّه، لما هَمّني شيء. كم تأسّفتُ على تلك السمكة الضخمة، التي أفلتت من يده!

تنهّد.

بدأت أنتيغونا تصغي بحيوية أكثر، لكنّ كوستيكوف التزم الصمت.

صار ظُهور العجوز وابنته يتكرّر أكثر فأكثر. استحوذ أدوييف على اهتمامهما. أحياناً، كان يتبادل مع العجوز كلمتين، أما مع ابنته فلم يكن يتحدث مطلقاً. في بداية الأمر، أحسّت بالألم، ثم بالزعل، وصارت حزينة في نهاية المطاف. لو أنّ أدوييف تَحَدّث إليها أو أعارها اهتماماً، حتى ولو كان عادياً - لكانت قد نسَتْهُ؛ أما الآن، فالأمر مختلف تماماً. يبدو أنّ قلب الإنسان يعيش على التناقضات فقط: لولاها لما بقي القلب موجوداً في الصدر.

رَسَمَتْ أنتيغونا مخططاً رهيباً للإنتقام، لكنّها صارت تتخلّى عنه شيئاً فشيئاً. ذات مرّة، عندما اقترب العجوز وابنته من صديقنا، وضع ألكسندر، بعد أنْ تمهل قليلاً الصنّارة على شجرة قريبة، بينما جلس كالعادة في مكانه المعهود، وصار ينظر غريزياً إلى الأب تارةً، والى ابنته تارة أخرى.

كانا يقفان على مقربةٍ منه. لم يكتشف في الأب أيّ شيءٍ خاصّ مُلفتٍ للنظر. قميصه أبيض فضفاض، وبنطاله قطنيّ ضاربٌ للصفرة، وقبعته منخفضة ذات حوافٍ كبيرة مبطنة بقطعة خضراء. لكنّ ابنته مختلفة تماما!! كم كانت رشاقتها بادية، وهي تستند على يد العجوز! كان النسيم يحرِف أحياناً خصلة الشعر هذه أو تلك عن وجهها، وكأنه يريد عمداً أن يُطلع ألكسندر على منظر وجهها الجانبي الرائع، وعلى عنقها الأبيض، فيما كان يرفع قليلاً طرحتها الحريرية تارةً أخرى ليُظهر خصرها الرشيق، ويعبث بفستانها كي يكشف عن ساقيها المسبوكتين الرائعتين. كانت تنظر إلى الماء بتأمّل.

بقي ألكسندر طويلاً قبل أن يتمكّن من تحويل نظره عنها، وأحسّ برعشةٍ حارّة تسري في جسده. حَوّلَ وجهه عن هذا الإغراء، فقطع غصناً وصار ينتف وريقات الأزهار.

«آه! أعرف ماذا يعني هذا كلّه! - فكّر هو، - ينبغي أن أتحلّى بإرادةٍ فولاذية، إذ لايليق بي ان أستسلم! الحبّ قاب قوسين أو أدنى: ياللحماقة! عمّي على حقّ. لكنني لن أدع الغريزة الحيوانية وحدها تستولي عليّ - كلاّ، لن أسفّ إلى هذا الحدّ».

- هل يمكن أن أصطاد؟ - سألت الفتاة كوستيكوف بحياء.

- يمكن ياآنسة، لماذا لايمكن؟ - أجاب ذلك، وهو يعطيها صنّارة أدوييف.

- ها قد عثرت على زميل! - قال الأب مخاطباً كوستيكوف. ثم ترك ابنته وصار يتمشى بمحاذاة الشاطىء.

- انتبهي ياليزا، عليك أن تصيدي السمك للعشاء، - أضاف هو.

- استمرّ الصمت بضع دقائق.

- لماذا صديقك متجّهمٌ هكذا؟ - سألت ليزا كوستيكوف بصوتٍ خافت.

- خُدع ثلاث مرات ياآنسة.

twitter @baghdad_library

- ماذا؟ -سألتْ ، وقد حركّت حاجبيها قليلاً .

- لايستطيع المرء أن يتحمّل أكثر من هذا .

هزّت رأسها .

«كـلا : لايُعـقل أن يكون هذا هو السـبب! - فكّرت هي ، - ليس هذا هو السبب!» .

- أنت لاتصدقيني ياآنسة؟ لتحل ّعلي ّاللعنة إنْ لم يكن ماقلته صحيحاً! لقد ضيّعَ السمكةَ الضخمة تلك بسبب هذا .

«كلاّ ، ليس بسبب هذا ، - فكّرت هي بثقة ، - أعرف السبب ، الذي جعل السمكة تفلت منه» .

- آه ، آه ، - صرخت هي فجأةً ، - انظرْ ، إنها تتحرّك ، إنها تتحرك .

- شدّت الصنّارة ولم تمسك شيئاً .

- تملّصت! - قال كوستيكوف ، وهو ينظر الى الصنّارة ، - أرأيت كيف ذهب الطّعم : لابدّ أنها كانت سمكة ضخمة . لم تعرفي أنْ تتعاملي معها ياآنسة : لم تعطها الفرصة كي تعلق جيّداً .

- وهل المعرفة ضرورية هنا أيضا؟

- مثلما هي ضرورية في كل ّشيء ، - قال ألكسندر غريزياً .

اضطرمت واستدارتْ نحوه بحيويّة ، مُسقطةً بدورها الصنّارة في الماء . لكنّ ألكسندر كان ينظر إلى الجهة الأخرى .

-كيف يمكن بلوغ هذا؟ -قالت هي بصوتٍ مرتعشٍ قليلاً .

- يجب ان تتمرّني كثيراً ، - أجاب ألكسندر .

«هكذا إذاً! -فكّرت هي وقد هدأت وشعرت بالرضى . - هذا يعني أن أجيء غالباً الى هنا - فهمت ! حسناً ، سأجيء الى هنا . لكنني سأعذّبك أيها الهمجي ّبسبب وقاحاتك كلّها . . . » .

هكذا ترجم الدلال جواب ألكسندر، أما هو فلم يقل شيئاً أكثر في ذاك اليوم.

«اللّه وحده يعلم ماذا تتخيّل! - أسرّ لنفسه - ستتدلّل وتتغنّج... هذا حماقة!».

منذ ذاك اليوم، صارت زيارات العجوز وابنته تتكرّر يومياً. أحياناً، كانت ليزا تأتي مع وصيفتها، وليس مع أبيها. كانت تجلب معها عملاً أو كتاباً، فتجلس تحت شجرة وتتظاهر بعدم الإكتراث كلياً بوجود ألكسندر.

كانت تفكّر بأن تجرح كبرياءه وتعذّبه كما كانت تقول. كانت تتحدّث مع وصيفتها بصوت عالٍ عن البيت وشؤونه، كي تظهر عدم اهتمامها به، وأنها لاتراه. أما هو، فلم يكن يراها فعلاً في بعض الأحيان، إذ كان يكتفي بأنْ ينحني إليها بجفاء، دون ان يتبادل معها كلمة واحدة.

بعد أن رأتْ، أنّ مناورتها العادية هذه لم تُجد نفعاً، غيرّت خطة الهجوم وبادرت للتحدّث معه مرّتين؛ أحياناً، كانت تأخذ الصنّارة منه. صار ألكسندر يتحدّث معها تدريجياً أكثر فأكثر، لكنه كان حذراً جداً. ولم يظهر سلامة نيّة، أو صراحة ملحوظة. هل كان هذا حساباً من جانبه، أم أنّ الجروح السابقة، التي لم تندمل بعد، هي التي أملْتْ عليه هذا البرود في الحديث معها.

ذات مرّة، أمر العجوز بإحضار سماور الى الشاطىء. كانت ليزا تصبّ الشاي. رفض ألكسندر الشاي بإصرار، متذرّعاً أنّه لايتناوله في الأماسي.

«كل مناسبات الشاي هذه تفضي الى نوعٍ من التقارب... والتعارف... لا أريد أن يحدث هذا!» - فكّر هو.

- ماذا تقول؟ شربْت البارحة أربع كوؤس! - قال كوستيكوف.

- لا أشرب في الهواء الطلق، - أضاف ألكسندر بسرعة.

-عبثاً! - قال كوستيكوف - إنه شاي فاخر. أرجو أنْ تتفضّلي عليّ بكأس أخرى ياآنسة.

twitter @baghdad_library

تناولَ كأساً أخرى .

دعا العجوز ألكسندر لزيارته ، لكنه رفض رفضاً باتاً . لدى سماعها الرفض ، مطّتْ ليزا شفتيها . صارت تبذل الجهود كي تحصل منه على سبب حبّه للعزلة . ومع أنها كانت تدير الحديث حول هذا الموضوع بكثيرٍ من المكر والدهاء ، فإنّ ألكسندر كان يتملّص منه بدهاءٍ أكبر .

هذا السرّ فقط ، هو الذي كان يثير فضول ليزا ، وربّما إحساساً آخر أيضاً . ظهرت على وجهها ، الذي ظلّ حتى الآن صافياً كصفاء الصباح في فصل الصيف ، سحابة من القلق والتأمّل . غالباً ماكانت تُلقي على ألكسندر نظرة حزينة ، ثم تُحوّل عينيها عنه الى الأرض وهي تتنهد وتفكّر على مايبدو : «أنت سعيد! وربّما مخدوع . . . آه ، كم أستطيع أن أجعلك سعيدا! كم كنتُ سأحافظ عليك وأحبّك . . . كنتُ سأحميك من القدر نفسه ، كنتُ . . . » الخ .

هكذا تفكّر الأغلبية الساحقة من النساء ، هكذا تَخْدَعُ الأغلبية الساحقة منهنّ أولئك الذين يثقون بغناء جنيّة البحر ، بيد أنّ ألكسندر كان يبدو وكأنه لايلاحظ شيئاً . كان يتحدث معها كما لو أنه يتحدّث مع صديقه وعمّه ، دون أن يبدي أيّ علامة من علامات التحبّب والرقّة ، التي تتخلّل عفواً صداقة كلّ رجل وامرأة ، والتي تجعل هذه العلاقات لاتشبه الصداقة . لهذا السبب يقال أنْ لاوجود للصداقة بين الرجل والمرأة ، ولايمكن أنْ توجد ، وأنّ مايُسمى صداقة بينهما لايعد كونه بداية حبّ . ولربما تُمثّل في نهاية المطاف ، الحبّ ذاته . لكنْ ، إذا ألقينا نظرة على الطريقة ، التي كان أدوييف يخاطب ليزا من خلالها ، فإننا سنتأكّد أنّ مثل هذه الصداقة موجودة .

ذات مرّة ، كشف لها جزئياً فقط ، أو أراد أن يكشف لها عن نمط تفكيره . أخذ عن المقعد ، الكتاب الذي كانت قد جلَبَتْهُ معها وفتحه . كان بالترجمة الفرنسية لـ «تشايلد هارولد» . هزّ ألكسندر رأسه وتنهد ، ثمّ وضع الكتاب مكانه بصمت .

-ألا يعجبك بايرون؟ هل أنتَ ضدّ بايرون؟ -سألت هي. - بايرون، هذا الشاعر العظيم - لايعجبك.

- أراكِ قد بدأت الهجوم عليّ، في الوقت الذي لم أنبس فيه ببنت شفه.

- لماذا كنتَ تهزّ رأسك؟

-هكذا. يؤسفني أن يقع هذا الكتاب بين يديك، - أجاب هو.

- تتأسف عليّ أم على الكتاب؟

التزم ألكسندر الصمت.

- لماذا لاينبغي ان أقرأ بايرون؟ - سألت هي.

- لسببين، - قال ألكسندر. ثم صمت. وضع يده على يدها، إمّا زيادةً في الإقناع، أو لأنّ يدها كانت ناعمة، منمنمة بيضاء، وبدأ يتحدّث بصوتٍ خافتٍ رتيبٍ، وهو ينقل نظره الى خصلات شعرها تارة، وإلى عنقها وخصرها تارة أخرى، وتبعاً لتنقلاته هذه، كان صوته يرتفع تدريجياً.

- أولاً، - قال هو، - لأنك تقرئين بايرون بالفرنسية، وبالتالي فإنك ستفقدين جمال وعظمة لغة الشاعر. انظري، كم هي اللغة شاحبة ومبتذلة هنا! هذا تسويد لسمعة الشاعر العظيم: تبدو أفكاره وكأنّها قد حُورتْ تماماً. ثانياً، أنصحك بعدم قراءة بايرون، لأنه... قد يثير في أعماقك أوتاراً حسّاسة كان يمكن ان تظلّ ساكنةً أبد الدهر، دون أن...

هنا شدّ على يدها بقوّة وبصورة معبّرة، وكأنه كان يريد من خلال ذلك أن يُضفي على كلماته أهمية ملحوظة.

- علامَ تقرئين بايرون؟ - تابع هو. - ربما ستجري حياتك بهدوء كهذا الجدول: انظري كم هو صغير ضحل. إنه لايعكس السماء ولا الغيوم، على ضفافه لاتوجد صخور ولا هاوية، إنه يسيل بغنج ودلال؛ تموّجات خفيفة لاتكاد

twitter @baghdad_library

تَلحَظ، تُغضِّن سطحه. إنه يعكس فقط خضرة الضفاف وقطعةً صغيرة من السماء، وبعض الغيوم الصغيرة. . . هكذا كانت حياتك ستجري على الأرجح، بينما أنت تنشدين عذابات لاطائل منها. تريدين النظر الى الحياة والناس عبر منظار قاتم مظلم. . . دَعي هذا الكتاب ولاتقرئيه! انظري الى الأشياء كلها بابتسامة ولا تنظري إلى الأفق البعيد، عيشي كل يومٍ بيومه، ولا تتعبي نفسك بتحليل الجوانب المظلمة في الحياة والناس، وإلاّ. . .

- وإلا ماذا؟

- لاشيء! - قال ألكسندر وكأنه قد ثاب الى رشده.

- كلا، قل لي: هل عانيت حقّاً من شيء ما محدّد؟

- أين صنّارتي؟ ثم عذراً، حان أن أنصرف.

- بدا منزعجاً، لأنه أدلى برأيه دون تحفّظٍ وحيطة.

- كلا، بقيت كلمة أيضاً، - بدأت ليزا كلامها، - لابد أن يكون الشاعر مهتمّاً بإثارة التعاطف مع ذاته. بايرون، شاعر عظيم، لمَ لاتريدني أن أتعاطف معه؟ وهل أنا حمقاء غبيّة لاأفهم؟ . . . استاءت كثيراً.

- ليس هذا ما أقصده مطلقاً: تعاطَفي مع كلّ ماينسجم مع قلبك الأنثوي؛ ابحثي عما يتفق مع وجهة نظره، وإلاّ فإنه سيحدث تنافر رهيب. . . بين عقلك وقلبك. - هنا هزّ رأسه، ملُمحاً إلى أنه، هو نفسه، كان ضحيّة هذا التنافر.

- واحدٌ يريك زهرةً، -قال هو، - ويجبرك على الإستمتاع بأريجها وجمالها، بينما يدلّك شخص آخر على النسغ السامّ الموجود في كمّها فقط. . . سيضيع عندئذ بالنسبة لك، جمالها وأريجها. سيجعلك تشكين من وجود ذاك النسغ السامّ، وستنسين أريجها. . . يوجد فرقٌ بين هذين الصنفين من البشر وبين التعاطف معهما. لا تبحثي عن السمّ، ولا تحاولي الوصول الى بداية كلّ مايجري لنا وبالقرب منّا؛ لاتبحثي عن تجربة غير ضرورية: فليست هي التي تقود الى السعادة.

صَمَتَ. كانت تصغي إليه بثقةٍ وتأمّل.

- تَكَلَّمْ، تَكَلّمْ... - قالت هي بإذعان طفولي. - أنا مستعدة لأن أصغي إليك أياماً بكاملها وأطيعك في كل شيء...

- تُطيعينني أنا؟ - قال ألكسندر ببرود. - عفواً بأي حق؟... معذرةً، لأنني سمحتُ لنفسي بأن أبدي بعض الملاحظات. اقرئي ماشئت... «تشايلد - هارولد» -كتابٌ جيّد جداً، وبايرون - شاعر عظيم!

- كلا، لاتتصنع! لاتتكلم بهذهِ الطريقة. قل لي: ماذا ينبغي أن أقرأ؟

اقترح عليها بزهوّ المتحذلق بعض الكتب التاريخية، وكتب الرحلات والأسفار، لكنها قالت، أنها ملّت هذا النوع من الكتب في المدرسة الداخلية. نصحها عندئذ بقراءة والترسكوت، كوبر وبعض الكتّاب الفرنسيين والأنكليز، كما نصحها بقراءة اثنين أو ثلاثة من الكتاب الروس، محاولاً أثناء ذلك، كأنما عن غير قصد، أن يكشف عن ذوقه وحسّه الأدبيّن. بعد ذلك، لم يدر بينهما حديث من هذا النوع.

كان ألكسندر يحاول دائماً الإبتعاد عنها. «ماشأني والنساء! - كان يقول هو - أنا لا أستطيع أن أحبّ؛ لقد انقضى كلّ شيءٍ بيننا...».

«حسناً، حسناً! - كان كوستيكوف يعترض على هذا. - تَزَوّجْ وستتأكّد. في بداية شبابي، كنتُ أحبّ أن أعبث مع الفتيات والنساء الشابّات فقط، لكن، ما إن حان موعد الزواج، حتى أدخل أحدهم فكرة الزواج في رأسي».

لم يعد ألكسندر يهرب. تحرّكت فيه الأحلام السابقة كلها. صار قلبه يخفق بإيقاع قويّ كانت تلوح في عينيه خصلة الشعر تارة، وساقها وخصرها تارةً أخرى، وصارت الحياة من جديد، بهيجة قليلاً. منذ ثلاثة أيام، لم يعد كوستيكوف هو الذي يدعوه لصيد السمك. بل صار هو الذي يجر كوستيكوف إليه. «عودةٌ الى السابق! عودةٌ الى السابق من جديد! كان ألكسندر يقول. - لكنني ثابت صلب!» في غضون ذلك، كان يتوجه الى النهر مسرعاً.

twitter @baghdad_library

في كل مرة كانت ليزا تنتظر قدوم الصديقين بفارغ الصبر. صار يُحضِّر الكوستيكوف كلّ مساء، فنجاناً من الشاي المعطر مع الرّوم - ربما كانت ليزا تلجأ لهذه الحيلة، كي لاينقطعا أمسيةً واحدة عن المجيء، وإذا صدف وتأخر، فإن ليزا كانت تذهب مع أبيها لملاقاتهما. وعندما كان الطقس الماطر يحجز الصديقين في البيت ويمنعهما عن المجيء، فإن اللوم كان ينهال عليهما وعلى الطقس بلا نهاية في اليوم التالي.

فكّر ألكسندر وفكّر، فقرّر أن يوقف ذهابه ونزهاته لبعض الوقت، لغاية لايعرفها إلاّ الله، فهو نفسه لم يكن يعرف القصد من هذا، وامتنع عن الذهاب لصيد السمك أسبوعاً كاملاً. لم يذهب كوستيكوف أيضاً. ذهبا أخيراً.

قبل فرسخٍ من المكان، الذي كانا يصيدان فيه السمك، التقيا ليزا ووصيفتها. صرخت بمجرّد أن رأتْهُما، ثم ارتبكت بعد ذلك فجأة واحمرّتْ. انحنى أدوييف ببرود، بينما راح كوستيكوف يثرثر - ها قد أتينا، - قال هو، - ألمْ تنتظرينا؟ ها، ها، ها! أراك لاتنتظريننا: السماور ليس معك! منذ فترة طويلة، لم نلتقِ ياآنسة! ما أخبار الصيد؟ كنتُ أحاول المجيء طوال الوقت، لكنني لم أستطع إقناعَ ألكسندر فيدوريتش. لقد آثر الجلوس في البيت... أو بالأحرى الإستلقاء.

نظرتْ إلى أدوييف بعتاب.

- مامعنى هذا؟ سألت هي.

- ماذا؟

- لماذا انقطعتَ عن المجيء أسبوعاً كاملاً؟

- أجل، يبدو أنني قد انقطعتُ أسبوعاً كاملاً.

لماذا؟

- لم تكن لديّ رغبة...

- لم تكن لديكَ رغبة! قالت بدهشة.

- أجل، وماذا؟

- صمتتْ، لكنها كانت تفكرّ على مايبدو: « هل يعقل ألاّ تكون لديك رغبة بالمجيء إلى هنا؟ ».

- كنتُ أريد أن أرسل والدي إليك، إلى المدينة، - قالت هي، - لكنني، لا أعرف أين تعيشان.

- إلى المدينة، إليّ؟ لماذا؟

- سؤال رائع! - قالت بلهجة مستاءة. - لماذا؟ كي يرى إنْ كان قد حدث لك شيءٌ ما، وليتبيّن إنْ كنتَ سليماً مُعافًى.

- ماشأنك بهذا؟

- ماشأني؟ ياإلهي!

- لماذا تستغربين؟

- كيف! . . . كتبك موجودة عندي . . . - ظهر عليها الإرتباك. - مضى أسبوع ولم تأتِ! - أضافت هي.

- وهل ينبغي أن أتواجد حتماً هنا يومياً؟

- حتماً!

- لماذا؟

- لماذا، لماذا! - نظرتْ إليه بأسى وهي تُردّد: لماذا، لماذا!

نظر إليها. ماهذا؟ دموع واضطرب وفرح ولوم؟ إنها شاحبة، يبدو أنها نحفت قليلاً كما أنّ عينيها حمراوان.

« هكذا إذاً! وصلت الأمور الى هذا الحدّ! -فكرّ ألكسندر، - لم أكن أتوقع حدوث هذا كله، بمثل هذه السرعة! » ثم بدأ يضحك بعد ذلك بصوتٍ عالٍ.

twitter @baghdad_library

-تسألني لماذا. اسمَعْ. . . - تابعت هي. بَرَقَ في عينيها حزمٌ وإصرار. يبدو أنها كانت تستعد لقول شيءٍ ما هامّ، لكنّ أباها اقترب منهما في تلك اللحظة.

- إلى الغد، - قالت هي، - ينبغي أن أتحدث إليك غداً. فأنا لا أستطيع اليوم أن أتحدث معك: قلبي مليء كثيراً. . . ستأتي غداً؟ تسمعني؟ لن تنساني، أليس كذلك؟ لن تتركني. . . ركضت دون أنْ تنتظر جوابه.

نظر الأب إليها بإمعان، وإلى أدوييف من بعدها، ثم هزّ رأسه. نظر ألكسندر في أثره بصمت. بدا وكأنه كان يأسف ويتكدّر، لأنه أوصل الأمور الى هذا الوضع دون أن يلحظ. اندفعَ الدم الى رأسه، لا إلى قلبه.

«إنها تحبنّي، - كان ألكسندر يفكّر وهو في طريقه الى البيت. - ياإلهي، ياللملل! هذا غير معقول: أصبح المجيء إلى هنا مستحيلا الآن، لكنّ السمك في هذا المكان، يعلق على الصنارة بسهولة. . . واأسفاه!».

كانت مخيّلته اللطيفة ترسم له، كما لو عمداً، صورة ليزا بقامتها الكاملة وكتفيها الرائعين وخصرها الضامر الرشيق، ولم تنس ساقيها. بدأ يتحركُ في أعماقه إحساسٌ غريب، وسَرَتْ في جسده من جديد، رعشةٌ، لكنها لم تصل إلى روحه- ثمّ تلاشتْ. حلَّل هذا الإحساس من المنبع وحتى النهاية.

«إحساس حيواني! - قال ألكسندر. - ياللفكرة التي تُراود مخيّلتك! . . . كتفان عاريان، خصر وساقان. . . تريد استغلال الثقة وقلّة الخبرة. . . تريد أن تخادع. . . حسناً، ماذا سيعطيك الخداع؟ الملل ذاته، وربما تأنيب الضمير أيضاً. كلا! كلا! لن أسمح لنفسي بهذا، ولن أوصلها إلى. . . أنا ثابت صلب! أحسُّ في داخلي بما يكفي من نقاوة النفس والشهامة وصفاء القلب. . . لن أضيع هباءً - ولن أفتنها أو أغويها».

ظلّت ليزا تنتظره طوال اليوم بشعورٍ من الغبطة والإرتياح، لكنّ قلبها انقبض بعد ذلك. أحسّت بالخوف، دون أن تعرف السبب، وصارت حزينة، ولم تكن

ترغب تقريباً بمجيء ألكسندر. وعندما أزفت الساعة المحدّدة ولم يأتِ ألكسندر تحوّل نفاد صبرها إلى غمٍّ مُضنٍ. ومع شعاع الشمس الأخير، اختفى كل أمل وصارت تبكي.

في اليوم التالي، انتعشت ثانيةً، وكانت منذ الصباح فرحة مسرورة من جديد، وكلما كان المساء يقترب، كان قلبها يضطرب ويهدأ، بسبب الخوف تارةً والأمل تارةً أخرى. لم يأتِ أيضاً.

لم يأت في اليوم الثالث ولا الرابع. ظلّ الأمل يجذبها الى شاطىء النهر، ما إنْ يظهر قاربٌ في الأفق البعيد، أو يلوح شبحان على الشاطىء، حتى يرتعش قلبها وتنوء تحت عبء الترقّب السارّ والإنتظار البهيج. لكن ما إن تتبيّن أنهما غير موجودين في القارب، وأنّ الشبحين ليسا شبحيهما، حتى ترخي رأسها على صدرها بأسى ويستولي اليأس عليها... بعد دقيقة، يهمس الأمل المخادع في أذنها ويقدّم مسوّغاً للتأخر الحاصل- فينتعش القلب من جديد أملاً وانتظاراً. أما ألكسندر فكان يتباطأ ويتأخر، وكأنه يفعل هذا عمداً.

أخيراً، بينما كانت تجلس ذات مرّة، في مكانها المعهود تحت الشجرة يائسة، شبه مريضة، سمعت فجأة خشخشة. التفتتْ، فارتعشت خوفاً يبعث على الفرح: كان ألكسندر يقف أمامها مشبوك اليدين.

مدّت له يدها، ودموع الفرح تطفر من عينيها، وبقيت طويلاً قبل أنْ تتمكّن من تمالك نفسها. أمسك يدها وراح يُدقق النظر هو الآخر أيضاً، في وجهها بلهفةٍ واضطراب.

- كم نحفت! - قال هو بصوتٍ خافت. - هل تعانين؟

ارتعشتْ.

-كم طال غيابك! - نطقتْ هي.

- وهل كنت تنتظرينني؟

twitter @baghdad_library

- أنا؟ - أجابت هي بحيويّة. -آه، ليتك تعلم!... -ختمتْ جوابها بأنْ ضغطتْ على يده بقوّة.

- أتيتُ مودّعاً! - قال هو، ثم توقّف وهو يراقب ماسيحدث لها.

- نظرتْ إليه بهلع وارتياب.

- ليس صحيحاً، - قالت هي.

- صحيح! - أجاب هو.

-اسمعْ! - بدأتْ كلامها فجأة، وهي تتلفّت بخجلٍ إلى كلّ الجهات. - ناشدتُك الله ألاّ تُغادر! سأقول لك سراً... سيرانا أبي من النافذة إذا بقينا هنا: لنذهبْ إلى عريشة حديقتنا... إنها تطلّ على الحقل، هيّا!

ذهبا. ظلّ ألكسندر مثبّتاً نظره طوال الوقت على كتفيها وخصرها الضامر الرشيق، فأحسّ برعشةٍ قويّة تسري في جسده.

«ما الخطر، - كان يفكر وهو يسير وراءها، - من ذهابي؟ سألقي نظرةً فقط... على العريشة... سبق أن وجه أبوها الدعوة لي لزيارتهما * كنتُ أستطيع أن أذهب مباشرة بصورة علنيّة... لكنني بعيدٌ كلّ البعد عن الغواية. أقسم أنني بعيد حقاً عن هذا، و سأثبت ذلك: ها قد أتيتُ قصداً لأقول لها، إني مسافر... علماً، أنني لن أسافر إلى أي مكان! كلاّ، أيها الشيطان! لن تغويني». لكنْ، يبدو، وكأنّ شيطان كريلوف قد ظهر للناسك فوراً من خلف المدفأة، وهمس في أذنه قائلاً: «لماذا أتيت لتقول هذا؟ لم يكن هناك حاجة لذلك. لو لم تظهر، لكنتَ قد نُسيتَ بعد اسبوعين...».

لكنّ ألكسندر كان يعتقد أنه يقوم بعمل نبيل، وهو يُقدمُ على التضحية والتفاني جرّاء مواجهة الغواية وجهاً لوجه. كات الغنيمة الأولى لانتصاره على نفسه، قبلةً سرقَها من ليزا بعد ذلك، حضن خصرها وقال لها بأنه لن يسافر الى أيّ مكان، وأنه قد ابتكر هذا كله كي يختبرها ويعرف إن كانت تحبه أم لا. أخيراً،

وكعلامةٍ على تتويج النصر، وعدها بأن يأتي في اليوم التالي، في نفس الساعة، الى العريشة. صار يحلّل تصرّفه، وهو في طريق عودته إلى البيت. فكان يحسّ بالبرود تارةً وباللهفة تارةً أخرى. كان يتوقّف مذعوراً، وهو لايُصدق نفسه. أخيراً، قرّر عدم الذهاب للقائها غداً - لكنه ذهب إليها قبل الموعد المحدّد.

حَدَثَ هذا في شهر آب، كان الغسق قد خيم. يجدر القول، إنّ ألكسندر كان قد وَعَدَ بآن يأتي في التاسعة، لكنه وصل في الثامنة وحيداً، دون صنّارة. تسلّل الى العريشة كاللص، وهو يتلفت حوله بهلع تارةً، ويندفع راكضاً تارة أخرى. لكنّ شخصاً ما كان قد سبقه. كان ذاك، يركض الى العريشة لاهثاً أيضاً، فوصل إليها وجلس على أريكة في زاوية مظلمة.

كان ألكسندر يتصرّف وكأن أحداً يتربّص به. فتح الباب بهدوء وهو مضطرب كثيراً، ثم اقترب من الأريكة على رؤوس أصابعه وأمسك بيد الجالس عليها - بيد والد ليزا. ارتعش ألكسندر وقفز مبتعداً وأراد أن يهرب، لكنّ العجوز أمسك بطرف سترته من الخلف وأجلسه على الأريكة عنوةً بالقرب منه.

-كيف أتيتَ الى هنا ياأبتاه؟ - سأل العجوز.

- أتيت... لصيد السمك... - نطق ألكسندر، وهو لايكاد يُحرك شفتيه. كانت أسنانه تصطكّ على بعضها. لم يكن العجوز مخيفاً إطلاقاً، لكن ألكسندر كان يرتجف كما لو أنه قد أصيب بالحمّى، كما هو حال كلّ لصّ يُمسَكُ في قضيّة.

- لصيد السمك! - كرّر العجوز بسخرية. - أتعرف ماذا يعني صيد السمك في ماء عكرة؟ كنتُ أراقبك منذ زمن بعيد، وها أنا ذا قد عرفتُ حقيقتك أخيراً. أما ابنتي ليزا فأعرفها مذ أن كانت في القماط: إنها صبيّة، سريعة التصديق، أما أنت - فمحتال خطير...

أراد ألكنسدر أن ينهض، لكنّ العجوز أمسك بيده.

twitter @baghdad_library

- لاتغضب ياأبتاه. تظاهَرْتَ بالتعاسة، وكنتَ تتجاهل ليزا عمداً، كي تشدّها إليك وتجعلها تتعلّق بك. وبعد أن تأكّدت من ذلك، أتيت لاستغلال اللحظة المناسبة. . . هل هذا عمل جيّد؟ ماذا أسميّك؟

- أقسم بشرفي، أنني لم أكن أتوقع تلك النتائج. . . - قال ألكسندر بصوتٍ ينمُّ عن إيمانٍ عميق - لم أكن أريد أن. . .

صمتَ العجوز بضع دقائق.

- ربما يكون ذلك! - قال هو. - ربما تكون تريد، ليس بدافع الحبّ، بل بسبب الفراغ، أنْ تُضلّل الفتاة المسكينة، دون أن تعرف ماسينجم عن هذا؛ فإنْ تَيسّرَ لك ماتريد يكون الأمر حسناً، وإنْ لم يتيسّرْ - فلا حاجة لكَ بذلك! بطرسبورغ مليئة بأمثالك من الشبّان المهرة. . . هل تعلم كيف ينبغي التصرّف مع أمثالك من الشبّان الطائشين؟

كان ألكسندر يجلس، وهو يغضّ بصره. كانت تنقصه الشجاعة لأنْ يُبرىء ساحته.

- في البداية، كنتُ أحمل فكرةً إيجابية عنك، لكنّي أخطأت، أخطأت كثيراً! كم كنتَ تتظاهر بالهدوء والمسكنة! حمداً لله، لأنني كَشَفتك في الوقت المناسب. . . اسمعْ: ليس لديَّ وقت أضيّعه؛ لابد أن تأتي الفتاة المسكينة الى الموعد. راقبتكما طوال البارحة. لاداعي لأن ترانا معاً: عليكَ ان تغادر الآن فوراً، دون أن تعود أبداً. ستعتقد عندئذ أنك قد خَدَعتها، وسيكون هذا درساً مفيداً بالنسبة لها. عليك فقط أن تمتنع عن المجيىء مطلقاً الى هذه الأماكن. ابحثْ عن مكانٍ آخر لصيد السمك، وإلا. . . سأطردك شرّ طردة. . . لحسن حظك، أن ليزا لاتزال تستطيع أن تنظر في عينيّ مباشرة، إذ بقيتُ أراقبها يوماً بكامله. . . اسلك طريقاً أخرى لدى خروجك من هنا. وداعاً!

أراد ألكسندر أن يقول شيئاً ما، لكن العجوز فتح الباب وطردهُ تقريباً.

خرج ألكسندر، لكنْ في أيّ وضع - لندع القارىء يحكم بنفسه، إن لم يخجل بأن يضع نفسه مكانه ولو لدقيقة. حتى الدموع طفرتْ من عينيّ بطلي، إنها دموع الخجل واليأس والغيظ من نفسه.

«لِمَ أحيا؟ - قال بصوت عالٍ. يالها من حياة كريهة قاتلة! أما أنا، أنا عَدم! لو لم ينقصني الحزم لمواجهة الإغراء. . . لكنتُ وضعتُ حداً لهذا الوجود المعيب، عديم الجدوى. . .».

اقترب من النهر بخطوات سريعة. كان النهر أسود. كانت تعبر الأمواج راكضةً، أشباحٌ خياليّة طويلة مشوّهة. كانت الضفة، التي يقف عليها ألكسندر، ضحلة، قليلة العمق.

- الموت مستحيل هنا! قال بازدراء، وذهب باتجاه الجسر، الذي كان يَبعْدُ مائة خطوة من هناك. أسند ألكسندر مرفقه الى الدرابزين عند منتصف الجسر وصار ينظر إلى الماء. كان يُودّع الحياة ذهنياً ويبعث بآهاته الى أمه ويبارك زوجة عمّه، حتى أنه سامَحَ نادينكا وغفر لها. كانت دموع الحنان لزوجة عمه، تسيل على وجنتيه. . . حجب وجهه بيديه. . . لم يكن يعرف ما سيفعل، عندما اهتزّ الجسر فجأةً تحت قدميه. ثابَ إلى رشده: ياإلهي! إنه على حافة الهاوية: القبر ينفتح أمامه: انفصل نصف الجسر وصار يبتعد. . . كانت الزوارق تعبر؛ لم تبقَ إلاّ لحظة حتى يغادر الحياة! استجمع قواه كلّها، وقفز قفزة يائسة. . . إلى تلك الجهة. توقف هناك، وتنفسّ الصعداء وهو يضع يده على قلبه.

- هل خفت ياسيّدي؟ - سأل الحارس.

- كدتُ أن أسقط في الهوّة ياأخي، -أجاب ألكسندر بصوتٍ مرتجف.

- ليحمنا الله! ليغفر الله ذنوبنا! - نطق الحارس وهو يتثاءب، - في الصيف ماقبل الماضي سقط سيدّ هناك.

ذهب ألكسندر الى البيت وهو يضع يده على قلبه. أحياناً، كان يتلفّت الى النهر والجسر المرفوع، فيُحوّل عنهما نظره فوراً وهو يرتعش، ثم يُسرع الخطى.

twitter @baghdad_library

في غضون ذلك، كانت ليزا ترتدي ثيابها بغنج ودلال، دون أن تأخذ معها أباها أو وصيفتها، وتذهب كل مساء لتجلس تحت الشجرة حتى ساعة متأخرة من الليل.

حلّت الأمسيات المظلمة. ظلّت تنتظر طوال الوقت، لكنها لم تعد تسمع له صوت، ولا تلمح له خيال.

حلّ الخريف. كانت الأوراق الصفراء تتساقط من الأشجار وتتناثر على الضفاف. صارت الخضرة تبهت ويتغير لونها، وأصبح لون النهر رصاصياً، كما صارت السماء رمادية دائماً. كانت ريح باردة تهبّ، وتحمل مطراً رذاذاً. أصبحت الضفاف والأنهار مقفرة. لم تعد تُسمع الأغاني البهيجة والضحكات، ولا الأصوات الرنّانة إلى الضفاف، ولم تعد القوارب والشخاتير تروح وتغدو جيئة وذهاباً. لم يعد يُسمع أزيز حشرةٍ واحدة على العشب، ولا زقزقة عصفور على شجرة. كانت الغربان والنسور وحدها تبعث الحزن في النفس بأصواتها، وتوقف كذلك صيد السمك.

أما ليزا، فمازالت تنتظر: كانت تصرّ على التحدّث مع ألكسندر حتماً، لتكشف له عن سرّها. كانت تجلس طوال الوقت على المقعد، وهي ترتدي سترة طويلة من الفرو. صارت نحيفة جداً. أصبحت عيناها غائرتين، وكانت وجنتاها مشدودتين بمنديل. هكذا وجدها أبوها ذات مرّة.

- هيا. كفاك جلوساً هنا. - قال وهو يقطبّ جبينه ويرتجف من البرد، - انظري، لقد أصبحت يداك زرقاوين، هذا يعني أنك بردت. ليزا! ألا تسمعينني؟ هيّا نذهب.

- إلى أين؟

- إلى البيت: سننقل اليوم الى المدينة.

- لماذا؟ سألت هي بدهشة.

- كيف؟ لقد حَلّ الخريف؛ بقينا وحدنا هنا .

- آه يا إلهي! قالت هي - سيكون الشتاء رائعاً هنا أيضاً : دعنا نبقى هنا .

- ماذا تقولين؟ كفى ، كفى ، هيّا !

- انتظر ! قالت هي بصوت متوسّل ، - ستعود الأيام الجميلة أيضاً .

- اسمعي ! - أجاب الأب ، وهو يهزها مشيراً الى ذاك المكان ، الذي كان الصديقان يصيدان فيه السمك . - لن يرجعا .

لن . . . يرجعا؟ . . . كررّت متسائلة بصوتٍ حزين ، ثم أعطت يدها لأبيها ، وذهبت إلى البيت بهدوء ، مطرقة الرأس ، وهي تتلفّت الى الخلف بين الحين والآخر .

أما أدوييف وكوستيكوف فكانا يصيدان السمك منذ زمنٍ طويل في أحد الأمكنة من الجهة المقابلة لهذا المكان .

twitter @baghdad_library

V

تمكّن ألكسندر تدريجياً من نسيان ليزا والمشهد المقيت، الذي حدث له مع أبيها. صار من جديد هادئاً وحتى مرحاً، وكان غالباً مايضحك لدى سماعه نكات كوستيكوف التافهة. كانت تضحكه نظرة هذا الإنسان الى الحياة. كانا يرسمان الخطط للذهاب الى مكان أبعد على شاطىء النهر، حيث السمك الوفير، ليبنيا هناك كوخاً يعيشان فيه بقيّة أيامهما. صارت روح ألكسندر غارقة من جديد في حل المفاهيم البائسة لحياةٍ يومية رتيبة تافهة. لكنّ القدر لم يغفل عنه، ولم يغرق تماماً في هذا الوحل.

في الخريف، تلقّى رسالة من زوجة عمه ترجوه فيها بإلحاح أن يرافقها لحضور حفلة موسيقية، لأنّ عمّه لم يكن معافى تماماً. كان يحيي الحفلة فنآنٌ عظيم ذاع صيته في أوروبا كلها.

- حفلة موسيقية! - قال ألكسندر باضطرابٍ شديد، حيث الزحام والبهرج والكذب والتصنّع... كلاّ لن أذهب.

- ربما يكون ثمن فنجان الشاي هناك، - خمسة روبلات أيضاً، - لاحظ كوستيكوف، الذي كان موجوداً،

وثمن البطاقة خمسة عشر روبلاً، - قال ألكسندر. - لكني على استعداد لأن أدفع عن طيب خاطر خمسين روبلاً مقابل إعفائي من هذه المهمّة.

- خمسة عشر روبلاً! - صرخ كوستيكوف وهو يضرب كفّاً على كف - ياللمحتالين! ياللملاعين! يأتون الى هنا وينصبون علينا وينهبون أموالنا. يالهم من طفيليين ملاعين! ألكسندر فيدوريتش، لاتذهب، ينبغي أن تستخفّ بهم! ظننتُ أنهم يدعون الى عمل خير: إذ إن الأمر سيكون مختلفاً عندئذ! لكن، أن يقولوا

تعال وادفع خمسة عشر روبلاً: فهذا أمرٌ لايُحتمل! بخمسة عشر روبلاً، يشتري المرء مهراً.

- من أجل قضاء سهرةٍ ممتعة، يدفع المرء مبلغاً أكبر من هذا بكثير، - لاحظ ألكسندر.

- قضاء سهرة سهرة ممتعة! الأفضل أنْ نذهب الى الحمّام: ستكون المتعة أكبر بكثير! ما إن أحسّ بالملل حتى أذهب الى هناك - يالها من متعة! أذهب في السادسة وأخرج في الثانية عشرة. أتدفّأ وأنظّف جسدي وأتعرف أحياناً على شخصٍ ما: على كاهنٍ أو تاجر أو ضابط، فيدور الحديث عن التجارة أو عن أشياء أخرى ممتعة... فلا يرغب المرء بالخروج! كلّ هذا يكلف فقط ستة قروش للشخص الواحد! وتجد رغم هذا كله من يتساءل عن كيفية قضاء سهرة!

لكنّ ألكسندر ذهب. أخرج بدلة السهرة، التي لم يلبسها منذ زمن بعيد، فلبسها كما لبس أيضاً قفازاً أبيض.

-ثمن القفّاز خمسة روبلات، فيصبح المجموع عشرين روبلاً، - كان كوستيكوف يحسب- هكذا تكون قد ضَيّعت في سهرةٍ واحدة عشرين روبلا! اسمع: هذا غريب جدّاً!

لم يعد ألكسندر يرتدي ثياباً أنيقة، فقد أقلع عن هذا منذ زمنٍ بعيد. في الصباح، كان يذهب إلى العمل مرتدياً سترة رسمية عاديّة. وفي المساء كان يرتدي سترة قديمة أو معطفاً. لم يكن يحسّ بالراحة عندما يرتدي بدلة سهرةٍ أنيقة.

كان يشعر بالضيق والإنزعاج من ارتدائها، ويحسّ بالحرارة كثيراً عند رقبته بسبب الشال المصنوع من قماش الأطلس.

استقبلته زوجة عمه ببشاشة وبشعورٍ من العرفان بالجميل، لأنه قرّر أن يترك عزلته من أجلها، لكنها لم تتطرّق بكلمة واحدة الى أسلوب حياته وأعماله.

twitter @baghdad_library

أثناء البحث في الصالة عن مكان ليزابيتا ألكسندروفنا، استند أدوييف إلى عمود، وبدأ يحسّ بالضجر. وضع يده على فمه وصار يتثاءب، لكنه ما لحق أن أغلق فمه، حتى دوّت الصالة بعاصفة من التصفيق تحيّة للفنّان. لم يكلّف ألكسندر نفسه عناء النظر إليه.

عُزف المطلع الموسيقي. بعد بضع دقائق، صارت الأوركسترا تخفت. كانت الألحان الأخيرة مترافقة مع ألحانٍ أخرى لاتكاد تُسمَع. في البداية، كانت سريعة، رشيقة ولعوبة، وكأنها تُذكِّر بألعاب الطفولة: كانت تَصْدح ألحانٌ بهيجة صاخبة شبيهة بأصوات الأطفال، بعد ذلك، صارت الألحان أكثر انسيابا ورجولة. يبدو أنها كانت تعبّر عن عبث الشباب وجرأتهم وعن غنى الحياة وفيض القوّة والعزيمة، ثم بدأت تنساب أنغامٌ هادئة، وكأنها تعبر عن مشاعر الحبّ الرقيقة وأحاديث العشّاق القلبية الصادقة، ثم صارت تخفت شيئاً فشيئاً، لتتحول الى همسٍ ساحرٍ أخّاذ، وصمتتْ بصورة لاتُلحظ...

لم يجرؤ أحدٌ على الحركة. سكن الحضور تماماً وأطبق عليهم الصمت. أخيراً، أفلتتْ من الجميع دفعة واحدة، همسة آه! عمّت الهمسة الصالة كلها. تحرك الحضور، لكنّ الألحان استيقظت من جديد، فجأة، وصارت تنساب أقوى فأقوى، لتشكّل تياراً متدفقاً انقسم فيما بعد إلى شلاّلات متساقطة تربو على الألف، تضغط على بعضها ويضايق كلّ منها الآخر. كانت تهدر وكأنها تلفظ حنق الغيرة، وتجيش هوى وانفعالاً. كانت الأذن عاجزة عن التقاطها - وإذا بها تنقطع فجأة، كما لو أنّ الآلة الموسيقية قد أُنْهكَتْ تماماً، فعيّت عن الكلام والأنين. من تحت القوس، صار يفلت تارةً أنينٌ خافت متقطّع، بينما كانت تُسمع تارةً أخرى، ألحانٌ باكيةٌ متوسّلة، لينتهي هذا كله أخيراً، بآهةٍ طويلة موجعة. كان القلب يتمزّق: كأن الألحان كانت تغنّي أغنية حبٍّ خائب مريرٍ يائس، مفعمٍ بالألم والحسرة. كانت عذاباتُ وأشجان النفس الإنسانية كلها تُسمع فيها.

ارتعش ألكسندر. رفع رأسه، ثم نظر والدموع في المآقي، فوق كتف جاره. رأى ألمانياً نحيلاً منحنياً فوق آلته الموسيقية، واقفاً أمام الجمهور، متحكّماً به. أنهى العزف، ومَسَحَ يديه وجبينه بمنديل، بصورةٍ تنمّ عن عدم اكتراث. دوّت القاعة بالهتاف وبصيحات الإستحسان، وبعاصفة من التصفيق. انحنى هذا الفنّان فجأة أمام الجمهور، وصار ينحني بتواضعٍ أكثر، تعبيراً عن الشكر والإمتنان.

«إنه ينحني للجمهور أيضاً، - فكّر ألكسندر، وهو ينظر بحياء الى هذا الفنان الخارق، وهو الذي يسمو بموهبته على كلّ من في هذه الصالة! . . .».

رفع الفنّان القوس - فصمت الجميع فوراً. تحوّل الجمهور الهائج من جديد الى كتلةٍ واحدةٍ جامدة. انسابت ألحان أخرى مهيبة وعظيمة. تحت تأثير هذه الأنغام الساحرةِ الرائعةً، كان لابدّ أن ينتصب ظهر السامع ويرتفع رأسه ويشمخ أنفه: كانت تُثير في النفس، الكبرياء وتولدّ الحلم بالمجد. بدأت الأوركسترا تردّد بخفوت أصداء هذه الألحان الرائعة، التي تصدرها أنامل ساحرة لفنّانٍ عظيم. كانت الأصداء تلك، تشبه ترجّعات هدير بعيد، أو إشاعة شعبية تتناقلها الألسن.

امتقع ألكسندر وأطرق رأسه. كانت هذه الألحان تحكي له بوضوح، كما لو عمداً، قصة حياته الماضية كلها، الخائبة والمريرة.

- انظرْ كيف أصبحت سحنة ذاك الشاب! - قال أحدٌ ما، وهو يشير إلى ألكسندر. - لا أفهم كيف يمكن ان تتبدّى الإنفعالات هكذا: سمعتُ باغانيني[1]، دون أن يتحرك لي حاجب. لَعَنَ ألكسندر دعوة زوجة عمه والفنان، لكنّ لعناته انصبّت في المقام الأوّل على القدر، الذي لم يُتح له نسيان كلّ شيء.

«لماذا يفعل القدر بي هكذا؟ ما القصد؟ - فكّر هو. - ما الذي يريده منّي؟ لماذا يذكّرني بعجزي وبالماضي الضائع، الذي لن يعاد؟».

(١) - نيكولا باغانيني (١٧٨٢ - ١٨٤٠) عازف كمان وموسيقي إيطالي مشهور، أحد مؤسسي المدرسة الرومانسية في الموسيقى (المترجم).

twitter @baghdad_library

أراد أن يعود الى شقته بعد أنْ أوصل زوجة عمه الى البيت، لكنها أمسكته بيده.

- هل يصحّ هذا؟ كيف يمكن ان تذهب دون أن تدخل؟ - سألت بعتاب.

- كلا، لن أدخل.

- لماذا؟

- أصبح الوقت متأخراً الآن، سأمرّ في وقتٍ آخر.

- وترفض لي طلبي هذا؟

-أكثر ممّا أرفض طلب أيّ شخصٍ آخر.

- لماذا؟

- يطول الحديث في ذكر الأسباب. وداعاً.

- ألا تدخل ولو لنصف ساعة؟ أرجو أن تلبّي رجائي ياألكسندر. نصف ساعة لا أكثر. إذا رفضت طلبي هذا، فهذا يعني أنك لم تمنحني يوماً مثقال ذرة من الصداقة.

توسّلت إليه بكثيرٍ من الرغبة والإلحاح، لدرجة أنّ ألكسندر لم يطاوعه قلبه على الرفض، فسار وراءها مطرقاً رأسه. كان بطرس إيڤانيتش في مكتبه.

- أيُعقل أن أستحقّ منك هذا الإستخفاف وحده ياألكسندر؟ - سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا، وهي تجلس بالقرب من الموقد.

-أنتِ تخطئين: هذا ليس استخفافاً، -أجاب هو.

- ماذا يعني هذا إذاً؟ كيف أسمّي هذا: كم مرّة كتبتُ لك ودعوتُك لزيارتي، ولم تأت، حتى أنك أخيراً، امتنعت عن الردّ على رسائلي.

-هذا ليس استخفافاً...

- ماذا تسمّيه إذاً؟

- لاشيء! - قال ألكسندر ثمّ تنهد. - وداعاً يازوجة عمّي!

- قف! ماذا فعلتُ لك؟ مابك ياألكسندر؟ لماذا أنت هكذا؟ لماذا أنت غير مبال بأي شيء لماذا تنأى بنفسك عن الناس، فلا تخالط أحداً ولاتتردّد إلى أي مكان؟ لماذا لم تعد كما كنت؟

- هكذا ياخالة؛ نمط الحياة هذا يعجبني: هكذا أشعر بالهدوء والطمأنينة والإرتياح؛ هذا النمط من الحياة يروق لي.

- يروق لك؟ هل يجد عقلك وقلبك أيّ غذاء في ظلّ حياة كهذه، ومع أناسٍ كهؤلاء؟ هزّ ألكسندر رأسه مبدياً علامة الإيجاب.

- أنت تتظاهر ياألكسندر؛ لابّد أنّ أمراً ما قد أحزنك بشدّة، وأنت تصمت عنه. فيما مضى كنتَ تجد من تثق به وتشكو إليه همومك. كنتَ تعرف، أنك ستجد دائماً العزاء أوالعطف على أقل تقدير. ألم يعد عندك الآن من تلجأ إليه؟

- لا أحد!

- أنتَ لاتثق بأحد؟

- كلا، أنا لاأثق بأحد.

- ألا تتذكّر أمك أحياناً... ألا تتذكّر حبها لك... ومداعباتها؟... ألا يخطر على بالك ياترى، أنّ أحداً مايمكن أن يحبّك هنا أيضاً، إن لم يكن مثلها، فكأخت، أو ربما أكثر، كصديقة؟

- وداعاً ياخالة! - قال هو.

- وداعاً ياألكسندر: لن أحتجزك أكثر، أجابت زوجة عمه. كانت الدموع تطفر من عينيها.

كان ألكسندر قد خطف قبعته، لكنه وضعها بعد ذلك ونظر إلى ليزابيتا ألكسندروفنا.

twitter @baghdad_library

- كلا، لا أستطيع أن أهرب منكِ: أنا عاجز عن ذلك! - قال هو. - ماذا تفعلين بي؟

- عُد كما كنت ياألكسندر، ولو لدقيقة واحدة. قل لي: هل تثق بي في كلّ شيء . . .

- أجل، فأنا لا أستطيع أن أظلّ صامتاً أمامك: سأبوح لك بكلّ مايعتمل في نفسي، - قال هو- تسألينني لماذا أتوارى عن الناس، وماهو سبب عدم اكتراثي بكلّ شيء، ولَمَ لا أقابل أحداً، حتى أنت؟ لماذا؟ تعلمين أني سئمتُ الحياة منذ زمن بعيد واخترتُ لنفسي نمط حياة، أستطيع أن أنأى بنفسي من خلاله، قدر المستطاع عن المتاعب. أنا لا أريد ولا أنشد شيئاً إلاّ الهدوء وراحة البال. جربّتُ فراغ وتفاهة الحياة، وصرتُ أزدريها. لايسع كلّ من عاش وفكر، إلا أن يحتقر الناس في أعماقه. سئمتُ النشاط والعمل والهموم والتسلية. سئمت كلّ شيء. أنا لا أبغي ولا أريد شيئاً. ليس لديّ هدف، لأنّ المرء سيكتشف أن ما كان ينشده، ليس إلا وهماً باطلاً. انتهت المسرّات بالنسبة لي وفترت همتي إزاءها. صرتُ أحسّ بشكلٍ أقوى، أن الحياة مع الناس في العالم المتمدن، عديمة الجدوى، أما انعزالي عن الناس وابتعادي عنهم، فقد سببا لي الخمول والخَدَر: جرّاء خدري هذا، لم أعد أحسّ بنفسي ولا بالناس. أنا لا أفعل شيئاً، ولا أرى تصرّفاتي، ولا تصرّفات الآخرين - لكنني أشعر بالطمأنينة والهدوء. . . أنا أخشى الآن شيئاً: السعادة مستحيلة، والتعاسة غير ممكنة هي الأخرى، في مثل ظرفي الراهن. . .

- هذا فظيع ياألكسندر! - قالت زوجة العم - كيف يمكنك أن تكون بمثل هذا البرود إزاء كل شيء، وأنت لاتزال في مقتبل العمر. . .

- ما الأمر الذي تستغربينه ياخاله؟ افصلي نفسك ولو لدقيقة واحدة عن الأفق الضيّق، الذي تُسجنين فيه، وانظري إلى الحياة والعالم، وفكّري بهما. . . ستجدين أنّ الأمس عظيم رائع، والحاضر حقير تافه، وأنّ من كان صديقاً بالأمس، أصبح عدواً اليوم. هل من المفيد أن يسعى الإنسان ويحبّ ويتخاصم مع بعض

الناس، ويعيش بوئام مع البعض الآخر، - بكلمةٍ واحدة، هل ينبغي العيش؟ أليس من الأفضل أن ينام عقل الإنسان وقلبه؟ عقلي وقلبي يغطّان في سبات عميق، لهذا السبب بالذات، أمتنع عن زيارة أي كان، وخاصة أنت. . لقد استغرقت كليا في النوم، وها أنتِ تريدين أن توقظي عقلي وقلبي وتدفعيهما من جديد الى المستنقع. إذا أردت ان تريني مسروراً معافى، وحتى سعيداً، طبقاً لمفاهيم عمّي عن السعادة، - فنيبغي ان تتركيني هناك، حيث أنا الآن. دعيني أستريح من هذه الإضطرابات والعذابات، فَلْتَمُتْ أحلامي وليتجمّدْ عقلي تماماً وليتحجّرْ قلبي ولتتوقّفْ عيناي عن ذرف الدموع وشفتاي عن البسمة- وعندئذ، سأجيء إليك بعد سنةٍ أو سنتين، عصياً على كل محاولة أو تجربة لتغييري، ولن تستطيعي إيقاظي حينئذ مهما حاولت وبذلت من جهد، أما الآن. . .

حرك يده بطريقةٍ تنّم عن إحباطٍ ويأس.

- (مقاطعةً) انظرْ ياألكسندر، - قالت زوجة عمه، - لقد تغيّرت خلال دقيقة واحدة: ها أنا أرى الدموع في عينيك. لاتزال كما كنت. لا تتظاهر، ولاتحبس مشاعرك، أطلق لها العنان. . .

- لماذا؟ لن يكون وضعي أفضل عندئذ، لن يأتيني من هذا إلاّ العذاب الشديد فقط. هذه الأمسية حطمتني وجعلتني أدرك، أنني أنا المسؤول شخصياً عمّا آل إليه وضعي. أدركت بوضوح، أنني لا أملك الحقّ بتوجيه اللوم لأحد بسبب ما أعاني من كآبة وضجر. أنا الذي نَغّصْتُ وقتلتُ حياتي بنفسي. كنت أحلم بالمجد وبتحقيق أهداف سامية كثيرة، لكنني أهملتُ قضيتي. لقد أفسدتُ كل شيء، أفسدتُ غايتي وعطّلتُ دوري المتواضع، الذي كنت أستطيع القيام به، ولن أصلح الماضي الآن: فقد أصبح الوقت متأخراً! كنتُ أنأى بنفسي عن الناس وأحتقرهم، - لكنّ هذا الألماني، بروحه القوية العميقة وبطبعه الشاعريّ، لايُنكر العالم ولاينأى بنفسه عن الناس: إنه يفخر ويعتز بتصفيق الجمهور له. فهو يدرك بعمق، أنه ليس إلاّ عبارة عن حلقة بسيطة لاتكاد تُلحظ في سلسلة الإنسانية، التي

twitter @baghdad_library

لاتنتهي، إنه يعرف أيضاً كل شيء، مثلما أعرف أنا: فهو يعرف العذابات والآلام الإنسانية، وسمعنا كيف روى لنا قصة الحياة كلها بالألحان: المسرّات، الأحزان، سعادة الروح وأشجانها. كل هذا واضح له كلّ الوضوح. كم أصبحتُ اليوم فجأة، تافهاً، عَدَماً أمام نفسي، بحزني وعذاباتي! . . . أيقظ في نفسي وعياً مريراً بأني أبيٌّ وعاجز. . . آه، لماذا دعوتني لحضور هذه الحفلة؟ وداعاً، دعيني وشأني.

– وماهو ذنبي ياألكسندر؟ هل يُعقل أن أكون قد استطعتُ أنْ أوقظ في نفسك الإحساس المرير بذاتك؟.

– هذه هي المصيبة! وجهك الملائكي الطّيب ياخالة، وكلامك الإنساني اللطيف، مصافحتك الوديّة – كلّ هذا يربكني ويؤثّر فيّ كثيراً: أحسّ بالرغبة في البكاء وبالعيش من جديد، وبالمعاناة. . . لكن لماذا؟

– كيف لماذا؟ ابقَ معنا دائماً. إذا كنتَ تعتبرني جديرة بصداقتك ولو قليلاً، فهذا يعني، أنك ستجد العزاء في إنسانةٍ أخرى أيضاً، فلستُ أنا الوحيدة هكذا. . . سيقدّرك الآخرون.

– أجل! أتعتقدين أنني سأجد العزاء دائماً في هذا؟ أتعتقدين أنني سأثق بلحظة الحنان العابرة هذه؟ أنت حقاً امرأة بالمعنى الأصيل والنبيل للكلمة. خُلقتِ لتجلبي المسرّة والسعادة للرجل. هل يمكن أن أعلّق الأمل على هذه السعادة؟ هل يمكن أن أضْمَنَ أنها وطيدة ثابتة، وأن القدر لن يقلب هذه الحياة السعيدة، اليوم أو غداً، رأساً على عقب – تلك هي المسألة! هل يمكن الوثوق بشيء ما، أو بأحدٍ ما، وحتى بنفسي؟ أليس من الأفضل أن أعيش بلا آمال أو اضطرابات، فلا أتوقّع شيئاً ولا أبحث عن مسرّات، أي دون أن أبكي على فقدان أو خسارة شيء؟

– لن تستطيع الهرب من مصيرك ياألكسندر: سيطاردك هناك أيضاً، حيث تعيش الآن. . .

- أجل، هذا صحيح؛ لكنني فقط، أتسلّى هناك مع مصيري، أكثر ممّا يتسلّى معي: فأنا أراقب كيف تتملّص السمكة من الصنّارة عندما أمدّ إليها يدي، وكيف يهطل المطر عندما تتملكني الرغبة بالذهاب الى الضواحي، وكيف يصبح الجوّ رائعاً عندما لا تتملكني الرغبة بالذهاب الى الصيد... كم هذا مضحك...

لم يعد في حوزة ليزابيتا ألكسندروڤنا ردود ولا اعتراضات.

- ستتزوّج... وستحبّ... - قالت هي بلهجة غير حازمة.

- أتزوّج! هذا ما ينقصني! أتظنّين أنّي سأستأمِنُ امرأة على سَعادتي، حتى لو أحببت؟ هذا مالا يمكن حدوثه مطلقاً. وهل تحسبين أني أتعهّد بأن أجعل المرأة سعيدة؟ كلاّ، فأنا أعلم، أن كلاً منّا يخدع الآخر، وأننا مخدوعان معاً. عمي بطرس إيڤانيتش والتجربة علّماني...

- بطرس إيڤانيتش! أجل، إنه مخطىء كثيراً - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا، ثم تنهدّت. - لكنك كنتَ تملك الحق بعدم الإصغاء إليه... وأعتقد أنك لو فعلت ذلك، لأصبحت سعيداً في الزواج...

- أجل، في القرية طبعاً، أما الآن... كلا ياخالة، الزواج ليس لي. لا أستطيع الآن أن أتصنّع وأتظاهر عندما أكفّ عن الحب، ولن أكون سعيداً عندئذ؛ لا أستطيع أن أغمض عيني أيضاً عندما تتكلف زوجتي. سيمكر كلٌّ منا بالآخر، كما تفعلان الآن، أنت وعمي...

- نحن؟ - سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا بدهشة وهلع.

- أجل، أنتما! هل أنت سعيدة الآن كما كنتِ تحلمين في وقتٍ من الأوقات؟

- ليس كما كنتُ أحلم... لكنني سعيدة بصورةٍ تختلف عمّا كنت أحلم به، ربّما بصورة أكثر عقلانية -أليس الأمر سيّان؟- أجابت ليزابيتا ألكسندروڤنا بارتباك، - وأنت أيضاً. -بصورةٍ أكثر عقلانية! آه ياخالة، ليتك لم تقولي هذا:

twitter @baghdad_library

إنك تكرّرين رأي عمّي! أعرف هذه السعادة، التي يؤطرها وفق أسلوبه الخاص: السعادة العقلانية، - لكنْ، أية سعادة هذه؟ وفق مفهومه هذا، لايعرف عمّي إلا السعادة فقط، أما التعاسة، فلا وجود لها عنده. الله معه! كلا! لقد تعبت وسئمت الحياة.

صمت الإثنان. كان ألكسندر ينظر الى قبعته، أما زوجة عمّه فكانت تفكر بوسيلة تمكنها من استبقائه أيضاً.

- والموهبة! قالت فجأة بحيويّة.

- آه! تريدين أن تسخري منّي ياخالة! لقد نسيت المثل الروسي القائل: المريض لايُضرب. ليست لديّ موهبة، أقول هذا جازماً، يوجد لديّ إحساس وعاطفة، وكانت رأسي حامية: كنتُ أحسب الأحلام إبداعاً، وكنت أبدع. منذ أمد غير بعيد، عثرتُ على أحد ذنوبي القديمة، وقرأته - فصرتُ أسخر من نفسي. كان عمّي محقاً عندما أجبرني على حرق كل ماكتبته. آه، ليتني أستطيع إرجاع الماضي! ماكنتُ لأتصرف هكذا.

- لاتدع آمالك تخيب حتى النهاية! - قالت هي - كلّ واحدٍ منا يعاني من عبء ثقيل - من يحمل هذا العبء؟ - سأل بطرس إيڤانيتش وهو يدخل الغرفة - مرحباً ألكسندر! أنت الذي تحمله؟

كان بطرس إيڤانيتش يسير مقوّس الظهر، وهو لايكاد يُحرك ساقيه.

- لكنْ، ليس كما تظنّ أنت، - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا، - أتحدّث عن العبء الثقيل الملقى على كاهل ألكسندر . . .

- وماذا يحمل أيضاً؟ - سأل بطرس إيڤانيتش، وهو يجلس على الكرسي بحذرٍ شديد. - آه، ما أشدّ الألم! ماهذه العقوبة!

ساعدته ليزابيتا ألكسندروڤنا على الجلوس، ووضعت خلف ظهره وسادة، وتحت قدميه مقعداً خشبياً صغيراً.

- مابك ياعمّاه؟ - سأل ألكسندر.

- أحمل، على كاهلي عبئاً ثقيلاً كما ترى! آه ياحقوي! آه ياإلهي!

- الجلوس الطويل يؤلمك كثيراً: أنت تعرف المناخ هنا، - قالت ليزابيتا ألكسندروفْنا، - أمر الطبيب بأن تتمشى قدر المستطاع، لا أن تجلس: في الصباح تكتب، وفي المساء تلعب الورق.

- وماذا أفعل؟ هل أتسكّع في الشوارع فاغراً فمي. وأضيّع الوقت عبثاً؟

- لكنك تتألم.

هذا أمر لامناص منه، إذا أراد المرء القيام بعمله. منْ لايؤلمه حقوه؟ هذا يُمثّل تقريباً علامة امتياز لكلّ إنسان مُجدّ دؤوب... ماذا تفعل ياألكسندر؟

- ماكنتُ أفعله سابقاً.

- حقوك لايؤلمك. هذا أمر غريب حقّاً!

-لماذا تستغرب: ألا تتحمّل الذنب جزئياً، لأنه صار هكذا... - قالت ليزابيتا ألكسندروفْنا.

- أنا؟ كم يعجبني كلامك هذ! وهل أنا الذي علّمته ألا يفعل شيئاً!

- أجل ياعْماه، لا داعي للاستغراب، - قال ألكسندر، - لقد ساهمت في انضاج الظروف كثيراً، كي تصنع منّي ما أنا عليه الآن. لكنيّ لا ألومك ولا أضع الذنب عليك. أنا المذنب لأني لم أستطع الإستفادة من دروسك كما ينبغي. سبب ذلك، هو أنني لم أكن مْهيأً لاستيعابها. ربما تكون أنت مذنباً، لأنك فهمتَ طبعي من المرّة الأولى، ورغم ذلك، كنتَ تريد أن تغيّره. كان ينبغي عليك بوصفك إنساناً خبيراً مُجرباً، أن ترى، أنّ هذا مستحيل. لقد أجّجْت فيّ صراعاً بين نظرتين مختلفتين الى الحياة، ولم تستطع أن تُسوي وتُوفق بينهما. ماذا كانت النتيجة؟ تحوّل كلّ شيء في نفسي الى شكّ وفوضى.

twitter @baghdad_library

- آه، ياحقوي! - كان بطرس إيڤانيتش يئنّ - فوضى! كنتُ أريد أن أصنع من هذه الفوضى شيئاً ما.

- وماذا فعلت؟ صوَّرْتَ لي الحياة بعريها الصارخ المشين، وفي أيّ مرحلة من العمر: في مرحلة كان ينبغي عليّ أن أدرك فيها الجانب المشرق للحياة فقط.

- هذا يعني، أنني سعيتُ لأن أصوّر لك الحياة كما هي، كي لاأدخل في رأسك أوهاماً لاوجود لها. كنتُ أدرك جيداً كيف أتيت من القرية، وأنت لاتزال في مقتبل العمر: كان ينبغي أن أحذّرك وأقول لك، إنه يستحيل ان تبقى هنا على هذه الصورة. لقد حَذّرْتك. وأعتقد أنني قد جنّبْتكَ ارتكاب أخطاء وحماقات كثيرة: لولاي، لكنتَ قد ارتكبت منها أكثر بكثير ممّا فعلت!

-ربما لكنّك غيّبْتَ عنّي أمراً واحداً ياعمّاه: السعادة. نسيتَ أنّ الإنسان يسعد بأحلامه وآماله وأخطائه. الواقع لايسعد...

- ياللجهل! جلَبْتَ هذه الفكرة مباشرة من أصقاع آسيا. لقد كفّ الناس منذ زمن بعيد في أوروبا عن تصديق هذا. الأحلام، الألاعيب والخداع - كلمات تصلح للنساء والأطفال. أما الرجل فينبغي أن يعرف الحقيقة كما هي. المهمّ هنا، هو أنني لم أخدعك.

- قل ماشئت ياعمّاه. فلن تثنيني عن الإعتقاد بأنّ السعادة حيكَتْ من التخيّلات والآمال والثقة بالناس وبالنفس ومن الحبّ والصداقة... أما أنت فكنتَ تُردّد لي باستمرار، أنّ الحبّ - سخافة وإحساس فارغ، وأنه يسهل، لا بل ينبغي العيش بدونه، وأنّ الحبّ المتوقّد - لايُعتبر مزيّةً يتفوق بها الإنسان على الحيوان...

- لكنْ، تَذَكّرْ كيف كنتَ تريد أن تُحبّ: كنت تؤلف أشعاراً رديئة وتتكلّم بلغة غريبة، مما جَعَلَ فاتنتك تلك تعافك وتسأم منك كثيراً...! هل هكذا تُجذب المرأة؟

- كيف إذاً؟ - سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا زوجها بجفاء.

-آه، كم يؤلمني حقوي! - صار بطرس إيفانيتش يئنّ.

- صرت تردّد بعد ذلك بإلحاح، - تابع ألكسندر، - أن لاوجود للتعلّق العاطفي الشديد، وأنّ مايوجد هو التعود فقط . . .

- نظرتْ ليزابيتا ألكسندروڤنا بصمتٍ وإمعان إلى زوجها.

- هذا يعني، أنني كنت أتحدث إليك من أجل أن . . . من أجل أن . . . آه، آه ياحقوي!

- كنتَ تقول هذا كله، - تابع ألكسندر، - لفتى في العشرين من عمره، لفتى يعتبر الحبّ كلّ شيء في حياته، لفتى يتمحور الواقع والهدف وكل شيء بالنسبة له حول هذا الإحساس الرائع، به يحيا، وبه يموت.

- كما لو أنك ولدت منذ مائتي سنة! - قال بطرس إيفانيتش. - كان ينبغي أن تعيش في عهد القيصر غوروخ.

- كنت تشرح لي، - قال ألكسندر، - نظرية الحبّ والخيانة والبرود . . . - علام؟

فيما مضى، كنتُ أعرف هذا كلّه قبل أن أبدأ الحبّ، أما بعد أن أحببت، فصرتُ أحلل الحبّ، مثلما يُشرّح الجسد تلميذٌ تحت إشراف بروفيسور، فيرى عوضاً من الجمال، العضلات والأعصاب فقط . . .

- رغم ذلك، لم يمنعك هذا، كما أذكر، من أن تفقد صوابك في حبّ تلك . . . ما اسمها؟ . . . داشينكا؟

- لكنك، لم تمنحني الفرصة الكافية ليخيب أملي: كنتُ سأجد في خيانة نادينكا مناسبة بائسة تعيسة، كنتُ سأستفيد منها في تجربة أخرى، لكنكَ جئتني بنظريتك تلك، لتُثبتَ وتؤكد لي، أنّ هذا قانون عام - الأمر الذي جعلني أفقد الأمل والثقة بالسعادة والناس، فهَرِمْتُ وأنا في الخامسة والعشرين من العمر. كنتَ ترفض الصداقة وتُسمّيها تعوّداً؛ كنتَ تُسمي نفسك وأنت تهزأ على الأرجح،

twitter @baghdad_library

صديقي المفضّل، لكنك كنتَ تقول هذا مباشرة، بعد أن تكون قد أكدت لي انتفاء الصداقة.

كان بطرس إيڤانيتش يسمع هذا كله، وهو يُمَرِّر إحدى يديه على ظهره. كان يعترض بتهاون، كما لو أنه يستطيع بكلمةٍ واحدة أن يدحض كلّ الإتهامات الموجهّة إليه.

-والصداقة كنت تفهمها جيداً، - قال بطرس إيڤانيتش، - كنت تريد من صديقك أن يتصرّف، كما تصرّف في غابر الأزمان- كما تقول الروايات - ذانك الأحمقان، ماسمهما؟ عندما أبقى أحدهُما الآخر رهينة، كي يُسْمَحَ له هو بالسفر لمقابلة... لو تَصَرّف الجميع بمثل هذه الطريقة، لَتَحَوّلَ العالم كلّه ببساطة إلى بيت للمجانين!

- كنتُ أحبّ الناس، - تابع ألكسندر، - وأثق بمزاياهم، وأجدُ فيهم إخوةً أضمّهم إلى صدري بحرارة.

- أجل، هذا ضروري جداً! أذكر عناقك، - قاطع بطرس إيڤانيتش، - كنتَ تُضايقني آنئذٍ بعناقك ذاك.

- أما أنتَ، فكنتَ تُظهر لي، أنّ هذا سخف. عوضاً من أن تُوجّه قلبي للتعلق بالناس وحبهم. فإنك لم تعلّمني التعاطف مع أحد، بل علّمْتني أن أشرّح وأتفحّص وأحذرَ الناس: تفحّصتُهم وكففتُ عن حبّهم!

-من كان يعرفك هكذا! أنت سريع جداً: كنتُ أظنّ أنك ستكون بسبب هذا، متسامحاً معهم فقط. أنا أعرف الناس جيّداً، لكنني لم أكرههم...

- هل تحبّ الناس؟ -سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

- تعودّْتُ عليهم.

- تعوَّدْتَ! - كرّرت هي برتابة.

- كان سيتعوّد هو الآخر أيضاً، - قال بطرس إيڤانيتش، - لقد أفسَدَتْهُ القرية كثيراً، أفسَدَتْهُ خالته والأزهار الصفراء، الأمر الذي أعاق تطوّرَه.

-بعد ذلك، وثقتُ بنفسي، -بدأ ألكسندر من جديد، - فَأظْهرْتَ لي، أنني أسوأ من الآخرين -فكرهتُ نفسي أيضاً.

- لو أنك تعاملت مع الأمور بكثير من برود الأعصاب، لوجدت أنك لست أسوأ، ولا أحسن من الآخرين، وهو ماكنتُ أريده منك، ولما كرهت عندئذ، الآخرين ولا نفسك، ولا ستطعت أن تتحمل بعدم اكتراث، تفاهات الناس، ولأصبحت أكثر فهماً لهم. أنا أعرف قيمة نفسي، وأرى ماهو سيء، وأعترف بأنني أحبّ نفسي كثيراً.

- ها! تقول هنا أحبّ، ولم تقل أتعوّد! لاحظت ليزابيتا ألكسندروڤنا ببرود.

- آه، حقوي! - صار بطرس إيڤانيتش يئنّ.

- أخيراً، استطعت بضربة واحدة، دون سابق إنذار أو تحذير، وبلا شفقة، أن تُحطّم أفضل حلم لديّ: كنتُ أعتقد أنني أملك شرارة موهبة شاعرية، فأثبتّ لي بقسوة، أنني لم أخلق للأدب والفن. لقد استأصلَتَ بقسوةٍ، وألم، هذه البذرة من قلبي واقترحْت عليّ العمل، الذي كنتُ أكرهه وأملُّ منه. لولاك، لكنتُ قد كتبت.

- (مقاطعاً) ولكنت معروفاً في أوساط الناس ككاتبٍ فاشلٍ، غير موهوب، - قال بطرس إيڤانيتش.

- وماذا يهمني أمر الناس؟ كنتُ سأهتمّ بنفسي وأرجعُ إخفاقاتي الى الحقد والحسد والعداوة، وكنتُ سأقلع شيئاً فشيئاً عن فكرة الكتابة، وأقتنع بعدم جدواها وأتحوّل من تلقاء نفسي لفعل شيء آخر. إنه لأمر طبيعي أن تخور عزيمتي، بعد أن عرفتُ هذا كله، فلماذا تستغرب إذاً؟

- ماذا تقول؟ - سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

twitter @baghdad_library

- ليست لديّ رغبة في الكلام: كيف يمكنني الردّ على هذا الكلام الفارغ؟ أنا المذنب، لأنك كنتَ تتصورّ وأنت في طريقك الى بطرسبورغ، أنّ كلّ الأزهار صفراء هنا، وأنّ الحبّ والصداقة يعمران القلوب هنا، وأنّ مايفعله الناس في العاصمة، هو كتابة الشعر والاستمتاع بسماعه وكتابة النثر أحياناً، من أجل التنوعْ لا أكثر. كنتُ أثبتُ لك، أنّ من واجب الإنسان بوجه عام، وبخاصة هنا؛ أن يعمل ويعمل كثيراً، حتى لدرجة الألم في حَقّوه!... لاوجود للأزهار الصفراء هنا؛ توجد رتب وألقاب وأموال، وهذا أفضل بكثير! هذا ماكنتُ أريد أن أثبته لك! لم أيأس من أنّك ستدرك أخيراً معنى الحياة، وخاصة كما يفهمها الناس الآن. أدرَكْتَ هذا، بعد أن رأيت، أنّ الأزهار والأشعار قليلة فيها، وتصورّت بعدها، أنّ الحياة - خطيئة كبرى، وأنك تلمس هذا الآن، لذا فإنك تملك الحق بأن تضجر وتتألّم. الآخرون لايلحظون هذا، لذا فإنهم يعيشون وينعمون. ممَّ أنت غاضب مستاء؟ ما الذي ينقصك؟ شخصٌ آخر مكانك، كان لابدّ أن يُبارك ويشكر القدر. أنتَ لم تذق طعم العوز والحاجة والمرض، ولا طعم أيّ مصيبة أخرى حقيقية. ما الشيء الذي تفقده؟ الحب؟ ألا يكفيك: لقد أحببت مرّتين وكنتَ محبوباً. تعرّضْتَ للخيانة، لكنك أدّيت واجبك تماماً. لديك أصدقاء جيّدون، غير مزيفين، ولايُصادف أمثالهم عند الآخرين إلاّ نادراً.

صحيحٌ أنهم لايرمون بأنفسهم في الماء والنار من أجلك، لكنهم ليسوا مُخادعين، ولا من هواة العناق أيضاً، وهذه سِمَة كريهة لاتُحتمل، افهمْ أخيراً! تستطيع أن تحصل منهم أيضاً على النصيحة والمشورة والمساعدة، وحتى على المال، بصورةٍ دائمة. أليس هكذا يكون الأصدقاء الحقيقيون؟ ستتزوّج في وقتٍ من الأوقات. المستقبل أمامك: تستطيع ان تعمل وتُؤمّن ثروة تنعم بها مع زوجتك. افعلْ كلّ مايفعله الآخرون، - لن يتخلى القدر عنك: ستحصل على نصيبك. إنه لأمر يبعث على السخرية أن تتخيّل نفسك إنساناً عظيماً متميّزاً، في الوقت الذي لم تُخلق فيه هكذا! لماذا تحزن إذاً!

- لا أضع اللوم عليك ياعمّاه! إني على العكس من ذلك، أعرف وأقدّر نواياك الطيّبة نحوي، وأشكرك من الأعماق على ماأبديته نحوي من حرصٍ ورعاية، ماذا أستطيع أن أفعل إذا كانت النوايا لم تتحقق؟ لاتضع اللوم عليّ أيضاً. لم يفهم كلّ منّا الآخر -تلك هي مصيبتنا! مايعجبك ويرضيك أنت، والآخر، والثالث - لايعجبني.

- مايعجبني ويعجب الآخر والثالث، - ليست هي المسألة ياعزيزي، فهل أنا الوحيد الذي يفكر ويعمل كما علّمتك أن تفكر وتعمل؟ انظرْ من حولك وراقب الناس جيّداً - راقب الجمهور، كما تحبّ أن تسمي الناس، - وستلاحظ أنّ أسلوب الحياة هنا، مختلف عمّا هو في القرية: فأسلوب الحياة هناك لايصلح هنا إطلاقاً. راقب الجمهور المتعلم العصري والنشيط هنا: ما الذي يريده وكيف يفكر وماذا يبغي؟ سترى نفس ماعلّمتك إياه، وماكنتُ أطالبك به- لستُ أنا الذي ابتكرتُ هذا كلّه.

- مَنِ إذاً؟ - سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

- العصر.

- هل يجب علينا أن نقتفي ونتقيّد حتماً بكلّ مايبتكره عصرك؟ - سألت هي. - هل كلّ مايبتكره مقدّس وصحيح؟

- كله مقدس! - قال بطرس إيڤانيتش.

- كيف! هل من الصواب أن نفكر أكثر مما نحس؟ هل من الصواب أن نَقْسرَ قلوبنا ونردع مشاعرنا وأحاسيسنا؟ هل من الصواب أن ننصرف عن المشاعر الصادقة وندعو الى عدم تصديقها؟

- أجل، قال بطرس إيفانيتش.

- هل من الصواب أنْ نتصرّف في كلّ مكانٍ ومناسبة وفق أسلوب مرسوم محدد، ونتعامل مع الناس بأقلّ قدرٍ من الثقة، وننظر إليهم بارتياب ونعيش منغلقين على أنفسنا؟

twitter @baghdad_library

- أجل .

- هل من الصواب ان نقول أيضاً، إنّ الحبّ لايمثّل شيئاً رئيسياً في الحياة، وأنّ من الأفضل أن يحبّ الإنسان قضيته الشخصية أكثر من الحبيب وأنْ ندحض الإخلاص والوفاء، ونثق بأنّ الحبّ لابدّ أن ينتهي لامحالة الى البرود والخيانة أو التعودّ؟ هل من العدل أن نقول، إن الصداقة تعودّ؟ هل هذا كله صحيح؟

-كان هذا صحيحاً دائماً، - أجاب بطرس إيڤانيتش، - فقط، الناس فيما مضى، لم يكونوا يريدون تصديق هذا، لكنّ الأمر الآن، أصبح حقيقة عامة معروفة للجميع .

- هل صحيح أيضاً أنْ نتعامل مع الأشياء كلها بمنظور الحساب والإحصاء وإعمال الفكر والتمحيص، بحيث لانسمح لأنفسنا بأن نحلم ونتخيّل ونُحبّ، حتى ولو خداعاً، إذا كان هذا الحبّ يجعلنا سعداء؟

- صحيح، لأنّ كلّ ماهو عقلاني، - لابدّ أن يكون مقدّساً، - قال بطرس إيڤانيتش .

- هل صحيح أيضاً، أنّ على الإنسان أن يتعامل عقلياً فقط مع المقرّبين من قلبه، مع الزوجة مثلاً؟

- آخ، لم أحسّ يوماً بمثل هذا الألم في حقوَي، آخ! - قال بطرس إيفانيتش، وهو يتلوّى على كرسيّه .

- ها! حقوك! ياللعصر الرائع! ليس لديك ماتقوله .

- حسناً؛ الأهواء والأمزجة لاتصنع شيئاً ياعزيزتي . في كل مكان، يجد المرء العقل والسبب والتجربة والتدرّج، وبالتالي، النجاح؛ كل الناس ينشدون الكمال والخير .

- ربما تكون كلماتك صحيحة ياعمّاه، - قال ألكسندر، - لكنّها لاتعزّيني . أصبحتُ أعرف الأشياء كلها وفق نظريتك، وأنظر الى الأمور بمنظارك؛ فأنا تلميذ

مدرستك، لكنني أشعر بالملل والعذاب والتعاسة، حياتي جحيم لايطاق. ماسبب هذا كله؟

- عدم التعوّد على النظام الجديد. لست وحدك هكذا: يوجد أيضاً أناس متخلّفون غيرك، هؤلاء جميعاً معذبون. إنهم بؤساء حقاً، لكنْ، ماالعمل؟ يستحيل من أجل حفنة من الناس أن يتخلف المرء عن الجمهور كلّه. يوجد لديّ تبرير واحدٌ رئيسي لكل ما اتهمتني به الآن، قال بطرس إيفانيتش متفكّراً، ألا تذكر، أني قد نصحتك بالعودة بعد خمس دقائق من حديثي معك فور وصولك الى هنا؟ لكنك، لم تُطعني. لماذا تهاجمني الآن إذاً؟ لقد تنبّأت وقلتُ لك، بأنك لن تتعود على نظام الحياة السائد هنا، لكنّك كنت تُعلّق الأمل على رعايتي ونصائحي، وحَدّثتك حينئذٍ بأسلوب رفيع عن النجاحات المعاصرة للعقل وعن مطامح البشرية والتوجه العملي للعصر - وكانت النتيجة هكذا! كان يستحيل عليّ أن أظلّ معكَ من الصباح إلى المساء: ماحاجتي إلى هذا كلّه؟ لم أستطع أن أغلق فمك بمنديل ليلاً، كي لايدخل الذباب فيه، ولا أن أرسم إشارة الصليب فوقك وأنت نائم. عرضت لك واقع الأمور هنا، لأنك أنت الذي طلبتَ هذا منّي، لكنني لم أكن مسؤولاً عما سينتج عن هذا كله. لست طفلاً ولا غبياً: يمكنك ان تحاكم الأمور بنفسك. لكنْ، عوضاً من أن تباشر العمل وتهتمّ بأمورك ومستقبلك، رحتَ تئن تارةً لخيانة فتاة، وتبكي تارةً أخرى على فراق صديق وتتوجّع من الفراغ الروحيّ ومن فيض المشاعر ووفرة الأحساسيس. أيّ حياةٍ هذه؟ هذا تعذيب! انظر إلى الشبّان من حولك، يالهم من حاذقين مهرة! تراهم يتفجّرون طاقة وحيويّة، ويعملون بجدّ ونشاط ويستخدمون عقولهم وإمكاناتهم الذهنية بالشكل الصحيح المناسب، ويتعاملون بمهارةٍ وسهولة مع هذا اللغو الفارغ كله، الذي نسميه بلغتنا القديمة، انفعالات عاطفية شديدة وعذابات، إضافة لتسميات أخرى لايعرفها إلاّ الشيطان!

twitter @baghdad_library

- كم تُحاكم الأمور ببساطة! - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا. - ألا تُشفق على ألكسندر؟

- كلا. لو كان حقوه يؤلمه، لأشفقتُ عليه: هذا ليس تخيلاً ولا حلماً ولاشعراً، بل مصيبة حقيقية. آخ!.

- ألن تقول لي على الأقل ياعماه، ما العمل الآن؟ كيف سيحلّ عقلك هذه المعضلة؟

- ما العمل؟ سافرْ الى القرية.

- الى القرية! - كرّرت ليزابيتا ألكسندروڤنا. - بطرس إيفانيتش، تقول هذا جاداً؟ ماذا سيفعل هناك؟

- الى القرية! - كرّر ألكسندر، وصار الإثنان ينظران الى بطرس إيڤانيتش.

-أجل، إلى القرية: ستجتمع هناك بأمك وتواسيها. أنت تبحث عن حياة هادئة: كل شيء هنا يثير قلقك واضطرابك؛ لن تعثر على مكانٍ أكثر هدوءاً من قريتك؛ ستحس بالارتياح هناك مع خالتك على ضفاف البحيرة. الأفضل ان تسافر! من يدري؟ ربما تستطيع هناك... آخ!.

مسك ظهره.

بعد أسبوعين، استقال ألكسندر من عمله وجاء ليودع عمّه وليزابيتا ألكسندروڤنا. كان ألكسندر وزوجة عمّه حزينين، صامتين. كانت الدموع في مآقي ليزابيتا ألكسندروڤنا، أما بطرس إيڤانيتش فكان الوحيد، الذي يتكلم.

- لا نجاح ولاحظّ، - قال وهو يهزّ رأسه، - لم يكن سفرك الى هنا ضرورياً. لقد فضَحتَ آل أدوييف!

-كفى يابطرس إيڤانيتش، - قال ليزابيتا ألكسندروڤنا، - سئمت من سماع حديثك عن النجاح.

- كفى ياعزيزتي، إنه لم يفعل شيئاً طوال ثماني سنوات أمضاها هنا!

- وداعاً ياعمّاه، -قال ألكسندر، - أشكركَ على كلّ شيء، أشكرك على كلّ شيء.

- لاداعي للشكر! وداعاً ياألكسندر! ألا تحتاج نقوداً أثناء الطريق؟

- كلاّ، شكراً، لديّ مايكفيني.

- ماهذا، إنه لايقبل أن يأخذ أبداً! هذا يثير حنقي. بحفظ الله، بحفظ الله.

- ألا تشعر بالأسى لفراقك له؟ - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

- غم- غم! - غمغم بطرس إيفانيتش. - لقد تعوّدت عليه. تذكّر ياألكسندر، أنّ لديك عمّاً وصديقاً - هل تسمعني؟ إذا احتجت الى خدمة أو عمل، أو إلى معدن حقير، فعليك ان تقصدني بلا أدنى تردّد: ستجد عندي دائماً كلّ ماتحتاج إليه.

- وإذا احتجتَ لمشاركة وجدانيّة، - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا، - ولعزاء في مصيبة، أو لصداقة متينة يُعوّل عليها...

- ولمشاعر وانفعالات صادقة، - أضاف بطرس إيڤانيتش.

- فتَذَكّر، - تابعت ليزابيتا ألكسندروڤنا، - أنّ لديك هنا خالة وصديقة.

- لكنّ هذا الأمر، لن يشغله في القرية ياعزيزتي: فهناك الأزهار والحبّ والمشاعر الصادقة، وحتى الخالة.

كان ألكسندر متأثّراً. لم يستطع ان يقول كلمة واحدة. عندما حانت لحظة الوداع مع عمّه، فتح ألكسندر ذراعيه، لكن، ليس بمثل تلك الحيويّة، التي كان يبديها منذ ثماني سنوات مضتْ. لم يضمّه بطرس إيڤانيتش الى صدره. بل أخذ كلتا يديه وصار يشدّ عليهما بقوّةٍ أكثر ممّا فعل منذ ثماني سنوات مضتْ. طفرت الدموع من عيني ليزابيتا ألكسندروڤنا.

twitter @baghdad_library

-الحمد لله، لقد زال عبءٌ ثقيل عن كاهلي! - قال بطرس إيڤانيتش عندما سافر ألكسندر - أحسّ وكأنّ الألم قد خفّ في حقوي!

- ماذا فعل لك؟ قالت زوجته عبر الدموع.

- ماذا؟ سبّب لي عذاباً أسوأ مما قاسيت مع الصناعيين: فإذا تحامقَ هؤلاء، فإني أستطيع أن أقطع علاقتي بهم؛ لكن، ماذا أستطيع ان أفعل معه؟

ظلّت زوجة عمّه تبكي طوال اليوم، وعندما طلب بطرس إيڤانيتش الغداء، قيل له أنه لم يُحَضَّرْ، وأنّ السيدة أغلقت الباب على نفسها واعتكفت في حجرتها ولم تستقبل الطاهي.

- كلّ هذا بسبب ألكسندر! -قال بطرس إيڤانيتش. - كم سبّب لي من عذاب! غمغم وغمغم، ثم ذهب لتناول الغداء في النادي الإنكليزي.

كانت عربة جياد المسافرين تغادر المدينة ببطء منذ الصباح الباكر، مُقلّةً ألكسندر فيدرويتش ويفسيي.

أطلّ ألكسندر برأسه من نافذة العربة، محاولاً بشتى الوسائل اتخاذ هيئةٍ حزينة، وانحسم الأمر أخيراً بمونولوج ذهنيّ.

كانت العربة تمرّ أمام محلاّت الحلاقين وخيّاطات السيّدات وعيادات أطباء الأسنان وقصور النبلا. «وداعاً، -قال ألكسندر وهو يمسك شعره الخفيف ويهزّ رأسه، - وداعاً يامدينة الشَّعر المزيّف والأسنان الإصطناعية والقبعات المستديرة، وداعاً يامدينة المجاملات والمشاعر المصطنعة والجلبة والضوضاء المزعجة الخالية من رونق الحياة! وداعاً أيها المدفن الرائع لخلجات الروح العميقة القويّة، الرقيقة والدافئة. أمضيت هنا ثماني سنوات وجهاً لوجه، في خضم الحياة العصريّة وهرمتُ في الخامسة والعشرين، وكان هناك ظَرْفٌ كنتُ. . .

وداعاً، وداعاً أيتها المدينة

التي تعذّبْتُ وأحببتُ فيها

والتي دفنتُ فيها قلبي

أبسط لك ذراعيَّ أيتها الحقول الفسيحة الشاسعة! أبسط لك ذراعيَّ يامروج وطني شديدة الخَضرة وسهوله غزيرة الخيرات: استقبليني بأحضانك، لتنتعش روحي وتحيا من جديد!

هنا قرأ قصيدة بوشكين «الرسّام الهمجّي ذو الريشة النائمة» وغيرها، ثم مسح عينيه النديتين وتوارى داخل العربة.

twitter @baghdad_library

VI

كان الصباح رائعاً ، اما سطح البحيرة المعروفة للقارىء في قرية غراتشاخ ، فكانت تُغَضّنُهُ تموّجاتٌ خفيفة لاتكاد تلحظ . كانت العينان تغمضان عفواً من بريق أشعة الشمس الباهر ، الذي كان يلمع في الماء على شكل شرارات زمرّدية تارةً ، والماسيّة تارة أخرى . أشجار البتولا الباكية ، كانت تغسل أغصانها في البحيرة ، وفي مكانٍ ما على الضفّة كان ينمو نبات السُّعْد ، الذي كانت تتوارى فيه أزهار صفراء كانت تستقرّ على أوراق عريضة عائمة على سطح الماء . كانت غيومٌ رقيقة تُغير على الشمس أحياناً ، فتبدو وكأنها تتحوّل عن غراتشاخ فجأة ، فتظلم عندئذ فوراً ، البحيرة والقرية والغابة ، فيما يظلّ الأفق البعيد وحده متلألئاً بسطوع . تنقشع الغيمة - فتتلألأ البحيرة من جديد وتلمع الحقول كالذهب .

منذ الخامسة صباحاً ، كانت آنّا باڤلوڤنا تجلس على الشرفة . ما السبب الذي دعاها للنهوض والخروج : هل هو شروق الشمس ، أم النسيم الطريّ العليل ، أم تغريد قبرة؟ كلاّ ، إنّها لاتُحوّل نظرها عن الطريق ، التي تتلوّى عبر الأحراج . جاءت أغرافينا تطلب المفاتيح . لم تنظر آنا باڤلوڤنا إليها وأعطتها المفاتيح ، دون أن تُحوّل نظرها عن الطريق ، حتى أنها لم تسأل الطاهي عن سبب مجيئه - وجّهت إليه أيضاً عدداً من الأوامر ، دون أن تنظر إليه . في اليوم التالي ، جُهّزت طاولة لعشرة أشخاص .

بقيت آنّا باڤلوڤنا وحيدة من جديد . التمعتْ عيناها فجأة . انتقلت قواها الروحيّة والجسدية فجأة إلى بصرها : على الطريق كان يلوح شيءٌ ما أسود اللون . شخصٌ ما قادم ، لكنْ ، رويداً وببطء . آه! هذه عربة مُحمّلة تنزل من الجبل . تجهّمت آنّا باڤلوڤنا .

- تبّاً للشيطان! - غمغمت هي، -كل العربات، التي تمرّ في هذه المنطقة، لابّد أن تعبر من هنا. من جديد، تهاوتْ على الكرسي بتبرّم، وراحت تثبّت نظرها ثانية على الأحراج بترقّب الخائف المضطرب، دون أن تلاحظ شيئاً من حولها. لكنّ أشياء كثيرة حولها كانت جديرة بالملاحظة: فقد بدأت الظواهر تتغير بشكل محلوظ. فنسيم الظهيرة، الذي سَخّنَتْهُ أشعة الشمس الحامية، صار ثقيلاً خانقاً. ها هي الشمس تحتجب. ساد الظلام الطبيعة كلها. اكتست الغابة والقرى البعيدة والمروج - اكتستْ كلها بلونٍ مشؤوم ينمّ عن عدم اكتراث.

أفاقت آنّا باقلوقنا من شرودها ونظرتْ الى الأعلى. ياإلهي! من جهة الغرب، كانت تنداح بقعة سوداء مشوّهة ذات لون نحاسيّ على طرفها، مُتّخذةً هيئة وحش مخيف. كانت الغيمة تندفع بسرعة فوق القرية والغابة باسطةً جناحيها الضخمين، لتُغطّي الجهات كلّها. صار كلّ مافي الطبيعة يبعث على الملل والسأم. البقرات تُنكّس رؤوسها والخيول تهزّ أذيالها وتنفخ خياشيمها وتنخر، ثم تنفض عفُراتها. لم يكن الغبار يتصاعد من تحت حوافرها، لكنه كان يتناثر بتثاقل كالرمل تحت العجلات. كانت السحابة تنتشر بشكل مخيف. بعد ذلك، صار يصل إلى الأسماع هديرٌ بعيدٌ بطيء. كل شيء صار ساكناً، كأنّ أمراً لم يسبق له مثيل، سيحدث. أين اختفت هذه الطيور، التي كانت ترفرف بمرح وتزقزق بسرور تحت أشعة الشمس؟ أين الحشرات، التي كانت تئزّ وتطنّ في العشب بأصواتٍ مختلفة؟ توارتْ كلها وصمتتْ. يبدو أن الأشياء الجامدة كانت تشاركها أيضاً هذا الهاجس المشؤوم. الأشجار توقّفتْ عن الإهتزاز والتمايل، ولم تعد أغصانها تضرب بعضها بعضاً، فقد استقامت، لكنّ رؤوسها فقط كانت تتمايل، أحياناً، وكأنها تنذر بعضها بعضاً، بصوتٍ خافتٍ هامس، بخطرٍ قريب. كانت السحابة قد غطّت الأفق وكونّتْ قبّة رصاصية اللون، كتيمة. صار سكان القرية يهرعون إلى منازلهم فوراً. حلّت لحظة الصمت الشامل المطبق. هاهو ذا الهواء الرطب يهبّ من الغابة كبشيرٍ متقدّم يُرطّب ويُبرّد وجه المسافر ويحفّ أوراق الشجر ويصفق بطريقه بوآبة البيت

twitter @baghdad_library

الريفي ويثير الغبار في الشارع. في أثره، يندفع إعصار قوي يُحرك في طريقه ببطء عمود غبارٍ كثيف. ها هو يقتحم القرية ويُطيّر بضعة ألواح خشبية منخورة من السياج ويجرف العشب ويرفع تنّورة فلاحة تحمل الماء ويكتسح على امتداد الشارع كله، الديكة والدجاجات، نافخاً أذيالها.

انتهت العاصفة. حلّ الهدوء من جديد. كان كلّ شيء يتحرك ويختبىء؛ خروف أحمق فقط، لم يكن مهتماً بشيء، كان يلوك بعدم اكتراث شيئاً ما، وهو يقف وسط الشارع وينظر إلى جهةٍ واحدة فقط، دون أن يحسّ بالقلق العام المسيطر. وهناك ريشة طائرٍ وقشّة تبن كانتا تدوران في الشارع وتحاولان اللحاق بالعاصفة.

سقطت نقطتان أو ثلاث نقطات كبيرة من المطر - ثم برقت الدنيا فجأة. نهض العجوز عن المصطبة وأدخل أحفاده الى البيت بسرعة، أما المرأة العجوز، فقد رسمت علامة الصليب وأغلقت النافذة فوراً.

قصف الرعد، فحجب هديره أصوات الناس وضجيجهم، وانتشر في الهواء بمهابة وجلال. تملّص الحصان الخائف من مربطه وانطلق يعدو مع رباطه في الحقل، وصار الفلاّح يطارده بلا جدوى. كان المطر ينهمر ويجلد الأرض بقوّة وغزارة أكثر فأكثر. ويقرع الأسقف والنوافذ بشدّة لاتوصف. كانت يدٌ بيضاء تمتدّ إلى الشرفة بخف، وتُدخل أصيصاً من الأزهار الرقيقة الجميلة.

ما إنْ بدأ الرعد يقصف، حتى رسمتْ آنّا باڤلوڤنا علامة الصليب وانصرفت عن الشرفة.

- كلا، يبدو أن لا أمل اليوم من الإنتظار، - قالت وهي تتنهّد، - لابد أن يكون قد توقف في مكانٍ ما على الطريق بسبب العاصفة، وسيمضي ليلته هناك.

سُمع فجأة صرير عجلات، لكنْ ليس من جهة الأحراج، بل من جهةٍ أخرى. شخصٌ ما يدخل فناء الدار. توقف قلب أدوييڤا عن الخفقان.

«كيف يمكن أن يأتي من هناك؟ - فكرت هي. - هل يريد أن يأتي سراً؟ كلا، هذا غير ممكن. لايوجد طريق من هذه الناحية».

لم تكن تعرف كيف تفكّر: لكنْ. سرعان مااتّضح كلّ شيء. بعد دقيقة، دخل انطون إيڤانيتش. كان شعره قد أصبح فضياً من الشيب وسمن بصورة ملحوظة، أما وجنتاه فصارتا منتفختين من قلة الحركة وكثرة الأكل. كان يرتدي السترة ذاتها والبنطال الواسع ذاته أيضاً.

- انتظرتُك طويلاً ياأنطون إيڤانيتش، - بدأت آنّا باڤلوڤنا، ظننتُ أنك لن تأتي، فأصبتُ بخيبة أمل.

- إنه لإثم كبير أن تفكّري هكذا! تستطيعين ان تفكري هكذا فقط، عندما يتعلّق الأمر بشخصٍ آخر غيري! لايمكن أن أفضّل أحداً عليك. تأخُّري كان خارجاً عن إرادتي. لم يبق عندي الآن إلاّ فرس واحدة فقط.

-لماذا هكذ! -سألت آنّا باڤلوڤنا بشرود، وهي تتجّه صوب النافذة.

- لاتعرفين ياأماه! منذ التعميد، صارت فرس باڤل ساڤيتش البقعاء تعرج: لعب الشيطان بعقل الحوذيّ ودفعه لأن يضع باب المخزن القديم كعبّارة فوق الترعة... لم يتخلّوا عن لوحٍ خشبيّ جديد، رغم وضعهم الماديّ الجيّد! على الباب، كان يوجد مسمار، أو شيء ما آخر -الشيطان وحده يعلم ماذا كان هناك! عندما داست الفرس عليه، جَفلتْ واندفعتْ جانباً بسرعة وكادتْ ان تكسر رقبتي... ياَلهم من أشقياء! منذ ذلك الوقت، والفرس تعرج... هل يوجد بخلاء على شاكلتهم! لن تصدّقي يا أمّاه مايحدث عندهم في البيت: الحياة في مأوى العجزة أفضل بكثير من حياتهم. كانت آنّا باڤلوڤنا تسمعه، وهي شاردة الذهن، وقد هزّت رأسها قليلاً عندما أنهى كلامه.

- انطون إيفانيتش، لقد استلمتُ رسالةً من ساشينكا! - قالت مقاطعة- كتب انه سيصل إلى هنا في العشرين من الجاري: لم أستطع أن أتمالك نفسي من شدّة الفرح.

twitter @baghdad_library

- ليمنحكَ الله الصحة والعافية ياأنطون إيڤانيتش! أعرف أنك تحبّنا كثيراً.

- وكيف لا أحبكما! لقد حَمَلْتُ ألكسندر فيدورتيش علي يديّ: إنه كإبني تماماً.

-شكراً لك ياأنطون إيڤانيتش، ليجزك الله الثواب! منذ يومين لم أنم تقريباً، ولم أدع الآخرين ينامون: أخشى أن يصل ونحن نيام - كم سيكون هذا مناسباً! ذهبتُ البارحة لليوم الثالث على التوالي، سيراً على الأقدام، حتى الأحراج، وكنت أريد أن أذهب اليوم أيضاً، لكنّ الشيخوخة اللعينة منعتني. الأرق ينهكني ليلاً. اجلسْ ياأنطون إيڤانيتش. لقد تبلّلتُ تماماً، ألا تريد ا ن تحتسي وتفطر شيئاً ما؟ قد نضطرّ لتناول الغداء في وقت متأخّر: سننتظر ضيفنا الغالي.

- لكنني تناولتُ الإفطار.

- أين ومتى لحقت؟

- عند ملتقى الطرق، توقّفتُ عند ماريا كاربوڤنا. اضطررتُ للتوقف هناك من أجل الفرس، وليس من أجلي شخصياً: كان لزاماً عليّ أن أمنحها قسطاً من الراحة. هل من السهل في مثل هذا القيظ قطع اثني عشر فرسخاً؟ كانت مناسبةً تناولتُ فيها طعام الإفطار هناك. حسناً فعلت، لأنني لم أمتثل لرغبتها: حاولت استبقائي عندها، لكنني لم أوافق، وإلاّ لكنتُ اضطررتُ للبقاء هناك يوماً بكامله، بسبب العاصفة.

- كيف حال ماريا كاربوڤنا؟

- بخير والحمد لله! تهديك السلام.

- شكراً جزيلاً. وكيف حال ابنتها صوفيا ميخايلوڤنا مع زوجها؟

-لابأس ياأمّاه، ستضع الطفل السادس قريباً. تتوقّع ان تتمّ ولادتها بعد أسبوعين. رَجَتْني أن أتواجد هناك في ذاك الوقت. الفقر في البيت جليّ واضح، فلماذا هذا العدد الكبير من الأطفال؟

هذا غير صحيح!

- ماذا تقول!

- أقسم لك ياسيّدتي، أنّ ما أقوله صحيح! دعائم البيت وعضائده معوجّة، وأرضيّته تميد تحت الأقدام، والسقف يدلف. لاتتوفّر لديهم الإمكانية لاصلاحه، أما طعامهم فيقتصر على الحساء وأقراص القريشة والمربى ولحم الغنم- هذا كل مايتناولونه! ومع ذلك، يوجّهون لي الدعوة لزيارتهم بإلحاح.

- هه! كانت تطمح للاقتران بابني ساشينكا! يالها من بلهاء! مكانها هناك، حيث هي الآن.

- أنى لها ياأمّاه أن تسمو لبلوغ ذاك الصقر! كم أنتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة، التي سأراه فيها: كم هو وسيم ورائع! آنا باڤلوڤنا، لم أفطن لأن أسألك: ألم يخطب هناك ابنة أميرٍ أو كونت؟ لابّد أنه آتٍ ليطلب مباركتك ويدعوك لحضور العرس، أليس كذلك؟

- أنطون إيفانيتش، ماذا تقول! - قالت آنا باڤلوڤنا وهي تذوب سروراً.

- حقاً!

- آه ياعزيزي، ليمنحك الله العافية... ! أجل! لقد غاب هذا الأمر عن بالي: كنتُ أريد أن أحدثّك ونسيت. كنتُ أقول لنفسي: كيف نسيتُ أنْ أُحدث أنطون إيڤانيتش عن هذا الأمر. كيف تُفَضّل: أن نتناول الإفطار أولاً، أو أن أُحَدثكَ الآن؟

- الأمر سيّان ياأمّاه. يمكنك أن تُحدثيني حتى أثناء الإفطار: لن أفوّت كلمة واحدة مما ستقولين.

- حسناً، -بدأت آنّا باڤلوڤنا بعد أن جُلب الإفطار وجلس أنطون إيفانيتش الى الطاولة - أرى أن...

twitter @baghdad_library

- ألن تتناولي الإفطار معي؟ سأل انطون إيڤانيتش .

- وهل يمكن أن تكون لديّ رغبةٌ بتناول الطعام الآن؟ اللقمة لاتنزل في بلعومي . منذ فترة قريبة ، لم أستطيع أن أكمل شرب فنجان من الشاي . - أرى في الحلم وكأنني جالسة هكذا ، وأمامي أغرافينا واقفة ، وهي تحمل صينية . كأنني أقول لها : «لماذا تحملين صينية فارغة ياأغرافينا؟» - لم تجب ، بل ظلت صامتة ، وهي تثبت نظرها طوال الوقت الى الباب .

«آه ، ياإلهي ! - أفكر في الحلم وأقول لنفسي . - لماذا تُثبّتُ نظرها إلى الباب؟» صرتُ أنظر بدوري أيضاً . . . رأيتُ فجأة ساشينكا ، وهو يدخل حزينا جداً . اقترب منّي وقال كما لو في اليقظة : « وداعاً ياأمّاه ، أنا مسافر إلى مكان بعيد هناك ، - وأشار إلى البحيرة ، - ولن أعود بعد ذلك» . إلى أين ياغالي؟» - سألتُ أنا ، وقلبي يتمزّق ألماً . ظلّ صامتاً ، وهو ينظر إليّ باستغراب وشفقة . «من أين أنت آتٍ ياحبيبي؟» - كأنني أسأل من جديد . أما هو فلذة كبدي ، فقد تنهّد وأشار الى البحيرة . «من هذه الحفرة العميقة في الماء ، - قال بصوتٍ لايكاد يُسمع ، - من عند عفاريت الماء» . ارتعشتُ واستيقظت . كانت الوسادة مبللة بالدموع . لم أستطع أن أثوب الى رشدي في اليقظة أيضاً . جلستُ على السرير أبكي ، ودموعي تسيل بغزارة . ما إن صحوتُ فعلاً ، حتى أشعلتُ على الفور شمعة أمام صورة أمنّا العذراء ، أملاً بأنْ تحميه شفيعتنا الرؤوفة بنا ، من كل المصائب والبلايا . انتابني الشكّ والله! لم أستطع أن أفهم : ماذا يعني هذا كله؟ هل حدث له شيءٌ ما؟ بعد هذا كله ، جاءت هذه العاصفة .

- البكاء في الحلم ، فأل جيّد ياأماه : هذا يعني خيراً! - قال أنطون إيڤانيتش ، وهو يضرب بيضة مسلوقة على الصحن ليقشرها . - سيصل غداً حتماً .

- كنتُ أفكر بأن نذهب بعد الإفطار ، الى الأحراج لاستقباله . سأجهد نفسي قدر المستطاع للوصول الى هناك . صحيحٌ أن الوحل قد تكاثر فجأة بصورةٍ ملحوظة ، لكنني سأحاول .

- كلا، لن يأتي اليوم: هذا هو فألي؟

- في هذه اللحظة، كانت الريح تحمل أصوات جرس آتية من بعيد، ثم سكنت فجأة. كانت آنا باڤلوڤنا تكتم أنفاسها.

- آه! - قالت وهي تُفرّجُ عن نفسها بتنهيدة، - كنتُ أفكر بأن...

- فجأة من جديد.

-ياإلهي! هل عاد صوت الجرس من جديد؟ قالت هي، ثم اندفعت إلى الشرفة.

- كلا، -أجاب أنطون إيڤانيتش، - هذا مهرٌ يرعى بالقرب من هنا، في رقبته جرس. رأيته في الطريق. أجفلته، فرمح في حقل الجودار. ألا تأمرين بربطه؟

فجأة، رنّ الجرس بصوتٍ أقوى، وكأنه تحت الشرفة، ثم صار يرنّ أقوى فأقوى.

- آه ياأبتاه! ماقُلْتُهُ كان صحيحاً: العربة آتية الى هنا، إلى هنا! إنه هو، هو -صرختْ آنا باڤلوڤنا. - آه، آه! أنطون إيڤانيتش، اركض بسرعة! أين الناس؟ أين أغرافينا؟ لايوجد أحد...! كأنه آتٍ إلى بيت غريب، ياإلهي!

ضاعت تماماً. أما الجرس، فكان يرنّ كما لو كان في الغرفة.

قفز أنطون إيڤانيتش من خلف الطاولة.

- هو! هو! - صرخ أنطون إيڤانيتش. - هاهو ذا يفسيي جالس على المعقد الخشبي! أين الإيقونة والخبز والملح؟ هاتوهم بسرعة! ماذا سأحمل إليه الى العتبة؟ وهل يمكن استقباله دون خبز وملح؟ هذا تقليد لابدّ منه... ماهذه الفوضى عندكم! لم يفكر أحدٌ بهذا! آنا باڤلوڤنا، مابك واقفة، لاتذهبين لملاقاته؟ اركضي بسرعة...!

twitter @baghdad_library

-لا أستطيع ! - قالت بصعوبة - شُلّتْ ساقاي .

- تهاوتْ على الكرسي بعد هذه الكلمات . خطف أنطون إيڤانيتش عن الطاولة كسرة خبز وضعها في الصحن ، ثم وضع المملحة أيضاً واندفع نحو الباب .

- لاشيء جاهز ! - غمغم هو .

- اندفع إلى الباب نفسه أيضاً ، ثلاثة خدم وفتاتان .

- إنه آت ! آت ! وصل ! - صرخ الجميع ، وهم خائفون ، ممتقعون ، كما لو أنّ لصوصاً قد وصلوا .

ظهر ألكسندر بعد ذلك مباشرة .

- ساشينكا ! حبيبي ! . . . صرخت آنا باڤلوڤنا ، ثم توقّفت فجأة ، وهي تنظر إليه بحيرة .

- أين ساشينكا ؟ - سألت هي .

- هذا أنا ياأمّاه ! أجاب وهو يقبّل يدها .

- أنت ؟

نظرت إليه بإمعان .

- صحيح ! هذا أنت حقّاً ياحبيبي ! - قالت هي ، ثم ضَمّته بحرارة . بعد ذلك ، نظرت إليه فجأة من جديد .

- مابك ؟ هل أنت مريض ؟ - سألت بقلق ، وهي لاتزال تضمّه

- بخير ياأمّاه .

- بخير ! ما الذي حدث لك ياحبيبي ؟ هل تركتُك هكذا ؟

- ضَمّتْه إلى قلبها وبكت بحرارة . قبّلتْ رأسه ووجنتيه وعينيه .

- أين شعرك ؟ كان كالحرير ! قالت هي ، عبر الدموع . -وعيناك كانتا تتلألأن كنجمتين ، ووجنتاك- دم ممزوج بالحليب . كنتَ كالتفاحة الغضّة الطريّة ! أعرف ،

أنّ الأشرار قد عذّبوكَ وحسدوكَ على جمالك ياسعادتي! وعمّك ماذا كان يفعل إذاً؟ لقد أودعتكَ أمانةً عنده بوصفه إنساناً نبيلا صالحاً! لم يعرف أن يحافظ على الكنز! حبيبي! كانت العجوز تبكي وتغمر ألكسندر بقبلاتها ومداعباتها.

«واضحٌ أنّ دموعها في الحلم، لم تكن علامة خير!» فكّر أنطون إيڤانيتش.

- مالكِ تندبين عليه، وكأنك تندبين على ميّت؟ -هَمَسَ أنطون إيڤانيتش. - هذا لايجوز؛ هذا - ليس فألاً حسناً.

- مرحباً ألكسندر فيدروفيتش! - قال هو. - قضتْ مشيئة الله أن نلتقي ثانية. مَدَّ ألكسندر له يده بصمت. ذهب أنطون إيڤانيتش ليتأكّد إنْ كانت الأغراض كلها، قد أنزلت من العربة. بعد ذلك، صار ينادي على الخدم، كي يُسلّموا على سيّدهم. كان الجميع محتشدين في غرفة المدخل والممرّ. صَفّهُم بانتظام وعلّم كلّ واحد منهم كيف يُسلّم: فهذا يقبل يد سيّده، وآخر يُقبّل كتفه، وثالث يُقبّل طرف معطفه، كما علّم كلاّ منهم الكلمات؛ التي سيقولها أثناء ذلك. طرد أنطون إيڤانيتش خادماً واحداً فقط، وقال له:

- اذهب واغسلْ وجهك أوّلاً، ولاتنس أن تمسح أنفك.

أما يفسيي، الذي كان يُزنّر وسطه بحزام، فقد سلّم على الخدم، الذين تجمعوا حوله. وزّع عليهم هدايا بطرسبورغية: أعطى هذا خاتماً فضّياً، وذلك علبة نشوق مصنوعة من خشب البتولا. لكن، عندما رأى أغرافينا، تجمّد على الفور وراح ينظر إليها بصمت وبهجة بلهاء. نظرت إليه خلسةً، بصورة جانبيّة، لكنها لم تستطع أن تصمد، فكشفت عن مشاعرها فجأة: صارت تضحك من شدّة الفرح، ثم صارت تبكي، لكنها تنحتّْ بعد ذلك جانباً وعبست.

- مالكَ صامت؟ - قالت هي. - ثرثار ولايُسلّم!

لكنه، لم يستطع أن يقول شيئاً. اقترب منها، وعلى سيمائه البسمة البلهاء ذاتها. سَمَحَتْ له بأن يضمّها قليلاً.

twitter @baghdad_library

- تبّاً للشيطان، - قالت بغضب، وهي تنظر إليه خلسةً بين الحين والآخر. لكنّ سروراً عظيماً كان يتبدى في عينيها وابتسامتها. يبدو أنّ البطرسبورغيات قد أثَّرن عليك وعلى سيّدك! أراك قد أطلقت شاربيك!

أخرج من جيبه صرّة ورقيّة صغيرة وأعطاها إياّها. كانت تحتوي على حلقٍ من البرونز. بعد ذلك، أخرج من الكيس صرّة أخرى تحتوي على منديل كبير. خطفَتْها بسرعة، ثم دسّت الصرّتين في الخزانة، دون ان تنظر إلى محتوياتهما.

- أغرافينا إيڤانوڤنا، نودّ مشاهدة الهدايا، - قال بعض الخدم.

- ما الشيء الذي تريدون أن تشاهدوه؟ في هذا المكان؟ - كانت تصرخ.

- خذي أيضاً! - قال يفسيي، وهو يعطيها صرّة ثالثة.

- نريد أن نرى، نريد أن نرى! - ألحّ البعض.

مزّقت أغرافينا الورقة، فسقطت منها دستة من ورق اللعب المستعمل، لكنه كان جديداً تقريباً.

- عثَرتَ على ماتجلبه لي! - قالت أغرافينا. - متى كنتُ أهتمّ بلعب الورق؟ تظنّ أني سألعب معك!

خبَأتْ ورق اللعب أيضاً. بعد ساعة، كان يفسيي يجلس من جديد في مكانه القديم المعهود، بين الطاولة والموقد.

- ياإلهي! ياللهدوء! - قال يفسيي، وهو يثني ساقيه تارةً، ويمدّهما تارةً أخرى. - هذه حياة حقّاً! أما عندنا في بطرسبورغ، فالحياة شاقّة لاتُطاق! أغرافينا إيڤانوڤنا، ألا يوجد لديك ما أسدّ به رمقي؟ لم نذق الطعام منذ اللحظة الأخيرة.

- لم تترك عادتك بعد؟ خُذْ! يبدو وكأنك لم تذق الطعام هناك إطلاقاً.

عبَرَ ألكسندر الغرف كلها، ثم الحديقة، وكان يتوقّف عند كلّ غصنٍ ومقعد. كانت ترافقه أمه. كانت تتفحص وجهه الشاحب وتتنهّد، لكنها كانت تخشى أن

تبكي، فقد أخافها أنطون إيفانيتش. كانت تُمطر ابنها بوابلٍ من الأسئلة عن الحياة والعيش هناك، لكنها لم تستطع بحالٍ من الأحوال، أن تحصل على السبب الذي جعله نحيلاً شاحباً هكذا، ولا على سبب سقوط شعره. اقترحت عليه أن يأكل ويشرب، لكنه اعتذر وقال بأنه منهكٌ من الطريق، ويريد النوم.

ذهبتْ آنّا باڤلوڤنا للتأكد بنفسها من تجهيز السرير وإعداده جيّداً، ووبخّت الفتاة، لأنها وضعت فراشاً قاسياً، كما أشرفت شخصياً على تغيير الفراش وتجهيزه، ولم تغادر الغرفة إلا بعد أن نام ألكسندر. خرجت من الغرفة على رؤوس أصابعها وحذّرت الخدم من التحدث والتنفس بصوتٍ مسموع، وأمرَتْهُم بأن يسيروا دون أحذية. بعد ذلك، أمَرَت باستدعاء يفسيي إليها. جاءت معه أغرافينا. انحنى يفسيي أمام سيّدته وقبّل يديها.

- ماذا جرى لساشينكا؟ - سألت بصورةٍ تنمُّ عن تهديد. - مَنْ صار يشبه الآن؟ التزم يفسيي الصمت.

- لماذا تصمت؟ - قالت أغرافينا. - ألا تسمع: سيدّتنا تسألك؟

- لماذا أصبح نحيلاً هكذاً؟ - قالت آنّا باڤلوڤنا- لماذا سقط شعره؟

- لم أتمكن من معرفة السبب ياسيدتي! - قال يفسيي- هذه مسألة تخصّ سيدي وحده!

- لم تتمكن من معرفة السبب! ماذا كنت تفعل إذاً؟

لم يعرف يفسيي ماذا يقول، فالتزم الصمت.

- عثرتِ على من تثقين به ياسيّدتي! - قالت أغرافينا، وهي تنظر إلى يفسيي بتوددٍ ومحبّة. - ماذا كنتَ تفعل هناك؟ قل لسيّدتك! هل هذا جزاء المعروف!

- أنا لم أخدم بجدّ ياسيّدتي! -قال يفسيي، وهو ينظر إلى سيّدته تارةً وإلى أغرافينا تارةً أخرى. - لقد خدَمْتُ بثقةٍ وإخلاص. تكرّمي واسألي أرخيبيتش...

twitter @baghdad_library

- مَنْ هو أرخيبتش هذا؟

- البوّاب المحليّ هناك .

- هراء! - لاحظتْ أغرافينا . -كيف تصبرين عليه ياسيّدتي! احبسيه في الزريبة - سيعرف عندئذ!

- أنا على استعداد، ليس فقط لأنْ أنفذ أوامر أسيادي، - تابع يفسيي، -بل ولأن أموت في سبيلهم فوراً!

- كلكم جيّدون بالكلام! - قالت آنّا باڤلوڤنا . - لكن، عندما يحين وقت الجدّ والعمل، فلا أعثر على أحدٍ منكم! واضح، أنك كنتَ تهتمّ كثيراً بسيّدك : سمحتَ لنفسكَ بأن يفقد فلذة كبدي صحته! هذا هو الإهتمام ! سترى . . . هَدّدَتْهُ .

- أنا لم أهتمّ ياسيّدتي؟ خلال ثمانية أعوام، لم يفقد سيّدي من قمصانه كلها إلاّ قميصاً واحداً فقط، أما قمصاني الرثّة البالية، فمازالت كلها باقية .

- أين ضاع القميص؟ - سألت آنا باڤلوڤنا بغضب .

- عند الغسّالة . عَرَضْتُ على سيّدي ألكسندر فيدوريتش حينئذٍ ان يحسم ثمنه من الأجر، لكنه لم يقل شيئاً .

-هكذا فعلت الدنيئة إذاً، - لاحظت آنا باڤلوڤنا، - أغراها القميص الفاخر!

- كيف لم أهتمّ! - تابع يفسيي . - حبذا لو نفّذ الجميع واجباتهم مثلي . كنت أركض الى المخبز لتأمين الخبز، في الوقت الذي يكون فيه سيّدي لايزال نائماً . . .

- أي نوعٍ من الخبز كان يأكل؟

- الخبز الأبيض الجيد .

- أعرف أنه أبيض. هل كان يأكل الخبز الممزوج بالحليب والزبدة والبيض؟

- هل كان من النوع الطويل، - قالت أغرافينا، - عاش في بطرسبورغ هذه المدة كلها، ولم يتعلم الكلام.

-كلا ياسيدتي! - أجاب يفسيي. - من النوع الصيامي".

- صيامي"! آه، يالك من شرّير! سفّاح! قاطع طريق! - قالت آنّا باڤلوڤنا وقد احمرّت من شدّة الغضب. - كنتَ تشتري له خبزاً صياميّاً إذاً وتأتي بعد هذا كله لتقول إنك كنتَ تهتمّ به!

- لم يكن يأمر ياسيّدتي...

- لم يكن يأمر! الأمر سيّان عنده يافلذة كبدي، فهو يأكل كلّ مايُقدّم له. ألم يخطر هذا على بالك؟ هل نسيتَ أنه كان يأكل هنا كلّ أنواع الخبز الصيامي"؟ تشتري له خبزاً صياميّاً! هل كنت تأخذ النقود لأغراضك الخاصة؟ سأريك! ماذا أيضاً تَكَلَمّ...

-بعد تناول الشاي، - تابع يفسيي وقد بدا عليه الخوف، - كان سيّدي يذهب إلى الوظيفة، أما أنا، فكنت أبدأ بتنظيف الأحذية: كنتُ أمضي الصباح كلّه بتلميعها، لدرجة أنني كنت أنظّف وألمع الحذاء ثلاث مرّات على الأقل. وفي المساء، عندما يخلع حذاءه -كنتُ أنظفه وألمعه أيضاً، وألمع الأحذية النظيفة من جديد. كيف تقولين ياسيّدتي، أنني لم أكن أهتمّ: أنا لم أرَ سيّداً قط، ينتعل حذاء نظيفاً لماعاً كسيّدي. فأحذية بطرس إيڤانيتش لم تكن نظيفة لماعة كأحذية سيّدي، علماً أن لديه ثلاثة خدم.

- لماذا صار ساشينكا هكذا؟ -قالت آنا باڤلوفنا وقد لانت قليلاً.

- ربّما بسبب الكتابة ياسيّدتي.

- هل كان يكتب كثيراً؟

twitter @baghdad_library

- كثيراً جداً، كل يوم.

- ماذا كان يكتب؟ أوراقاً ومذكّرات؟

- ينبغي أن يكون هكذا ياسيّدتي.

- لماذا لم تلفت انتباهه؟

- حاولتُ ياسيّدتي: «ألكسندر فيدوريتش، لاتجلسوا طويلاً هكذا، - كنتُ أقول لسيّدي، الطقس رائع اليوم، إنه لمن المناسب ان تتفضّلوا وتتنزّهوا، هناك أسياد كثر يتنزّهون. ماهذه الكتابة، التي لاتنتهي؟ ستَلْحقون الأذى بصدركم، وستغضب سيدتي والدتكم...».

- ماذا كان يقول؟

- «انصرف أيها الأحمق! - كان سيّدي يقول لي».

- إنك لأحمق حقّاً! - قالت أغرافينا.

لدى سماعه هذه العبارة، نظر يفسيي إليها، ثم تابع النظر من جديد الى سيّدته.

-وعمّه لم يردعه عن الكتابة؟ سألت. آنّا باڤلوڤنا.

- لا ياسيّدتي! عندما كان يأتي ويجد سيدي جالساً أو مستلقياً بلا عمل، فإنه كان يخاطبه قائلاً: «لماذا لاتفعل شيئاً؟ الأمر مختلف هنا عن القرية. يجب أن تعمل، لا أن تتمدّد على جنبك! أراك غارقاً في أحلامك دائماً كما أنه يؤنّب سيّدي أيضاً.

- كيف كان يؤنّبه؟

- «الريف...» كان يقول... ثم يستمرّ ويستمرّ في التأنيب... لدرجة أنني كنت أتحاشى سماعه في المرّات الأخرى.

- تبّا له! - قالت آنا باڤلوڤنا ثم بصقت. - كان من الأجدر به أن يُنجب ويُوبّخ أولاده، عوضاً. من تأنيب الآخرين! كيف يردعه، وهو مافتىء يلحّ...

ياإلهي! - على من أعول، إذا كان أقرب المقرّبين أسوأ من وحشٍ كاسر؟ الكلب يحمي جراءه، بينما يعذّب العمّ ابن أخيه! وأنت أيها الأحمق، أما كنت تستطيع أن تقول لعمّه بأن يمتنع عن تأنيب سيّدك ويبتعد عنه. كان حريّاً به أن يصرخ على زوجته الرذيلة! عثر على من يوبّخ: «اعملْ، آعملْ!». لماذا لايفني نفسه في العمل، عوضاً من دفع الآخرين لذلك! ياله من كلب، إنه كلب حقاً، اغفر لي ياإلهي! عثَرَ على عبد يجبره على العمل!

ران الصمت بعد ذلك.

- هل أصبح ساشينكا نحيلاً هكذا منذ زمن بعيد؟ -سألت بعد ذلك.

- منذ ثلاث سنوات، - أجاب يفسيي. - صار سيّدي ألكسندر فيدورتيش يحس بالضجر كثيراً، ويتناول الطعام قليلاً: أصبح نحيلاً فجأة، وبدأ يذوب كالشمعة.

- لماذا كان يضجر؟

- الله أعلم ياسيدتي. كان بطرس إيڤانيتش يتحدّث عن هذا، وكنت أصغي أحياناً، لكنّ الكلام كان صعباً ومعقّداً، فلم أفهم شيئاً.

- ماذا كان يقول؟

- فكّر يفسيي دقيقة، محاولاً كما يبدو، أن يتذكّر شيئاً ما، وهو يحرّك شفتيه.

- نسيتُ كيف كانوا يسمّون الأشياء...

- كانت آنا باڤلوڤنا وأغرافينا تنظران إليه وتنتظران الردّ بفارغ الصبر.

- ماذا؟.. -قالت آنا باڤلوڤنا.

ظلّ يفسيي ملتزماً الصمت.

- هيّا، قل شيئاً ما، أيها المغفّل، - أضافت أغرافينا، -سيدتنا تنتظر.

twitter @baghdad_library

- إحـ . . . إحبا . . . ط ، إحباط - قال يفسيي أخيراً .

نظرت آنّا باڤلوڤنا بحيرةٍ إلى أغرافينا ، وأغرافينا إلى يفسيي ، ويفسيي إليهما ، وكانوا جميعاً يلتزمون الصمت .

-كيف؟ . . . سألتْ آنّا بافلوڤنا .

- إحـ . . . إحباط ، لقد تَذَكَّرْت ! - أجاب يفسيي بصورة حاسمة .

- ماهذه المصيبة أيضاً؟ ياإلهي ! أيّ مرضٍ هذا؟ - سألتْ آنّا بافلوڤنا بأسى .

- آه ، هل يعني هذا أنه مصابٌ بمرضٍ خطيرٍ ياسيّدتي؟ - قالت أغرافينا بسرعة .

امتقع لون آنّا باڤلوڤنا وبصقتْ .

- ليقْطعْ لسانك ! - قالت هي - ألم يكن يتردّد إلى الكنيسة؟

- تردّد يفسيي قليلاً .

- يتعذّر عليّ القول إنه كان يتردّد كثيراً الى الكنيسة ياسيدتي . . . - أجاب يفسيي بتردّد ، - يمكن أن أقول ، إنه لم يكن يتردّد تقريباً . . . السادة هناك ، نادراً مايتردّدون إلى الكنيسة . . .

- هذا هو السبب إذاً! فهمت ! - قالت آنّا باڤلوڤنا وهي تتنهد ، ثم رسمت علامة الصليب . - يبدو أن صلواتي لم تكن مقبولة عند الله . لم يكن حلمي كاذباً : لقد خرج حبيبي من حفرة الماء العميقة حقاً !

هنا جاء انطون إيڤانيتش .

- آنّا باڤلوڤنا ، أوشك الغداء ان يبرد ، - قال هو ، - ألم يحن الوقت لإيقاظ ألكسندر فيدوريتش؟

- كلا ، كلا ، ليحمه الله ! - أجابت هي . - لم يأمر بإيقاظه ، «تناولوا الطعام ، دون أن تنتظروني ، - قال لي فلذة كبدي ألكسندر ، - ليست لديّ شهيّة .

الأفضل أن أنام: النوم سيقويني ويمنحني الراحة؛ ربما أشتهي الطعام مساءً».
أنطون إيفانيتش. إليك ماسأفعله: سأذهب وأشعل شمعة وأصلّي أثناء نوم ساشنكا. أرجو ألاّ تغضب مني، لأنني سأتركك تتناول الغداء وحدك؛ ليست لديّ رغبة في الطعام الآن.

- حسناً ياأماه، حسناً، سأنفّذ ماتريدين: يمكنك الإعتماد عليّ دائماً.

- أجل، أريدك أن تعمل لي معروفاً، - تابعت هي، - أنت صديقنا وتحبنا كثيراً. أرجو أن تستدعي يفسيي وتستفسر منه بطريقة ما عن السبب، الذي جعل ساشينكا متأمّلاً ونحيلاً هكذا، وعن سبب سقوط شعره. أنت رجل: وتستطيع تبين الأسباب أكثر مني... هل أحزنه أحدٌ ما هناك؟ الأشرار كثرٌ في هذا العالم... اعرفْ كل شيء.

- حسناً ياأماه حسناً: سأستقصي كلّ شيءوسأعرف بواطن الأمور. ارسلي يفسيي إليّ، وسأنفذ المهمة أثناء الغداء!

- مرحباً يفسيي! - قال أنطون إيفانيتش، وهو يجلس إلى الطاولة ويدسّ طرف منديل تحت ياقة قميصه. - كيف حالك؟

- مرحباً ياسيّدي. تسألني عن أحوالي؟ سيئة. أراك قد أصبحت أكثر لطفاً ياسيّدي.

بصق أنطون إيڤانيتش.

- لاتُصب بالعين ياأخي: هل الحياة تجري بهذه البساطة والسرعة؟ - أضاف هو، وبدأ يتناول شوربة الملفوف.

- كيف الحياة هناك؟ - سأل هو.

- ليست جيّدة كثيراً؟

- لكنّ الطعام فاخرٌ هناك. ماذا كنت تأكل؟

twitter @baghdad_library

- ماذا تقول ياسيّدي؟ الغداء عبارة عن مرقةٍ باردة نشتريها من الدكّان وفطيرة واحدة.

- كيف من الدكّان؟ ومطبخك؟

- لم نكن نُحضرّ الطعام في البيت. السادة العازبون هناك لايحضرّون طعاماً في البيت.

- ماذا تقول! - قال أنطون إيڤانيتش، وهو يضع الملعقة في الصحن.

- تلك هي الحقيقة: كنتُ أجلب الطعام لسيّدي من الحانة.

- هذه حياة أشبه بحياة الغجر! ها! هذا هو سبب هزاله! خذ واشرب!

-شكراً جزيلاً ياسيّدي! بصحتك!

ساد الصمت بعد ذلك. صار أنطون إيڤانيتش يأكل.

- كم ثمن الخيار هناك؟ - سأل وهو يضع خيارة في صحنه.

- عشر خيارات بأربعين كوبيكاً.

- صحيح؟

- واللّه: إنه لعارٌ أن أقول ياسيّدي، أنّ الخيار المملّح كان يُجْلب أحياناً من موسكو.

- آه ياإلهي! وكيف لاينحف!

- أين تستطيع أن ترى هناك مثل هذا النوع الجيّد من الخيار؟ تابع يفسيي مشيراً الى خيارة- ولا في الحلم تراها! لايوجد هناك إلاّ الأنواع الرديئة. مايأكله السادة هناك، ربّما لايكلّف الناس أنفسهم عناء النظر إليه هنا! يرغب الناس هناك بالتزوّد بالملفوف واللحم المملّح والفطر- لكنهم لايعثرون بسهولة على شيء من هذا كلّه.

هزّ أنطون إيڤانيتش رأسه، لكنه لم يقل شيئاً، لأنّ فمه كان مليئاً تماماً.

- كيف؟ - سأل وهو يمضغ.

- تعثر على كل شيء هنا في المخزن، وماهو غير موجود، يستطيع المرء أن يجده عند بائع المرتديلا والسجق، أما هناك، فالأمر مختلف تماماً. فالأشياء غير الموجودة عند بائع الحلويات، لايمكن العثور عليها إلاّ في مخزن أغليتسكي: فكلّ شيءٍ موجود في المخزن الفرنسي!

ساد الصمت.

-كم ثمن الخنّوص هناك؟ - سأل أنطون إيڤانيتش، وهو يضع في صحنه نصف خنّوْص تقريباً.

- لا أعرف بالضبط ياسيّدي؛ لم نكن نشتريه: إنه غالٍ جداً، روبلان على ما أعتقد...

- أي، أي أي! وكيف لاينحف المرء! ياله من غلاء!

- لايأكله السادة المحترمون إلاّ نادراً: الموظفون يأكلونه أكثر.

ساد الصمت من جديد.

- هذا يعني أنّ حياتكم هناك كانت سيئة، أليس كذلك؟ - سأل أنطون إيڤانيتش.

-سيئة جداً! الكڤاس[1] هنا لذيذ رائع، بينما البيرة هناك لاتذاق؛ تحسّ عندما تشرب الكڤاس أنّ شيئاً ما يجيش في المعدة طوال اليوم. ياله من إحساسٍ رائع! دهان الأحذية فقط رائع هناك: ما إنْ يُدْهن الحذاء به، حتى يصبح لمّاعاً كالمرآة! لايرتوي المرء من التفرّج عليه! رائحته رائعة يودّ المرء ان يأكله!

- صحيح!

---

(١) - الكفاس -شراب حامض روسي شعبي (المترجم).

twitter @baghdad_library

- واللّه ياسيدي

ساد الصمت .

-هكذا إذاً؟ - سأل أنطون إيفانيتش وهو يمضغ .

- أجل ياسيّدي .

- هل كان أكلكما سيئاً؟

- أجل . سيّدي ألكسندر فيدروفيتش كان يأكل قليلاً جداً : كان يمتنع عن الطعام تقريباً ، لم يكن يتناول حتى قطعة خبز واحدة أثناء الغداء .

- كيف لاينحف إذا ! - قال أنطون إيفانيتش . - هل هذا كله بسبب غلاء المأكولات؟

-بسبب الغلاء أولاً ، وبحكم العادة ثانياً ، فالسادة هناك لايأكلون يومياً حتى الشبع . السادة هناك يأكلون خلسة تقريباً ، مرّة واحدة في اليوم ، في الخامسة مساءً ، وأحياناً في السادسة . يتناولون شيئاً ما بسيطاً ، سندويشة مثلاً ، وينتهي الأمر . الطعام ، آخر اهتماماتهم : أكثر مايهتمّون به ، هو إنجاز أعمالهم كلها أولاً ، بعد ذلك ، يأكلون شيئاً ما خفيفاً .

- أيّ حياة هذه ! - قال أنطون إيفانيتش - كيف لاينحف ! أستغرب كيف لم تموتا هناك ! طوال ا لوقت هكذا؟

-كلا ياسيّدي : في الأعياد ، يجتمع السادة أحياناً ويتناولون من الأطعمة مالذّ وطاب ! يرتادون إحدى الحانات الألمانية ويأكلون بمائة روبل وأكثر . أما الشراب - فَحدّث ولا حرج ! الله يعافينا ! أسوأ ممّا تتصورّ ! أحياناً ، كان الضيوف يجتمعون عند بطرس إيفانيتش : يجلسون حول الطاولة في السادسة مساء ويقومون في الرابعة صباحاً .

حملق أنطون إيفانيتش في عينيه .

- ماذا تقول! - قال هو. - ويأكلون طوال الوقت؟

- أجل!

- كم أودّ أن أرى بأم عيني: هذا غير مألوف عندنا! ماذا يأكلون؟

- يعاف المرء أن ينظر إلى نوعية الأطعمة المحضّرة! لايعرف المرء نوع الطعام الذي يأكل: فالألمان يضعون في مأكولاتهم أشياء لايعرفها إلاّ الله؛ لايرغب المرء أن يأكل منها لقمة واحدة. البهارات عندهم تختلف عمّا هي عندنا. تراهم يسكبون من زجاجات أجنبية أشياء لاتقبلها النفس... ذات مرّة، ضيّفني طبّاخ بطرس إيڤانيتش بعض المأكولات المخصّصة لسيّده. بقيتُ ثلاثة أيام أتقيأ بسببها. نظرتُ في البداية، فوجدتُ حبات زيتون في الطعام: فكّرت في نفسي وقلت، كيف يمكن أن يوضع الزيتون هنا. تذوّقتُ، فوجدتُ في الطعام أيضاً نوعاً من السمك الصغير. شعرت بالقرف وبصقت. أخذتُ لقمة أخرى - فوجدت الشيء ذاته أيضاً... ما أسوأ ذلك الطعام!

- هل يضعون هذا كلّه قصداً؟

- الله أعلم! -سألت، فضحك الطبّاخون وقالوا: هكذا تعوّدوا. وكمية الطعام؟ في البداية، يُقدّم الحساء مع الفطائر، لكنْ، لو أنك تراها: الفطيرة كالكشتبان. تأخذ منها في الفم، دفعة واحدة، ست فطائر، وتريد أن تمضغ، فإذا بها تذوب دون مضغ... بعد الساخن، تُقدّم فوراً قطعة صغيرة من اللحم المشوي وبعض الأعشاب المطبوخة، ثم تُقدّم بعد ذلك، حلويات أو بوظة... يحسّ المرء وكأنه لم يأكل شيئاً!

- الطعام لم يكن يُحضّر في البيت إذاً؟ كيف لاينحف!. -قال أنطون إيڤانيتش، وهو ينهض عن الطاولة.

«أشكرك ياإلهي، - بدأ هو بصعوت مسموع وبتنهيدة عميقة، - لقد أشبعتني من خيراتك ونعمك! أشكرك ياربي على نعمك وأفضالك الأرضية والسماويّة».

twitter @baghdad_library

- ارفع عن الطاولة كل شيء أ: سيدك وسيدتك لن يتناولا الطعام الآن. جهز على العشاء خنّوصاً آخر... كلا، الأفضل، دجاجة روميّة: ألكسندر فيدوريتش يحبّ الدجاج الروميّ. سيجوع حتى ذاك الوقت... افرش، عشباً طرياً في الغرفة العلويّة، سأنام وأستريح الآن ساعة من الزمن. أيقظني عند حلول موعد الشاي، وإذا استيقظ ألكسندر فيدوريتش، أيقظني أيضاً.

فور استيقاظه، توجه إلى آنّا باڤلوڤنا.

- أنطون إيڤانيتش، كيف حالك الآن؟ - سألت هي.

- بخير ياأماه، أشكرك كثيراً على الخبز والملح... نمتُ أيضاً نوماً مريحاً. كان العشب طرياً، تفوح منه رائحة عطرة.

صحّة وعافية ياأنطون إيڤانيتش. ماذا قال لك يفسيي؟ هل سألته؟

-كيف لم أسأله! استقصيتُ وعرفتُ كل شيء: لايوجد شيء مهم! السبب بسيط جداً! كل شيء سيتعالج. المسألة ومافيها، تتلخص بأنّ الطعام كان سيئاً هناك.

- الطعام؟

- أجل. احكمي بنفسك: عشر خيارات بأربعين كوبيكاً؛ الخنّوص بروبلين، كما أنّ أغلب المأكولات- حلويّات. العادة هناك تقضي بأن لايأكل المرء حتى الشبع. كيف لاينحف إذاً! لاتقلقي ياأماه، سنعيد له صحته وعافيته هنا، وسنعالجه تماماً. مُري بتحضير كمية كبيرة من منقوع البتولا. حصلتُ على الوصفة من بروكوفي أستافيتش. اسقه صباحاً ومساء كأساً أو كأسين. من المفيد أن يتناوله أيضاً قبل الغداء، ويمكن أن تمزَجيه بالماء المقدّس... هل يوجد لديك شيء منه؟

- يوجد، يوجد: أنتَ الذي جلبتهُ لي.

- أجل، أنا الذي جلبتهُ حقاً. اختاري له المأكولات الدسمة. لقد أمَرتُ بتجهيز خنّوص أو دجاجة رومية على العشاء.

- شكراً جزيلاً ياأنطون إيڤانيتش.

- لاشكر على واجب ياأمّاه! مُري أيضاً بتحضير بعض الفراريج مع صلصلة بيضاء على العشاء.

- حسناً... - لاتزعجي نفسك. سأقوم أنا بهذه المهمة بدلاً عنك. هل تسمحين لي؟.

- كيف! جازاك الله خيراً ياأبتاه!

كان قلب الأمّ وغريزه الأنثى يقولان لها، إنّ الطعام لم يكن السبب الرئيسي لتأمّل ألكسندر. صارت تحاول بشتى الوسائل استدراج ابنها بالتلميح والحيلة، مستخدمة أقصى مهارتها، لعلها تقف على السبب الحقيقي، لكنّ ألكسندر لم يفهم تلك التلميحات وظلّ يلوذ بالصمت. مَرَّ على هذه الحال، أسبوعان أو ثلاثة. كانت الخنانيص والفراريج والدجاجات الروميّة تنهال بسخاءٍ على انطون إيڤانيتش، لكنّ ألكسندر ظلّ ساهماً، نحيلاً، ولم ينبت شعره.

عندئذ، قرّرت آنّا بافلوڤنا ان تتحدث إليه بصراحة.

- ساشينكا، اسمعني ياحبيبي، - قالت هي ذات مرّة، - مضى على وجودك هنا شهر بكامله، لكنني لم أركَ مرّة واحدة تبتسم فيها: فأنت تسير طوال الوقت متجهّماً، مطرق الرأس. هل أنت غير مرتاح في قريتك وعند أمك؟ يبدو أنك تشعر هناك بالإرتياح أكثر، أليس كذلك؟ قلبي يتمزّق ألماً وأنا أنظر إليك. ماذا جرى لك؟ حَدّثني: ماذا ينقصك؟ لن أبخل عليك بشيء. هل أزعجك أحدٌ ما: سأبذل المستحيل من أجل راحتك وهنائك.

- لاتقلقي ياأمّاه، -قال ألكسندر، - لاشيء مهمّ! كبرتُ وصرتُ أكثر نضجاً وقدرة على محاكمة الأمور، - هذا هو سبب تأمّلي وتفكيري.

- ما سبب نحافتك؟ أين شعرك؟

twitter @baghdad_library

- لا أستطيع قول كلّ شيء ياأمّاه. . . إذ يصعب عليّ كثيراً أن أعيدَ حكاية كلّ ماجرى لي خلال ثماني سنوات. . . ربما تكون صحتي قد انحرفت قليلاً.

ماذا يؤلمك؟

- أحسّ بألم هنا وهنا - أشار إلى رأسه وقلبه.

لامستْ آنّا باڤلوڤنا جبينه.

- لاتوجد سخونة، - قالت هي- ماهذا إذاً؟ هل تؤلمك رأسك؟

- كلا، لاشيء.

- ساشينكا! هيّا نذهب إلى إيڤان أندريتش.

- من هو يڤان أندريتش هذا؟

- طبيب جديد. قَدم إلى هنا منذ سنتين. إنه حكيم ماهر جداً! معجزة! لايصف تقريباً أية أدوية، فهو يُحضر بنفسه حبوباً صغيرة جداً تساعد كثيراً على الشفاء. كان فوما يتألمّ ويتوجّع كثيراً من بطنه. ظلّ ثلاثة أيام بكاملها يبكي أشدّ البكاء: أعطاه ثلاث حبّات وشفي تماماً! عالجْ نفسك عنده ياحبيبي!

- كلا ياأماه، لن يستطيع مساعدتي: سيزول كل شيء.

- لماذا أنت حزين وضجر هكذا؟ ماهذه المصيبة؟

- لاشيء مهمّ. . .

- ماذا تريد؟

- لا أعرف: أحسّ بالضجر، دون أن أعرف السبب.

-عجيب ياإلهي! - قالت آنّا باڤلوڤنا. - تقول إنّ الطعام كان يعجبك، ووسائل الراحة كانت متوفرّة، والمنصب الذي شغلته كان جيّداً. . . ما السبب إذاً؟ ومع ذلك، تشعر بالملل! ساشينكا،

- قالت بصوتٍ خافت، ثم صمتت قليلاً. - أما آنَ لك أن تتزوّج؟

- مابكِ! كلا، لن أتزوّج.

- لكن، توجد لك عندي فتاة رائعة- إنها كالدمية تماماً: ورديّة اللون، رقيقة، عذبة ولطيفة بياضها ممزوج بالدم، تتألق بهاء وجمالاً، ضامرة الخصر، رشيقة. أنهت تعليمها في المدينة، في المدرسة الداخلية. تملك خمسة وسبعين نفساً وخمسة وعشرين ألف روبل. جهازها رائع: مصنوع في موسكو، أسرتها عريقة، أهلها وأقاربها رائعون... ماذا قلت؟ - ساشينكا؟ ذات مرة كنت أتناول القهوة مع أمها، وفي سياق الحديث، الذي دار بيننا، رميتُ بصورةٍ مازحة، كلمة عابرة لأجسّ النبض: بدا لي أنها طارت فرحاً...

- لن أتزوج، - كرّر ألكسندر.

- كيف! لن تتزوّج أبداً؟

- أبداً.

- أستغفرك ربّي!. ماذا تقصد من هذا كلّه؟ كل الناس يتزوّجون، كيف تشذّ وحدك عمّا قسمه الله! هذا لايجوز! كم أتلهف شوقاً لذاك اليوم، الذي تتزوّج فيه! أعيش على أمل أن أرى أحفادي وأقوم بتربيتهم! تَزَوّجّها يابني، ستحبها...

- لن أحبّها ياأمّاه: لم أعد قادراً على الحب. هل أنتَ عازفٌ عن الزواج لهذا السبب؟ من كنت تحبّ هناك؟

- فتاة.

- لماذا لم تتزوّجها.

- خانتني.

- كيف خانتك؟ لكنك لم تكن قد تزوّجتها بعد؟

لاذ ألكسندر بالصمت.

twitter @baghdad_library

- عجيبات هنّ الفتيات هناك: يحببن قبل الزواج! خانَتْك! نذلة، سافلة! السعادة في متناول يديها، ولا تعرف كيف تحافظ عليها! يالها من طائشة رعناء! ليتني أراها، لأبصق في وجهها. ماذا كان يفعل عمك إذاً؟ من هو الباز الذي فضّلَتهْ عليك؟ كم أودّ أن ألقي عليه نظرة! ألا يوجد غيرها في هذا العالم؟ ستحبّ مرّة أخرى من هي أجمل وأفضل منها بكثير.

- لقد أحببتُ مرّة أخرى.

- من أحببت؟

- أرملة.

- لماذا لم تتروّجها.

- أنا الذي خنتُها.

نظرتْ آنا باڤلوڤنا إلى ألكسندر، دون أن تدري ماتقول.

- خنتها! . . . كرّرت هي. - لابدّ أنها خليعة فاجرة! - أضافت بعد ذلك. - إنها لحفرة عميقة حقاً؛ المغفرة ياإلهي: يعشقن قبل الزواج، دون طقوس كنسيّة: ويمارسن الخيانة. . . ياللخطيئة! ما الذي يجري في هذا العالم! لابد أن يوم القيامة قريب! . . . قل لي، ألا ترغب بشيء ما؟ هل الطعام ليس حسب ذوقك؟ سأجلب من المدينة طبّاخاً ماهراً.

-كلاّ، شكراً ياأمّاه: كل شيء جيّد.

- ربما تحسّ بالملل، لأنك وحيد هنا: سأرسل لاستدعاء الجيران.

-كلا. كلا. لاتقلقي ياأمّاه أحسّ بالراحة والهدوء هنا؛ سينتهي هذا الوضع حتماً. . . أنا لم أتكيّف بعد مع الظروف هنا.

هذا كلّ ما استطاعت أن تحصل عليه آنّا باڤلوڤنا.

«كلا، فكّرتْ هي، - من دون الله، لن نفلح بالتأكيد». اقترحتْ على ألكسندر أن يرافقها الى القرية لأداء صلاة الصبح. لكنه تأخر في النوم ولم ترد

إيقاظه. أخيراً، دَعَتْهُ لصلاة المغرب. - ممكن، - قال ألكسندر، ثم ذهبا معاً. دخلت الأم إلى الكنيسة ووقفت عند الكورس، فيما بقي ألكسندر عند الباب.

كانت الشمس على وشك المغيب، وكانت ترسل أشعتها المائلة، التي تتراقص على رسوم الإيقونات الذهبية، فتضيء وجوه القدّيسين القاتمة الصارمة تارة، وتطغى بلمعانها على بصيص الشموع الضعيف الوجل تارةً أخرى. كانت الكنيسة خاوية تقريباً: كان الفلاحون يعملون في الحقول. في الزاوية فقط، عند باب الخروج، كان يجتمع بعض عجائز محزّمات بمناديل بيض. كانت عجائز أخريات يجلسن مكتئبات على الدرجة الحجرية لمذبح الكنيسة، وهنّ يسندن وجناتهنّ على أيديهن ويطلقن بين الحين والآخر زفرات وآهات قويّة تنمّ عن ضيقٍ لايعلم إلاّ الله إن كان ناجماً عن ذنوبهنّ، أو عن متاعبهنّ المنزلية. كان هناك فريق ثالث من العجائز، اللواتي يصلين وهنّ ساجدات فترة طويلة.

كان النسيم العليل يندفع عبر قضبان النافذة الحديدية الى الداخل، فيرفع تارةً، إلى الأعلى قليلاً، قماش المذبح، ويعبث بشعر الكاهن الأشيب، أو يقلب صفحة كتاب ويطفيء شمعة، تارة أخرى. كانت أصداء خطوات الكاهن والقندلفت على الأرض الحجرية، تدوي بقوّة في الكنيسة الخاوية، وكانت أصواتهما تترجع بحزن تحت القناطر. وفي الأعلى، في القبة، كانت الغربان تنعق والعصافير تزقزق، وهي تطير من نافذة إلى أخرى، وحفيف أجنحتها ورنين أجراسها يطغى على الخدمة الدينية أحياناً.

«مادامت القوى الحية تجيش في الإنسان، - كان ألكسندر يفكر، - ومادامت تتحرك فيه الرغبات والأهواء، وينشغل بقضايا الوجد والغرام، فإنه يهرب لامحالة من ذاك التأمل المهيب المسيطر، والمهدىء الذي يفضي إليه الدّين... ففيه يجد الإنسان ملاذه، وينشد في أجوائه العزاء والسلوان، بعد أن تكون قواه المحبَطة الخائبة قد انطفأت، وبعد أن تكون آماله قد أُجهِضَتْ وأعياه عبء السنوات المعاشة...»

twitter @baghdad_library

برؤية الأشياء المألوفة، صارت الذكريات تستيقظ تدريجياً في نفس ألكسندر. استرجع ذهنياً طفولته وفترة شبابه الأولى قبل سفره إلى بطرسبورغ. تذكر نفسه طفلاً يردّد وراء أمه الصلوات، وكيف كانت تُحدثّه بإلحاح عن الملاك -الحارس، الذي يحمي الأرواح الإنسانية ويكافح الشرّ دائماً، تَذَكّر كيف كانت تشير له إلى النجوم قائلة بأنها عيون الملائكة الإلهية، التي تراقب العالم وتحصي أعمال الناس الخيّرة والشرّيرة. تَذَكّر كيف كانت أمه تقول له، إنّ سكان السماء يبكون عندما يعلمون يوم الحساب، إنّ أعمالهم الشرّيرة أكثر من أعمالهم الخيرة وأنهم يُسَرّون عندما تزيد أعمالهم الخيّرة عن أعمالهم الشرّيرة. تذكر كيف كانت تشير إلى زرقة الأفق البعيد. . . تنهد ألكسندر، وهو يفيق من هذه الذكريات.

«آه، ليتني أستطيع أن أؤمن بهذا الآن! - فكّر هو - لقد ضاعت معتقدات الطفولة، لكن، ما الجديد الصحيح الذي تعلّمته؟ لاشيء وجدت الشك والأقاويل والنظريات. . . لاأزال بعيداً عن الحقيقة أكثر مما مضى. . . إلام سيفضي هذا الشقاق والتحذلق؟ ياإلهي! . . . هل يمكن ان يكون الإنسان سعيداً، عندما لاتدفّىء قلبه حرارة الإيمان؟ هل صرتُ أكثر سعادة؟» انتهت صلاة المغرب. وصل ألكسندر الى البيت، وهو يحسّ بالضجر أكثر من اللحظة، التي تَوّجه فيها إلى الكنيسة. لم تعرف آنا باڤلوڤنا ماذا تفعل. ذات مرّة، استيقظ باكراً أكثر من المعتاد وسمع حفيفاً فوق رأسه. نظر: فوجد عجوزاً تقف فوق رأسه، وهي تتمتم. اختفت فوراً بمجرّد أن رأت أنه قد لاحظها. عثر ألكسندر تحت وسادته على نوع من العشب، وعلى رقبته كان يُعلّق البخور.

- مامعنى هذا؟ - استفسر ألكسندر من أمه. - مَنْ هذه العجوز، التي كانت في غرفتي؟

ارتبكت آنّا باڤلوڤنا.

- هذه. . . نيكتيشنا، قالت هي.

- مَنْ هي نيكتيشنا؟

- إنها ياعزيزي . . . لن تغضب؟

- ماالأمر؟ تكلمي .

- يقال . . إنها تساعد الكثيرين . . . ما إن تتمتم فوق الماء وتنفخ على النائم- حتى يزول كل شيء ويشفى الشخص .

- كانت هناك أفعى ناريّة تطير في المدفأة ثلاث سنوات بكاملها ، عند الأرملة سيدوريخا ، - قالت أغرافينا .

هنا بصقت آنّا باڤلوڤنا .

- قَرأتْ نيكتيشنا على الأفعى ، - تابعت أغرافينا ، - فاختفت الأفعى وانقطعت عن الطيران . . .

- وماذا جرى لسيدوريخا؟ - سأل ألكسندر .

- لقد أنجبتْ : كان الطفل نحيلاً جداً وأسود ! - مات في اليوم الثالث .

ضحك ألكسندر ، ربما للمرّة الأولى بعد مجيئه إلى القرية .

- أين عثرتم عليها؟ - سأل هو .

- أنطون إيڤانيتش ، هو الذي أحضرها ، - أجابت آنّا باڤلوڤنا .

- تُصدّقون هذا الأحمق !

- أحمق ! آه ، ماذا تقول ياساشينكا؟ حرامٌ عليك ! أنطون إيڤانيتش أحمق ! كيف يُطاوعك لسانك على قول هذا؟ أنطون إيڤانيتش - مُحسِنٌ وصديق !

- خذي البخّور ياأماه واعطهِ للمحسن والصديق ، كي يعلّقه على رقبته .

منذ ذلك الوقت ، صار يقفل باب غرفته ليلاً .

مضى شهران أو ثلاثة . صارت صحة ألكسندر تتحسّن تدريجيّاً . فالهدوء والعزلة والحياة المنزلية المريحة وكلّ مايقترن بها من خيرات مادّية - كلّ هذا انعكس

twitter @baghdad_library

على صحته إيجابياً. أما الكسل وراحة البال، وغياب كلّ مامن شأنه أن يُوتّر أعصابه ويُثير انفعالاته، - فقد أرجع هذا كله إلى نفسه السكينة، التي كان ينشدها في بطرسبورغ عبثاً. كان يريد هناك، وهو يهرب من عالم الأفكار والفنون ويحبس نفسه ضمن جدران حجريّة، أن ينام نوم الخلد، لكنْ كانت تُثيره باستمرار مشاعر الحسد والرغبات، التي لايقوى على تحقيقها. كلّ ظاهرة من ظواهر العلم والفنّ، وكلّ شخصية جديدة مشهورة، كانت تثير في نفسه تساؤلاً: لماذا لايكون هذا الشخص، أنا، ما السبب؟». في كل خطوة يخطوها هناك، كان يُصادف بين الناس من يتفوّق عليه في حال إجراء عملية مقارنة... غالباً ماكان يتعثّر هناك ويرى نقاط ضعفه كما لو في المرآة... كان هناك عمّه، الذي لايرحم، عمّه الذي يُتابع وينتقد نمط تفكيره وكسله وسلوكه وطموحه لتحقيق المجد، الذي لايرتكز إلى أي أساس. هناك العالم الرائع، الزاخر بالمواهب، التي لم يكن له أيّ نصيب فيها. أخيراً، هناك الحياة، التي تُبنى على أسس واضحه معروفة، حيث يتمّ إجلاء وتوضيح جوانبها الغامضة المبهمة، فلا سيطرة فيها للمشاعر والأهواء والأحلام، وكأنما يراد بتجريدها من الإغراء الرومانسي وسحره، أن يُصاغ لها شكلٌ جافٌّ مضنٍ ومُملّ رتيب...

أما هنا، فيا للرحابة والبحبوحة! إنه أفضل وأذكى من الجميع هنا! إنه المعبود الشامل هنا لمنطقةٍ يمتدّ نصف قطرها بضعة فراسخ. إضافة لذلك، كانت نفسه تتفتح هنا في كلّ خطوةٍ يخطوها في أحضان الطبيعة، على أحاسيس وانطباعات مهدّئة تبعث على الإرتياح. فخرير الجداول وحفيف الأوراق والبرودة المنعشة وصمت الطبيعة المطبق أحياناً - كل هذا، كان يثير في نفسه التأمل ويوقظ المشاعر. كانت تستيقظ فيه، في الحقل والحديقة والبيت، ذكريات الطفولة والفتوة. أحياناً، كانت آنّا باڤلوڤنا تجلس بالقرب منه، فتمعن النظر إليه وتخمّن أفكاره. كانت تساعد ذاكرته على استعادة أدق تفاصيل حياته العزيزة على قلبه، أو تقصّ على مسامعه مالايتذكّره.

- أشجار الزيزفون هذه، - كانت تقول له، وهي تشير الى الحديقة، -غرسها والدك. كنتُ حاملاً بك. كنتُ أجلس هنا على الشرفة وأنظر إليه. كان يعمل ويعمل، ثمّ ينظر إليّ، وهو يتصبّب عرقاً. «آ! أنتِ هنا؟ - كان يقول هو. -كم يُدخل العملُ السرور إلى قلبي!» - ثم يستأنف العملَ من جديد. ذلك، هو المرج، الذي كنتَ تلعب عليه مع الأولاد. في بعض الأحيان، كنتَ تغضب وتصرخ بأعلى صوتك على هذا أو ذاك. ذات مرّة، دفَعَتْك أغاشكا- متزوّجة الآن من كوزما والبيت الثالث داخل سياج القرية، هو بيتها- فسال الدّم من أنفك: صار أبوك يجلدها، فأتيتُ وصرتُ أتوسّل إليه أن يتركها، فلم أستطع تخليصها منه إلاّ بصعوبة.

كان ألكسندر يُكمل ذهنيّاً هذه الذكريات بأخرى. «على هذا المقعد، تحت الشجرة، - كان يفكّر هو، كنتُ أجلس مع صوفيا وأنا في غمرة السعادة. وهناك، بين غصني شجرة الليلاك تلك، قبّلتها القبلة الأولى...» كان يتخيّل هذا كلّه ويبتسم لدى استرجاعه هذه الذكريات، وهو يجلس ساعاتٍ بكاملها على الشرفة، مستقبلاً ومُودّعاً الشمس، ومُنصتاً بشغف الى تغريد العصافير ورقرقة مياه البحيرة وأزيز الحشرات الصغيرة المختبئة.

«ياإلهي! ما أروع الحياة هنا! - كان يقول هو، تحت تأثير هذه الإنطباعات الوديعة- بعيداً عن الضجيج والجلبة، وعن مشاغل الحياة التافهة وعش النمل، حيث الناس:

يسيرون زرافات خلف الأسوار

دون أن يستنشقوا نسيم الصباح العليل

ولا عبَقَ المروج الربيعي

أحياناً، كان ينتقل إلى النافذة المطلّة على فناء الدار والشارع والقرية. كانت اللوحة مختلفة هنا، فقد كانت ظليلة، مليئة بمشاغل الحياة اليوميّة. كان الكلب

twitter @baghdad_library

باربوس متمدّداً من شدّة القيظ عند خُصه، واضعاً بوزه على قائمتيه. عشرات الدجاجات كانت تستقبل الصباح، وهي تُقاقي وتقرق وتتسابق فيما بينها، أمّا الديوك فكانوا يتعاركون. في الشارع، كان القطيع يُساق الى الحقل. أحياناً، كانت بقرة متأخّرة عن القطيع، تخور بصورة رتيبة مملّة، وهي تقف وسط الشارع وتتطلّع إلى كل الجهات. كان الفلاحون والفلاحات يتوجّهون إلى العمل، والمجارف والمناجل على أكتافهم. كانت الريح تخطف أحياناً كلمتين أو ثلاث من أحاديثهم، وتحملها إلى النافذة. هاهي عربة النقل تتدحرج على العبّارة مقرقعة بشدّة، وهي تجرّ بتثاقل حملاً من الحشائش المجففّة. أما الأطفال الشقر ذوو الشعر الخشن، فكانوا يتسكّعون في البرك وهم يرفعون قمصانهم فوق رؤوسهم. بدأ الكسندر، وهو ينظر الى هذه اللوحة، - يدرك سحر السماء الرماديّة والسياج المكسور والبركة القذرة والرقص الشعبي الروسي السريع. استبدل البدلة الأنيقة الضيّقة بالرداء الواسع الفضفاض، المخصّص للعمل المنزلي. وفي كلّ ظاهرة من ظواهر هذه الحياة الهادئة المسالمة، وفي كلّ انطباع واستراحة نهاراً وليلاً، ولدى تناول كلّ وجبة طعام، كانت عين الأمّ المحبّة الساهرة تتواجد باستمرار.

لم تُفارقها البهجة لحظة واحدة، وهي ترى كيف كان ألكسندر يسمن ويمتلىء صحّة وعافية، وكيف كانت وجنتاه تتورّدان وعيناه تشعان بريقاً هادئاً مريحاً. «شعره فقط لم ينبت، - كانت تقول هي، -شعره، الذي كان كالحرير».

كان ألكسندر يتنزّه غالباً في الضواحي. ذات مرّة، صادف حشداً من النساء والفتيات الفلاّحات، اللواتي كنّ يتوجّهن إلى الغابة لجمع الفطور، فانضمّ إليهنّ وأمضى معهنّ يوماً بكامله. لدى عودته إلى البيت، امتدح البنت ماشا على سرعتها ومهارتها، فجيىء بها إلى البيت لتهتمّ بالسيد النبيل. كان يذهب أحياناً لمشاهدة العمل في الحقول، وعرف من خلال خبرته ماكان يكتبه ويترجمه غالباً للمجلّة. «كم كنّا نكذب هناك غالباً. . . » - كان يفكّر، وهو يهزّ رأسه، وصار يتعمق في فهم المسألة بإمعان أكثر.

ذات مرّة، في طقس ماطر، جرّب القيام بعمل، فجلس يكتب، وكان راضياً لبدء العمل. احتاج لمرجع من أجل إكمال العمل وإنجازه، فكتب الى بطرسبوغ، وحصل على الكتاب المطلوب. كان يعمل بجدٍّ واجتهاد. طلب كتباً أخرى أيضاً. حاولتْ آنّا باڤلوڤنا عبثاً ثنيه عن الكتابة، كي لايتعب صدره، لكنّ لم يصغ إليها. أرسلت أنطون إيڤانيتش لإقناعه. لم يُصغ إليه ألكسندر أيضاً، وظلّ يُتابع الكتابة. وبعد مضيّ ثلاثة أو أربعة أشهر، كان قد سمن فيها من الجلوس والكتابة، اطمأنّت آنّا باڤلوڤنا وسُرّت لذلك.

مضى على هذا النحو عام ونصف. كان كلّ شيءٍ على مايرام، بيد أنّ ألكسندر صار من جديد ساهماً، متأملاً في نهاية هذه الفترة. لم تكن لديه أية رغبات، علماً أنه لم يكن من الصعب إطلاقاً تلبية رغباته كلها هنا، لأنها لم تكن تتجاوز حدود الحياة اليومية المألوفة. لم يكن هناك شيء يزعجه أو يقلقه: فلا هَمّ ولاشكّ، لكنه كان يضجر رغم هذا كلّه! صار، يوماً بعد يوم، يضيق ذرعاً بأطر الحياة الضيقّة هنا؛ صارت مداعبات أمّه تضايقه، أما أنطون إيڤانيتش، فصار ممجوجاً مكروهاً من قبله. سئم العمل، ولم تعد الطبيعة تأسره.

كان يجلس عند النافذة بصمت، وينظر بعدم اكتراث إلى شجرات الزيزفون، التي غرسها والده، ويصغي بكآبة إلى رقرقة مياه البحيرة، بدأ يفكر بسبب هذه الكآبة الجديدة واكتشف بأنه قد اشتاق لبطرسبورغ! بدأ يحنّ الى الماضي، بعد أن ابتعد عنه، وصار دمه يجيش وقلبه يخفق وروحه وجسده ينشدان النشاط والعمل... عادت المسألة من جديد. ياإلهي! كاد أن يبكي من هذا الإكتشاف. كان يعتقد، أنّ هذا الملل سينتهي ويزول، وأنه سيتعوّد على الحياة في القرية، - كلا، لم يحدث شيء من هذا على الإطلاق: فكلما عاش أكثر هنا، كلّما صار قلبه يتألم أكثر، وينشد العودة إلى تلك الحفرة العميقة، التي طالما عرفها.

تصالح مع الماضي: صار محبّباً على قلبه. لم يعد يحسّ بسيطرة الحقد والنظرة السوداويّة والتجهم والعزلة عليه، فقد صار تأثير هذه الأمور كلها بسيطاً

twitter @baghdad_library

عليه الآن. تَبدّى الماضي في عينيه بضياءٍ ساحرٍ واضح، حتى أن الخائنة نادينكا نفسها، كادت ان تتبدى له بهالةٍ من النور. « ماذا أفعل هنا؟- كان يقول بأسى- من أجل أيّ شيء أذبل؟ علامَ تخبو مواهبي؟ لماذا لا أتألقّ بعملي هناك؟ . . . لقد صرتُ الآن أكثر تبصراً وعقلانية. بمَ يتفوق عمي عليّ؟ ألست قادراً على أن أجد طريقي؟ إذا كان لم يتيسر لي حتى الآن أن أجد طريقي، فهل هذا يعني انني لن أجدها؟ لقد استيقظت الآن من غفوتي وصرتُ صاحياً، متنبّهاً: حان وقت العمل، حان وقت العمل! لكنْ، كم سيحزن رحيلي أميّ! لكن لامناص من السفر، إذ يستحيل أن أهلك هنا! سأجد هناك متّسعاً لي.

ومستقبلي ومصيري؟ لايجوز أن أتخلّف عن تحقيق ماأصبو إليه. . . ومن أجل ماذا؟». كان يتقلّب من الملل، دون أن يدري كيف يخبر أمّه بعزمه على الرحيل.

لكنْ، سرعان ما أراحَتْهُ أمه من هذا العناء: فقد ماتت.

إليكم ماكتبه أخيراً إلى بطرسبورغ، إلى زوجة عمّه وعمّه.

إلى زوجة عمّه:

«قبل رحيلي من بطرسبورغ، ودّعتني ياخالة بالدموع الغالية، التي انحفرت عميقاً في ذاكرتي، قلت لي: «إذا شعرت يوماً بالحاجة لصداقةً متينة وتعاطف صادق مخلص، فإنك ستجد في قلبي دائماً مكاناً لهذا». حلّت اللحظة، التي أدركت فيها قيمة هذه الكلمات. الحقوق، التي مَنحتني إيّاها بسخاء على قلبك، تعتبر بالنسبة لي، الضمانة الأكيدة للهناء والراحة والعزاء والطمأنينة، وربما الضمانة الحقيقية لسعادتي طيلة حياتي كلها. منذ ثلاثة أشهر، توفيت أمّي: لن أضيف كلمة واحدة.

أنت تعرفينها من خلال الرسائل، وتعرفين كم كانت تُمثّل بالنسبة لي، لذا فإنك تدركين جدّاً مبلغ خسارتي. . . سأهرب الآن من هنا، وإلى الأبد. لكن،

هل يمكن ان يتوجّه رحّالة وحيد مثلي، إلا إلى تلك الأماكن، التي أنت فيها؟ . . . قولي لي كلمة واحدة: هل سأجد فيك ماتركته ُمنذ عام، ونصف؟ ألم تطرديني من ذاكرتك؟ هل تأخدين على عاتقك مَهَمّةً صعبة مملّة بأن تشفيني بصداقتك التي أنقَذَتني غير مرّة من هذا الجرح الجديد العميق؟ أعلق عليك أملي كلّه، كما أَعلق عليك أيضاً ان يُبعَث فيّ حليفي الجبّار الآخر - النشاط.

أنت مندهشة، أليس هذا صحيحاً؟ تستغربين أن تسمعي منّي هذا كلّه؟ ستندهشين وأنت تقرئين هذه السطور، التي كتبتُها بلهجةٍ هادئة، غير مألوفةٍ بالنسبة لي، أليس كذلك؟ لاتندهشي ولاتخافي عودتي: سيجيء إليك شخص لم يعد متهوّراً ولا بائساً أو حالماً أو ريفياً، بل شخص كسائر الناس في بطرسبورغ، وكان لزاماً عليّ أن أصير مثلهم منذ زمن بعيد. أخبرني عمّي بهذا الخصوص. عندما أنظر إلى حياتي الماضية، أحسّ بالحَرَج والخجل من الآخرين، ومن نفسي أيضاً، لكنني لم أكن أستطيع أن أتصرّف بطريقةٍ أخرى. بيد أنني عدتُ الى رشدي في سنّ الثلاثين! كانت مدرسةً صعبةً، تلك التي اجتزتُها في بطرسبورغ، كما أنّ التفكير في القرية، قد أوضح لي مصيري تماماً. بعد أن ابتعدت مسافةً طويلة عن دروس عميّ وعن تجربتي الخاصّة، استطعتُ أن أستوعب كل شيء هنا، في غمرة هذا الهدوء، بوضوح أكثر، وأن أرى الآن، خط السير الصحيح، الذي كان ينبغي أن أسلكه منذ زمن بعيد، وكم أشعر بالأسف والمرارة، لأنني حدتُ عن الهدف المنشود. أنا هادىء الآن: لا أتعذب ولا أتألم، لكنني لا أفاخر بهذا. ربما يكون هذا الهدوء نابعاً من أنانيتي، فأنا أحسّ بالمناسبة، أن نظرتي إلى الحياة ستتوضّح سريعاً قبل أن أكتشف مصدراً آخر لهدوئي يكون أكثر نقاوة وصفاءً. لا أستطيع الآن إلا أن أتاسّف، لأنني لم أصل الى هذا، إلا بعد إحساسي بالندم. ها هي فترة الشباب تنتهي، وتتبدىء مرحلة التفكير والتمحيص والتحليل للظواهر كلّها، أعني مرحلة النضج والوعي.

twitter @baghdad_library

مع أنّ رأيي بالناس والحياة قد يكون تَغيّر قليلاً، لكنّ آمالاً كثيرة طارت ورغبات عديدة انتهت. باختصار، لقد تبدّدت الأوهام، وبالتالي، لن أجد نفسي بعد الآن، مُعرّضاً لأن أخطىء في فهم أشياء. أنظر إلى الأمام بوضوح أكثر: المعاناة القاسية صارت في ذمّة الماضي. لم تعد الانفعالات تخيفني، لأنه لم يبق منها إلا القليل. لقد اجتزت الأكثر صعوبة منها، وأنا أباركها. أحسّ بالخجل الآن، وأنا أتذكّر كيف كنتُ أقدّم نفسي معذّباً يلعن حظّه في الحياة. أجل، كنتُ ألعن حظي! ياله من جحود! ياله من تصرّفٍ صبيانيّ! كم أدركت متأخراً، أنّ العذابات تُطهّر النفس، وأنها وحدها. التي تجعل الإنسان مقبولاً من نفسه ومن الآخرين، وتسمو به عالياً... أعترف الآن، أنّ الإنسان الذي لم يعرف العذاب، لايمكن أن يستوعب الحياة بكلّ غناها وعمقها: ففي العذاب أجد يدَ صانع ماهر، يلقي على كاهل المرء مهمّة لاتنتهي - أن يسعى قدماً إلى الأمام، ليبلغ ماهو أسمى من الهدف المنشود، في كلّ لحظة صراعٍ ضدّ الأوهام، والآمال الخائبة والعقبات الصعبة المضنية. أجل، أنا أدرك الآن، كم هو ضروري هذا الصراع وهذا العذاب من أجل الحياة، فلولا الصراع والعذاب، لما كانت الحياة حياةً، بل ركوداً وحلماً... بانتهاء الصراع، تنتهي الحياة ذاتها، فمادام الإنسان يحبّ ويستمتع ويتعذّب وينفعل ويناضل من أجل قضيّة- فهذا يعني أنه يعيش!

أرأيت كيف أحاكم الأمور: لقد خرجتُ من الظلام- أرى أنّ ما عشتُهُ حتى الآن، لم يكن إلاّ تدريباً قاسياً واستعداداً صعباً لولوج الطريق الحقيقية، وتعلماً مُضنياً لمعرفة الحياة. شيءٌ ما يقول لي، إنّ بقية الطريق ستكون أسهل وأهدأ وأكثر وضوحاً... الأماكن المظلمة أضيئت، والعقد الصعبة حلّت من تلقاء نفسها: بدأت الحياة تتبدّى في عينيّ خيراً وهناء، لا شرّاً. سأقول قريباً، من جديد: ما أروع الحياة! لكن، لن أقول هذا كشابٍّ فتيٍّ مفتون بمتعة عابرة، بل بوعي عميق كامل لمتعها وأحزانها الحقيقية. لن يكون مخيفاً بعد ذلكٍ، الموت ذاته، فلن يُمثّل بعبعاً بالنسبة لي، بل تجربة رائعة. أشعر الآن بالطمأنينة في أعماقي: لم أعد أحسّ

بالزّعل الطفولي، ولا بالانفعال الشديد أو بالتهيّج الصبياني، ولا بالغضب الكوميدي من العالم والناس، الشبيه بغضب البعوضة من الفيل.

تصادقتُ من جديد مع أولئك الذين كنتُ قد قطعتُ علاقتي بهم منذ زمن بعيد، - مع الناس الذين كنتُ ألاحظهم بشكلٍ عابرٍ هنا، الذين هم فقط أكثر خشونة وفظاظة وإثارة للضحك من سكّان بطرسبورغ. لكني لا أغضب منهم هنا، مثلما كففتُ منذ زمن بعيد عن أن أغضب منهم هناك. ها أنا ذا أورد لك نموذجاً لوداعتي. جاء ليضيف عندنا ويشاركنا المصيبة، غريب الأطوار، أنطون إيڤانيتش. سيذهب غداً إلى جارنا لحضور العرس ومشاركته الفرح، ومن هناك سيتوجّه لزيارة أحدٍ ما، ليقوم بدور القابلة. لكن، لم تمنعه المصيبة ولا الفرح من أن يأكل عند الجميع أربع مرّات يومياً. أرى، أنّ الأمر سيّان عنده، فمزاجه واحد في كل المناسبات. في الوفيات، والأفراح ومناسبات الميلاد، ورَغم هذا، لا أحسّ بالأسى والإنزعاج من النظر إليه... فأنا أصبر عليه ولا أطرده... إنها سمة طيّبة - أليس هذا صحيحاً ياخالة؟ ماذا ستقولين وأنت تقرئين كلمة الإطراء هذه لنفسي؟».

إلى عمّه:

«عمّي الأعز والأغلى، وزيادةً على ذلك، صاحب السعادة!

بسرورٍ كبير تلقّيت نبأ ترقيتك في المنصب بجدارة. أنت على وئام مع الحظّ منذ زمن بعيد! نجاحك في الخدمة الوظيفية مشهود فيه، - فأنت مدير ناجح! أتجرأ على أنْ أذكّر سعادتك بعهد قطعته على نفسك أثناء مغادرتي: «عندما تحتاج لخدمة أوعملٍ أو مال، - تَوَجّهْ إليّ!» - هذا ما قلته لي. وها أنا ذا بحاجة لخدمة وعمل، وسأحتاج للمال طبعاً. قرويٌ مسكين يتجرأ على طلب مكانٍ وعمل. أيّ مصير ينتظر طلبي؟ هل سيلاقي نفس المصير، الذي لاقَتهُ في وقت من الأوقات، رسالة زايزجالوف، التي طلب فيها منك بذل بعض المساعي لحلّ قضيته؟... أما فيما يتعلق بالإبداع، الذي تحدّثت عنه بقساوة في إحدى رسائلك، فإني أقول لك: أما

twitter @baghdad_library

تشعر بالذنب وأنت تُذكِّرني بحماقاتي المنسيّة، التي تجعلني أحمرُّ خجلاً؟ . . . آه ياعماه، آه ياصاحب السعادة! مَنْ ذا الذي لم يمرّ بفترة الفتوّة ولم يكن أحمق قليلاً؟ مَنْ منّا لم تكن لديه أحلام غريبة لايمكن تحقيقها أبداً؟ كان جاري الذي يقطن إلى اليمين منّي، يتصورّ نفسه بطلاً عملاقاً . . . كان يريد أن يُدهش العالم بتضحياته ومآثره البطولية . . . انتهى الأمر به بأن تقاعدَ وهو في رتبة ملازمٍ ثانٍ، دون أن يُشارك في أية حرب، وهاهو الآن يستنبت البطاطا واللفت بوثام. أما جاري الذي يعيش إلى يساري، فكان يحلم على طريقته الخاصة، بتغيير العالم كلّه ومن ضمنه روسيا، لكنه نزل من عليائه وصار يكتب المذكرات لبعض الوقت في إحدى الدوائر الحكوميّة، ثمّ انزوى هنا، ولم يستطيع حتى الآن إصلاح سياجه القديم المتداعي. أما أنا، فكنتُ أعتقد أن موهبة الإبداع مغروسة فيّ من الربّ، وكنتُ أريد أن أكشف للعالم كلّه أسراراً جديدة غير معروفة سابقاً، دون أن يُخالجني أدنى شك، أنّ هذه ليست أسراراً، وأني لستُ نبيّاً. كلّنا مُضحكون، لكنْ، قل لي، مَنْ منّا لايخجل من نفسه، وهو يتذكر أحلام الشباب المتسّمة بالحماس والإنفعال، والتي لاتخلو من نُبل؟ مَنْ منّا لم يُغذ بدوره، الرغبات والأحلام العقيمة، ولم يجعل من نفسه بطلاً يجترح المعجزات وينشد أغاني النصر ويروي حكايات المجد؟ من منّا لم تذهب به مخليته الى زمن أساطير البطولة والعجائب؟ مَنْ منّا لم يبكِ تعاطفاً مع كلّ ماهو سامٍ ورائع؟ إذا وجدَ إنسانٌ كهذا، فَلْيَرْمني بحجر، ولن أحسده. إني أخجل من أحلام الشباب الرومانسية. لكني أحترمها: فهي ضمان نقاوة القلب وعلامةٌ على الروح الطيبة النبيلة، النزّاعة الى الخير.

أنا أعرفك حقّ المعرفة، ولن تقنعك هذه الحجج: فأنت تريد دليلاً إيجابياً عملياً. اسمح لي أن أقدّمه لك: قل لي من فضلك، كيف يمكن أن تتميز وتتكون المواهب، إذا قتَلَ الشبّان في نفوسهم، الميول المبكرة ولم يطلقوا العنان لأحلامهم، بل ساروا بانصياع وخنوع في الاتجاه المحدّد لهم، دون ان يُجربوا ويمتحنوا قواهم

وإمكاناتهم؟ أخيراً، ألا يدخل ضمن إطار قانون الطبيعة العام، أنّ فترة الشباب ينبغي أن تكون قلقة جيّاشة، وأحياناً متهوّرة حمقاء، وأنّ أحلام الشباب يصبح مع الزمن أقل حماسة واندفاعاً، ثم تهدأ لاحقاً كما هدأت عندي الآن؟ هل فترة شبابك خالية من هذه الذنوب؟ تَذَكّر وفتّش في ذاكرتك جيّداً. أرى من هنا، كيف ستهزّ رأسك وتقول دون ارتباك: كلا، لايوجد شيءٌ من هذا إطلاقاً! اسمح لي أن أدحض قولك هذا في الحبّ مثلاً... هل تنكر؟ لاتُنكر: فالدليل في يدّي... كان عليك أن تتذكّر أنني أستطيع أن أتابع القضية في مكان الحدث. هاهو ذا مسرح مغامراتك الغرامية أمام ناظري- البحيرة. ماتزال الورود الصفراء تنبت على ضفافها، ولقد جففتُ واحدةً منها بصورة ملائمة، ويُشرّفني أنْ أرسلها لسعادتكم كذكرى حلوة لطيفة. لكنْ، يوجد لديّ سلاح رهيب ضد اضطهادك للحبّ بوجه عام، ولحبي بوجه خاص - إنه عبارة عن وثيقة حصلتُ عليها... لماذا تعبس الآن؟ وأيّ وثيقة!! لماذا امتقع لونك؟ سرقتُ من خالتي هذه الوثيقة الثمينة، القديمة من صدرها المتهدّم أيضاً، وسآخذها معي كدليلٍ دائمٍ ضدك، وكحماية لي. مابك ترتعش ياعمّاه! زد على ذلك، أني أعرف بالتفصيل قصة حبّك كلّها: خالتي تحدّثني صباح كلّ يوم، أثناء تناول الشاي، وفي فترة الغداء وقبل الذهاب الى النوم، أشياء ممتعة عمّا دار بينكما، وها أنا ذا أعيد تجميع وصياغة هذه المعلومات القيمة على شكل مذكّرات. سأسلمها لك شخصياً مع بعض الدراسات، التي كتبتها هنا حول الإقتصاد الزراعي خلال عام كامل. من جانبي، أعتبر أنّ من واجبي التأكيد لخالتي على ثبات مشاعرك نحوها. عندما سأنعم بتلقي ردّ مشجّع من سعادتك، سيكون لي الشرف أن أسافر لعندكم، وأنا أحمل إليكم هديّة مكوّنة من توت علّيق مجفّف وعسل، مع بعض الرسائل، التي وعدني جيراني بتزويدي بها، كي أحملها إليك، باستثناء زايزجالوف، الذي لاقى وجه ربه قبل أن تحل قضيته».

twitter @baghdad_library

خاتمة

إليكم ماحَدَثَ للشخصيات الرئيسة لهذه الرواية، بعد أربع سنوات من السفر الثاني لألكسندر إلى بطرسبوغ.

ذات صباح، كان بطرس إيڤانيتش يتمشى في مكتبه جيئة وذهاباً. لم يعد بطرس إيڤانيتش ذاك الشخص الممتلىء النشيط الرشيق، الذي عرفناه سابقاً، والذي كانت نظراته هادئة ورأسه مرفوعة باعتداد، وقامته منتصبة دائماً. هل غيّرتْهُ السنون أم الظروف، التي مَرّتْ عليه، - هذا ليس موضع اهتمامنا هنا الآن، المهمّ في الأمر، هو أنه كان يبدو منحطّ القوى. لم تعد حركاته نشيطة، ولانظراته ثابتة ثاقبة أو واثقة. على فوديه وصدغيه، كان الشيب يلمع على خصلات كثيرة من شعره. واضحٌ أنه قد احتفل بالذكرى الخمسين لميلاده. كان يسير منحنياً إلى الأمام قليلاً. مايثير الإستغراب بوجه خاص أن يرى المرء على وجه هذا الإنسان الهادىء الرزين - الذي عرفناه هكذا حتى الآن - تعبيراً قلقاً، لا بل كئيباً تقريباً، مع أنّ هذه السمة لم تكن من طبع بطرس إيڤانيتش.

كان يبدو وكأنه في حيرة. كان يمشي خطوتين ثم يتوقّف فجأة، وسط الحجرة، أو يقيس أبعاد الغرفة وهو يتنقل بخطواتٍ سريعة من زاوية لأخرى. يبدو أن هاجساً غير عادي كان يستولي عليه.

بالقرب من الطاولة، على كرسيّ وثير، كان يجلس رجلٌ قصير القامة، ممتلىء يُعلق صليباً على رقبته، ويرتدي بدلة مزرّرة بإحكام، وهو يضع ساقاً فوق أخرى. كان ينقصه فقط عصا ذات مقبض كبير مذهّب، أي نفس العصا الكلاسيكية، التي يتعرف القراء من خلالها فوراً على الأطباء في الروايات

والقصص. ربما كان هذا الصولجان يليق بالطبيب عندما يتنزه ويتسكّع في أوقات الفراغ، وهو ممسك به، فيمضي ساعات بكاملها جالساً عند المرضى يواسيهم، وغالباً مايجمع دورين أو ثلاثة أدوار: دور الطبيب، والفيلسوف العملي وصديق البيت لكنّ هذا كله يكون ملائماً هناك، حيث يعيش الناس برحابةٍ وبحبوحة، وحيث يكون المرض نادراً والأطباء ترفاً، أكثر ممّا هم ضرورة. لكنّ طبيب بطرس إيڤانيتش، كان طبيباً بطرسبورغيّاً. لم يكن يعرف السير على الأقدام، مع أنه كان ينصح المرضى بذلك. إنه عضو في أحد المجالس، وسكرتير لإحدى الجمعيات وبروفيسور وطبيب متعاقد مع العديد من المؤسسات الحكومية، وطبيب للفقراء، وزائر دائم لكلّ المؤسسات الإستشارية، ولديه خبرة هائلة. حتى أنه لاينزع القفّاز عن يده اليسرى، وماكان لينزعه عن يده اليمنى لولا حاجته لجسّ نبض المريض، لايفكّ أزرار بدلته أبداً ولايجلس تقريباً. كان طبيبنا هذا، بسبب نفاذ صبره، يضع تارةً ساقه اليمنى فوق اليسرى، وتارةً أخرى، اليسرى فوق اليمنى. كان موعد مغادرته قد حلّ منذ فترة طويلة، فيما كان بطرس إيڤانيتش يلوذ بالصمت ولايقول شيئاً أخيراً.

- ما العمل يادكتور؟ - سأل بطرس إيفانيتش فجأة وهو يتوقّف أمامه.

- سافر إلى كيسينغن، - أجاب الطبيب، - تلك هي الوسيلة الوحيدة. صارت النوبات تتكرّر عندك كثيراً جداً. . .

- (مقاطعاً) مابك! لاتتحدّث إلا عني! - قال بطرس إيڤانيتش. - أكلّمك عن زوجتي. لقد بلغتُ الخمسين، أما هي، فما تزال في ريعان الشباب ويجب أن تعيش، وإذا بدأت صحتها تتدهور في هذه السنّ.

- تتدهور! - قال الطبيب - أطْلَعْتُكَ فقط على مخاوفي في المستقبل، أما الآن، فلا خوف إطلاقاً. . . كنتُ أريد أن أقول فقط، إنّ صحتها. . . لا أعني صحتها تحديداً، إنما أودّ القول إنّ وضعها. . . يبدو وكأنه غير طبيعي. . .

twitter @baghdad_library

- وما الفرق؟ لقد أبديت ملاحظتك عَرَضاً، هل نسيت؟ منذ ذلك الوقت، وأنا أراقبها بإمعان، وفي كل يوم، أكتشف فيها تغيرات غير مُطمْئنة- فأنا لا أعرف الهدوء منذ ثلاثة أشهر كيف لم أر هذا سابقاً، - لا أفهم الوظيفة وأعمال المصنع تستنفذ الوقت والصحّة. . . وها هي أيضاً تُلحق الضرر بزوجتي الآن. صار يتمشّى في الغرفة من جديد.

- هل استفسرت منها اليوم عن أحوالها؟ - سأل هو، ثمّ صمت.

- أجل، لكنها لاتلحظ شيئاً. في البداية كنتُ أفترض، أن السبب فيزيولوجي: فهي لم تُنْجب. . . لكن، يبدو لي أنّ هذا، ليس هو السبب! ربما يكون السبب نفسياً تماماً. . .

- (ملاحظاً) هذا أسهل! - قال بطرس إيڤانيتش.

- وربما لايوجد شيء. فلا جود لأية أعراضٍ جديّة مثيرة للشك! قد يكون هذا. . . ناجماً عن العيش الطويل هنا، في هذا المناخ المستنقعي الرطب. سافرا إلى الجنوب: غيِّرا الجوّ وتنشّطا هناك. استجمعا وجدِّدا قواكما، وسنرى بعدها ماسيحدث. امضيا الوقت في كيسينغن صيفاً، واستجمّا في المياه المعدنية هناك، وفي الخريف، سافرا الى ايطاليا، وفي الشتاء إلى باريس: أؤكد لك، أنه لن تكون عندئذ أيّ مضاعفات أو مخاوف.

لم يكن بطرس إيڤانيتش يسمعه تقريباً.

- سبب نفسيّ! -قال بصوتٍ خافت، وهو يهز رأسه.

- لماذا أقول: نفسيّ، قال الطبيب، أيّ شخص لايعرفك، لابّد أن يشكّ بوجود بعض الهموم. . . كلا، أنا لا أعني الهموم. . . بل الرغبات المكبوتة. . . يشعر الإنسان أحياناً بالحاجة والنقص. . . ما أودّ أن أقوله، هو أن ألفت انتباهك إلى فكرة.

- (مقاطعاً) حاجة، رغبات! - قال بطرس إيڤانيتش. - كل رغباتها يمكن تلبيتها، فأنا أعرف ذوقها وعاداتها، أما الحاجة... غم! ألا ترى بيتنا، هل تعرف كيف نعيش...؟

-بيت جميل رائع، - قال الطبيب، - لا بل ساحر... الطبّاخ رائع، والسجائر لذيذة فاخرة! وصديقك الذي يعيش في لندن... هل توقّف عن إرسال النبيذ الفاخر إليكم؟ لم ألحظ هذه السنة وجود ذاك الصّنف عندكم...

- ما أغدر القدر يادكتور! لم أكن يقظاً إزاءها، ولا حريصاً عليها! بدأ بطرس إيڤانيتش بحرارة غير مألوفة بالنسبة له. -كنتُ أزنُ كل خطوة... لكنّ المرء لايستطيع الإحاطة بكلّ شيء... كيف تأتي المشاكل على حين غرّة، ومتى؟ في غمرة النجاحات الباهرة... آه!

لوّح بيده وتابع المشي جيئة وذهابا.

- لِمَ أنتَ قلقٌ هكذا؟ -قال الطبيب - لاوجود للخطر إطلاقاً. أكرّر لك ماقلته في المرّة الأولى، إنّ جسمها سليم تماماً: لاوجود لأية أعراض فعّالة إطلاقاً. يوجد فقر دم، وشيء من انحطاط القوى... - هذا كل شيء!

-ترّهات! - قال بطرس إيڤانيتش.

- توعّك صحّتها سلبي، لاإيجابي، - تابع الطبيب، - وهل وحدها هكذا؟ انظرْ إلى كل الناس، الذين لم يُولدوا هنا: مَنْ يشبهون؟ ارْحلا، ارحلا من هنا. وإذا لم تسافرا، فينبغي أن تُسليها. لا تدعها تجلس، ينبغي أن تلاطفها وتداريها وتدعوها للنزهات. كثرة الحركة، ضرورية للجسد والروح: فهما في غفوة غير طبيعية عندها. تستطيع مع الزمن ان تتعافى طبعاً، إذا نفّذت هذا...

وداعاً يادكتور! سأذهب إليها، - قال بطرس إيڤانيتش، ثم انطلق بخطوات سريعة الى غرفة زوجته. توقف عند الباب، وفتح الستارة بهدوء. ثم ألقى على زوجته نظرة قلقة.

twitter @baghdad_library

ما الشيء الخاص، الذي لاحظه الطبيب فيها؟ كلّ من يراها للمرة الأولى، لابدّ أن يجد فيها امرأة تشبه الكثيرات في بطرسبورغ. صحيحٌ أنها شاحبة؛ نظرتها ربداء، وقميصها الفضفاض يهفهف بحريّة فوق كتفيها وصدرها الناعم؛ حركاتها بطيئة وخاملة تقريباً... لكنْ، أليست الحمرة ورشاقة الحركات وبريق العينين - هي السمات المميزة لحسناواتنا؟ أما روعة الأشكال... فلن يعثر فيدي[1] ولابراكسيتل[2] على ڤينوسات من أجل صنع تماثيل لهنّ.

كلا، ليس الجمال المتناسق، هو ماينبغي البحث عنه في أوساط حسناوات الشمال: فهنّ لايصلحن كنماذج للتماثيل. لم يُمْنَحْن الوضعيات والميزات القديمة، اللواتي تَخلّدَ فيهنّ جمال النساء الإغريقيات، فهذه الوضعيات لاتُخلق من عدم: فلا وجود لذاك التناسق المحيطي للجسد، الذي لاعيب فيه... كما أنّ الشهوانيّة لاتفيض من أعينهنّ بحزمةٍ من الأشعة الملتهبة. على شفاههنّ المنفرجات قليلاً، لاتذوب تلك الإبتسامة الشهوانية المعبرة، التي تتوهّج بها شفاه المرأة الجنوبية. كان من نصيب نسائنا جمالٌ رفيع آخر. فأدة النحت لاتستطيع أن تلتقط بريق الفكرة في قسمات وجوههنّ، ولا صراع الإرادة والشهوة، ولا تلاعب حركات الروح، التي تخفي في ثناياها تلاوين دقيقة لاتحصى من الدهاء والبساطة المتكلّفة والغضب والطيب والأفراح الخفيّة والعذابات والظرافة، التي يعجز اللسان عن وصفها... ولا كلّ هذه البروق العابرة، المنبعثة من نفسٍ قويّة متمركزة...

مهما يكن من أمر، فإنّ أيّ شخصٍ يرى ليزابيتا ألكسندروڤنا للمرّة الأولى، لايمكن أن يلحظ فيها أيّ أثر لخللٍ أو مرض. لكنْ وحده فقط، من كان يعرفها سابقاً ويتذكّر نضارة وجهها وبريق نظراتها، الذي كان قوياً لدرجة يستحيل فيها على المرء تحديد لون عينها، الغارقتين في الأمواج المتراقصة لهذا البريق الساحر،

(١) - فيدي - نحّات يوناني قديم عاش في بداية القرن الخامس ق.م (المترجم).

(٢) - براكسيتل (عاش تقريباً في الفترة الواقعة مابين ٣٩٠ - ٣٣٠ ق.م) نحّات يوناني قديم، يعتبر مؤسس المدرسة الكلاسيكية (المترجم).

ومن يتذكّر كتفيها الرائعين وصدرها الجميل ونهديها المكوّزين وخصرها الضامر، وقامتها الرشيقة، لابدّ أن ينظر إليها الآن بدهشة مؤلمة وينقبض قلبه أسفاً وإشفاقاً عليها، إنْ لم يكن غريباً عنها، كما انقبض الآن قلب بطرس إيڤانيتش، الذي يخشى أن يعترف بهذا لنفسه.

دخل إلى حجرتها بهدوء وجلس بالقرب منها.

- ماذا تفعلين؟ - سأل هو.

- أُلقي نظرة على سجلّ المصروفات، - أجابت هي. - تَصَوَّرْ يابطرس إيڤانيتش في الشهر الماضي صرَفْنا على حفلةٍ واحدة ألفاً وخمسمائة روبل، وهذا مبلغ كبير جداً.

أخذ السجلّ من يدها، دون أن ينطق بكلمة، ووضعه على الطاولة.

- اسمعي، بدأ هو، - يقول الطبيب أنّ مرضي يمكن أن يتفاقم هنا، لذا ينصحني بالسفر إلى الخارج كي أتعالج بالمياه المعدنية. ماذا تقولين؟

- ماذا أقول؟ أعتقد أنّ رأي الطبيب في هذا المجال أهمّ من رأيي. مادام رأي الطبيب هكذا، فلابّد من السفر...

- وأنتِ؟ هل كنتِ تودّين القيام برحلةٍ كهذه؟

- ربّما.

- لكنْ، ربّما كنتِ تُفضلين البقاء هنا؟

- حسناً، سأبقى.

- أي خيار تُفضلين: البقاء أم السفر؟ -سأل بطرس إيڤانيتش بشيء من نفاذ الصبر.

- تصرّف كما تريد في كلّ مايخصّك ويخصني، - أجابت بعدم اكتراث ممزوج بالحزن، - إن شئت- أسافر، وإن لم تشأ- فإنني سأبقى هنا...

-يستحيل أن تبقي هنا، لاحظ بطرس إيڤانيتش، - الطبيب يقول، إنّ صحتك قد ساءت قليلاً... بسبب المناخ.

twitter @baghdad_library

- على أيّ شيءٍ يستند رأيه هذا؟ -قالت ليزابيتا ألكسندروفنا- صحتي سليمة، ولا أحسّ بأي شيء.

- الرحلة طويلة، -قال بطرس إيڤانيتش، - وقد تكون متعبة بالنسبة لك أيضاً، ألا تودّين أن تعيشي عند عمتك في موسكو خلال فترة غيابي في الخارج؟

- حسناً، سأسافر الى موسكو.

- هل نسافر معاً إلى القرم في الصيف؟

- حسناً، سنسافر إلى القرم.

لم يستطع بطرس إيڤانيتش أن يحتمل: نهض عن الأريكة وبدأ يتمشّى في الغرفة، ثمّ توقف أمامها.

- الأمر سيّان عندك إلى أيّ مكان نذهب؟

- سيّان.

- لماذا؟

لم تردّ على سؤاله، واكتفت بأن أخذت سجلّ المصروفات عن الطاولة.

- الرأي رأيك يابطرس إيڤانيتش، - قالت هي، - ينبغي أن نُقلّص مصاريفنا ألف وخمسمائة روبل على حفلة واحدة...

- أخذ سجلّ المصروفات منها ورماه تحت الطاولة.

- لِمَ أنتِ مهتمّة كثيراً بهذا الأمر؟ - سأل هو - هل تأسفين على النقود؟

- كيف لا أهتمّ؟ ألستُ زوجتك! أنتَ الذي علّمْتني هذا كلّه... وتأتي الآن لتلومني، لأنني أهتمّ... أنا أقوم بعملي!

- اسمعي ياليزا! -قال بطرس إيڤانيتش بعد صمت قصير. - تريدين أن تُغيّري طبعك وتقهري إرادتك... هذا أمر سيّء. لم أرغمك أبداً على فعل شيء: لن تقنعيني بأنّ هذه الأمور (أشار إلى سجلّ المصروفات) يمكن أن تثير اهتمامك. لماذا تريدين أن تقسري نفسك؟ إني أمنحك كامل الحريّة.

- يا إلهي! وماحاجتي للحريّة؟ - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا. - ماذا أفعل بها؟ تَصرّفْتَ جيّداً حتى الآن. بذكاء، بي وبنفسك، لدرجة أني نسيتُ إرادتي. اِستمر هكذا أيضاً؛ لستُ بحاجة للحريّة.

صمتَ الإثنان.

- منذ زمن بعيد. - بدأ بطرس إيڤانيتش من جديد، - لم أسمع منكِ ياليزا أيّ طلب أو رغبة أو نزوة.

- لست محتاجة لشيء، - لاحظت هي.

- أليست لديكِ رغبات خاصّة... خفيّة؟ سأل بتعاطف وهو ينظر إليها بإمعان.

تردّدت بين أن تتكلّم أو تصمت.

لاحظ بطرس إيڤانيتش هذا.

- تكلّمي، بالله عليكِ، تكلّمي! - تابع هو - ستصبح رغباتك رغباتي، وسأنّفذها كقانون.

حسناً، - أجابت هي، - إذا كنتَ تستطيع أن تفعل هذا من أجلي... فإنّي أتمنى عليك إلغاء مناسبات أيام الجمعة... فحفلات الغداء هذه، تتعبني...

استغرق بطرس إيڤانيتش في التفكير.

- لكنك تعيشين الآن في عزلة، رغم وجود هذه المناسبات، - قال هو، ثم صمت قليلاً، - فكيف ستصبحين بعد أن ينقطع الأصدقاء عن زيارتنا أيام الجمعة، - ستحسّين عندئذ كما لو أنكِ في صحراء مقفرة تماماً. بالمناسبة: إذا كانت هذه هي رغبتك، فسأُنفّذها. ماذا ستفعلين عندئذ؟

- دع سجلّ المصروفات من اختصاصي، وكَلِّفْني ببعض الأعمال الأخرى... سأشغل نفسي بها... - قالت هي، ثم مدّتْ يدها تحت الطاولة لتلتقط سجلّ المصروفات.

- بدا هذا كلّه في عينيّ بطرس إيفانيتش تكلّفاً مُقنّعاً جداً.

twitter @baghdad_library

- ليزا! . . . - قال بعتاب.

بقي سجلّ المصروفات تحت الطاولة.

- كنتُ أحسبُ أنك ستعيدين الصلة ببعض المعارف، الذين انقطعنا تماماً عن زيارتهم. كنتُ أريد أن أقيم من أجل هذا حفلة رقصٍ، تروّحين فيها عن نفسك وتفكّين طوق العزلة هذا. . .

- آه، كلاّ، كلاّ! - بدأت ليزابيتا ألكسندروفنا تتكلّم بهلع. - بالله عليكَ لاتفعل! كيف يمكن هذا. . . حفلة رقص!

-لماذا هالكِ هذا الأمر كثيراً؟ في مثل سنّك، ينبغي أن يكون الرقص ضمن دائرة اهتمامك ورغباتك، فأنت ترقصين جيّداً. . .

كلاّ يابطرس إيڤانيتش، أرجوك ألاّ تفعل هذا! - بدأت تتكلّم بحيويّة فأنا لا أريد أن أهتم بزينتي، ولا أرغب ارتداء الثياب الأنيقة الفاخرة، ولا استقبال الناس أو الخروج في زيارات.

- هل تريدين أن تُمضي حياتكِ كلها إذاً، وأنت ترتدين هذا الروب الفضفاض؟

- أجل، فأنا لا أريد أن أُبدله، إذا كان هذا لايزعجك. علامَ الزينة والثياب الفاخرة؟ إنها مضيعةٌ للنقود والوقت بلا جدوى.

- تعرفين ماذا؟ - قال بطرس إيڤانيتش فجأة - سمعتُ أنّ روبيني قد قَدِمَ إلى بطرسبورغ لفترة طويلة. سيكون بوسعنا ان نرتاد دائماً حفلات الأوبرا الإيطالية. فقد حجزتُ مقصورة من أجلنا - ماذا تقولين؟

ظلّت صامتة.

-ليزا!

- عبثاً. . . - قالت هي بحياء، - أعتقد أنّ هذا سيكون متعباً لي أيضاً. . . أنا منهكة.

أطرق بطرس إيڤانيتش رأسه واقترب من الموقد، فاستند عليه وصار ينظر إليها. . . بطريقة لا أعرف كيف أصفها، بكآبة، أم بقلقٍ، أم بخوف.

- ليزا، لِمَ. . . - بدأ يتكلّم، لكنّ كلمة «عدم الإكتراث» لم تخرج من لسانه.

نظر إليها طويلاً بصمت. قرأ في عينيها المعتمتين الجامدتين، وعلى وجهها، الذي لايبدو عليه أيّ إحساس أو تفكير، وفي وضعيّتها الخاملة الذابلة وحركاتها البطيئة سبب عدم الإكتراث ذاك، الذي خاف أن يُسأل عنه. لقد خمّن الجواب منذ أن لمح له الطبيب عن مخاوفه. صحا عندئذ وصار يفكر كيف يُبعد عن زوجته كلّ ما من شأنه إلحاق الضرر بعلاقتهما الزوجيّة، لكنه مع ذلك، لم يُعوّضها عمّا كانت تفتقده من شروط مميزة تُشكل أساس المسرّة والسعادة التي كان يمكن أن تعثر عليها خارج الزواج، فقد كان عالمها الزوجيّ، بسبب أسلوب زوجها، شبيهاً بحصنٍ منيع، عصيٍّ على الراحة والهناء، فلا يصادف المرء فيه في كلّ خطوة يخطوها، إلا العراقيل والعسس، التي تقف ضدّ التبدّي المشروع للعواطف والمشاعر.

علاقاته الجافّة الرتيبة معها، كانت تمتدّ لتطاول دون معرفة منه، إرادتها، ولتتحوّل إلى ظلمٍ قاسٍ مبطّن، لكنّ لأي شيء؟ لقلب المرأة! مقابل هذا الظلم والعسف، كان يُقدّم لها الغنى والترف وكل شروط السعادة الخارجية القشرويّة، المنسجمة مع نمط تفكيره، - فكان الخطأ رهيباً فادحاً؛ كان فظيعاً، لأنه لم يكن متأتياً عن جهلٍ وعدم معرفة عميقة بتقلبها وطبعها - فقد كان يعرف هذا كله - بل عن استخفافٍ وأنانية! كان ينسى، أنها لاتمارس عملاً وظيفياً ولا تلعب الورق، ولاتملك مصنعاً. كان ينسى أن الوليمة الفاخرة التي تضمّ أشهى المأكولات وألذّ الخمور، لاتملك قيمة تُذكر في عينيّ المرأة فيما كان يجبرها على أن تعيش حياةً كهذه.

كان بطرس إيفانيتش طيّباً. كان مستعداً لأنْ يبذل المستحيل من أجل تصحيح الخطأ وإزالة الحيف والظلم، إنْ لم يكن بدافع من حبّه لزوجته، فبإحساس من العدل والإنصاف، لكنْ كيف يُصحّح؟ لم يستطع النوم منذ أنْ أخبره الطبيب عن مخاوفه المتعلّقة بصحّة زوجته، وهو يسعى ويجدّ البحث عن كل الوسائل، التي من شأنها إنعاش قوى زوجته الذابلة، والتوفيق بين قلبها ووضعها الراهن. وهاهو

twitter @baghdad_library

الآن يفكّر بالشيء ذاته، وهو يقف بالقرب من الموقد. وقد يكون هذا المرض ناجماً عن حياتها الرتيبة المملّة التافهة.

بدأ العرق البارد يتصبب على جبينه. صار ضائعاً حائراً، فقد أحسّ أن الوسائل الضرورية لمعالجة هذا الوضع ينبغي أن تنبع من القلب، أكثر مما تنبع من العقل. لكن، من أين يحصل عليها؟ شيءٌ ما كان يقول له، إنه كان ينبغي أن يخرّ عند قدميها ويضمّها إلى صدره بحبّ، ويقول لها بصوت شغوف، إنه يعيش من أجلها فقط، وإنّ الهدف الذي يبغيه من أعماله ونشاطاته كلها، هو إسعادها وإرضاؤها، وإنّ أسلوب تصرّفه معها، إنما هو مستوحى فقط من رغبته الحارّة القويّة الملحاحة، المتّسمه بالإصرار على كسب قلبها وحبّها. كان يعتقد أنّ مثل هذه الكلمات يمكن أنْ تُحسّن الوضع وتنعكس فوراً بصورة إيجابية على صحّتها وتزيد من سعادتها، وربما لن يكون ضرورياً عندئذ، السفر للتعالج بالمياه المعدنية.

لكنّ قول هذا، شيء، وإثباته، - شيءٌ مختلف تماماً. كي يُثبت هذا، لابدّ أن يكون شغوفاً مُغرماً. لكنّ بطرس إيڤانيتش لم يعثر على شيء من هذا، وهو يُنقّب في أعماقه. أحسّ فقط، أنه محتاج لزوجته، لكنّ حاجته تلك، لم تكن إلاّ إحدى حاجاته الحياتية الأخرى، التي يحسّ بضرورتها، بحكم العادة. ربما لم يكن مستبعداً أن يتظاهر بلعب دور المُغرم، رغم مايثيره التحدث بلغة العاشق، من سخرية في سنّ الخمسين. لكن، هل يستطيع الرجل أن يخدع المرأة بالعاطفة، عندما لاتكون موجودة؟ هل سيجد لديه بعد ذلك، مايكفي من الشجاعة والمهارة، كي يضطلع بهذا الدور؟ ألن تقتلها نهائياً كرامتها المهانة، عندما تلاحظ، أنّ هذا كان يمكن أن يكون شراباً سحرياً شافياً منذ بضع سنوات، وأنه يُقدّم إليها الآن كدواء؟ كلا، فقد كان يزن ويحسب هذه الخطوة المتأخرة على طريقته الخاصة، ولم يُقْدِم عليها. كان يعتقد، أنه ربما سيقوم بخطوةٍ أخرى مختلفة قليلاً، وفق مايمليه ويسمح به الظرف الراهن. منذ ثلاثة أشهر، تدور في ذهنه فكرة كانت تبدو له فيما مضى سخيفة تافهة، أما الآن - فالأمر مختلف! كان يحتفظ بها لوقت الضرورة: وها هي الضرورة القصوى قد حلّت، لذا فإنه عَزَمَ على تنفيذ خطّته.

«إذا لم تساعدني في فكرتي هذه، - فكّر هو، - فلن يبقى عندئذ أيّ أملٍ في النجاة! ليكن مايكون!».

اقترب بطرس إيڤانيتش من زوجته بخطواتٍ حاسمة وأمسك يدها.

-تعرفين ياليزا-، -قال هو، - أهميّة الدور الذي أقوم به على الصعيد الوظيفي: فأنا أعتبر أنشط وأهمّ موظّف في الوزارة كلّها. سأُرشَّح هذا العام لمنصب مستشار سرّي وسأفوز، لاتظني أنني سأنتهي عند هذا المنصب: فأنا أستطيع أن أتسنّم مناصب أرفع...

نظرتْ إليه بدهشة، وهي تنتظر قصده من هذا الكلام.

- لم أشكّ أبداً في إمكاناتك، - قالت هي، - أنا واثقة تماماً، أنك لن تقف في منتصف الطريق، بل ستسير حتى النهاية...

- كلا، لن أسير: سأتقاعد قريباً.

- تتقاعد؟ - سألت بدهشة، وهي تستوي في جلستها.

- أجل.

-لماذا؟

-اسمعي أيضاً. تعلمين أنيّ صفيّتُ الحساب مع شركائي، وأنّ المصنع صار يخصني وحدي. إنه يدرّ عليّ أربعين ألف روبل من الربح الصافي، دون أيّ عناء. إنه يسير كالآلة المضبوطة.

- أعرف. ماذا تريد أن تقول؟ - سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

- سأبيعه.

- بطرس إيڤانيتش، ماذا تقول! مابك؟ - صارت ليزابيتا ألكسندروڤنا تتحدّث بدهشة متزايدة، وهي تنظر إليه بهلع - علام هذا كله؟ لا أستطيع أن أفهم...

- أيعقل أنك لاتستطيعين أن تفهمي؟

- كلا!... - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا بارتباك.

twitter @baghdad_library

- ألا تستطيعين أن تدركي، وأنا أرى كيف تعانين وتتكدرين وكيف تسوء صحتك. . . بسبب المناخ، أنني لن أحرص على مستقبلي ومصنعي، وأنني سآخذك من هنا؟ ألن أُكرّس بقيّة حياتي لك؟ . . . ليزا! هل تعتبرينني غير قادر على التضحية؟ . . . - أضاف هو بعتاب.

-تفعل هذا من أجلي إذاً - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا، وهي لاتكاد تتمالك نفسها. - لا يابطرس إيفانيتش! - بدأتْ تتكلّم بحيويّة وقد بدت قلقةً كثيراً. - ناشدتك الله ألاّ تُضحّي بشيء من أجلي! لن أقبل هذا إطلاقاً - لن أقبل! لا أوافق على أن تكفّ من أجلي، عن العمل وجمع المال والثروة! لا، أبداً! لستُ جديرة بهذه التضحية! اعذرني. كنتُ ساذجة وضعيفة وعاجزة عن فهم واستيعاب أهدافك السامية وجهودك النبيلة. . . لست المرأة التي كنتَ تحتاجها.

-لن تمنعني شهامتُك وأنفتُك عن هذا! - قال بطرس إيڤانيتش، وهو يهزّ كتفيه- أصبح الأمر محسوماً ياليزا، ولن أتراجع عن عزمي!.

- ياإلهي، ياإلهي، ماذا فعلت! لقد ألقي بي كصخرة على طريقك؛ إني أعيقك وأزعجك. . . كم هو غريب مصيري! - أضافت هي بيأسٍ تقريباً - لا أريد ولاينبغي أن أحيا. . . ربي خذني برحمتك! أتوسّل إليك ياربّ، راجية أن تَقْبَلَ دعائي وتحرمني الحياة، فأنا لا أريد أن أزعج أحداً.

-من العبث ان تظنّي، أنّ هذه التضحية صعبة عليّ، لقد سئمت هذه الحياة الجامدة! أريد أن أستريح وأنعم بالهناء والطمأنينة، ولن أحسّ بالنعيم إلا معكِ أنت. سنسافر إلى إيطاليا.

- بطرس إيڤانيتش! - قالت وهي تبكي تقريباً. - أنت طيّب ونبيل. . . أعرف أنك قادر على تنفيذ وأداء دور المضحّي. . . لكن هذه التضحية قد تكون عديمة الجدوى. إذ ربما يكون الوقت قد أصبح. . . متأخراً، فلا تترك أعمالك. . .

- (معترضاً) ارحميني ياليزا، ولاتستسلمي لهذه الفكرة. - قال بطرس إيڤانيتش، - وإلاّ فإنك ستتأكدين بأنني لست مصنوعاً من حديد. . . أكرّر لك، أنني لا أريد أن أعيش بعقلي فقط: لم يتجمدّ فيّ كل شيءٍ بعد.

- نظرت إليه بإمعان وارتياب.

- تقول هذا... - مخلصاً؟ - سألت هي، ثم صمتت. - هل تنشد الهدوء حقاً، وهل أنت مسافر فعلاً، ليس من أجلي فقط؟

- كلا، ليس من أجلك فقط، بل من أجلي أيضاً.

- إذا كان من أجلي، فلن أوافق مطلقاً، أجل لن أوافق...

- كلاّ، كلاّ! أحسّ بتوعّك، أنا متعب... وأريد أن أستريح. أعطتهُ يدها، فقبّلها بحرارة.

- نحن مسافران إلى إيطاليا إذاً؟ - سأل هو.

- حسناً، سنسافر، - أجابت برتابة.

كأنّ جبلاً قد أزيح عن كاهل بطرس إيڤانيتش. «سيحدثُ شيءٌ ما!» - فكّر هو.

جلسا طويلاً، دون أن يدري كلٌّ منهما مايقوله للآخر. لم يكن معروفاً مَنْ منهما الذي كان سيقطع حبل الصمت أولاً، لو أنهما ظلاّ معاً. لكنْ، هاهي خطوات مستعجلة تُسْمع في الغرفة المجاورة. ظهر ألكسندر.

كم تغيّر! كم صار ممتلئاً! صار أصلع، ورديّ اللون! كم يعتدّ بكرشه البارز، وبالوسام الذي يُعلقه على رقبته! كانت عيناه تبرقان سروراً. قبّلَ يد زوجة عمّه بإحساسٍ خاص وصافح عمّه.

- من أين قادمٌ أنت؟ -سأل بطرس إيڤانيتش.

- احزر، - أجاب ألكسندر بصورة معبّرة.

- أراك متمتّعاً اليوم بنشاطٍ مُميّز، - قال بطرس إيڤانيتش وهو ينظر إليه متسائلاً.

- أراهن أنك لن تحزر! - قال ألكسندر.

- منذ عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة، كما أذكر، جئتني راكضاً هكذا، لاحظ بطرس إيڤانيتش، - وكسرتَ لي وقتها شيئاً ما... عندئذ، حزرتُ فوراً

twitter @baghdad_library

بأنك عاشق، أما الآن . . . هل يُعقل أن تكون عاشقاً أيضاً؟ كلا، هذا غير ممكن: فقد أصبحت ذكياً بما فيه الكفاية، لذا فإنه يستحيل أن تكون . . .

نَظَرَ إلى زوجته وصمتَ فجأة.

- هل تستطيع أن تحزر؟ - سأل ألكسندر.

نظر عمّه إليه وهو مايزال يفكّر.

- هل ستتزوّج؟ - قال بتردّد.

- حزَرْتَ! - هتَفَ ألكسندر بمهابة - هنّئْني.

- حقّاً؟ مَنْ هي؟ - سأل العم وزوجته.

- ابنة ألكسندر ستيبانيتش.

- معقول؟ - إنها غنيّة جداً، - قال بطرس إيڤانيتش. - وأبوها . . . موافق؟

- أنا قادم من هناك الآن. لِمَ لا؟ على العكس، لقد أصغى إلى طلبي والدموع في عينيه، ثم ضمّني وقال، إنه يستطيع أن يموت الآن هادئاً مطمئناً، وهو يعرف أنّ سعادة ابنته قد أصبحتْ في أيدٍ أمينة . . . «سِرْ، - قال هو، - فقط على خطى عمّك!».

- هو قال هذا؟ أرأيت كيف لاتستطيع الإستغناء عن عمك حتى هنا!

- وماذا قالت البنت؟ - سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

- تعرفين . . . أنها كسائر الفتيات، - أجاب ألكسندر، - لم تقل شيئاً، بل احمرّت خجلاً فقط. لكنْ، عندما أمسكْتُ يدها، كانت أصابعها ترتجف، كما لو أنها تعزف على البيانيو.

- لم تقل شيئاً! - لاحظت ليزابيتا ألكسندروڤنا. - هل يُعقل أنك لم تقف على رأيها قبل أن تتقدّم لطلب يدها؟ هل الأمر سيّان عندك؟ لماذا تتزوّج؟

- كيف لماذا؟ أما كفاني تسكّعاً! سئمتُ الوحدة، وحان الوقت الذي يجب أن أستقرّ فيه ياخالة وأؤسس بيتاً وأسرة، وأنفّذ واجبي . . . العروس جيّدة

وغنيّة . . . عمي هو أكثر من يستطيع أن يشرح برصانةٍ وتفصيل، الهدف الذي يبغيه المرء من الزواج .

لَوّحَ له بطرس إيڤانيتش يده بصمت، خلسةً عن زوجته، كي لايستشهد به، لكنّ ألكسندر لم يلاحظ شيئاً .

- قد تكون غير معجبة بك، - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا - ربما لاتستطيع أن تُحبّك، - ماقولك في هذا؟

- ماذا يمكن أن أقول ياعماه؟ أنت تجيد الحديث أكثر منّي . . . سأستشهد بكلماتك، - تابع هو، دون أن يلاحظ أن عمه كان يتململ مكانه ويسعل بصورة ملفتة للنظر، كي يغيِّر الحديث - الزواج عن حبّ، قال ألكسندر، -تكون نتيجته أن يزول الحبّ ويسود منطق التعوّد فقط . أما الزواج عن غير حبّ، فيفضي إلى النتيجة ذاتها : أي إنّ الرجل يتعوّد على زوجته أيضاً . الحبّ حُبّ، والزواج زواج . الحبّ والزواج أمران لايجتمعان دائماً، والأفضل ألاّ يجتمعا . . . أليس هذا صحيحاً ياعماه؟ هكذا علّمْتني . . .

نظر إلى بطرس إيڤانيتش، وتوقّف فجأة عندما رأى أنّ عمه ينظر إليه بغضب . بفمٍ مفتوح وبارتباك، نظر إلى زوجة عمّه ومن ثمّ إلى عمه، وصمت . كانت ليزابيتا ألكسندروڤنا تهزّ رأسها بتأمّل .

-ستتزوّج إذاً! - قال بطرس إيڤانيتش . - آن الأوان حقّاً؛ مبروك! في مثل سنّك، يصبح الزواج مشروعاً الآن - لكنّ الأمر يختلف تماماً في الثالثة والعشرين، كما كنت تريد أن تفعل .

- الشباب، الشباب ياعمّاه!

- أنتَ تعترف الآن إذاً!

- استغرق ألكسندر في التفكير، ثم ابتسم .

- مابك؟ - سأل بطرس إيڤانيتش .

- خطَرتْ على بالي فكرة حمقاء .

twitter @baghdad_library

- ماهي؟

- عندما كنتُ عاشقاً . . . - أجاب ألكسندر وهو مستغرق في التفكير، - لم يكن الزواج يتيّسر لي . . .

- أما الآن فتتزوّج، دون أن يتيسّر الحبّ لك، - أضاف العم، وصار الإثنان يضحكان.

-ينتج عن هذا، أنك كنتَ مُحقّاً ياعمّاه، عندما افترضْتَ أنّ التعوّد، هو الأساس الذي يُبنى عليه الزواج.

- عَبَسَ بطرس إيڤانيتش من جديد في وجهِ ابن أخيه. صمتَ ألكسندر وهو لايدري ماذا يقول.

-الزواج في الخامسة والثالثين، - قال بطرس إيڤانيتش، - أمر منطقي، لكن، ألا تذكر كيف كنت تغضب وتثور وتنتقد الزواج غير المتكافىء بعنف، عندما كنتَ تقول إن فتاةً بعمر الورد تُزيّن بالألماس والأزهار وتُقاد كالضحيّة لتُدفع في أحضان رجل كهل قبيح، غالباً مايكون أصلع.

- إنها فورة الشباب ياعمّاه! لم أكن أفهم جوهر الأمر، قال ألكسندر وهو يُمسّد شعره بيده.

- لابدّ أنك تذكر، - تابع بطرس إيڤانيتش، - عندما كنت مغرماً بتلك، نسيتُ اسمها . . . ناتاشا؟ «كم كنتَ غيوراً منفعلاً وسعيداً» . . . أين اختفى ذاك كلّه؟ . . .

-كفى، كفى ياعمّاه! - قال ألكسندر وقد احمرّ خجلاً.

- أين «الحبّ العظيم المتوقّد والدموع»؟ . . .

- عمّاه!

- ماذا؟ لم تعد تأسرك «الانفعالات الصادقة» ولا الأزهار الصفراء! «سئمت الوحدة» . . .

-مادام الأمر هكذا ياعماه، فأثبت لك، أنني لست الشخص الوحيد، الذي كان يُحبّ ويغار ويبكي ويثور . . . توجد لديّ وثيقة مكتوبة . . .

أخرج من جيبه محفظة نقود، وبعد أنْ قَلّبَ الأوراق الموجودة فيها، أخرج ورقة قديمة مصفرة وبالية تقريباً.

- هذه الورقة ياخالة، - قال هو، - تعتبر دليلاً قاطعاً على أنّ عميّ لم يكن هكذا إنساناً عقلانياً ساخراً وإيجابياً. فقد عرف بدوره أيضاً، الإنفعالات الصادقة، التي كان يُدوّنها على الورق بحبرٍ خاص مميز أيضاً. أربع سنوات وأنا أحمل وأحتفظ بهذه الوقة معي، وأنتظر الفرصة الملائمة كي أكشف عمّي على حقيقته. كنتُ قد نسيتها لكنك أنتَ الذي جعلتني أتذكرها.

- ماهذا الكلام الفارغ؟ أنا لا إفهم شيئاً، -قال بطرس إيڤانيتش وهو ينظر إلى قصاصة الورق.

- انظرْ.

- حمل ألكسندر الورقة ومرَّ بها أمام عيني عمه. اكفّهر وجه بطرس إيڤانيتش فجأة

- هاتها، هاتها ياألكسندر! - صرخ هو بسرعة، وأراد أن يخطف الورقة. لكن ألكسندر سحب يده بسرعة. كانت ليزابيتا ألكسندروڤنا تنظر إليهما بفضول.

-كلا، لن أعطيك إيّاها ياعمّاه، - قال ألكسندر، - إلا بعد ان تعترف هنا أمام زوجة عمّي، بأنك أحببت في وقت من الأوقات، كما أحببتُ أنا وغيري... وإلا فإني سأسلمها هذه الوثيقة لتكون دليلاً قاطعاً ضدك إلى الأبد.

- يالك من همجي! - صرخ بطرس إيڤانيتش، - ماذا تفعل بي؟

- لاتريد؟

- أجل، لقد أحببت. هاتها.

- كلا، ألم تكن تُرغي وتُزبد وتغار؟

- حسناً، كنتُ أرغي وأزبد وأغار... - قال بطرس إيڤانيتش وقد تغضّن وجهه.

- وتبكي؟

twitter @baghdad_library

- كلاّ، لم أبكِ.

- غير صحيح لقد سمعتُ هذا من خالتي، اعترف.

-لا يطاوعني لساني ياألكسندر، هل تريدني أن أبكي الآن.

- زوجة عمّي! تفضلي وخذي الوثيقة.

- أرني: ماهذه الورقة؟ - سألت وهي تمدّ يديها.

- كنتُ أبكي، كنتُ أبكي! هاتها! - صرخ بطرس إيڤانيتش.

-عند البحيرة؟

- عند البحيرة.

- وكنت تنتف الورود؟

- أجل. كفى، لقد اعترفت بكل شيء! هاتها!

- كلا، لم تعترف بكل شيء بعد؛ اقطع على نفسك عهداً بأنك ستنسى حماقاتي إلى الأبد، ولن تذكرها أو تُعيِّرني بها أبداً.

- وعد شرف.

أعطاه ألكسندر قصاصة الورق. خطفها بطرس إيڤانيتش وأحرقها فوراً.

- قل لي على الأقل، ماحقيقة هذه القصاصة؟ -سألت ليزابيتا ألكسندروڤنا.

-كلا ياعزيزتي، لن أقول حتى في يوم الحساب، أجاب بطرس إيڤانيتش. - أيعقل أن أكون قد كتبتُ هذا؟ هذا أمرٌ لايُصدّق.

- (مقاطعاً) أنت ياعماه! - قال ألكسندر. - سأردّد ماكنت قد كتبته: فقد حفظته عن ظهر قلب: «ملاكي المعبود...».

-ألكسندر! سأخاصمك إلى الأبد إن فَعَلْتَ! -صرخ بطرس إيڤانيتش بغضب.

- وكأن الأمر جريمة! - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا. -كيف يمكن أن يخجل المرء من حبّه الجميل الأول!

- هزت كتفيها وتحولت عنهما.

- في ذاك الحبّ كثير من الحماقات والسخافات . . . - قال بطرس إيڤانيتش بليونةٍ واستعطاف . - هاهي علاقاتنا تخلو من الإنفعالات والأزهار والنزهات في ضوء القمر . . . مع أنك تحبينني .

- أجل ، لقد تعوّدتُ عليك كثيراً ، - أجابت ليزابيتا ألكسندروڤنا بشرود .

بدأ بطرس إيڤانيتش يُمسّد فوديه بتأمل .

-مابك ياعمآه؟ - سأل ألكسندر بهمس ، - هذا مايجب أن يكون . غمزه بطرس إيڤانيتش ، وكأنه يقول له : «اسكتْ» .

- بطرس إيڤانيتش معذور بأن يفكر ويتصرّف هكذا ، - قالت ليزابيتا ألكسندروڤنا ، - إنه هكذا منذ زمن بعيد ، وأعتقد أنّ أحداً لايعرفه على غير هذه الصورة . لكنني لم أكن أتوقع منك مثل هذا التحوّل ياألكسندر .

- تأوّهت .

- لماذا تتأوّهين ياخالة؟ - سأل هو .

- أتأوّه أسفاً على ألكسندر السابق ، - أجابت هي .

- (معترضاً) هل كنت ترغبين ياخالة بأن أبقى كما كنتُ منذ عشر سنوات مضت؟ قال ألكسندر . - كان عمي محقّاً عندما كان يقول ، إنّ وضعي ذاك ، كان عبارة عن رومانسية حمقاء .

بدأ وجه بطرس إيفانيتش يحتدم غيظاً .

- كلا ، ليس كما كنت ، - أجابت ليزابيتا ألكسندروڤنا ، - منذ عشر سنوات مضت بل منذ أربع سنوات . هل تذكر الرسالة ، التي بعثتها لي من القرية؟ كم كنتَ رائعاً هناك!

- يبدو لي ، أنني كنتُ أحلم هناك أيضاً ، - قال ألكسندر .

- كلا ، لم تكن تحلم . هناك فهمتَ نفسك وفهمتَ الحياة . كنتَ هناك ، رائعاً ، نبيلاً وذكياً . . . لماذا لم تبق هكذا؟ لقد لاح ذاك الرائع لحظة ، ثم اختفى ، مثلما تلوح الشمس بين الغيوم ، ثم تختفي .

twitter @baghdad_library

-تريدين أن تقولي ياخالة، أنني لم أعد ذكياً . . . ولا أصيلاً الآن.

- معاذا الله! كلا! لكنك الآن ذكيّ وأصيل . . . على طريقتك الخاصة، لا على طريقتي . . .

- ما العمل ياخالة؟ - قال ألكسندر وهو يتنهّد بقوّة. - الزمن هكذا. إنني أسير مع الزمن: لايجوز أن أتخلّف عنه! سأستشهد بعمي وأقتبس بعض كلماته . . .

- ألكسندر! - قال بطرس إيڤانيتش بحنق - تعالَ معي إلى مكتبي لدقيقة: هناك أمر أودّ أن أقوله لك.

وصلا الى المكتب.

- ماهذه الرغبة الجامحة، التي دَفَعَتْك اليوم للاستشهاد بي؟ - قال بطرس إيڤانيتش. - ألا ترى وضع زوجتي؟

ماالأمر؟ - سأل ألكسندر بهلع.

- ألم تلاحظ شيئاً؟ سأستقيل من وظيفتي وأترك أعمالي كلها، وأسافر إلى إيطاليا.

- ماذا تقول ياعمّاه! - هتف ألكسندر بدهشة. - سترقّى هذا اليوم إلى منصب مستشار سرّي . . .

- أجل، لكن مستشارتي في وضع سيء . . .

قطع الغرفة جيئة وذهاباً ثلاث مرات وهو يفكّر.

- كلا، - قال هو، - لقد انتهى مستقبلي! يبدو أنّ القدر لايسمح لي بالذهاب أبعد من ذلك . . . ليكن! - لوّح بيده بطريقةٍ تنمّ عن عدم اهتمام.

- الأفضل أن نتحدّث عنك، - قال هو، - يبدو أنك تقتفي أثري . . .

- هذا يسرّني ياعمّاه! - أضاف ألكسندر.

- أجل! - تابع بطرس إيڤانيتش. - في الخامسة والثلاثين، صرتَ مستشاراً، وستتقاضى مقابل هذا مرتّباً جيّداً، كما أنك ستحصل على مبالغ كبيرة

أيضاً مقابل أعمالك الإضافية الأخرى، كما أنك ستتزوّج في الوقت الملائم تماماً من فتاة غنيّة . . . أجل، آل أدوييف يؤدّون عملاً عظيماً! أنت تشبهني تماماً، لكنْ، ينقصك فقط ألم في حقوك.

- أحياناً، أحسّ بألمٍ في حقوي . . . - قال ألكسندر وهو يتحسّس ظهره.

- هذا كله رائع، ماعدا ألم الحقو طبعاً، - تابع بطرس إيڤانيتش. - أعترف، أنني لم أكن أتوقّع أنك ستصبح شخصاً لبيباً صالحاً، عندما أتيت إلى هنا. كنتَ تحشو رأسك دائماً بمسائل رومانسية، غير واقعية، وتحلّق في السماء عالياً . . . لكنّ هذا كله قد انقضى والحمد لله! أقول لك الآن: سِرْ على طريقي بكلّ شيء. لكنْ . . .

- لكنْ، ماذا ياعمّاه؟

- كنتُ أريد أن أعطيك بعض النصائح . . . بخصوص زوجتك المقبلة . . .

- ماهي؟ هذا أمر مثير للفضول.

- كلا! - تابع بطرس إيڤانيتش، ثم صمت. - أخشى ألاّ أفيدك في هذا المجال، تصرّف حسب معرفتك أنت: لعلك تُفلح . . . الأفضل أن نتحدّث عن زواجك. يقال أنّ ميراث خطيبتك، - مائتا ألف روبل، - هل هذا صحيح؟

- أجل، يأتيها من أبيها مائتا الف، وورثت عن أمّها مائة ألف أيضاً.

- هذا يعني ثلاثمائة ألف! صرخ بطرس إيڤانيتش بهلع تقريباً.

- قال والدها اليوم، إنه سيضع الآن تحت تصرّفنا الكامل خمسمائة نفس، على أن ندفع له مقابل ذلك ثمانية آلاف روبل سنوياً. فهو يريدنا أن نعيش معه.

قفز بطرس إيڤانيتش عن كرسيّه بحيويّة غير معهودة بالنسبه له.

- كفى، كفى! - قال هو. - لقد صعَقْتني: هل سمعتُ بشكل صحيح كرّرْ: كم؟

- خمسمائة نفس وثلاثمائة ألف روبل . . . -كرّر ألكسندر.

twitter @baghdad_library

- لاتمزح؟

- كيف أمزح ياعمّاه؟

- والعقارات غير مرهونة؟ -سأل بطرس إيڤانيتش بصوتٍ خافت، دون أن يتحرك من مكانه.

-كلا.

شبك العمّ يديه فوق صدره، ونظر بضع دقائق إلى ابن أخيه باحترام.

- الجاه والثروة! -قال وهو يسرّ لنفسه تقريباً ويستمتع بالنظر إليه، - وأية ثروة! فجأة! كل شيء! . . . ياألكسندر، - أضاف هو بمهابة وفخار، - أنتَ من لحمي ودمي، أنتَ - أدوييف! هكذا يجب أن تكون، ضمّني إليك!

تعانقا.

- هذه أول مرة ياعماه! -قال ألكسندر.

- وآخر مرّة! - أجاب بطرس إيڤانيتش. - هذه مناسبة غير عادية هل يُعقل أن تكون غير محتاج الآن للمعدن الحقير؟ اطلبه منّي ولو مرّة واحدة. . . - آه! أنا محتاج ياعمّاه، لديّ كثيرٌ من المصاريف. أعطني عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف روبل، إنْ كنتَ تستطيع. . .

- أخيراً، ولأول مرّة! - هتف بطرس إيڤانيتش.

- ولآخر مرةٍ ياعمّاه: هذه مناسبة غير عادية! قال ألكسندر.

* * *

١٩٩٩/٢/١ط/٢٠٠٠

twitter @baghdad_library

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دِمَشق ١٩٩٩

سِعرُ النُّسخَة دَاخِل القُطر

٣٢٥ ل.س

في الأقطار العربيّة ما يُعادِل

١٥٠ ل.س

twitter @baghdad_library